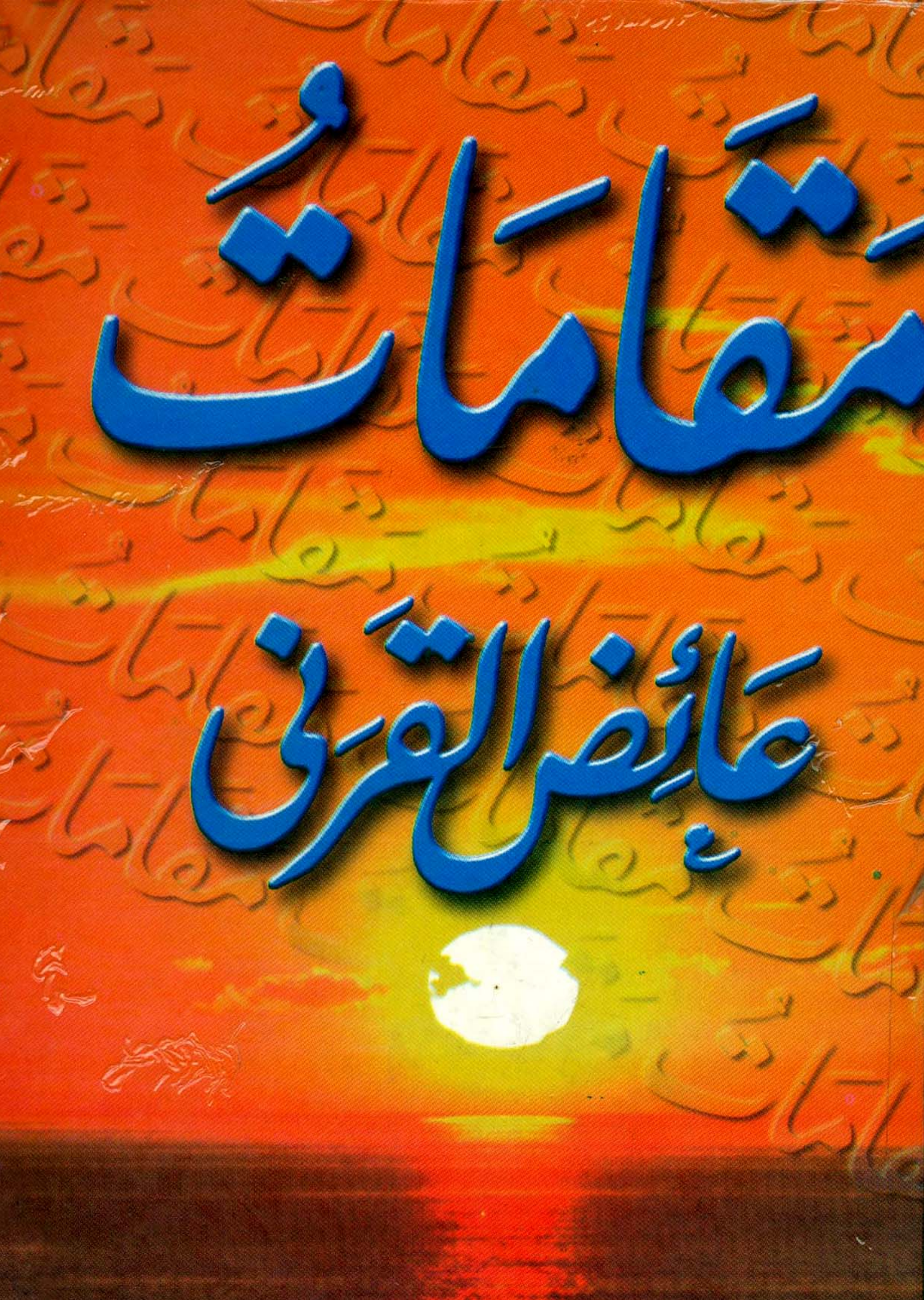


مكتبة الصحابة
الإمارات - الشارقة
ت: ٥٥١٥٥٧٥ - فاكس: ٥٣٧٤٥٤٤



جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

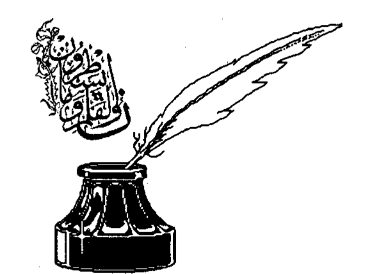
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

مكتبـة الصحـابـة

الإمـارات – الشارقة .
ت: ٥٥١٥٥٧٥ – فاكس: ٥٣٧٤٥٤٤

مكتبـة التابعيـن

القاهرة – عين شمس .
ت: ٤٩٣٨١٤٤ – فاكس: ٤٩٣٤٣٢٥



■ الفهرس ■

الموضوع | الصفحة

الإهداء

إِلَى رِحَـابِكَ دَبَّجْنَا رَسَـائِلَنَا

تَكَادُ تُحْرَقُ مِنْ أَشْوَاقِنَا لَهَبا

يَا قَارِئَ الْحَرْفِ أَهْدَيْنَاكَ أَحَرُفَنَا

وَقَبْلَهَا قَدْ بَعَثْنَا الدَّمَعَ مُنْسَكِبا

شَوْقًا إِلَيْكَ فَهَلْ تَرْضَى مَحَبَّتَنَا

مَهْراً وَإِلا بَعَثْنَا الْقَلْبَ والهدَبا

فَغَيْرُنَا بِمِدَادِ الْحِبْرِ قَدْ كَتَبُوا

وَمِنْ دِمَانَا كَتَبْنَا الشِّعْرَ وَالْخُطَبا

* * *

■ عُنْوَانُ المُؤَلِّف ■

أَنَا الْحِجَازُ أَنَا نَجْدٌ أَنَا يَمَنُ
أَنَا الْجَنُوبُ بِهَا دَمْعِي وَأَشْجَانِي
وَفِي رُبَى مَكَّةَ تَأْرِيخُ مَلْحَمَةٍ
عَلَى ثَرَاهَا بَنَيْنَا الْعَالَمِ الثَّانِي
فِي طيبة الْمُصْطَفَى عَهْدِي وَمَوْعِظَتِي
هُنَاكَ يُنْسَجُ تَارِيخِي وَعِرْفَانِي
بِالشَّامِ أَهْلِي وَبَغْدَادُ الهَوَى وَأَنَا
بِالرَّقْمَتَيْنِ وَبِالْفُسْطَاطِ جِيرَانِي
النِّيلُ مَائِي وَمِنْ عُمَانَ تَذْكِرَتِي
وَفِي الجَزَائِرِ إِخْوَانِي وَتَطْوَانِي
وَالْوَحْيِ مَدْرَسَتِي الْكُبْرَى وَغَارُ حِرَا
بِدَايَتِي وَبِهِ قَدْ شَعَّ قُرْآنِي
وَثِيقَتِي كُتِبَتْ فِي اللَّوحِ وَانْهَمَرَتْ
آيَاتُهَا فَاقْرَءوا يَا قَومِ عُنْوَانِي
فَأَيْنَمَا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ فِي بَلَدٍ
عَدَدْتُ ذَاكَ الْحِمَى مِنْ صُلْبِ أَوْطَانِي

حي الرحمانية - الرياض - ص ب ٣٧٩ - الرمز البريدي ١١٣٢١
ت : ٤١٩٥٣٩٨ - فاكس: ٤١٩٦٦٦٣ - جوال: ٠٥٤٢٢٢٠٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

▪ مقدمة المقامات ▪

﴿ بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾

الحمد لله وليّ النعمة ، دافع النقمة ، ما غرّد طائر بنغمة ، وهبّ صبح بنسمة، وتلألأت على ثغرٍ بسمة ، والصلاة والسلام على من زيّن ببيانه الكلام ، وأذهل بفصاحته الأنام، وطرق بوعظه الأيام ، سلالة النجب ، وصفوة العرب، أجلّ من خطب ، صاحب الحَسَبِ والنَّسَبِ ، محطم الأصنام والنصب ، وعلى آله والأصحاب ، ما لمع سراب ، وهمع سحاب ، وقرئ كتاب ، وبعد :

فقد أشار عليّ الشيخ الأريب ، والشاعر الأديب ، الدكتور / أحمد ابن علي القرني الأستاذ بالجامعة الإسلامية بكتابة مقامات ، هي على الفضل علامات ، فقلت له: صاحب ذلك قدْ مات ، ولم يبق إلا حاسد وشمّات .

فَذَكَّرني بشريط «مصارع العشّاق» ، وقال : كلٌّ لمثله مشتاق ، فإنه للقلوب ترياق ، وليس لك عذر ولو التفت الساق بالساق ، وأحضر لي من حرصه الدفاتر ، والخاطر قبل مجيئه فاتر ، فأجلت تفكيري ، وقد

اشتعل في ليل رأسي صبح نذيري ، وقد سبقني لهذا الهمداني والحريري، ولكن على الله المعوّل ، وكما قال الأول :

وَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً
لَكنتُ شَفَيْتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ
وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَ لِي البُكَا
بُكَاهَا فَكَانَ الفَضْلُ للمُتَقَدِّمِ

وقد قلت لصاحبنا لا جرم أنك استسمنت ذا ورم ، وهذه سنة أهل الكرم ، والخاطر شذر مذر ، من شجون لا تُبْقي ولا تَذَر ، ولا أقول بَعُدَت علينا الشُّقة ، ولكن كما قال أبو الطيب : لولا المشقة ، واعرف أن من البشر ، كشجرة العشر، أعدى من السوس ، وأشأم من البسوس، يأتي على غرة ، ويبحث عن العثرة ، ويقص الجُرّة ، ولو اعتذرت لنا عنده سبعين مرة .

فأقول للمادحين: كونوا ناصحين، وكما قيل: فعين الرضا، والمحب يمشي على جمر الغضا، وأقول للقادحين: كونوا مازحين، وتذكروا: وإذا أتتك مذمتي، واجعلوا الخطأ في ذمتي، فقد شابت لمتي، فإن عثر جواد بياني، وتَلَعْثَم لساني، فالعيب من زماني، فما أدركت حسّان، وما صاحبت سحبان، وما دخلت على النُّعْمَان، وما لقيت صنّاع الألفاظ في سوق عكاظ؛ ولكنني مع أقوام، على الأدب أيتام، كلما لمع فيهم متكلم وظهر، وقال: إن الله مبتليكم من البيان

بنهر، قالوا : إنما يُعَلِّمُهُ بشر ، ولولا سواه ما اشتهر، فيقول الحال: لكل عين قذى، ولن يضروكم إلا أذى، فجِدّوا كما جَدّوا، أو سُدوا المكان الذي سَدوا . فكم نال الحساد صاحب الأدب، وأنه ليس له في البلاغة نسب، وما له في الفصاحة حسب، وجاءوا على قميصه بدم كذب .

وكم انبعث من أهل البلادة أشقاها ، فصاح بهم رسول البيان ناقة الله وسقياها . وعسى عصا موسى البيان، تكسر رأس فرعون الطغيان .

وإذا ألقى قميص يوسف الملاحة ، على بصر يعقوب الفصاحة ، نادى لسان حال المتكلمين : ادخلوا مصر الإبداع آمنين . وقد طاولت بهذه المقامات قامات ، ولامست بها هامات ، وكلما قابلني هامّات وطامّات ، قلت : أعوذ بكلمات الله التامّات .

وسوف يقرؤها صاحب ورع بارد ، وذهن جامد فيتأفف ، ويتأسف، ويقول: الرجل تكلّف وتعسّف ، فأقول : ليس هذا بعشك يا حمامة فادرجي ، فقد جعلت القلم واللسان أوسي وخزرجي ، وعلمت أنه مع كل بانٍ هادم ، ومن راقب الناس فهو النادم ، وقد عاب المخلوق الخالقَ فقال تعالى : ﴿ يَسُبُّنِي ابْنُ آدَمَ ﴾ .

وإذا أراد الله لعمل بشر أن ينتشر ، قيض الله له أهل خير وشر ، فصاحب الخير له نصير ، وظهير ، وخفير ، ووزير . وصاحب الشر سبّاب عيّاب ، له من الحسد ناب ، وله من العداوة مخلاب .

وانظر إلى المعصوم ، كيف ابتلي بالخصوم ، شق الله له القمر ، فقالوا: هذا سحر مستمر ، ولما جمع قريشًا وخطبها ، قالوا: أساطير الأولين اكتتبها .

وأسأل الله أن يجعل هذه المقامات ، بكل فضل مُلِمَّات ، وأن يجعلها بالحسن رائعةٌ ، وبالفضل ذَائِعةٌ ، وبالبِرِّ شَائِعَةٌ ، وبِالأُنْسِ مَاتِعةٌ، وبِالنُّورِ ساطعةٌ ، وبالجَمَالِ لامعة ، ولكلِّ خَير جَامعةٌ ، وعن كل سوء مانعةٌ ، وللجدل قاطعةٌ .

مُحَلاة بالفوائدِ ، مُزينة بالقلائد ، متوجّة بالفَرَائِد ، مزدانة بالشَّوارد، كالماء الزلال لكل صادر ووارد ، تضمرها العقائد ، وتنشرها القصائد ، وصلى الله وسلم على صَفْوَةِ الحواضر والبوادي ، الذي تَشَرَّفَت بِذِكْرِه النَّوادي ، فهو الهادي ، وإلى كل فضل منادي ، وعلى آله البررة ، والأربعة الخيرة ، وبقية العشرة ، وأهل الشجرة .

الرياض: ١ / ١ / ١٤٢٠هـ

* * *

بين يـدي المقـامـات

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾

إلهي : أسـألك بالاسم الأعـظم ، والوصف الأكـرم ، أن تُنِيـرَ لي الطريق المظلم . أسألـك نعمةً تَدْفَعُ بها نِقْـمَةً ، وعِلْمًا تؤيده رَحْـمة ، وموهبة تقيدها حكمــة ، وأملاً يدفع اليَأْسَ ، ورعاية ترد البأس ، اللَّهُمَّ ارحمِ العَبْرة، وأَقِلِ العَثْرَةَ، وأزل الحَسْرَةَ ، وَاكْشِفْ عنَّا حُجُب الضَّلالَةِ، وسحب الجهالة ، حتى نُبْصِرَ آيات عظـمتك بعيون اليقين ، ونَقْرَأ أسْطر صنعك ببـصائر المـوحدين، اللَّهُمَّ أيدنا بعـزِّ سُلْطَانِكَ ، وأكرمنا بـفهم بُرْهَانك، أعوذُ بِـكَ من زَلّة ، توجب ذِلّةٍ ، وَعَثْرَةِ قـدمٍ تُوجِبُ الندم ، ونسألكَ إخلاصَ النيةِ ، وكـرم الطَّوية ، وندعوكَ بِلِسَانِ الاضطرار ، أن تفتح لحكمتك منا الأسماع والأبصار ، وأن تُنِيرَ بِوَحْيِكَ مُظْلمَ الأفكارِ ، وما اسودَّ من الأسرار .

وبعـد : فقد سبقني إلى هذا الفن أعلام ، لهم في الحكمة أقدام ، وفي حومة البيان أعلام ، وفي طروس الفصاحة أقلام . فمنهم من خَصَّ بمقـاماته الأدب ، وثانٍ في ذكـر من ذهب ، وثالثٌ في الحب ، ورابعٌ في الطب . أما أنا فـأطلقت للقلم زِمَامَه ، وسَـرَّحت خطامه ، وأزحتُ لِثَـامَهُ، لِيكْتُبَ في فنون ، ويـسيل في شُـجُون ، ذاكـرًا من سلف ومن خلف آخـذًا من كُلِّ حكمـة بطرف ، وربمـا لمحت في الـمقـال بعض

الخيال ، فلا تُبدِ لنا قسوة ، فلي في ذلك أسوة ، فإن الأمم استنطقت الجمادات ، واستفهمت العجماوات ، وقوّلت الكلامَ الحيوانات، وكلّمت الأطلال، ونسبت الحديث إلى الشَّجَرِ والتِّلالِ، تَعْرِيضًا وتَلْمِيحًا، ونِسْبة وتصريحًا .

وللعجم من ذلك ما يُبْهِرُ ، ككتب بزجر جمهر ، وللروم في ذلك تآليف ، وللهنود في هذا الفن تصانيف ، ورأيت كتب اليونان ، وصاحب الإيوان ، والمانوية من أسلاف اليابان ، كلها تنسب القول للحيوان ، وتضيف وتنقل الخطاب بغير الإنسان ، حُبًّا للسلامة ، وخوفًا من الندامة .

ثم جاء العرب ، روّاد الأدب ، فَأطْرَبُونَا بكلامِ الحمامِ ، في الحُبِّ والغرامِ ، ونَقَلُوا في الأمالي ، عتاب الطَّلَلِ البالي ، وأتحفونا بحِوارِ الأَطْيَارِ ، وإِظْهَار أسرار الدِّيَار ، حتى أسندوا الأخبار للأشجار .

فيا صاحب الدِّراية ، إنْ رأيتَ في هذه المقامات رواية ، فقد قَصَدت النَّفْعَ ، ومن استطاع أن ينفع أخاه فليفعل ، وقد أَحلْتُكَ على ما سلف، ومن أحيل على مليء فليحتل.

وقد جانبتُ في هذه المقامات التَّجْرِيحَ ، سَوَاءً بِالتَّلْمِيحِ أَوْ بِالتَّصْرِيحِ، ودَبَّجْتُهَا بالثَّنَاءِ والمديح، لأن القولَ اللينَ، والخلقَ الهين، يَجْلِبُ الوُدَّ، ويُزِيلُ الصَدَّ، وكَسْرُ القُلُوبِ غَلَطٌ ، وجرح المخاطَب شَطَطٌ ، فهنا ملاينة لا مداهنة ، ولَيسَ الخبر كالمعاينةِ ، ومُدَارَاة لا مُجَاراة ، ولي في هذه المقامات رَسَائِل ، وَمِنَ العِلْمِ مَسَائِل .

وفيها عِبَرٌ وسِيَر ، وأشعارٌ وأخبارٌ ، وشُجون وفنون ، وفُكَاهات ومُلاطفات ، ومُشْجِيات ومُبْكِيات ، ومحفوظات وعظات ، فلا تحكم بمقامة على كل المقامات ، بَلْ طَالِع الجميعَ ليكونَ حُكْمُك مواتٍ ، فَإِنَّ الرَّوْضَ ألوانٌ ، والشَّجَرُ صِنْوانٌ وغيرُ صِنْوَانِ ، والتنويع مدعاة لإثارة الذِّهْنِ البارد ، ولن نصبر على طعام واحد .

وقد جَانَبْتُ فيها الهمزَ ، والغمزَ واللمزَ ، فلا مَصْلَحَة لنا في التعرض للأشْخَاصِ والأجناسِ ، أو تتبع عَثَرَات النَّاس ، بل نحن أحوج إلى جَبْرِ القلوب ، ودفن العيوبِ ، لأنَّ مرد الكُلِّ إلى عَلاّم الغيوبِ ، وَمْن وَجَدَ نَقْصًا فليعفُ عنَّا ، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا .

خُذْهَا مِنَ القَلْبِ لَوْ أَنَّ الدُّجَى صَبَغَتْ
ثِيَابَه بِسَنَاهَا المُشْرِقِ الغَالِي
لِصَارَ نُورًا كَأَنَّ الشَّمْسَ طَلْعَتُهَا
وَالبَدْرُ وَمْضَتُهَا فِي حُسْنِ إِجْلالِي

وقد قرأت هذه المقامات على علماء وأدباء ، وشعراء وفضلاء ، طلبًا للاستفادة ، وحرصًا على الزيادة ، وقد استفدت من كل جمع ضم مجلسنا ، وشاورت كل صاحبٍ كان يُؤْنِسُنَا ، لأن مُشَاوَرَةَ الأَخْيَارِ، تَلْقِيحٌ للأفكارِ ، وفي يوم الثلاثاء ٢١/ ٥/ ١٤٢٠هـ اجتمعنا بشيخنا العلامة الفطين ، صاحب «الدر الثمين» ، **محمد الصالح بن عثيمين** ، وكان اللقاء في الرياض ، والأُنْسُ قَدْ فَاضَ ، فقرأتُ عليه مقدمة

المقامـات ، فاستحسن مـا أوردته من كلماتٍ ، ثم قرأتُ عليه المـقامة النَّحْوِيَّةَ ، وبها لَـطَائِفُ نَدِيَّة ، فأضاف بعض الإضافات، وأتحـفنا ببيت من المحفـوظات ، نقلته في تلك المقامة ، من ذلك العـلاّمة ، وقرأت المقـامة الأمـريكية على شـيخنا العـلامة **عبـد الله بن جبـرين** فكان من المعجبين، وذَكَّرَنَا بما قـاله الحريري واليازجي من الأدباء البارعين، وقد كتبت هذه المقامات في أربعةِ أشهر متواليات، والفضل كله لرب الأرض والسمـوات ، وتركت ذِكْرَ الـمراجع خوفًـا من الإثقال، وأعـرضت عن الحواشي لتلافي الإملال ، وعسى ربي أن يَنْفَعَني بما كتبت ، وأنْ يحقق لي ما أَمَّلْتُ ، من الفوز بِرِضْوَانِهِ ، وسكنى جنانه ، فـقد اتَّصَفَ بالعَفْوِ وكتبه ، ورحمته سبقت غضبه :

وَلَوْ سُفِكَتْ مِنَّا الدِّمَاءَ بِحُبِّكُمُ

لَطِرْنَا مَعَ الأَشْوَاقِ مِنْ لَذَّةِ القَتْلِ

* * *

▪ مقامة التوحيد ▪

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الإِلَهُ
أَمْ كَيْـــفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ؟
وَفِي كُــلِّ شَــيْءٍ لَــهُ آيَــةٌ
تَـــدُلُّ عَـلَى أَنَّــهُ وَاحِــدُ

التوحيد ، هو حقُّ الله على العبيد ، وهو أول ما دعا إليه الرسل ، وبه كل كتاب نزل ، وهو أصل الأصول ، والطَّرِيقُ للوصول ، وبه عرف المعبود ، وعمر الوجود ، ولأجله أُعِدَّت الجنة والنار ، وسل السيف البتار ، وقوتل الكفار ، ولإقامته في الأرض دعت الأنبياء ، وعلمت العلماء ، وقُتِل الشهداء ، وهو أول مَطْلوبٍ ، وأَعْظَم محبوب ، وهو أشرف المقاصد، وأعذب الموارد ، وأجَلُّ الأعمال ، وأحسن الأقوال ، وهو أول الأبوابِ ، وبداية الكتاب ، وأعظم القضايا ، وأهم الوصايا ، وخير زاد ، يحمله العباد ، ليوم التَّنَاد ، وهو قُرَّةُ عيون الموحدين ، وبهجة صدور العابدين ، وهو غاية الآمال ، وأنبل الخصال ، بل هو أعظم الكَفَّارات ، وأرفع الدرجات ، وأكبر الحسنات ، وهو منشور الولاية ، وتاج الرعاية ، والبداية والنهاية ، وهو الإكسير الذي إذا وضع

على جبال الخطايا ذابت، والسلاح الذي إذا حوربت به الأعداء هَابت .

وعلى هذا حديث « **يَا ابن آدَم لَوْ أَتَيْتَني بِقُرابِ الأرض خَطَايَا ثُمَّ جِئْتَني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً** » .

وهو الذي هز في طرفة عين قلوب السحرة ، فقالوا بعزم ماض : اقض مَا أنت قاض ، والمرأة التي سقت الكلب ، فغفر لها الذنب ، كان معها توحيد الرَّبِّ ، والرجل الذي قتل مائة رجل ، وذهب إلى القرية على عَجَل ، فأدركه الأجل ، غفر له بتوحيد عز وجل . والتوحيد هو الكنْزُ الجليل الذي كان في قلب الخليل ، فقال لما شاهد الكرب الثقيل: حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكيل .

ولما قال الصدّيق في الغار ، لسيد الأبرار ، لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمَا لرآنا ولسمعنا ، قال : ﴿ **لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ ، إنما قال ذلك بلسان الموحد ، وقد سُدِّدَ بتوفيق الله وأُيِّدَ .

وما فلق الله البحر للكليم ، إلا لأنه صاحب توحيد عظيم ، ونهج كريم ، ولو وضعت السموات والأرض في كِفَّةِ الميزان ، ولا إله إلا الله في كفة لكان لها الرُّجْحَانُ، ولو كانت في حلقة حديد لفصمتها، وفي صخرة لَفَجَّرتها ، ولا إله إلا الله مفتاح الجنان ، وله أسنان، من الواجبات والأركان، وصاحبها لا يُخَلَّدُ في النارِ، ولا يلحق بالكفار، وقد قالوا لأحد العلماء وقد سجن، وفي سبيل هذه الكلمة ذاق المحن ، قل كلمة التوحيد، قال: من أجلها وضعت في الحديد ، وقالوا لأحد

الأولياء وقد رفع على خشبة الموت ، وقرب منه الفوت ، قل لا إله إلا الله ولا تغفل ، قال : من أجلها أُقْتَلُ .

وسمع أحد الصالحين رجلاً يقول **لا إله إلا الله** ومد بها صوته فبكى وقال :

وَإِنِّي لَتَعْـرُونِي لِـذِكْـرَك هِـزَّةٌ
كَمَا انْتَفَضَ العُصْفُورُ بَلَّلَهُ القَطْرُ

وسمع أحـد العلماء رجـلاً يقول : **لا إله إلا الله** ، قال : صَـدَقْتَ وبالحق نطقت .

فيا أيَّها العِبادُ خذوا من التوحيد قَطْرَةً ، وضعوه على الفطْرَةِ ، وولّوا وجـوهكم شَطْره . ويا من أثقلـه الهم ، وأحـاط به الغَمُّ ، وهزه الألَمُ الجَمُّ ، قل **لا إله إلا الله** .

ويا من أثقلته الديون ، أو غيبته الشجون ، وبات وهو محزون ، قل **لا إله إلا الله** . ويا من اشتدَّ به الكُرَب ، وعلاه الخَطْبُ ، اذكر الربَّ ، وقل **لا إله إلا الله** .

هِيَ أَجْمَلُ الكَلِمَاتِ قُلْهَا كُلَّما
ضَجَّ الفُـؤَادُ وَضَاقَتِ الأَزْمَـانُ

اقرأها بعين الروح ، قـبل أن تقرأها بعينك في اللوح ، واكتـبها في سويداء قلبك ، لتحملها إلى ربك ، وتتخلص من ذنبك .

ولما قيل لفرعون ، قل **لا إله إلا الله** ، تلعثم الحمار وتعثر ، فدس أنفــه في الطين وتـدثر . وقيــل لأبي لهب **قل لا إله إلا الله** ، قــال الخسيس: أبى علي الجليـس ، والأخ الرئيس ، إبليس . تَقَيَّـأ شَاعِـرُ البعثِ المخذول ، ليقول :

آمَنْتُ بِالبَعْثِ رَبًّا لا شَرِيكَ لَهُ

وَبالعُـرُوبَةِ دِينًا مَا لَـهُ ثَانِـي

قلنا يا شـاعر البعث ، وعـزة ربي ليخـزينك يوم البعث . يا شـاعر الخمر والحشيشة ، قد أرغم أنفك أبو ريشة ، فقال :

أُمَّتِـي كَـمْ صَنَـمٍ مَجَّـدْتـهُ

لَمْ يَكُنْ يَحْمِلُ طُهْرَ الصَّنَمِ

من يأخذ تعاليمه من باريس ، حشر مع شيخه إبليس .

يا مسكين ، تتعلم حروف الهجـاء من بكين ، وتهجر رسالة نزل بها الروح الأمين ، على سيد المرسلين ، من رب العالمين .

يرضع الوليـد حليب التـوحيـد ، حـتى يأتيه الحـليب الصناعي من مدريد، ليرتد المريد .

صوت التوحيد يرتفع على كل صـوت ، وقوته خير من كل قوت ، لخصه أبو بكر فقـالَ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ محمدًا فإن مـحمدًا قد مات ، وَمَنْ كان يَعْبُدُ اللهَ فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموت.

لولا أن كلمة أَحَد ، في قلب بلال مثل جبل أُحُد ، مَا صَمَد .

التوحيد له كتاب ، وله قلم جذّاب ، ومداد جميل ، وكاتب جليل، فكتابه الكون وما فيه ، وقلمه قلبك النبيه ، ومداده دمعك المترقرق ، والكاتب إيمانك المتدفق .

التوحيد له رسالة أبدية ، ودعوة سَرْمَدِيَّةٌ ، ولأصحابه إلى مستقرهم ممر ، وبعد مرورهم مستقر . فرسالة التوحيد إفراد الباري بالألوهية ، والربوبية ، ودعوته اتباع سيد البشرية ، ورسول الإنسانية . وممر أصحابه الصراط المستقيم ، ومستقرهم جنات النعيم .

للتوحيد منبر، ومخبر ومظهر، ومسك وعنبر . فَمنبره القلب ، إذا أخلص للرب، **ومَخْبَره** النيات الصالحات ، **وَمَظْهَره** عمل بالأركان ، وخدمة للديان ، **وَمِسْكه** الدعاء والأذكار ، **وَعَنْبَرُهُ** التوبة والاستغفار .

للتوحيد عين وبستان ، **وَحَرَسٌ وَسُلْطَان ، وَسَيْفٌ وَمَيْدَان . فعينه** النصوص الواضحه ، وبستانه الأعمال الصالحة ، وحرسه الخوف والرجاء، **وَسُلْطَانه** واعظ الله في القلب صباح مساء ، **وَسَيْفُه** الجهاد ، **وَمَيدَانه** حركات العباد .

وللتوحيد قضاة وشهود ، وأعلام وجنود ، وحدود وقيود . فقضاته الرسل الكرام ، **وشهوده** العلماء الأعلام، **وأعلامه** شعائر الدين، **وجنوده** فَيْلَق من الموحدين، **وحدوده** ما جاء به الخبر، وصح به الأثر، **وقيوده** ما ورد من شروط ، للتوحيد المضبوط .

من دعائم التوحيد ، عدم صرف شيء من العبادة لغير المعبود ، وتحريم تقديم شيء من لوازم الألوهية لغير الله مما في الوجود ، وركيزته إخلاص ليس فيه رياء ، وعلامته إِخبَاتٌ ليس معه ادِّعَاء .

فلا تُعبد النجوم ولكن يُعبد مُركبها ، ولا تعبد الكواكب بل يعبد مكوكبها ، ولا يُؤلّه حجر ، ولا بشر ، ولا شجر ، ولا مدر ، بل يؤلّه من فجر من الحجر الماء ، وأوجد الأحياء ، وخلق الشجر كأنها أصابع الأولياء ، فسبحان رب الأرض والسماء .

الوحي هَزَّ أبا جهل هزّاً ، لأنه يتهزّى ، وسجد للاّت والعُزى . قاتل الله هُبَل ، وَمَنْ طاف حوله ورَمَل ، أو نذر له أيّ عمل ، يا من خاف على نفسه من الحريق ، والدمار والتمزيق ، احذر من الشرك ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ إذا أخلصت التوحيد جاءك النصر ، وادخر لك الأجر، ومحا عنك الوزر .

سمع أحد العباد قارئًا يتلو: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ ، فقال أواه، وارتفع بكاه ، وكان أحد الملوك الصالحين، يسمع أحد القراء يقرأ بتلحين ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فجلس يبكي ويقول: وأنا أشهد مع الشاهدين .

قال أبو معاذ الرازي ، لو تكلمت الأحجار ، ونطقت الأشجار ، وخطبت الأطيار، لقالت: لا إله إلا الله الملك القهار . ولما قال فرعون

اللعين : ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ قال : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ ، فكأنما لكمه بالجواب ، ولطمه بالخطاب . ولما قال إمام التوحيد للنمرود العنيد ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ ، بُهِتَ وكُذّب ، وخسر وعُذّب ، وهذا لظهور آيات التوحيد وقوة سلطانه ، وعزة أهله وأعوانه ، وقد صبغ يحيى بن زكريا التوحيد بدمائه، ومزج حمزة التوحيد بأشلائه ، ولما ذاقه جعفر ، تقطع وبالرمل تعفر ، وذبح الخلفاء على بساطه، وضرب الأئمة على التوحيد بأيدي الظلم وسياطه ، ونحر الشهداء على فراش التوحيد وبلاطه ، وكم من موحد وضع في الزنزانة ، لما أعلن إيمانه .

ولما نطق حبيب بن زيد ، بكلمة التوحيد ، عند مسيلمة الكذاب العنيد . قطّعه بالسيف فما أنَّ ، ولا قال له تأنَّ ، بل اشتاق إلى الجنة وحنَّ ، ولما ذهبوا بعبد الله بن حذافة إلى القدور، والجثث فيها تدور ، والتوحيد في قلبه يمور ، بكى وقال : يا ليت أن لي بعدد شعر رأسي أرواحًا ، لتذوق في سبيل الله سيوفًا ورماحًا .

وضرب طلحة يوم أحد بالسيوف والرماح ، فما شكى ولا صاح ، حتى سال بالدم جبينه، وشُلَّت يمينه ، وثبت دينه ، لأن التوحيد قرينه . وقاتل مصعب قتال الأسودِ ، حتى وُسِّدَ اللحود ، لأنه وَحَّد المعبود . ولما حضر عبد الله بن جحش معركة أحد ، دعا واجتهد ، بكلام يبقى إلى الأبد ، فقال : اللهم هيِّئ لي عدواً لك شديد حرده ، قوي بأسه ،

فيقتلني فيك فيجدع أنفي ، ويبقر بطني ، ويفقأ عيني ، ويقطع أذني ، فإذا لقيتك يا رب فقلت لي : يا عبد الله لِمَ فُعِلَ بك هذا ؟ قلت : فيك يا رب . فهل سمعت نشيداً كهذا النشيد ، وهل أطربك قصيداً كهذا القصيد ، لأنه من ديوان التوحيد .

وضع أحدُ الظلمة أحدَ الأولياء ، بين يدي الأسد ليتركه أشلاء ، شمّه الأسد ثم تركه وذهب ، قيل للولي : لماذا تركك ؟ قال : بسبب التوحيد وهو أعظم سبب ، قالوا : فماذا كنت تفكر ؟ قال : كنت أفكر في سؤر الأسد هل هو طاهر أم نجس لا يطهر .

واعلم أن صدق التوحيد أقام بعض الأولياء ، في الليلة الظلماء ، في ذروة الشتاء ، يتوضأ بالماء ، ويقطع الليل بالصلاة والدعاء ، والمناجاة والبكاء ، وحرارة التوحيد أيقظت في الصالحين ، ذكر الله كُلَّ حين ، فلهم بالتسبيح زَجَلٌ وحنينٌ ، وعزيمة التوحيد دفعت المنفقين ، وجعلتهم بأموالهم متصدقين ، على الفقراء والمساكين .

إذا ناداك نوح التوحيد ، وقال اركب معنا أيها العبد الرشيد ، فلا تفوتك سفينة الحميد المجيد ، وَجَدَ إبراهيم بن أدهم ورقة مكتوب فيها الله، وقد سقطت في الطريق فبكى وحملها ، وطهرها وطيبها ، فطهر الله نفسه ، وطيّب اسمه ، وقد أوصى ﷺ معاذ بن جبل ، أن يكون أَوَّلَ ما يدعو إليه توحيد الله عز وجل . وكان يبدأ بالتوحيد خطبه ، ويخط به كتبه ، ويدعو إليه ليلاً ونهاراً ، وسرًّا وجهاراً .

المقامة الإلهية

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا ﴾

« سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ »

تَأَمَّلْ فِي نَبَاتِ الأَرْضِ وَانْظُرْ
إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ المَلِيكُ
عُيونٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ
بِأَحْدَاقٍ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ
عَلَى قَضَبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٍ
بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

الله رحيم لطيف ، الله بيده الأمر والتصريف ، الله أعرف المعارف لا يحتاج إلى تعريف ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، ولا نرجو سواه ، عظيم السُّلْطان والجاه ، أفلح من دعاه ، وسعد من رجاه ، وفاز من تولاه ، سبحان من خلق وهدى ، ولم يخلق الخلق سُدى ، عظم سلْطانه ، ارتفع ميزانه ، وجمل إحسانه ، كثر امتنانه .

إِلَيْكَ وإِلاَّ لا تُشَدُّ الرَّكَائِبُ
وَمِنْكَ وَإِلا فَالْمُؤَوِّلُ خَائِبُ
وَفِيكَ وَإِلا فَالغَرام مُضَيَّعٌ
وَعَنْكَ وَإِلا فَالمُحَدِّثُ كَاذِبُ

علام الغيـوب ، غَفَّار الذنوب ، ستار العـيوب ، كاشف الكُروب ، ميسـر الخطوب ، مقدر المكتوب ، عَظُمَت بركاته ، حَسُنَت صفاته ، بَهَرَت آياته ، أعجزت بيناته ، أفحمت معجزاته ، جَلَّت أسماؤه ، عمت آلاؤه ، امتلأت بحمده أرضه وسمـاؤه ، كثرت نعماؤه ، حسن بلاؤه . ما أحسن قيله ، ما أجمل تفصيله ، ما أبهى تنـزيله ، ما أسرع تسهيله ، ليس إلا الخضوع له وسيلة ، وليس لما يقضيه حيلة .

قَدْ كُنْتَ أَشْفَقَ مِنْ دَمْعي عَلَى بَصَرِي
فَاليــومَ كُـلُّ عَــزِيزٍ بَعْــدَكُمْ هَـانَا
واللهِ مَا ذَكَــرَتْ نَفْسِــي مَعَاهِدَكُمْ
إِلاَّ رَأَيْـــتُ دُمَـــوعَ العَيْـــنِ هَتَّـانَـا

يسقــي ويطعم ، يقضي ويحكم ، ينسخ ويبـرم ، يقصم ويـفصم ، يهين ويـكرم ، يروي ويشبع ، يصل ويقطع ، يعطي ويمنـع ، يخفض ويرفع ، يرى ويسمع ، ينصر ويقمع وليّه مأجور ، والسعي إليه مبرور ، والعمل له مشكور ، وحـزبه منصور ، وعدوه مدحور وخصمـه مبتور ، يسحق الطغاة ، يمحق العصاة ، يدمر العتاة ، يمزق من آذاه .

سُبْحَانَ مَن لَوْ سَجَدْنَا بِالجِبَـــاه لَـهُ
عَلَى لَظَى الجَمْرِ والمَحْمِي مِنَ الإِبَـرِ
لَمْ تَبْلُغِ العُشْــرَ مِنْ مِقْـدَارِ نِعْمَتِه
وَلاَ العُشَيـر وَلَوْ عُشْــر مِـنَ العُشْـرِ

مَن انتصَر به ما ذَلَّ ، ومن اهتدى بهداه ما ضَلَّ ، ومن اتَّقَاه ما زَلَّ، ومن طلب غناه ما قَلَّ ، له الكبرياء والجبروت عز وجل .تم كماله ، حسن جماله ، تقدس جلاله ، كرمت أفعاله ، أصابت أقواله ، نصر أولياءَه ، خذل أعداءَه ، قرّب أحباءَه . اطلع فستر ، علم فغفر ، حلم بعد أن قدر ، زاد من شكر ، ذكر من ذكر ، قصم من كفر .

يَا رَبِّ أولَّ شَيْءٍ قَالَهُ خُلْدِي
أَنِّي ذَكَرْتُكَ فِي سِرِّي وَإِعْلانِي
فَوَالَّذِي قَدْ هَدَى قَلْبِي لِطَاعَته
لأُذْهِبَنَّ بِوَحْي مِنْكَ أَحْزَانِي

لو أن الأقلام هي الشجر ، والمداد هو المطر، والكَتَبَةُ هُمُ البشر، ثم أثنى عليه بالمدح من شكر ، لما بلغوا ذَرَّةً مما يستحقه جل في علاه وقهر . أعْمِرْ جَنَانَكَ بِحُبِّه ، أصلحْ زمانكَ بقربهِ ، اشغلْ لسانكَ بمديحهِ، احفظْ وقتكَ بتسبيحهِ . العزيز من حماه ، المحظوظ من اجتباه، الغني من أغناه، السعيد من تولاه ، المحفوظ من رعاه . أرسل الرسل، أفنى الدول، هدى السبيل، أبرم الحيل، غفر الزلل، شفى العلل، ستر الخلل .

مَهْمَا كَتَبْنَا فِي عُلاكَ قَصَائِداً
بِالدَّمْعِ خَطَّت أَوْ دمِ الأَجْفَانِ

فَلأنْتَ أَعْظَمُ مِنْ مَدِيحي كُله

وأَجَـلُّ مـمَّا دَارَ فِي الحُـسْبَـانِ

في حبك عُذِّبَ بلال بن رباح ، وفي سـبيلك هانت الجراح ، لدى عبيدة بن الجراح، ومن أجلك عَـرَّض مصعب صدره للرماح . ولإعلاء كلمتك قطعت يدا جعفر ، وتَجَنْدَلَ على التـراب وتعفر ، ومزق عكرمة في حرب بني الأصـفر . أحبك حنظلة فـترك عرسـه ، وأهدى رأسه ، وقدّم نفسه ، وأحبك سعد بن معـاذ فاستعذب فيك البلاء ، وجرت منه الدماء ، وشيعته الملائكة الكرماء ، واهتز له العرش من فوق السماء .

وأحبك حمزة سيد الشهـداء، فصال في الهيجاء، ونازل الأعداء، ثم سَلَّمَ رَوحَهُ ثمنًا للجنة هاء وهاء. من أجلك سـهرت عيون المتـهجدين، وتعـبت أقدام الـعابدين، وانْحَنَـت ظهور السـاجـدين، وحلقت رءوس الحـجاج والمـعـتمـرين، وجـاعت بطون الصائـمين، وطارت نفـوس المجاهدين .

يَا رَبِّي حَمْدًا لَيْسَ غَيْرُكَ يُحْمَـدُ

يَـا مَنْ لَـهُ كُلُّ الخَلائِق تَصْمُـدُ

أَبْـوابُ كُلِّ مَمْلَكٍ قَدْ أُوصِدَت

وَرَأَيْـتُ بَابَكَ وَاسِـعًا لا يُوصَـدُ

أقلام العلماء ، تكتب فـيه الثناء ، صباح مساء ، الرمـاح في ساحة

الجهاد ، والسيوف الحداد ، ترفع اسمه على رءوس الأشهاد ، جل عن الأنداد والأضداد .

للمساجدِ دوي بذكره ، للطيور تغريد بشكره ، وللملائكة نزول بأمره، حارت الأفكار في علو قدره ، وتمام قهره .

من أجلك هاجر أبو بكر الصديق وترك عياله ، ولمرضاتك أنفق أمواله وأعماله ، وفي محبتك قتل الفاروق ومزق ، وفي سبيلك دمه تدفق ، ومن خشيتك دمعه ترقرق . ودفع عثمان أمواله لترضى ، فما ترك مالاً ولا أرضًا ، جعلها عندك قرضًا . وقدَّم عليٌّ رأسه لمرضاتك في المسجد وهو يتهجد ، وفي بيتك يتعبد فما تردد .

أَرْوَاحُنَا يَا رَبِّ فَوْقَ أَكُفِّنَا

نَرْجُو ثَوَابكَ مَغْنَمًا وَجِوَارًا

لَمْ نَخْشَ طَاغُوتًا يُحَارِبُنَا وَلَوْ

نَصَبَ المَنَايَا حَوْلَنَا أَسْوَارًا

كُنَّا نَرَى الأَصْنَامَ مِنْ ذَهَبٍ

فَنَهْدِمُهَا وَنَهْدِمُ فَوْقَهَا الكُفَّارا

تفرَّدت بالبقاء ، وكتبت على غيرك الفناء ، لك العزة والكبرياء ، ولك أجلُّ الصفات وأحسن الأسماء . أنت عالم الغيب، البريء من كل

عيب، تكتب المقـدور، وتعلم ما في الصدور ، وتبعثر مـا في القبور، وأنت الحاكم يوم النشور . ملكك عظيم، جنابك كريم ، نهجك قويم، أخذك أليم ، وأنت الرحيم الحليم الكريم .

مَنِ الذي سألك فـما أعطيته ، والذي دعـاك فما لبيـته ، ومَنِ الذي استنصـرك فما نصـرته ، ومَنِ الذي حاربك فـما خذلتـه . لا عيب في أسمائك لأنها حسنى، لا نقص في صفاتك لأنها عُلْيا . حي لا تموت، حاضـر لا تفوت ، لا تحتـاج إلى القوت ، لك الكبرياء والجـبروت ، والعزة والملكوت .

لَـوْ أَنَّ أَنْفَـاسَ العِبَـادِ قَصَـائِـدٌ

حَفِلَتْ بِمَدْحِـكَ فِي جَلالِ عُلاكَـا

مَا أَدْرَكَـتْ مَا تَسْتَحِـقُّ وَقَصَّـرَتْ

عَنْ مَجْدِكَ الأَسْمَى وَحُسْنِ سَنَاكَا

كسـرت ظهور الأكاسـرة ، قصّرت آمال القـياصرة ، هدمت مـعاقل الجبـابرة ، وأرديتهم في الحـافرة . مَنْ أطاعك أكـرمته ، مـن خالفك أدّبته، من عاداك سحقته ، مَنْ نادّك محقته ، من صادّك مزّقته .

تصمد إليك الكائنات ، تعنو إليك المخلوقات ، تجيب الدعوات ، بشتى اللغـات ، وبمخـتلف اللهجات ، على تـعدد الحاجـات ، تفرج الكربات ، تظهـر الآيات ، تعلم النيـات وتظهـر الخـفيـات ، تحـيي

الأمـــوات. دعـاك الخليل وقـد وضع فـي المنجنيـق ، وأوشك على الحريق، ولم يجد لسواك طريق ، فلما قال : حَسْبُنَا الله ونِعم الوَكيل ، صـارت النَّار عليـه بردًا وسـلامًـا في ظلٍّ ظليل ، بقـدرتك يا جليل . وفلقت البحر للكليم ، وقد فر من فرعون الأثيم ، فمهدت له في الماء الطريق المستـقيم. ودعاك المختار ، في الغار ، لمـا أحاط به الكفار ، فحميته من الأشرار ، وحفظته من الفجار . قريب تجيب كل حبيب .

مَا أَنْتَ بِالسَّبَبِ الضَّعِيفِ وَإِنَّمَا
أَنْـتَ القَـويُّ الـوَاحِـدُ القَهَّـارُ
مَا خَـابَ مَـنْ يَرْجُوكَ عِنْدَ مُلِمَّةٍ
صَمَـدَتْ إِلَيْكَ البَـدْو والحضَّارُ

لو أن الثناء ، لرب الأرض والسـماء ، كـتب بدماء الأوليـاء ، على خدود الأحياء ، لقرأت في تلك الخدود ، صحائف من مدح المعبود ، صاحب الجود ، بلا حدود ..

ألسنة الخلق أقلام الحق، فما لـها لا تنطق بالصدق ، وتوحده بذاك النطق . لا تمن عليـه دمعة في مـحراب، فقـد مزق من أجله عـمر بن الخطاب، ما لك إلى عبـادتك الزهيدة تشير، وقد نشر الأوليـاء في حبه بالمناشير .

فاز بـلال لأنه ردَّدَ أَحَدٌ أَحَـدٌ ، ودخل رجل الجنة لأنَّه أَحَبَّ قُلْ هو

اللهُ أَحَد ، ومدح سبحانه نفسه فقال : الله الصمد ، ورد على المشركين فقال : لم يلد ولم يولد .

سبحان من تحدى بالذُّبَابِ المشركين ، وضرب العنكبوت مثلاً للضالين، وذكر خلقه للبعوض إِزراءً بالكافرين ، وحمل الهدهد رسالة التوحيد فجاء بخبرٍ يقين ، وأهلك ناقه أعدائه المعارضين . خلق الأبرار والفجار ، والمسلمين والكفار ، والليل والنهار ، والجنة والنار ، وأنزل كل شيء بمقدار . في القرآن برهانه ، في الكائنات امتنانه ، للمؤمنين إحسانه ، في الجنة رضوانه ، عَمَّ الكون سلطانه ، اللهم يا ذا العرش المجيد ، أنت المبدئ المعيد ، أنت الفعال لما تريد ، أنت ذا البطش الشديد، لا ضِدَّ لك ولا نَدِيد ، كورت الليل والنهار ، وجعلت النور في الأبصار ، وَحَبَّبْتَ العبادة إلى الأبرار ، وأجريت الماء في الأشجار ، أنت الملك الجبار ، والقوي القهار ، والعزيز الغفار ، أسألك بالأسماء التي بالسمو معروفة ، وأسألك بالصفات التي هي بالمجد موصوفة .

عن كل عيب تنزهت ، وعن كل نقص تقدست ، وعلى كل حال تباركت ، وعن كل شَيْنٍ تَعَالَيْتَ، منك الإمداد ، ومن لدنك الإرشاد ، ومن عندك الاستعداد ، وعليك الاعتماد ، وإليك يلجأ العباد ، في النوازل الشداد . حبوت الكائنات رحمةً وفضلاً، ووسعت المخلوقات حكمةً وعدلاً ، لا يكون إلا ما تريد ، تُشكر فتزيد ، وتُكْفر فتبيد ، تفردت بالملك فقهرت ، وتوحدت بالربوبية فقدرت، تزيد من شكرك ،

وتذكر من ذكرك ، وتمـحق من كفرك ، حارت في حكمـتك العقول ، وصارت من بديع صنعك في ذهول ، أدهشت بعجائب خلقك الألباب، وأذهلت الخـلائق بالحكم والأسـباب ، باب جُـودِ عطائك مـفتـوح ، ونوالك لمن أطاعك وعصاك ممنـوح، وهباتك لكل كائن تغدو وتروح. لك السؤدد ، فمن ساد فبمجـدك يسود ، وعندك الخزائن فمن جاد فمن جودك يجود ، صَمَـدٌ أنت فإليك الخلائق تصمد ، مقـصود أنت فإليك القلوب تقـصـد ، تغلق الأبواب عـن الطالبـين إلا بابك ، ويسـدل كل حجاب عن الراغبين إلا حجابك ، خـصصت نفسك بالبقاء فأهلكت من سواك ، وأفردت نـفسك بالملك فأهلكت من عداك، لا نعـبد إلا إياك، ولا نهتدي إلا بهداك، أقمت الحجـة فليس لمعترض كلام ، وأوضحت المحجة فـليس لضال إمام . شرعت الشرائع فكانت لك الحجـة البالغة على الضلال ، وبينت السنن فما حاد عنهـا إلا الجهال ، نوعت العقوبة لمن عصـاك ، وغايرت بين النَّكَالِ لمن عاداك ، جـعلت أسباب حـياته مماته، علة إِنطاقه إِسكاته ، أحييت بالماء وبه قَتَلْتَ ، وأنعشت الأرواح بالهواء وبه أَمَتَّ، أشهـد أنك متوحد بالربوبية ، متـفرد بالألوهية ، أنت الملك الحق المبين ، وأنت إله الـعالمين ، وكنف المستضـعفين، وأمل المساكين، وقاصم الجبارين ، وقامع المستكبرين .

ولما جعلت التـوحيد شعاري ، مدحت ربي بأشـعاري ، فقلت في مدح الباري :

هَذَا أَرِيجُ الزَّهْرِ مِنْ بُسْـتَانِـه

شِعْرٌ كَأَنَّ الفَجْـرَ فِي أَجْفَانِـه

السِّـحْرُ مِنْ إِخْوَانِهِ والحُبُّ مِـنْ

أَخْـدَانِهِ والحُسْـنُ مِـنْ أَعْوَانِهِ

أَنَا مَـا رَوَيْتُ الشِّعْـرَ مِنْ رُومَـا

وَمَا رَتَّلْتُ آيَ الحُسْنِ مِنْ لِبْنَانِهِ

كَـلا وَمَـا سَاجَلت مِنْ عِمْـرَان

أَوْ حَطّان أَوْ مَـجْنُون أَوْ قَـبَّانِهِ

دَعْ لامْرِئِ القَيْسَ الغَوِيِّ ضَلالَهُ

يُلْقِي قِـفَـا نَبْكِ عَلَى شَـيْطَانِهِ

ضَلَّ الهِدَايَةَ شِكْسبِير فَمَا رَوى

إِلاَّ نَـزِيـفَ الـوَهْمِ مِـنْ هَـذَيَـانِـهِ

لَمَـا دَعَـوْتُ الشِّـعْـرَ جَـاءَ مُلَبِّـيًا

يَسْقِي كُئُوسَ الشِّعْرِ مِنْ حَسَّانِهِ

فَعَفَفْتُ عَنْ مَدْحِ الأَنَامِ تَرَفُّعًا

لا تَمْـدَحَنَّ العَبْـدَ فِي طُغْيَـانِهِ

لا سَيْفُ ذِي يَزِن يُتَوِّجُ مَدْحَتِي

أَوْ شُكْرُ نَابِغَـةٍ عَلَى ذُبْيَـانِهِ

أَوْ عَاد أو شداد أَوْ ذُو مَنْصب
يُنْمي إِلَى عَدْنَان أَوْ قَحْطَانِه
مَلِكُ المُلُوكِ قَصَدْتُهُ وَمَدَحْتُهُ
فَتَرَاكَضَ الإِبْدَاعُ فِي مَيْدَانِه
واللهِ لَوْ أَنَّ السَّمَاءَ صَحِيفَةً
والمُزْنَ يُمْطِرُهَا عَلَى إِبَانِهِ
والدَّوْحُ أَقْلامٌ وَقَدْ كَتَبَ الوَرَى
مَدْحُ المُهَيْمِنِ فِي جَلالِهِ شَأْنِهِ
لَمْ يَبْلُغُو مَا يَسْتَحِقُّ وَقَصَّرُوا
وَزْنَ الهَبَاءَةِ ضَاعَ فِي مِيزَانِهِ
لَوْ تَسْتَجِيرُ الشَّمْسُ فِيهِ مِنَ الدُّجَى
لَغَدَا الدُّجَى والفَجْرُ مِنْ أَكْفَانِهِ
أَوْ شَاءَ مَنْعُ البَدْرِ فِي أَفْلاكِهِ
عَنْ سَيْرِهِ لَمْ يَسِر فِي حُسْبَانِهِ
حَتَّى الحِجَارَة فَجَّرَت مِنْ خَوْفِهِ
والصَّخْرُ خَرَّ لَهُ عَلَى أَذْقَانِهِ
وَتَصَدَّعَت شِمَمُ الجِبَالِ لِبَأْسِهِ
والطَّلْعُ خَوْفًا شَقَّ مِنْ عِيدَانِهِ

وَتَفَتَّحَ الزَّهْرُ النَّدى بِصُنْعِهِ
يَزْهُو مَعَ التَّسْبِيحِ فِي بُسْتَانِهِ
وَالْحُوتُ قَدَّسَهُ بِأَجْمَلِ نَغْمَةٍ
لُغَةٍ تُبِزُّ الحُسْنَ مِنْ سُحْبَانِهِ
حَتَّى الضَّفَادِعَ فِي الغَدِيرِ تَرَنَّمَت
بِقَصَائِدِ التَّقْدِيسِ فِي غُدْرَانِهِ
هَذِي النُّجُومُ عَرَائِسُ فِي مَحْفَلٍ
تُمْلِي حَدِيثَ الحُبِّ فِي سُلْطَانِهِ
يَا مَسْرَحَ الأَحْبَابِ ضَيَّعْتَ الهَوَى
وَضَلَلْتَ يَا ابنَ الطِّينِ عَنْ عُنْوَانِهِ
مَجْنُونُ لَيْلَى مَا اهْتَدَى لِرِحَابِهِ
مُتَهَتِّكًا عَبَثًا مَعَ مُجَّانِهِ
أَوَمَا قَرَأَ عَنْهُ وَثِيقَةَ عَهْدِهِ
فِيهَا حَدِيثُ الصِّدْقِ مِنْ قُرْآنِهِ
الشَّمْسُ تَسْجُدُ تَحْتَ عَرْشِ إِلَهِنَا
وَالبَدْرُ رَمْزُ الحُسْنِ فِي أَكْوَانِهِ
والهُدْهُدُ احْتَمَلَ الرِّسَالَةَ غَاضِبًا
يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ مِنْ إِيمَانِهِ

غَضَبًا عَلَى بِلْقِيسَ تَعْبُدُ شَمْسَهَا
فَسَعَى لِنَسْفِ الْمُلْكِ مِنْ أَرْكَانِهِ
لَوْلاهُ نوحٌ مَا نَجَا يَوْمَ الرَّدَى
فِي فُلْكِهِ المَشْحُونِ مِنْ طُوفَانِهِ
لَمَّا دَعَاهُ يُونُسَ لَبَّاهُ فِي
قَاعِ البِحَارِ يَضِجُّ فِي حِيتَانِهِ
وَلَمَّا نَجَا ذُو النُّونِ وَهْوَ مُكَبَّلٌ
فِي البَحْرِ لا بَلْ فِي حَشِيِّ حِيتَانِهِ

اللهم صلى وسلم على نبيك خاتم المرسلين ، ورسول الناس أجمعين، وعلى آله وصحبه والتابعين .

* * *

المقامة النبويّة

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

صَلَّى عَلَيْكَ اللهُ يا عَلَمَ الهُدَى
واسْتَبْشَرَت بِقُدُومِكَ الأَيَّامُ
هَتَفَتْ لَكَ الأَرْوَاحُ مِنْ أَشْوَاقِهَا
وَازَّيَّنَتْ بِحَدِيثِكَ الأَقْلامُ

ما أحسن الاسم والمسمَّى ، وهو النبي العظيم في سورة عمّ ، إذا ذكرته هلت الدموع السواكب ، وإذا تذكرته أقبلت الذكريات من كل جانب .

وَكُنْتُ إذَا مَا اشْتَدَّ بِي الشَّوْقُ وَالْجَوى
وَكَادَتْ عُرَى الصَّبْرِ الجَمِيل تَفْصِمُ
أُعَلِّلُ نَفْسِي بِالتَّلاقِي وَقُرْبِه
وَأُوهِمُهَا لَكِنَّهَا تَتَوَهَّمُ

المتعبد في غار حراء ، صاحب الشريعة الغراء ، والملة السمحاء ، والحنيفية البيضاء ، وصاحب الشفاعة والإسراء ، له المقام المحمود ، واللواء المعقود، والحوض المورود، هو المذكور في التوراة والإنجيل ، وصاحب الغرة والتحجيل ، والمؤيد بجبريل ، خاتم الأنبياء، وصاحب

صفوة الأولياء ، إمام الصالحين ، وقدوة المفلحين ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

السَّمَاوَاتُ شَيِّقَاتٌ ظِمَاءُ
وَالْفَضَا وَالنُّجُومُ وَالأَضْوَاءُ
كُلُّهَا لَهْفَةً إِلَى العَلَمِ الْهَا
دِي وَشَوْقٍ لِذَاتِهِ وَاحْتِفَاءُ

تنظم في مدحه الأشعار، وتدبج فيه المقامات الكبار، وتنقل في الثناء عليه السير والأخبار ، ثم يبقى كنزًا محفوظًا لا يوفّيه حقه الكلام ، وعلمًا شامخًا لا تنصفه الأقلام ، إذا تحدثنا عن غيره عصرنا الذكريات، وبحثنا عن الكلمات ، وإذا تحدثنا عنه تدفق الخاطر ، بكل حديث عاطر، وجاش الفؤاد ، بالحب والوداد ، ونسيت النفس همومها ، وأغفلت الروح غمومها ، وسبح العقل في ملكوت الحب ، وطاف القلب بكعبة القرب ، هو الرمز لكل فضيلة ، وهو قبة الفلك خصال جميلة ، وهو ذروة سنام المجد لكل خلال جليلة .

مرحبًا بالحبيب والأريب والنجيب الذي إذا تحدثت عنه تزاحمت الذكريات ، وتسابقت المشاهد والمقالات .

صلى الله على ذاك القدوة ما أحلاه ، وسلم الله ذاك الوجه ما أبهاه، وبارك الله على ذاك الأسوة ما أكمله وأعلاه ، علم الأمة الصدق

وكـانت في صحـراء الكذب هائمـة ، وأرشدها إلى الحق وكـانت في ظلمات الباطل عائمة، وقادها إلى النور وكانت في دياجير الزور قائمة.

وَشَبَّ طِفلُ الْهُدَى الْمَحْبُوبُ مُتَّشِحًا
بِالْخَـيْـرِ مُـتَّـزِرًا بِـالنُّورِ وَالـنَّارِ
فِي كَفِّـهِ شُعْلَةٌ تَهْدِي وَفِي دَمِـهِ
عَـقِـيـدَةٌ تَتَـحَـدَّى كُلَّ جَـبَّـارِ

كـانت الأمة قـبله في سبـات عمـيق ، وفي حـضيض من الجـهل سحيق، فبعثه الله على فـترة من المرسلين ، وانقطاع من النبيين ، فأقام الله به الميزان ، وأنزل عليه القرآن ، وفرق به الكفر والبهتان ، وحطمت به الأوثان والصلبـان ، للأمم رمـوز يخطئـون ويصـيبـون ، ويسـدّدون ويغلطون، لكن رسولنا ﷺ معصـوم من الزلل، محفوظ من الخلل ، سليم من العلل، عصم قلبه من الزيغ والهوى، فما ضل أبدًا وما غوى ، إنْ هو إلا وحي يوحى .

للشعوب قادات لكنهم ليسوا بمعصومين ، ولهم سادات لكنهم ليسوا بالنبوة موسومين ، أما قائدنا وسيـدنا فمعصوم من الانحراف ، محفوف بالعناية والألطاف .

قصارى ما يطلبـه سادات الدنيا قصور مشيـدة ، وعساكر ترفع الولاء مؤيدة، وخيول مـسومة في ملكهم مقيدة ، وقناطيـر مقنطرة في خزائنهم مخلدة ، وخدم في راحتهم معبدة.

أما محمّد ﷺ فغاية مطلوبه ، ونهاية مرغوبه ، أن يعبد الله فلا يشرك معه أحد ، لأنه فرد صمد ،لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

يسكن بيتًا من الطين، وأتباعه يجتاحون قصور كسرى وقيصر فاتحين، يلبس القميص المرقوع، ويربط على بطنه حجرين من الجوع، والمدائن تفتح بدعوته ، والخزائن تقسم لأمته .

إِنَّ الْبَرِيَّةَ يَوْمَ مَبْعَثِ أَحْمَدَ
نَظَرَ الإِلَه لَهَا فَبَدَّلَ حَالَهَا
بَلْ كَرَّمَ الإِنْسَانَ حِينَ اخْتَارَ مِنْ
خَيْرِ الْبَرِيَّةِ نَجْمَهَا وَهِلالَهَا
لَبِسَ الْمُرَقَّعَ وَهُوَ قَائِدُ أُمَّةٍ
جَبَت الكُنُوزَ فَكَسَّرَت أَعْلامَهَا
لَمَا رَآهَا اللهُ تَمْشِي نَحْوَهَ
لا تَبْتَغِي إِلاَّ رِضَاهُ سَعَى لَهَا

ماذا أقول في النبي الرسول ؟ هل أقول للبدر حييت يا قمر السماء ؟ أم أقول للشمس أهلاً يا كاشفة الظلماء ، أم أقول للسحاب سلمت يا حامل الماء ؟

يَا مَنْ تَضَوَّعَ بِالرِّضْوَانِ أَعْظُمُهُ

فَطَابَ مِنْ طِيبِ تِلْكَ الْقَاعِ وَالأَكَمُ

نَفْسِي الْفِدَاءُ لِقَبْرٍ أَنْتَ سَاكِنُهُ

فِيهِ العَفَافُ وَفِيهِ الْجُودُ وَالْكَرَمُ

اسلك معه حيثما سلك، فإن سنته سفينة نوح من ركب فيها نجا ومن تخلف عنها هلك، نزل بزٌّ رسالته في غار حراء ، وبيع في المدينة، وفصل في بدر، فلبسه كل مؤمن فيا سعادة من لبس، ويا خسارة من خلعه فقد تعس وانتكس ، إذا لم يكن الماء من نهر رسالته فلا تشرب ، وإذا لم يكن الفرس مسوَّمًا على علامته فلا تركب ، بلال بن رباح صار باتِّبَاعِهِ سَيِّدًا بلا نسب، وماجدًا بلا حسب، وغنيًّا بلا فضة ولا ذهب، أبو لهب عمه لما عصاه خسر وتبَّ، سيصلى نارًا ذات لهب .

الْفُرْسُ وَالرُّومُ وَالْيُونَانُ إِنْ ذُكِرُوا

فَعِنْدَ ذِكْرِكَ أَسْمَالٌ عَلَى قَزَمِ

هُمْ نَمَّقُوا لَوْحَةً بِالرِّقِ هَائِمَةً

وَأَنْتَ لَوْحُكَ مَحْفُوظٌ مِنَ التُّهَمِ

وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ، وإنك لعلى خلق عظيم ، وإنك لعلى نهج قويم ، ما ضلَّ ، وما زلَّ، وما ذلَّ ، وما غلَّ ، وما ملَّ ،

وما كلَّ ، فما ضلّ لأن الله هاديه، وجبريل يكلمه ويناديه ، وما زلّ لأن العصمة ترعاه، والله أيده وهداه، وما ذلّ لأن النصر حليفه، والفوز رديفه، وما غلّ لأنه صاحب أمانة، وصيانة ، وديانة، وما ملّ لأنه أعطي الصبر، وشرح له الصدر ، وما كلّ لأن له عزيمة ، وهمة كريمة ، ونفس طاهرة مستقيمة .

كَأَنَّكَ فِي الكِتَابِ وَجَدت لاءً
مُحَرَّمَةً عَلَيْكَ فَلا تَحِلُّ
إِذَا حَضَرَ الشِّتَاءُ فَأَنْتَ شَمْسٌ
وَإِنْ حَلَّ المصِيفُ فَأَنْتَ ظِلُّ

صلى الله عليه وسلم ما كان أشرح صدره ، وأرفع ذكره ، وأعظم قدره ، وأنفذ أمره ، وأعلى شرفه ، وأربح صفقه ، من آمن به وعرفه ، مع سعة الفناء ، وعظم الآناء ، وكرم الآباء ، فهو محمد الممجد ، كريم المحتد ، سخي اليد ، كأن الألسنة والقلوب ريضت على حبه ، وأنست بقربه ، فما تنعقد إلا على وده ، ولا تنطق إلا بحمده ، ولا تسبح إلا في بحر مجده .

نُورُ الْعَرَارَةِ نُورُه وَنَسِيمُهُ
نَشْرُ الْخُزَامَى فِي اخْضِرَارِ الآسِي

وَعَلَيْهِ تَاجُ مَحَبَّةٍ مِنْ رَبِّهِ

مَا صِيغَ مِنْ ذَهَبٍ وَلا مِنْ مَاسِي

إن للفطر السليمة ، والقلوب المستقيمة ، حب لمنهاجه ، ورغبة عارمة لسلوك فجاجه ، فهو القدوة الإمام ، الذي يهدي به من اتبع رضوانه سبل السلام .

صلى الله عليه وسلم علّم اللسان الذكر، والقلب الشكر، والجسد الصبر ، والنفس الطهر ، وعلّم القادة الإنصاف، والرعية العفاف، وحبب للناس عيش الكفاف، صبر على الفقر، لأنه عاش فقيراً، وصبر على جموع الغنى لأنه ملك ملكًا كبيراً، بعث بالرسالة، وحكم بالعدالة، وعلّم من الجهالة، وهدى من الضلالة، ارتقى في درجات الكمال حتى بلغ الوسيلة، وصعد في سلّم الفضل حتى حاز كل فضيلة .

أَتَاكَ رَسُولُ الْمَكْرُمَاتِ مُسْلِمًا

يُرِيدُ رَسُولَ اللهِ أَعْظَمَ مُتَّقِي

فَأَقْبَل يَسْعَى فِي البِسَاطِ فَمَا دَرَى

إلى البَحْرِ يَسْعَى أَمْ إِلَى الشَّمْسِ يَرْتَقِي

هذا هو النور المبارك يا من أبصر ، هذا هو الحجة القائمة يا من أدبر، هذا الذي أنذر وأعذر ، وبشر وحذر ، وسهل ويسر ، كانت

الشهادة صعبة فسهَّلَهَا من أتباعه مصعب ، فصار كل بطل بعده إلى حِيَاضِهِ يرغب ، ومن مَوْرِدِهِ يشرب ، وكان الكذب قبله في كل طريق ، فأباده بالصديق، من طلابه أبو بكر الصديق ، وكان الظلم قبل أن يبعث متراكمًا كالسحاب ، فزحزحه بالعدل من تلاميذه عمر بن الخطاب ، وهو الذي ربى عثمان ذو النورين ، وصاحب البيعتين ، واليمين والمتصدق بكل ماله مرتين ، وهو إمام علي حيدرة ، فكم من كافر عفرّه ، وكم من محارب نحره ، وكم من لواء للباطل كسره ، كأن المشركين أمامه حمر مستنفرة ، فرت من قسورة .

إِذَا كَانَ هَذَا الجِيلُ أَتْبَاعَ نَهْجِهِ
وَقَدْ حَكَمُوا السَّادَاتَ فِي البَدْوِ وَالحَضَرْ

فَقُلْ كَيْفَ كَانَ الْمُصْطَفَى وَهْوَ رَمْزُهُمْ
مَعَ نُورِهِ لا تُذْكَرُ الشَّمْسُ والْقَمَرْ

كانت الدنيا في بلابل الفتنة نائمة ، في خسارة لا تعرف الربح ، وفي اللهو هائمة، فأذّن بلال بن رباح ، بحي على الفلاح ، فاهتزت القلوب ، بتوحيد علاّم الغيوب ، فطارت المهج تطلب الشهادة ، وسبحت الأرواح في محراب العبادة ، وشهدت المعمورة لهم بالسيادة .

كُلُّ المشَارِبِ غَيْرُ النِّيلِ آسِنَة
وَكُلُّ أَرْضٍ سِوَى الزَّهْرَاءِ قِيعَانُ

لا تُنْحَرُ النَّفْسُ إلاَّ عِنْدَ خَيْمَتِه
فَالْمَوْتُ فَوْقَ بَلاطِ الحُبِّ رِضْوَانُ

أرسله الله على الظلماء كشمس النهار، وعلى الظمأ كالغيث المدرار، فهز بسيوفه رءوس المشركين هزًّا ، لأن في الرءوس مسامير اللات والعزى، عظمت بدعوته المنن ، فإرساله إلينا أعظم منّة، وأحيا الله برسالته السنن ، فأعظم طريق للنجاة اتباع تلك السنة . تعلَّم اليهود العلم فعطلوه عن العمل ، ووقعوا في الزيغ والزلل ، وعمل النصارى بضلال ، فعملهم عليهم وبال ، وبعث عليه الصلاة والسلام بالعلم المفيد، والعلم الصالح الرشيد .

أَخُوكَ عِيسَى دَعَا مَيْتًا فَقَامَ لَهُ
وَأَنْتَ أَحْيَيْتَ أَجْيَالاً مِنَ الرِّمَمِ
أَنْصِتْ لِمِيمِيَّةٍ مِنْ أُمَمٍ
مِدَادُهَا مِنْ مَعَانِي نُون وَالْقَلَمِ
سَالَتْ قَرِيحَةُ صَبٍّ فِي مَحَبَّتِكُم
فَيْضًا تَدَفَّقَ مِثْلَ الهَاطِلِ العَمَمِ
كَالسَّيْلِ كَاللَّيْلِ كَالْفَجْرِ اللَّحُوحِ غَدا
يَطْوِي الرَّوَابِي وَلا يَلْوِي عَلَى الأَكَمِ

أَجَشَّ عَلَىّ كَالرَّعْدِ فِي لَيَالِي السَّعُودِ وَلا
يُشَابِهُ الرَّعْدَ فِي بَطْشٍ وَفِي غَشَمِ
كَدَمْعِ عَيْنِي إِذَا مَا عِشْتُ ذِكْرِكُمْ
أَوْ خَفَقَ قَلْبٌ بِنَارِ الشَّوْقِ مُضْطَرِمِ
يَزْرِي بِنَابِغَةِ النُّعْمَانِ رَوْنَقُهَا
وَمِنْ زُهَيرِ وَمَاذَا قَالَ فِي هرَمِ؟
دَعْ سَيْفَ ذِي يَزن صَفْحًا وَمَادِحُهُ
وَتُبْعًا وَبَنِي شَدَّاد فِي إِرَمِ
وَلا تَعْرُجْ عَلَى كِسْرَى وَدَوْلَتِهِ
وَكُل أصيد أَوْ ذِي هَالَةٍ وَكَمِي
وانْسَخْ مَدَائِحَ أَرْبَابِ المَدِيحِ كَمَا
كَانَتْ شَرِيعَة نَسْخًا لِدِينِهِم
رَصِّعْ بِهَا هَامَةَ التَّارِيخِ رَائِعَةً
كَالتَّاجِ فِي مَفْرِق بِالمَجْدِ مُرْتَسِمِ
فَالْهَجْرُ وَالوَصْلُ وَالدُّنْيَا وَمَا حَمَلَت
وَحُبُّ مَجْنُونِ لَيْلَى ضَلَّةٌ لَعَمِي

دَعِ المَغَاني وأَطْلالَ الحَبِيبِ ولا
تَلْمحْ بعَينَيْكَ برْقًا لاحَ فِي أضمِ
وأُنْسُ الخَمَائلِ والأَفْنَان مَائلةٌ
وَخَيْمَةٌ وَشُوَيْهَاتٌ بِذي سَلَمِ
هُنَا ضِيَاءٌ هُنَا رِي هُنَا أَمَلُ
هُنَا رِواء هُنْا الرِّضْوَانُ فَاسْتَلِمِ
لَوْ زُيِّنَتْ لامرئِ القَيْسِ انْزَوى خَجَلاً
ولَوْ رَآهَا لَبِيدُ الشِّعْرِ لَمْ يَقُمِ
مِيمِيَّةٌ لَوْ فَتَى بُوصَيرِ أَبْصَرَهَا
لَعوذوه بِرَبٍّ الحِلِّ وَالحَرَمِ
سَلْ شِعْرَ شَوْقي أيَرْوِي مِثْلَ قافِيَتي
أوْ أَحْمَدَ بنَ حُسَيْنٍ فِي بَنِي حَكَمِ
مَا زَارَ سُوقَ عُكَاظٍ مِثْلَ طَلْعَتِهَا
هَامَتْ قُلُوبٌ بِهَا مَنْ أَهْدَيْتُهُ كَلِمي
أُثْنِي عَلَى مَنْ؟ أَتَدْرِي مَنْ أُبَجِّلُهُ؟
أَمَا عَلِمْتَ بِمَنِ اهْتَدَيْتُهُ كَلِمِي

فِي أَشْـجَعِ النَّاسِ قَلْبًـا غَـيْـرِ مُنْتَـقِمٍ
وَأَصْـدَقُ الخَلْقِ طُرًّا غَـيْـرِ مُـتَّـهِمِ
أَبْهَى مِنَ الْبَـدْرِ فِي قَلْبِ التَّـمَـامِ وَقُلْ
أَسْـخَى مِنَ البَـحْـرِ بَلْ أَرْسَى مِنَ العلمِ
أَصْـفَى مِنَ الشَّـمْسِ فِي نُطْقٍ وَمَـوْعِظَةٍ
أَمْـضَى مِنَ السَّـيْفِ فِي حُكْمٍ وفِي حَكَمِ
أَغَـرُّ تُشْـرِقُ مِنْ عَـيْنَيْـهِ مَلْحَـمَـةٌ
مِنَ الضِّـيَـاءِ لِتَـجْلُو الظُّلْمَ والظُّلَمِ
فِي هِمَّـةٍ عَـصَـفَتْ كَـالدَّهْرِ واتَّقَـدَت
كَـمْ مَـزَّقَتْ مِنْ أَبِي جَـهْلٍ وَمِنْ صَنَمِ
أَتَى الـيَـتِـيمُ أَبُو الأَيْتَـامِ فِي قَـدَرٍ
أَنْهَى لأُمَّـتِـهِ مَـا كَـانَ مِنْ يُتْمِ
مُـحَـرِّرُ العَـقْلِ بَانِي المَـجْـدَ بَاعِـثُنَا
مِنْ رَقْـدَةٍ فِي دِثَارِ الشِّـرْكِ وَاللَّمَمِ
بِنُورِ هَدْيِكَ كَـحَّلْنَا مَـحَـاجِـرَنَا
لَمَّـا كَـتَـبْنَا حُـرُوفًـا صُـغْـتُـهَـا بِدَمِ

مَنْ نَحْنُ قَبْلَكَ إلاَّ نُقْطَةٌ غَرِقَتْ
فِي اليَمِّ بَلْ دَمْعَةٌ خَرْسَاءَ فِي القِدَمِ
أَكَادُ أَقْتَلِعُ الآهَاتَ مِنْ حُرَقِي
إِذَا ذَكَرْتُكَ أَوْ أَرْتَاعُ مِنْ نَدَمِي
لَمَّا مَدَحْتُكَ خِلْتُ النَّجْمَ يَحْمِلُنِي
وَخَاطِرِي بِالسَّنَا كَالجَيْشِ مُحْتَدِمِ
شَجَّعْتُ قَلْبِي أَنْ يَشْدُو بِقَافِيَةٍ
فِيكَ القَرِيضُ كَوَجْهِ الصُّبْحِ مُبْتَسِمِ
صَهْ شِكْسَبِيرُ مِنَ التَّهْرِيجِ أَسْعَدَنَا
عَنْ كُلِّ إِلْيَاذَةٍ مَا جَاءَ فِي الحِكَمِ
الفُرْسُ وَالرُّومُ وَالْيُونَانُ إِنْ ذُكِرُوا
فَعِنْدَ ذِكْرَاهُ أَسْمَالٌ عَلَى قَزَمِ
هُمْ نَمَّقُوا لَوْحَةً لِلرِّقِّ هَائِمَةً
وَأَنْتَ لَوْحُكَ مَحْفُوظٌ مِنَ التُّهَمِ
أَهْدَيْتَنَا مِنْبَرَ الدُّنْيَا وَغَارَ حِرَا
وَلَيْلَةَ الْقَدْرِ وَالإِسْرَاءِ لِلْقِمَمِ

وَالحَوْضَ وَالْكَوْثَرَ والرِّقْرَاقَ جِئْتَ بِهِ
أَنْتَ الْمُزَّمِّلُ فِي ثَوْبِ الْهُدَى فَقِمِ

الْكَوْنُ يَسْأَلُ وَالأَفْلاكُ ذَاهِلَةٌ
وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ بَيْنَ اللاءِ والنِّعَمِ

وَالدَّهْرُ مُخْتَلِقٌ وَالجَوُّ مُبْتَهِجٌ
وَالْبَدْرُ يَنْشَقُّ وَالأَيَّامُ فِي حلمِ

سِرْبُ الشَّيَاطِينَ لَمَّا جِئْتَنَا احْتَرَقَتْ
وَنَارُ فَارِس تَخْبُو مِنْكَ فِي نَدَمِ

وَصُفِّدَ الظُّلْمُ وَالأَوْثَانُ قَدْ سَقَطَتْ
وَمَاء سَاوَة لَمَّا جِئتَ كَالْحِمَمِ

قَحْطَانُ عَدْنَانُ حَازُوا مِنْكَ عِزَّتهم
بِكَ التَّشَرُّفُ للتَّارِيخِ لا بِهِمِ

عُقُودُ نَصْرِكَ فِي بَدْرٍ وَفِى أُحُدٍ
وَعَدْلاً فِيكَ لا فِي هَيْئَةِ الأُمَمِ

شَادُوا بِعِلْمِك حَمْرَاءَ وَقُرْطُبَة
لِنَهْرِكَ الْعَذْبِ هَبَّ الجِيلَ وَهُوَ ظَمِي

وَمِنْ عَمَامَتِكَ الْبَيْضَاءَ قَدْ لَبِسَت
دمشْقُ تَاجَ سَنَاهَا غَيْرَ مُنْثَلِمِ
رِدَاءُ بَغْدَادَ مِنْ بُرْدَيْكَ تَنْسِجُهُ
أَيْدِي رَشِيدٍ وَمَأْمُونٍ وَمُعْتَصِمِ
وَسِدْرَةُ الْمُنْتَهَى أَوْلَتْكَ بَهْجَتَهَا
عَلَى بِسَاطٍ مِنَ التَّبْجِيلِ مُحْتَرَمِ
دَارَسْتَ جِبْرِيلَ آيَاتِ الكِتَابَ فَلَمْ
يَنْسَ الْمُعَلِّمُ أَوْ يَسْهُو وَلَمْ يَهِمِ
اقْرَأْ وَدَفْتَرُكَ الأَيَّامُ خُطَّ بِهِ
وَثِيقَةَ الْعَهْدِ يَا مَنْ بَرَّ فِي الْقَسَمِ
قَرَّبْتَ لِلْعَالَمِ العُلْوِي أَنْفُسَنَا
مسكتنَا حَبْلَ غَيْرَ مُنْصَرِمِ
نُصِرْتَ بِالرُّعْبِ شَهْرًا قَبْلَ مَوْقِعَةٍ
كَأَنَّ خَصْمَكَ قَبْلَ الحَرْبِ فِي صَمَمِ
إِذَا رَأَوْا طِفْلاً فِي الجَوِّ أَذْهَلَهُمْ
ظَنُّوكَ بَيْنَ بُنُودِ الْجَيْشِ وَالْحَشَمِ

بِكَ اسْتَفَقْنَا عَلَى صُبْحٍ يُؤرِّقُهُ

بِلالٌ بِالنَّغَمَةِ الحَرّا عَلَى الأَطَمِ

إِنْ كَانَ أَحْبَبْتَ بَعْدَ اللهِ مِثْلَكَ في

بَدْوٍ وَحَضَرٍ وَمِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمِ

فَلا أَشْتَفِي نَاظِرِي مِنْ مَنْظَرٍ حَسَنٍ

وَلا تَفَوَّه بِالْقَوْلِ السَّدِيدِ فَمِي

* * *

■ المقامَـةُ الكـونيـةُ ■

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾

وَكِتَابِي الفَضَاءُ اقْرَءُوا فِيهِ
سُوَرًا مَا قَرَأْتُهَا فِي كِتَابِي
صُوَرًا تُدْهِشُ الْعُقُولَ وَحُسْنٌ
يُسْكِبُ السِّحْرَ فِي الصُّخُورِ الصِّلابِ

سبحان من له في كل شيء آية ، ليس لملكه نهاية ، وليس لعظمته غاية ، اقرأ آيات القدرة في صفحة الكون ، وطالع معجزة الخلق في الحركة والسكون ، في الليل إذا عسعس، والصبح إذا تنفس ، في السمك السارب ، في النمل الدائب ، في هالة النور تنشر رداء السناء في الفضاء ، في النهار يتماوج، في البحر هائج مائج ، في النحل يلثم الأزهار، في الليل يعانق النهار ، في الدمع يترقرق ، في الدماء تتدفق، في الزهر يتشقق ، في الدواب السائمة ، في الوحوش الهائمة ، في الطيور الحائمة، في الحيتان العائمة ، في العود يشتد، في الظل يمتد ، في الجبال ترتدي عمائم الثلوج، في القمر يهرول في البروج، في الشَّمس تتبرج سافرة على العالم ، في النَّبْتِ ما بين نائم وقائم . في الأسرار تكنزها الضمائر ، في الأخبار تختزنها السَّرَائِرِ .

في الصُّخور كأنها تنتظر خبرًا من السماء فهي صامتة ، في الحجارة يكسرها الإنسان بفأسه وهي ساكتة ، في الفجر يطلق من عباءته النور ، في الأذهان بالأفكار تمور ، في الماء ينهمر من السماء ، ويغوص في الرمضاء ، يُقبِل بالخضرة والنماء ، ويدلف بالحياة للأحياء، يهيج أحيانًا ويهدر ، ويزحف ويدمر ، لا تحدُّه الحدود ، ولا تردُّه السدود ، وعظمته سبحانه في خلق الإنسان ، وتركيبه في أحسن كيان ، حيث جعل في العينين سراجًا من النور، وأنشأ في القلب بصيرة تدرك الأمور ، وخلق العقل يقود هذا الكائن ، ويوجهه وهو ساكن ، في النبتة تشق طريقها إلى الفضاء ، وترفع رأسها إلى السماء ، في العندليب يرتجل على الغصن كالخطيب ، في الحمام يشدو بأحسن الأنغام ، يشكو الحب والهيام ، والعشق والغرام ، في الغراب يخبأ رزقه في الخراب ، ويدفن خصمه في التراب ، في الأسد يطارد القنيصة ، ويمزق الفريسة . في النحل يئِنّ ، والذباب يطِنّ ، في الزنبور يرِنّ .

في عالم النبات ، آلاف المذاقات ، ومئات الطعومات ، أخضر يعانق أحمر ، وأصفر يضم أغبر ، في الأوراق تَـمِيسُ في الطَّلِّ ، في الحشرات تهرب إلى الظِّل .

في الناقة تحِنُّ إلى وليدها ، وتشتاق إلى وحيدها ، في الليل يخلع ثيابه على الآفاق ، في الضباب يخيّم على الأرض كالأطباق ، في النار تحرق ، في الماء يغرق .

في الضيـاء يسطع ، في الضوء يلمع ، في العـين تدمع ، في البرق يكاد يذهب سناؤه بالأبصار ، في الصواعق تقصف الصخور والأشجار ، في الرعد يدوِّي فيملأ العالم ضجيجًا ، في الرَّوْضِ يفوح فيعبق به الجو أريجًا .

في أهل السلطان بين ولاية وعزل ، وأسرٍ وقَـتْل ، وهزيمةٍ ونَصْر ، وسِجْنٍ وقَـصْر ، في الموت يخـترم النفـوس ، ويسقط على الرءوس ، ويأخذ الرئيس والمرءوس ، ويبزّ العـريس والعروس ، ويهدم الأعمار ، ويعطِّل الأفكار ، ويدخل كل دار ، ويخلي الديار .

في صنف من البشر ، يعـيشون البطر ، له أموال كالجـبال ، وآمال كأعـمار الأجـيال ، قـصور تشـاد ، كأنهـا لن تُبَاد ، وحـدائق غنّاء ، وبساتين فيحاء .

وفي صنف آخـر فقـير ، في دنيـاه حـقيـر ، لا يملك الفتـيل ولا القطمير، يبحث عن الرَّغِـيفِ ، وينام على الرَّصِيفِ ، ولقلبه من خوف الفقر رَجيف .

في أهل العـافيـة يمـرحون، وفي نعـيمـهم يَسْـرَحُون، وبمـا أوتوا يفرحون. وفي أهل الـبلاء، وفي أصحاب الضَّنْكِ والشقـاء، في ظلمات المحيطات، وفي متاهات الغـابات ، وفي مجاهل الفُلوَّات . أرض تمتد بلا بشر، صحارٍ قاحلة ليس فيها شجـر، وعوالم موحشة ما يسكنها بدو ولا حضر .

نجوم تسقط ، وكواكب تهبط ، ونيازك تلتهب ، ترمي بشرر ولهب، مجرّات سميّة ، ومنازل قمريّة ، حدائق بأثواب الحسن تَسُرُّ الناظرين ، ومشاهد في الكون جميلة تأخذ ألباب المبصرين ، رياض أنيقة تسرح فيها الغزلان ، باقات من الورود بهيجة يلعب بها الولدان .

كل في فلكٍ يُسَبِّح ، وكلٌّ في عالم يمرح، شمس تجري كأنها تبحث عن مفقود، قبل أن تطلع تسجد للمعبود، آية باهرة، وحكمة ظاهرة، في خلق الإنسان، ذلك الكيان، الذي يحمل جامعات من السَّكَنَاتِ والحركاتِ، فذهن متوقد، وقلب متجدد ، وخيال يطوي الزمان والمكان، ويناقل الإنسان ، بين خوف وأمان ، وذاكرة حافظة ، وألسنةٌ لافظة، وشركات في كل الأعضاء، منها يجذب الهواء ، ويسحب الماء، ويهضم الغذاء ، ويجلب الدواء، ويُذهب الداء، ما بين دفعٍ وضغط، وإخراج وشفط ، ومؤسّسات تشارك في بناء الجسم، وفي قيام الرسم، ليكون في أحسن تقويم، وأكمل تنظيم، في الطير وهو يبحث عن طعامه، ويعود إلى مستقرّه ومنامه، في الكائنات وهي في صراع محموم، وفي هموم وغموم، لتحصل على رزقها المقسوم، وعيشها المعلوم، في الإنسان وهو يفكِّر ويقدِّر ، ويقدِّم ويؤخِّر، ويخطّط وينظر، في الجبال ، واقفة في هيبة وجلال ، في الروابي الخضراء آية في الجمال ، في العافية والأسقام، في الحقيقة والأحلام ، في اليقين والأوهام ، في الإقدام والإحجام ، في السحاب والسراب، والضباب والرضاب.

في الأحيـاء، وحبُّهـا للبقاء، ومـدافعتـها للأعـداء ، فهذا بمـخلبه يصول، وهذا بنابه يجـول، وهذا بمنقره يناضل ، وذاك بريشـه يقاتل ، وآخر بسُـمِّه يدفع ، وغيـره بجناحه يردع ، منهم من يطـير، ومنهم من يسير، ومنهم من يَسْبَحُ، ومنهم من يمرح ، ومنهم على رجلين ، ومنهم على يدين، ومنهم من يطير بجناحين، هذا يزحف، وذاك يخطف، وهذا في قيْدِه يرسُف، في التقـاء الأحباب والفراق ، في الضم والعناق ، في الركود والانطلاق .

في النجمـة هائمة في صفـحة السماء تبـسم في حنادس الليل ، في البدر تفنيه الليالي ويدركه المحـاق كأنه قتيل ، في روعة الإشراق ، وقد نشرت الشـمس ضفائرها ونشرت جـدائلها على التلال ، وبثَّت سِـحْرها على الجبال .

في الطبـيب يشفي من الداء ، فـإذا أدركه الفناء ، بار فـيه الدواء ، وعجز في علاجـه الأطبّاء ، في المريض ييأس من العافيـة ، وتحار فيه الأدوية الظاهرة والخـافيـة ، ثم تدركه من الله عنـاية شافـية ، ورحـمة كافـية، في البـراكين تثـور بالدمار ، في الزلازل تهـز الديار ، في السُّم يُصنع منه الدواء ، في الماء يكون سببًا للفناء ، في الهواء يعصف فيدمر الأشـياء ، فـي الريح تكون رخـاءً فتلقـح الثمـار ، وتسـوق الأمطار ، وتزجي السفن في البحـار ، ثم تكون عاصفة هوجاء ، فتـقتل الأحياء ، وتنقل الوباء ، في النخل باسـقات لهـا طلع نضيـد ، في الجبـال تثبت

الأرض وقد كـادت تميد ، في اللَّبن يخـرج من بين فرثٍ ودم، في كل مخلوق كيف وُجِد من العدم ، في الإبل كيف خُلقت ، في السماء كيف رُفـعت ، في الجبـال كيف نصـبت ، في الأرض كـيف سُطِحت ، في الضحى إذا ارتفع ، في الغيث إذا همع ، في خلق الإنسان كيف ينكس، وفي عمره كـيف يعكس ، يعمّر فيـعود كالطفل ، فلا يُفـرِّق بين فرضٍ ونفل ، في الطائر كيف يجمع القَش ، ويبني العُش ، ويختـار عيضه ، ثم يضع بيضه ، في العجمـاوات ما بين جائع وبطين ، في الدود تبحث عن طعـامهـا في الطين ، في البلبل يحـبس في القـفص فلا يبـيض ، ويعيش بجناح مهـيض ، في الحيّة وهي في الصحراء ، تنصب جـسمها كأنه عـود للإغراء ، فيقع عـليها الهدهد ، يظـنها عود مجـرَّد ، فيكون طعامها، بعد أن رأى قيامها ، في الثمرة تحمى بأشواك ، كأنها أسلاك ، في الأطعـمة مـا بين حلو وحـامض ، وقلوي وقـابض، في الناس ألف كواحد وواحد كجيش حاشد ، في البشر ما بين عاقل حصيف، وطائش خفـيف ، وتقيٍّ متـنسِّك ، وفاجـر متهـتِّك ، في الأرواح كيف تـتآلف وتتخالف ، في اختلاف الأصوات ، وتعدد اللّهجات ، وتباين النغمات، وكثرة اللغات ، في الحر يكاد يذيب الحديد ، في البرد يحول الماء إلى جليد ، في الأرض يعلوها من الغيث بُرد أخـضر ، ويكسوها من القحط رداء أغبر ، في المعـادن تذوب بالنار ، فتسيل كأنها أنـهار ، في السماء تتلبّـد بالغيوم ، ولهـا وجوم ، كـأن وجههـا وجه مـهمـوم ، أو طلعة مـغمـوم، في الشمس تكسف ، في الـقمـر يخسف ، في كل مـا ننكر

ونعرف ، في كل مولود حين يوضع ، كيف يهتدي إلى الثدي فيرضع ، إن عاش الحيوان في جو معتدل كساه بالشعر ، وإن عاش في برد قارص غطاه بالوبر ، وإن عاش في الصحاري دثره بالصوف ، ليقاوم الحتوف ، حيوان الغاب يزوده بناب ، ويمنحه مخلاب ، وطير العريش يقويه بريش ليعيش ، ينبت في الصحراء شجرة جرداء ، تصبر لحرارة الرمضاء ، ووهج البيداء ، ويزرع في البستان شجرة ذات رواء وأغصان ، ندية الأفنان ، مختلفة الطعوم والألوان، جعل الصيد في البيد ، ليحمي نفسه من التهديد، علّم العنكبوت ، كيف تبني البيوت ، وهدى النملة لادّخار القوت ، جعل فوق العينين حاجبين ، ليحميهما من ضرر المعتدين ، وجعل أمامها رمشين ، لتكون في حرز أمين ، وجعل فيهما ماء تغتسلان به كل حين ، يسلط الرياح على السحاب ، فيقع التلاقح والإنجاب، إن شاء جعل الهواء عليلاً ، يحمل نسيمًا جميلاً ، وإن شاء جعله ريحًا عاصفةً ، مدمرة قاصفة ، سبحان من حكم الكون بالقهر ، مع علو القدر، ونفاذ الأمر ، له الملكوت والجبروت ، وهو حي لا يموت، أحسن كل شيء خلقه ، وتكفل بكل حي يوم رزقه ، أوجد الحب وفلقه، تسمى بأحسن الأسماء، واتصف بأجمل الصفات والآلاء، عطاؤه أنفع عطاء ، جلّ عن الشركاء ، نصر الأولياء ، وكبت الأعداء، عبادته فرض، والصدقة عنده قرض ، وسلطانه عمّ السماء والأرض ، يعلم الغيوب ، ويقدر المكتوب ، ويمحو الذنوب ، ويستر العيوب ، ويهدي القلوب ، وينقذ المكروب ، نعمه لا تعد ، ونقمه لا تصد ، وعظمته لا

تحد ، وعطاياه لا ترد ، منصورٌ من والاه، سعـيدٌ من دعاه ، موفَّق من رجاه ، مخذول من عصاه ، مدحور من عاداه .

مَنِ الَّذي قَـــدِ اسْـتَـــوَى
لِمُلْكِهِ قَـــدِ احْــتَـــوَى
وَمَـــنْ هُـــوَ الْـعَـظِـيـمُ
وَالْـمُـنْـعِـمُ الْـكَـرِيـم
ومَـنْ يُـجِـيـبُ الـدَّاعِـي
لأَشْـرَفِ الـمَـسَـاعِـي
وَمَـنْ بَـرَى الْـبَـرِيَّـةِ
وَوَسَّـع الْـبَـرِيّـة
مَـنْ أَنْـزَلَ الـكِـتَـابَـا
وَعَـلَّـمَ الـصَّـوَابَـا
مَـنْ كَـسَّـرَ الأَكَـاسِـرَةَ
مَـنْ قَـصَّـرَ القَـيَـاصِـرَة
مَـنْ عَـلَّـمَ الإِنْـسَـانَـا
عَـلَّـمَـهُ الْـبَـيَـانَـا

مَنْ أَسْدَلَ الظَّلامَا
وَنَشَرَ الغَمَامَا
مَنْ أَطْعَمَ الْخَلِقَةَ
وَأَوْضَحَ الطَّرِيقَةَ
الْخَيْرُ قَدْ أَسْدَاهُ
وَالْعَبْدُ قَدْ هَدَاهُ
وَالشَّرُّ قَدْ أَبَادَه
وَالْحَقُّ قَدْ أَعَادَه
وَهُوَ عَظِيمُ الْقُدْرَةِ
فَقَدِّرَنْ قَدْرَهُ
يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ
وَبَطْشُهُ شَدِيدُ
وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالصَّمَدِ
فَقُلْ هُوَ الله أَحَدُ
يُعْرَفُ بِالآلاءِ
وَالْوَصْفِ وَالأَسْمَاءِ

فَلا تُكَيِّفُ فِي الصِّفَةِ
وَغَلِّط الْمُكَيِّفَةِ
وَلا تُجَادِلُ فِيهِ
كَمَذْهَبِ السَّفِيهِ
وَقُلْ نَعَمْ سَلَّمْنَا
يَا رَبَّنَا عَلِّمْنَا
وَاتَّبِعْ الرَّسُولا
وَلا تَكُنْ جَهُولا
وَكُنْ عَلَى نَهجِ السَّلَفِ
وَاحْذَرْ أَخِي مِنَ الخَلَفِ
واحْتَرِمِ الصَّحَابَةَ
وَالآل والْقَرَابَةِ
وَكُنْ تَقِيًّا وَاتَّبِعْ
وَلا تُطِعْ أَهْلَ الْبِدَعِ
وَعَظِّم الحَدِيثَا
وَسِرْ لَهُ حَثِيثًا

وَاطْلُبْ هُدِيتَ عِلْمَا

حَبَاكَ رَبِّي الفَهْمَا

أَوَّلُهُ التَّوْحِيدُ

يُعْرِفُهُ العَبِيدُ

وَاجْتَنِبِ الْكَلامَا

وَالزُّورَ وَالآثَامَا

وَمَنْطِقًا وَفَلْسَفَة

فَكُلُّ هَاتِيكَ سَفَه

وَاتَّبِعِ الأَئِمَّة

فَهُمْ نُجُوم الأُمَّة

كَالْخُلَفَاءِ الأَرْبَعَة

أَهْلُ العُلا وَالْمَنْفَعَة

كَذَا أَبُو حَنِيفَة

عُلُومُهُ شَرِيفَة

وَمَالِكُ بنُ أَنَسِ

فِي الْعِلْمِ كَالْمُؤَسِّسِ

وَالشَّافِعِيُّ مُحَمَّدْ
في عِلْمِهِ مُجَوِّدْ

وَأَحْمَدُ بنُ حَنْبَلِ
إمَامُنَا الْمُبَجَّلِ

وَشَيْخُنَا سُفْيَانُ
بِزُهْدِهِ مُزْدَانُ

وَالبَارِعُ الأَوْزَاعِي
قَدْ جَدَّ في الْمَسَاعِي

وَأَحْمَد الحَرَّانِي
العَالِم الرَّبَانِي

وَبَعْده مُحَمَّد
مِنْ نَجْد جَا يُجَدِّد

وَهَذِهِ وَصِيَّة
أبْيَاتُهَا مَحْصِيَّة

مُوجَزَةٌ لَطِيفَةٌ
في لَفْظِهَا خَفِيفَةٌ

نَظَمْتُهَا عَلَى عَجَل
فِي رَبِّنَا عَزَّ وَجَلْ

فَهُوَ أَحَقُّ مَنْ ذُكِرْ
وَهُوَ أَجَلّ مَنْ شُكِرْ

أَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَا
وَالفَهْمَ وَالتَّحْقِيقَا

وأَشْرَفُ الصَّلاةِ
لِصَاحِبِ الآيَاتِ

الْمُصْطَفَى وَصَحْبِهِ
آنسَنَا بِحُبِّهِ

* * *

المقامة القرآنيّة

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾

أَتَى عَلَى سِفْرِ التَّوْرَاةِ فَانْهَزَمَتْ
فَلَمْ يُفِدْهَا زَمَنُ السَّبْقِ وَالقِدَمِ
وَلَمْ تَقُمْ مِنْه للإنْجِيل قَائِمَة
كَأَنَّهُ الطَّيْفُ زَارَ الْجِفْنَ فِي الحُلْمِ

كل مؤلف له عنوان ، والقرآن كتاب الرحمن . كل مؤلف إذا ألف كتابًا ، أو دبج خطابًا ، اعتذر في مقدمته إذا خالف صوابًا ، إلا الله فإنه تحدى فقال ذلك الكتاب لا ريب فيه ، فخرس كل سفيه ، تقرأ المصنفات وتطالع المؤلفات ، وتسمع القصائد ، وتعجبك الفوائد ، وتشجيك الشوارد ، ثم تسمع القرآن المرتل فإذا هو الأكمل والأجمل والأنبل . قرآن يخاطب النفس فتخشع ، والقلب فيخضع ، والروح فتنقجع ، والأذن فتسمع ، والعين فتدمع ، ولو نزل على صخر لتصدع ، له حلاوة ، وعليه طلاوة ، لا يشبع منه العلماء ولا يروى منه الحكماء ، أفحم الخطباء، وأخرس الفصحاء ، وأسكت الشعراء ، وأدهش الأذكياء. وتحدى العرب العرباء . قوة برهان ، وإشراق بيان ، ووضوح حجة ، واستقامة محجة ، تتحاكم العقول إليه ولا يربو أي

كتاب عليه، حارت الأذهان في وصفه، وعجبت البشرية من سبكه ورصفه، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تلاوته تذهب أحزانك، وتثير أشجانك ، وترفع شأنك ، وتثقل ميزانك، وتخسى شيطانك، وتثبت إيمانك . مصاحبته تذهب كل داء ، وتطرد كل بلاء، وتبيد كل شقاء ، وتدفع كل ضراء، وتزيل كل بأساء وهو هُدىً وشفاء . مُسَامَرَتُهُ حياة ، واتباعه نجاة ، واقتفاؤه صلاح ، واتباعه فلاح ، والعمل به نجاح، قارئُه ينتظر الرحمات، ويرتقب البركات ، وكل حرف بعشر حسنات، يبهر العقل ، ويرفع الجهل ، وهو فصل ليس بالهزل ، حسن نظام، وجميل إحكام، ودقة انسجام، هو كتاب الرحمة ، ودستور الحكمة ، والطريق إلى كل نعمة، والصارف لكل نقمة، أذهل العرب، هيمن على الكتب، أي بالعجب ، كشف الحجب، سحق النصب ، علّم الأدب ، بَيِّنٌ حلاله وحرامه ، وبديعةٌ أحكامه ، قَوِيٌّ إفحامه .

القرآن مال من لا مال له ، وعشيرة من لا عشيرة له ، وذخر من لا ذخر له، وكنز من لا كنز له، هو السلوة في الغربة ، والأنيس في الوحشة ، والعزاء عن كل أحد ، والجلاء لكل ريب والشفاء لكل مرض، والدواء لكل داء ، سمير وأنيس ، صاحب وجليس ، تلاوته أجر ، وحروفه حسنات، ومطالعته بركات، وتدبره رحمات ، والعمل به نجاه ، والتحاكم إليه فلاح ، والرضا به سعادة ، والاستغناء به ثروة ، ومصاحبته غنيمة، شافع مشفع ، وصاحب حجة مقبول ، وناصح أمين،

ورفيق موافق ، ومحدث ممتع ، هدى لا ضلالة بعده ، ونور لا ظلمة فيه، وشفاء لا سقم عنده ، يؤنسك في القبر، يحفظك في الحشر، ينجيك على الصراط، يوصلك الجنة ، يبعدك عن النار ، يحميك من غضب الجبار، يذهب همك ، يجلو غمك ، يزيل تعبك، يطرد نَصَبَك، يشرح صدرك ، يرفع ذِكْرك ، يُعلِي قدرك ، هو قرة العيون ، وسلوه القلوب ، وبهجة النفوس ، وحلية الأولياء ، ومأدبة العلماء ، يعصم من الغي ، يحمي من الضلالة ، يحصن من الجهالة ، يمنع من الغواية ، قلب بلا قرآن ملعون، وعبد بلا قرآن مخذول ، وعين بلا قرآن خائنة ، ويد بلا قرآن جانية، وأذن بلا قرآن آثمة ، وقلم بلا قرآن مارد ، وصحيفة بلا قرآن لاغية، وحفل بلا قرآن زور ، ومجلس بلا قرآن لهو، وحديث بلا قرآن لغو، وكاتب بلا قرآن أفّاك، وشاعر بلا قرآن كذاب، وتاجر بلا قرآن غَشَّاش، وحياة بلا قرآن موت، وحضارة بلا قرآن لعنة، وثقافة بلا قرآن مهزلة، القرآن كلام الله ، وأمانة جبريل، ورسالة محمد ﷺ ، ودستور أمة، ومنهج حياة ، ومشروع حضارة ، ومنطلق دعوة، ووثيقة إصلاح، وحل لمشكلات البشرية، وشفاء لأسقام الإنسانية، طهر للضمائر ، وعمار للسرائر ، وهدى للناس ، وبشرى للمؤمنين ، ودعوة للعالم ، وغيث لأهل الأرض، فيه قصة الإنسان ، ومسيرة الخلق ، وتوحيد الخالق ، وصفات الرسل ، وخبر الملائكة ، ونعيم الجنة، وعذاب النار ، وهو رسالة الأرض للسماءِ وخاتم الكتب ، ومعجزة النبوة ، وأعجوبة الدهر ، ونبأ الغيب ، وحديث الآخرة ، صدق في

الخبر ، عدل في الحكم ، وسط في الطريقة، صحة في المثل ، إعجاز في القول ، حسن في الحديث، جمال في السبك ، قوة في الحجة ، إشراق في البيان، سداد في النصح ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ ، وهو المعجزة الخالدة، والمجد الباقي ، والشرف المنيف . وهو الشافي الكافي، الجامع الشافع، فيه خبر القرون، وقصة فرعون وهامان وقارون ، وحديث ثمود وعاد ، وإرم ذات العماد ، وفيه ذكر الأنبياء، وصفات الأولياء ، وخاتمة الشهداء ، ونعيم السعداء ، وعذاب الأشقياء ، ومصير الأبرار ، ونهاية الفجار ، وعد ووعيد ، وبشارة وتهديد، وجنة ونار ، وفوز وبوار ، تحدى بالذباب وضرب المثل بالبعوضة، وشبه بالعنكبوت، وتحدث عن النملة، وتعجز بالنحلة ، وأهلك بالناقة ، وشبه بالحمار ، وأفحم بالبقرة ، وقص بالغراب ، فيه الفاتحة الكافية الشافية الصافية الوافية ، وفيه البقرة الحافلة بالأحكام ، والحلال والحرام ، في أبدع نظام وأروع كلام ، وفيه المنجية من عذاب القبر وروعة الحشر ، وضيق الصدر، وفيه آية الكرسي الحافظة من كل شيطان، المانعة من كل غَيٍّ ، الحارسة من كل مارد، الحامية من كل رجس، وفيه سورة الإخلاص فيها صفة الرحمن، ومدح الدَّيَّان ، والثناء على ذي العزة والسلطان ، وفيه المعوذات والمحصنات من الشرور والسيئات ، تلاوته تكفر الخطيئات، وتطهر السيئات ، وقراءته تستجلب رضى من أنزله ، ومحبة من تكلم به، فهو الكتاب الذي بز الكتب بيانًا ، وفاقها فصاحة ، يدفع الشك

باليقين ، والوهم بالحقيقة ، والجهل بالعلم ، والشبهة بالبرهان ، فهو زاد العبد الصادق في سِفْر الحياة ، وهو قوت القلب المؤمن في رحلة العمر ، وهو متعة العقل الحصيف، ومدد الإنسان الضعيف ، أحرف من النور تكشف زيف الباطل، وكلمات من الطهر تجتاح معاقل البهتان ، وفيض من القداسة يُروِّي ظمأ الروح ، يقال لصاحبه في الجنة اقرأ وارتقِ ورتل فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها ، وفي الحديث : «**اقرءوا القرآن فإنه يأتي شَفِيعًا لأصحابه** » ، « **وخَيْرُكُم مَنْ تَعَلَّمَ القرآنَ وعَلَّمَهُ** » ، والقرآن حجة لك أو عليك ، فطوبى لمن صاحب القرآن ورافقه وأحبه وتلاه وتدبره وأنس به ، واسترشد بوعظه ، واهتدى بهداه ، وعكف عليه ، وتغنى به ، وأحيى به ليله ، وأجرى به دمعه ، واذهب به همه ، وأزال به غمه ، وطرد به حزنه وكفَّر به ذنبه ، وأبرد به لهيب روحه ، وسكَّن به خوفه ، فهذا هو السعيد الناجي ، والفائز الظافر ، والولي الصادق، فهذا القرآن هو مأدبة الله وضيافته ومائدته فَمَنْ قبل الضيافة نال التكريم وحظي بالزلفى وحصل على الفوز وأدرك الفلاح .

قيل للقرآن نعم عند السلف فنالوا به الشرف ، وحصلوا به على التُّحَف ، وقيل للقرآن لا عند الخلف ، فوقعوا في التَّرَفِ ، وأصيبوا بالتلف ، وحصلوا على الخيبة والأسف، قيل للقرآن نعم في المآتم والأعياد والموالد والمهرجانات والاحتفالات ، وقيل للقرآن لا في أمور الحياة ، وقضايا الإنسان ، ومعاهدات الدول ، ومواثيق الشعوب ، وهموم الأمة .

قال الجزائريون للقرآن نعم زمن ثورتهم العارمة، وجهادهم العظيم ، وكفاحهم الحي ، ونضالهم الدامي ، واستبسالهم المشرق فدفعوا على دوي القرآن نفوسهم ، وقدّموا على صوت القرآن رءوسهم ، وسكبوا على تلاوة القرآن دماءهم ، فلما حكمهم بعض بني جنسهم وساسهم أناس من أنفسهم قالوا للقرآن لا . ﴿ **فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ** ﴾ .

وقال آخرون : نعم للقرآن، فحكموا العالم وأقاموا خلافة ، وبنوا مَجْدًا ، وصنعوا حضارة ، وأسسوا كيانًا، وَصَلُّوا به في صنعاء ، وتهجدوا به مني كابل ، وفسروه في تونس، وشرحوه في دمشق ، وخشعوا له في بغداد ، فلما قدم كمال أشقاهم قال للقرآن لا ، فأصبح قومه أجانب على الشعوب، غرباء على الدنيا يتوسلون المنظمات الدولية ليكونوا بها أعضاء ، ويشحذون الهيئات العالمية لتقبلهم مشاركين ، وأصبحوا عمالاً وحلاقين وخبازين ونجارين يبحثون عن لقمة العيش في الدنيا بعد أن كانوا خلفاء فاتحين مظفرين .

وقالت طائفة منهم للقرآن نعم فجاهدوا وضحوا، وبذلوا وأعطوا، فلما وصل منهم من وصل إلى سُدَّة الحكم عزل القرآن عن الحياة ، ونفى القرآن عن مسرح الأحداث ، وعطَّل القرآن عن التحكيم ، فخرج جيل في أعداد الرمل ، وكثرة الحصى لا يعرف أحدهم إلا طعامه وشرابه وذهابه وإيابه .

عَدَدُ الحَصَى والرَّمْلُ فِي تَعْدَادِهِم
فَإِذَا حَسَبْتَ وَجَدتَّهُمْ أَصْفَارًا

وقال أكثر العالم للقرآن نعم فى افتتاح المؤتمر وختام الجلسة وعلى القبر، وعند عقد النكاح، وعلى روح الميت، وقالوا للقرآن لا فى أول مادة القانون، وفى بداية الدستور ، وعند إصدار الحكم وزمن التنفيذ ، فنعم للقرآن عندهم في المسجد والمقبرة والصلاة والمولد والمأتم، ولا للقرآن في القصر والميدان والمصنع والشركة والجيش والمحكمة والاقتصاد والسياسة والفكر والفن، فنعم للقرآن عند الموت ولا للقرآن عند الحياة ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ .

واحسرتاه يوم نحي القرآن عن العالم كيف عذّب وسحق ومحق ومزق، ولو كان القرآن معهم لما قامت الحرب الأولى ولا الثانية؛ لأن القرآن ينادي ﴿ **أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ ولو كان القرآن في قلوب الأمريكان لما دمروا البشر وأزهقوا الأرواح في نجزاكي وهيروشيما لأن القرآن ينادوا ﴿ **وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا** ﴾. ولو كان شع نور القرآن في قلوب الروس والصِّرْب لما أبادوا الحرث والنسل في البوسنة والهرسك وكوسوفا والشيشان لأن القرآن يحرم هذا الصنيع والفعل الشنيع والعمل الفظيع .
﴿ **وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ** ﴾ .

يا مجلس الأمن حفّظ أعضاءك آية ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ لينقلوها لشعوبهم التي عطلت القرآن وصدت عنه وهجرته فذاقت لباس الجوع والخوف والبأساء والموت ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ .

واحسرتاه يوم عزل العلم عن القرآن فصار علمًا طاعنًا باغيًا كافرًا فاجرًا ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ . وواسفاه يوم أبعد الفن عن القرآن فصار فنًّا ممسوخًا مسلوخًا ساخرًا تافهًا ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ . ويوم فُصِل الأدب عن القرآن خرج أدبًا مشوهًا متخلفًا مقيتًا فاحشًا : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ ، ويوم فصلت السياسة عن القرآن بزغ ساسة طغاة عتاه قساة جبارون سفاكون سفاحون : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ ويوم قطع الاقتصاد عن القرآن نتجت أموال ملوثة وتجارة محرمة ومعاملات ربوية ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ وَيَومَ فَقَدَتِ التَّرْبِيَةُ روحَ القُرآنِ وَبَرَكَتَهُ وَنُورَهُ شَبَّ جيلٌ عاقٌّ مارد مُتَهتِكٌ ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ .

يا حملة الأقلام يا رجال الإعلام عبّوا من مورد القرآن العذب الزلال ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ لتعدوا الأمة بحديثكم

وتصلحوا الناس بكلامكم، ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ﴾ .

اكتب على مستشفيات العالم نصيبها من القرآن ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ اكتب على العيادات النفسية ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ وسطّر على المحاكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ وانقش على القلوب ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ وانحت على الذاكرة ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ عميت عيون لم تكتحل بالقرآن ، وصُمَّت آذان لم تشنّف بالقرآن ، ومزقت أفئدة لا تحب القرآن ، وهدمت بيوت لا تدوي بالقرآن . ومحقت شعوب لا تتحاكم إلى القرآن ، وهانت أمة لا تعمل بالقرآن .

* * *

■ المقامة الحديثيّة ■

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾

مَنْ زَارَ بَابَكَ لَمْ تَبْرَحْ جَوَارِحُهُ
تَرْوِي أَحَادِيثَ مَا أُولِيَت مِنْ مِنَنِ
فَالْعَيْنُ عَنْ قُرَّةٍ عَنْ صِلَةٍ
وَالْقَلْبُ عَنْ جَابِرٍ والسَّمْعُ عَنْ حُسْنِ

جاءني عطاء الله السمرقندي، فبات عندي ، وكان أحد المحدثين ، ويكره الُمحْدِثين في الدين ، فقلنا : أيها الإمام ، عليك السلام : الوقت حثيث، فحدثنا عن علم الحديث، فتأوّه ثم قال : مات حفاظه ، فكادت تنسى ألفاظهُ، وأهل الحديث هم الركب الأخيار ، أحباب المختار، قوم تصدقوا بالأعمار على الآثار، وقضوا الحياة في الأسفار ، لجمع كلام صفوة الأبرار :

فِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا فِي الأَرْضِ مُرْتَحِلٌ
نَغْدُو بِدَارٍ وَنُمْسِي بَعْدُ فِي دارِ

شدّوا العمائم ، وجدّوا في العزائم ، وتسلحوا بالصبر الدائم ، فلو رأيتهم وقد فتحوا الدفاتر ، وقربوا المحابر ، وكتبوا : حدثنا مسدّد بن

مسرهد ، أو رواه أحمد في المسند ، أو أخـرجه البخاري ، وشرحه في فتح البـاري ، لهانت عندك الدنيـا بما فـيها ، وركـبت سفيـنة الحديث وناديت باسم الله مـجراها . ولأقـبلت على العلم والكتب ، وهجـرت اللهو واللعب ، واللغو والطرب .

يفوح من فم الْمُحَدِّثِ المسكُ التِّبتي، لأن عليه سيماء « **نضَّر الله ، امـرءًا سـمع مني مـقـالتي** » أنفاس المـحدثين تنضح بالطـيب ، لأنها حملت اسم الحبيب :

يَكُونُ أُجَاجًا دُونكُم فَإِذَا انْتَهَى

إِلَيْكُم تَلَقَّى طِيبَكُمْ فَيَطِيبُ

بنفـسي ذاك المـحـدث إذا جـلس على الكرسي ، وقـد حف به الطلاب، ونشر الكتاب ثم قال : حدثنا محمد بن شهاب، عندها يرتحل قلبك ، ويكاد يطيـر لُبُّك ، شوقًا لصـاحب التركة ، لمـا جعل الله في كلامه من البـركة . فتصبح الدنيـا رخيصة مرفـوضة ، لا تساوي جناح بعوضة ، وتشتاق النفوس إلى الجنة ، لما غشيتها أنوار السنة .

إنِّي إذَا احْتَوشَتْني أَلْفُ مَحْبَرَةٍ

يَكْتُبْنَ حَدَّثَنِي طَورًا وأَخْبَرَنِي

نَادَتْ بِحَضْرَتِي الأَقْلامُ مُعْلِنَةً

تِلْكَ المَكَارِمُ لا قُعْبَان مِنْ لَبَنِ

أما أخبار المحدثين في الأسفار ، وقطع القفار ، وامتطاء البحار ، وركوب الأخطار ، فقد حفلت به الأسفار . ولكنهم في سفرهم يقرءون كتاب الكون ، في كل حركة وسكون، فإن المحدث يجد المتعة في ارتحاله ، والبهجة في انتقاله ، من ناد إلى ناد ، ومن جبل إلى واد ، فهو يعب من المناهل ، ويسرح طرفه في المنازل ، ويطلق بصره إلى دساكر الأقطار وغياضها ، وحدائق الديار ورياضها ، فيلمح عجائب البلدان، ويتصفح غرائب الأوطان، ويأنس بنغم الطيور في كل بُسْتَان، فهو في تنقل بين حيطان وغيطان ، ووديان وأفنان وألوان ، تمر به الصور والمشاهد ، ويبيت في المساجد ، ويعب الماء النمير ، من كل غدير ، له في كل بلدة أصحاب ، وله في كل قرية أحباب .

يفترش الغبراء، وَيَلْتَحِفُ السَمَاء ، سلم في سفره من أذى الجيران ، وضوضاء الصبيان، والثقيل من الإخوان ، ينام على الثرا، في العرا ، خارج القرى ، مركوبه رجلاه ، وخادمه يداه ، البسمة لا تغادر محياه :

وَمُشَتَّتُ الْعَزَمَاتِ لا يَأْوِي إِلى
سَكَنٍ وَلا أَهْلٍ وَلا جِيرَانِ

أَلِفَ النَّوَى حَتَّى كَأَنَّ رَحِيلَهُ
للبَيْنِ رِحْلَتُهُ إِلَى الأَوْطَانِ

قيل للفلاسفة : من سندكم ؟ قالوا : ابن سينا عن سرجيس بن ماهان ، عن أرسطاليس من اليونان .

وقيل لعلماء الكلام : من سندكم ؟ قالوا : محمد بن الجهم من خراسان ، عن الجهم بن صفوان .

وقيل للمحدثين : من سندكم ؟ قالوا : طاوس بن كيسان ، عن ابن عباس ترجمان القرآن ، عن الرسول سيد ولد عدنان ، عن الرحمن، كان المحدِّث إذا ودّع أولاده ، وترك بلاده ، وحمل زاده ، يجد من راحة البال ، وطيب الحال ، ما يفوق فرحة أصحاب الأموال ، وما يربو على سرور من ملك الرجال .

إذا جمع بعضهم كلام الفلاسفة ، أهل الزيغ والسفه ، الذي يورث الجدال والمعاسفه ، جمع المحدثون كلام الذي ما ضل وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى .

وإذا تفاخر أحدهم بجمع كلام علماء الكلام ، أهل الشقاق والخصام، والفرقة والخصام . تفاخر المحدثون بحديث خير الأنام ، أزكى من صلى وصام ، وحج بالبيت الحرام . قال الشافعي : إذا رأيتُ مُحَدِّثًا فكأني رأيتُ أحد أصحاب محمد ، قلت : لأن نهجهم مسدد ، وعلمهم من الله مؤيد .

وَقَدْ أَطَالَ ثَنَائِي طُولَ لابِسِهِ

إِنَّ الثَّنَاءَ عَلَى التِّنْبَالِ تِنْبَالُ

أنا لا أريد سَنَدي من إيوان كسرى أنوشروان ، ولا من الرومان ، ولا من اليونان، أريد سندي عن سفيان ، أو سليمان بن مهران ، أو سلمان عن رسول الإنس والجان .

تعلمني كلام الناس بلا دليل ، ولا تأصيل ، وتقول هذا كلام جميل، وعندي التنزيل ؟

قيل للحمار ، لماذا لا تجتر ؟ قال : أكره الكذب .

وقيل للجمل لماذا لا ترقص ؟ قال : لا أعرف الطرب .

وتعلمني الفلسفة والمنطق ، وأنا ما عندي وقت للعب .

أريد أن أسمع في المجلس ، حدثنا سبعين مرة ، لتكتمل المسرّة .

أَهْلُ الحَدِيثِ هُمُ أَهْلُ النَّبِي وَإِنْ
لَمْ يَصْحَبُوا نَفْسَهُ أَنْفَاسَهُ صَحِبُوا

الحديث النبوي كلام ، لم يخمر في عقول فلاسفة اليونان ، ولم يتعفن في أدمغة فلان وفلان ، ولم يأت من أهواء أهل الطغيان . وإنما قاله من أتى بالقرآن، تقرأ استنباط أهل الفهوم، وتطالع كتب أرباب العلوم، ثم تتلو حديث المعصوم ، فإذا ماء الوحي يترقرق في جنباته ، ورحيق العصمة يتدفق في قسماته، فكان كل علم قرأته قبله نسي وانتهى، لأنه لا يقاوم كلامًا أتى من عند سدرة المنتهى .

ما أحسن الضم والعناق ، لجملة حدثنا عبد الرزاق ، كلما قلت

أخبرنا علي بن المديني ، حفظت ديني ، سهمي لكل مبتدع يسدد ، إذا قلت حدثنا مسدد بن مسرهد .

أَشْرَقَتْ أمامي المسالك ، كلما قرأت موطأ مالك ، سقيم الإرادة العلمية له علاج ، عند مسلم بن الحجاج ، أدْمغُ كل منحرف بذيء ، بسنن الترمذي ، أنا في صباحي ومسائي ، أدعو للنسائي .

هاجر المحدثون إلى الله لطلب كلام رسوله الأمين ، فوجدوا في أول الطريق ثواب نية الصادقين ، ووجدوا في وسطه نضرة البهاء التي دعا بها سيد المرسلين ، ووجدوا في آخر الطريق جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

كل صاحب فن، ينسب إلى صاحب ذاك الفن ، إلا المحدثون فإنهم ينسبون إلى من أتى بالسنن، وأهدى لنا المتن، وتنعمت بعلومه الفطن .

مَا أَرْوَعَ الهِمَمِ الْكِبَارِ لِثُلَّةٍ
مَعْرُوفَةٍ بِالبِرِّ وَالإِحْسَانِ
يَتَصَيَّدُون كَلامَ أَكْرَمِ مُرْسَلٍ
يَنْفُونَ عَنْهُ سَبِيكَةَ البُهْتَانِ

سافر أحمد بن حنبل من بغداد إلى صنعاء ، يمتطي الرمضاء ، ويركب الظلماء، يترك الأهل، يدفعه الجبل إلى السهل، تشيعه الدموع، يرافقه الجوع ، لأن الرجل مشتاق، وأحد العشاق ، لذاك الترياق ، من قوارير عبد الرزاق .

دخل مكحول القرى والبوادي ، وطاف على النوادي ، وعبر كل وادي ، يطلب حديث النبي الهادي ، فصار ريحانة الشام ، وشيخ الإسلام .

ومشى أبو حاتم ، ألف فرسخ على الأقدام ، لطلب حديث سيد الأنام ، فأصبح بذلك أحد الأعلام .

تَهُونُ خُطَانَا لِلْمُحِبِّ فَلَوْ مَشَى

إِلَيْكُمْ فُؤَادِي كَانَ أَبْرَدَ لِلْشَّوْقِ

المحدثون هم عسكر الرسالة ، وجنود البسالة ، ظهروا على البدع بكتائب حدثنا ، وسحقوا الملاحدة بجيوش أخبرنا .

لولا كتابة الحديث في الدفاتر ، وحمل المحدّثين للمحابر ، لخطب الدجَّال على المنابر .

الله كم من أنف لمبتدع أرغم بصحيح البخاري ، وكم من صدر لمخالف ضاق بفتح الباري .

الحديث كسفينة نوح فيها من كل زوجين اثنين : رواية ودراية ، بداية ونهاية ، متون وأسانيد ، صحاح ومسانيد ، تراجم ومعاجم .

من ركب هذه السفينة نجا من غرق الضلالة ، وسلم من بحر الجهالة، ووصل شاطئ الرسالة .

انطلقت هذه السفينة من المدينة ، ربانها المصطفى ، والركاب

الصحابة الأوفياء ، نحن على مائدة المحدثين أضياف ، فلعلنا نعد منهم، لأن المضاف إليه يأخذ حكم المضاف ، لكل طائفة رئيس ، والمحدِّثُون محمد ﷺ رئيسهم ، وهم القوم لا يشقى بهم جليسهم ، ليتني خسرت ذهبًا مثل ثهلان ، بمجلس واحد مع سفيان .

المحدثون بيوتهم المساجد ، وعصى التسيار التوكل ، وزادهم التقوى، وكلامهم حدثنا وأخبرنا ، ويريدون وجهه ، والمطلب الجنة ، والمقصد رضوان الله ، والعمل الذب عن الملة ، والنسبة محمديّون .

هذه الطائفة : « **دَعْهَا فَإِنَّ مَعَهَا حِذَاءَهَا وَسِقَاءَهَا ، تَرِدُ المَاءَ وَتَرْعَى الشَّجَرَ حَتَّى يَلْقَاهَا رَبُّهَا ، فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ، فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ** » .

سلام على المحدِّثين ، ورحمة رب العالمين ، ورضوان عليهم في الخالدين ، وجمعنا بهم في الصالحين ، وإلى لقاء بعد حين :

إِنْ كَانَ قَدْ عَزَّ فِي الدُّنْيَا اللِّقَاءُ فَفِي
مَوَاقِفِ الحَشْرِ نَلْقَاكُمْ وَيَكْفِينَا

* * *

المقامة العلمية

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

جَعَلْتَ الْمَالَ فَوْقَ الْعِلْمِ جَهْلاً
لَعَمْرُكَ فِي الْقَضِيَّةِ مَا عَدَلْتَا
وَبَيْنَهُمَا بِنَصِّ الْوَحْيِ بَوْنٌ
سَتَعْلَمُهُ إِذَا طَهَ قَرَأْتَا

العلم أشرف مطلوب ، وأجل موهوب ، والعلماء ورثة الأنبياء ، وسادة الأولياء ، والشهداء على الألوهية ، والدعاة إلى الربوبية ، تستغفر لهم حيتان الماء ، وطيور السماء ، وتدعو لهم النملة ، وتستغفر لهم النحلة ، وَلاَيتهم لا تقبل العزل ، وأحكامهم ليس فيها هزل ، مجالسهم عبادة ، وكلامهم إفادة ، يوقعون عن رب العالمين ، ويفضلون الناس أجمعين ، وكما يُهتدى بالنجوم في ظلم البر والبحر ، فهم منائر الأرض يهتدى بهم في كل أمر ، العلم في صدورهم ، والله يهدي بنورهم ، وينزّل عليهم الرضوان في قبورهم ، هم حملة الوثيقة ، والشهداء على الخليقة ، كلامهم محفوظ منقول ، وحكمهم ماضٍ مقبول ، بهم تصلح الديار ، وتعمر الأمصار ، ويكبت الأشرار ، وهم عز الدين ، وتاج

الموحدين ، وصفوة العابدين ، هم أنصار الملة ، وأطباء العلة ، يذودون عن حياض الشريعة ، ويزجرون عن الأمور الفظيعة ، وينهون عن المعاصي الشنيعة ، هم خلفاء الرسول ، ثقات عدول ، ينفون عن الدين تأويل المبطلين ، وتحريف الجاهلين ، وأقوال الكاذبين ، مذاكرتهم من أعظم النوافل ، ومرافقتهم من أحسن الفضائل ، وهم زينة المحافل ، بهم تقام الجماعات والجمع ، وبهم تقمع البدع ، هم الكواكب في ليل الجهل ، وهم الغيث يعم الجبل والسهل ، عالِمٌ واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، لأن العالِم يُدرِك الحيل ، ولا تختلط عليه السبل ، يكشف الله به تلبيس إبليس ، ويدفع الله بهم كل دجّال خسيس ، أحياء بعد موتهم ، موجودون بعد فوتهم ، علمهم معهم في البيوت والأسواق، ويزيد بكثرة الإنفاق ، أقلامهم قاضية ، على السيوف الماضية، بصائرهم تنقب في مناجم النصوص ، وعقولهم تركب الدر في الفصوص ، الناس يتقاسمون الدرهم والدينار ، وهم يتوزعون ميراث النبي المختار ، لو صلّى العابد سبعين ركعة ، ما عادلت من العالِم دمعة، فهم أهل العقول الصحيحة ، وأرباب النصيحة .

العلم شرف الدهر ، ومجد العصر ، ذهب الملك بحراسه ، وبقيت بركة العالم في أنفاسه ، فنِيَ السلاطين ، ووُسِّدوا الطين ، وخلد ذكر أهل العلم أبدًا، وبقي ثناؤهم سرمدًا ، العلم أعلى من المال ، وأهيب من الرجال ، به عُبِدَ الديّان ، وقام الميزان ، وبه نزل جبريل ، على

صاحب الغرة والتحجيل،وبه عـرفت شرائع الإسلام ، ومُيِّز بين الحلال والحرام ، وبه وُصلت الأرحام ، وحُلَّ كلُّ نزاع وخـصام ، وبالعلم قام صرح الإيمان ، وارتفـع حصن الإحسان ، وبيِّنت العـبادات ، وشرحت المعامـلات ، وهو الذي جاء بالزواجر ، عن الصغائر والكبـائر ، وفَقِه الناس به الفـرائض والنوافل ، والآداب والفضـائل ، ونصبت به مـعالم السُّنن ، وكُـشف به وجـه الفـتن ، ودُلَّ به على الـجنة ، وَدُعِي به إلى السُّنَّةِ، وهو الذي سحق الوثنية ، وهدم كيان الجاهلية ، ونهى عن سبيل النار ، وموجبـات العار، ووسائل الدمار ، وبه حـورب الكفرة، وطورد الفـجرة، وهو من العـلل دواء، والشكوك شفـاء ، ينسف الشـبهـات، ويحجب الـشهوات ، ويصلح الـقلوب ، ويرضي علاّم الغـيوب ، وهو شرف الزمـان ، وختم الأمان ، وهو حـارس على الجوارح، وبوَّابة إلى المصـالح، وصاحبـه مهـاب عند الملوك، ولو كان صعـلوك ، وحامله ممجّد مسوّد ، ولو كان عـبدًا أسود ، يجلس به صاحبه على الكواكب، وتمشي معه المواكب ، وتخدمه السادة ، وتهابه القادة ، وتكتب أقواله، وتقتفى أعـماله ، وتحترمه الخـاصة والعامة ، ويدعى للأمـور العامّة ، مرفوع الهـامة، ظاهر الفخامـة ، عظيم في الصدور ، غني بلا دور ولا قصور ، الله بُغيته ، والزهد حليته ، مـسامرته للعلم قيام ، وصمته عن الخنا صيـام، رؤيته تُذكِّر بالله ، لا يعـجبه إلا الذكر ومـا وَالاه ، عرف الحقيقة، وسلك الطريقة ، به تقام الْحُجَّة ، وتعرف المحجة، وهو بطل المنابر، وأستاذ المحابر، والمحفوظ اسمه في الدفاتر .

الْعِلْمُ زَيْنٌ وَتَشْرِيفٌ لِصَاحِبِهِ
فَاطْلُبْ هُدِيتَ فُنُونَ الْعِلْمِ والأَدَبَا
لا خَيْرَ فِيمَنْ لَهُ أَصْلٌ بِلا أَدَبٍ
حَتَّى يَكُونَ عَلَى مَا زَانَهُ حَدَبَا
كَمْ مِنْ حَسِيبٍ أَخِي عِيٍّ وَطَمْطَمَةٍ
فَدم لَدَى القَوْمِ مَعْرُوق إِذَا انْتَسَبَا
فِي بَيْتِ مَكْرُمَةٍ آبَاؤه نُجُبٌ
كَانُوا رءوسًا فَأُمْتِي بَعْدِهم ذَنبَا
وَمُقْرِفٍ خَامِلِ الآبَاءِ ذِي أَدَبٍ
نَالَ المَعَالِي بالآدَابِ والرُّتَبَا
أَضْحَى عَزِيزًا عَظِيمَ الشَّأْنِ مُشْتَهِرًا
فِي خَدِّهِ صَعْر قَدْ ضَلَّ مُحْتَجِبَا
الْعِلْمُ كَنْزٌ وَذُخْرٌ لا نَفَادَ لَهُ
نِعْمَ القَرِين إِذَا مَا صَاحَبَ صَحْبَا
قَدْ يَجْمَعُ الْمَرءُ مَالاً ثُمَّ يُسْلَبُهُ
عَمَّا قَلِيلٍ فَيَلْقَى الذُّلَ وَالْحَرَبَا

وَجَـامِعُ الْعِلْمِ مَـغْـبُـوطٌ بِهِ أَبَدًا
وَلا يُحَـاذِرُ مِنْهُ الْفَـوْتَ والسَّلَبَـا
يَا جَـامِعَ الْعِلْمِ نِعْمَ الذُّخْرِ تَجْمَـعُـهُ
لا تَـعْـدِلَنّ بِـهِ دُرًّا وَلا ذَهَبَـا

والعلم وسام لا يخلع ، وهو من الملك أرفع ، وهو إكليل على الهامة ، ونجاة يوم القيامة ، ينقذ صاحبه من ظلمات الشك والريبة ، ويخلصه من كل مصيبة، وهو علاج من الوسواس ، وفي الغربة رضا وإيناس ، وهو نعم الجليس والأنيس ، وهو المطلب النفيس .

يغنيك عن المسومة من الخيل ، والباسقات من النخيل ، ويكفيك عن القناطير المقنطرة ، والدواوين المعطّرة .

هَذَا هُوَ الْعِلْمُ لا طِينٌ وَلا حَـجَـرٌ
وَلا خُـيُـولٌ وَلا عِـيسٌ وَلا بَقَـرُ
هُوَ النَّجَـاةُ هُوَ الرِّضْوَانُ فَـاحْضَ بِهِ
وَمَـا سِـوَى الْعِلْمِ لا عَـيْنٌ وَلا أَثَرُ

وحسبك به كفاية عن كل بناء ، وعن الحدائق الغناء ، والبساتين الفيحاء ، وهو الحكمة التي من أوتيها فقد أوتي خيرًا كثيرًا ، والمُلْك الذي من أعطيه فقد أعطي ملكًا كبيرًا ، وصاحب العلم غنيٌّ بلا تجارة ، أمير بلا إمارة ، قويٌّ بلا جنود، والناس بالخير له شهود .

لَكِنَّهُ الْعِلْمُ يَسْمُو مَنْ يُحَصِّلُهُ
عَلَى الأَنَامِ وَلَوْ من جَدِّه مُضَر

مات القادات والسادات، وذِكْرهم معهم مات، إلا العلماء فذكرهم دائم، ومجدهم قائم، فألسنة الخلق، أقلام الحق، تكتب وتخط لهم الثناء، وأفئدة الناس صحف تحفظ لهم الحب والوفاء، كان أبو حنيفة مولىً يبيع بزًّا، ولكنه بعلمه هز الدنيا هزًّا ، وكان عطاء بن أبي رباح، خادم لامرأة في البطاح، فنال بعلمه الإمامة، وأصبح في الأمة علامة، وابن المبارك عبد الله، المولى الإمام الأوّاه، والأعمش ومكحول، كانوا من الموالي ولكنهم أئمة فحول، فالعلم يرفع صاحبه بلا نسب ، ويشرفه بلا حسب .

وإنما يحصل العلم بخدمته كلَّ حين ، وطلبه ليُعبد به رب العالمين، وطيُّ الليل والنهار في تحصيله، والسهر على تفصيله، ومذاكرته كل يوم، والاستغناء به عن حديث القوم، ومطالعة مصنفاته ، ومدارسة مؤلفاته، وتقييد أوابده، وحفظ شوارده، وتكرار متونه، ومعرفة عيونه .

سَهَرِي لِتَنْقِيحِ الْعُلُومِ أَلَذّ لِي
مِنْ وَصْلِ غَانِيَة وَطِيبِ عَنَاقِ
وَدُمُوعُ عَيْنِي فَوْقَ قِرْطَاسِي لَهَا
هَمْسٌ كَهَمْسِ الْحُبِّ فِي الأَعْمَاقِ

فمن طلبه بصدق ، وحرص عليه بحق ، فهو مهاجر إلى الله ورسوله ، تفتح له أبواب الجنة عند وصوله ، وهو مرابط في ثغور المرابطين ، وجواد في صفوف المعطين ، ومداده في الأوراق ، كدماء الشهداء المهراق ، لأنه مقاتل بسيف النصوص ، قطّاع طريق الملة واللصوص ، وقد يقمع الله به الأشرار، ما لا يقوم به جيش جرار ، فإن الله يجري حجّته على لسانه ، ويُسيِّر موعظته في بيانه ، فينزع الله بكلامه حظَّ الشيطان من النفوس ، ويجتث به خطرات الزيغ من الرءوس، ويغسل الله بمعين علمه أوساخ القلوب. وينفض بنصائحه أدران الذنوب ، فكلما بنى إبليس في الأرواح ضلالة جاء العالم فأزهقها، وكلما نسج في الأنفس خيمة للباطل قام العالم فمزّقها .

صاحب المال مغموم مهموم ، خادم وليس بمخدوم ، حارس على ماله ، بخيل على عياله، وصاحب العلم سعيد مسرور ، يعمره الحبور، ويملأ فؤاده النور، تعلم من السؤدد غايته ، ومن الشرف نهايته ، تجبى إليه ثمرات كل شيء من لطائف المعارف ، وتهوي إليه أفئدة الحكمة وهو واقف ، يأتيه طلبة العلم من كل فج عميق ، كأنما يؤمّون البيت العتيق ، في قلبه نصوص الشريعة ، ينزل عليها ماء الفقه فتهتزّ وتربو ، وتنبت من كل زوج بهيج ، فترى العالم يجول فكره في الملأ الأعلى والناس في أمر مريج ، فقلب العالم له جولان في فضاء التوحيد ، وقلب الجاهل في غابات الجهل بليد ، أشرقت في قلب العالم مشكاة

فيها مصباح ، وتنفس في نفسه نور الصباح ، أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها، فاخضرت روضة العالم على أثرها .

صيد الكلب المعلّم حلال ، وصيد الكلب الجاهل حرام ووبال ، وما ذاك إلا لشرف العلم حتى في البهائم ، ومكانة المعرفة حتى في السوائم. والهدهد حمل علمًا إلى سليمان، فسطّر الله اسمه في القرآن ، فهو بالحجة دمغ بلقيس، وأنكر عليهم عبادة إبليس ، وحمل من سليمان رسالة ، وأظهر بالعلم شجاعة وبسالة . فعليك بالعلم ، والفهم فيه الفهم ، وتصدَّق عليه بنوم الجفون ، وأنفِق عليه دمع العيون ، واكتبه في ألواح قلبك ، واستعِن على طلبه بتوفيق ربك ، وأتعِب في طلبه أقدامك ، وأشغل بتحصيله أيامك، وإذا سهر الناس على الأغاني ، فاسهر على المثاني ، وإذا وقع القوم في الملذات، وأدمنوا الشهوات ، فاعكف على الآيات البينات، والحِكَم البالغات، وإذا احتسى العصاة الصهباء ، فاكرع من معين الشريعة الغراء ، وإذا سمعت اللاهين يسمرون، وعلى غيهم يسهرون ، فصاحب الكتاب ، فإنه أوفى الأصحاب ، وأصدق الأحباب، وإذا رأيت الفلاّح يغرس الأشجار ، ويفجّر الأنهار ، فاغرس شجر العلم في النفوس ، وفجّر ينابيع الحكمة في الرءوس ، وإذا أبصرت التجار يصرفون الفضة والذهب ، فاصرف الحجة كالشهب ، وأطلق الموعظة كاللهب .

يكفيك أن العلم يَدَّعيه غير أهله ، وأن الجهل ينتفي منه الجاهل

وهو في جهله ، يرفع العالم الصادق بعلمه على الشهيد ، لأنه يقتل به كل يوم شيطان مريد، العالم سيوفه أقلامه، وصحفه أعلامه ، ومنبره ظهر حصانِه ، وحلقته حلبة ميدانه ، العالم يفرّ من الدنيا وهي تلحقه ، ويأبى المناصب وهي ترمقه ، والعلم هو العضْب المهند ليس ينبو، وهو الجواد المضمّر الذي لا يكبو، ولكن المقصود بهذا العلم علم الكتاب والسنة، الذي يدلك على طريق الجنة، وهو ما قادك إلى الاتباع، ونهاك عن الابتداع ، فإن كسرك وهصرك ونصرك ، فهو علم نافع، فإن أعجبك وأطربك وأغضبك فهو علم ضار، ما كسرك عن الدنيا الدنية، والمراكب الوطيّة ، والشهوات الشهية، وهصرك عن العلو في الأرض، ونسيان يوم العرض، ونصرك على النفس الأمارة ، والأماني الغدارة ، فهذا هو العلم المفيد، والعطاء الفريد . وإن أعجبك فتكبرت ، وأطربك فتجبّرت ، وأغضبك فتهوّرت فاعلم أنه علم ضار، وبناء منهار .

علم لا يلزمك تكبيرة الإحرام مع الإمام ، فهو جهل وأوهام، وعلم لا يدعوك إلى الصدق في الأقوال ، والإصلاح في الأعمال، والاستقامة في الأحوال ، فهو وبال، العلم ليس مناصب ومواكب ومراكب ومراتب ومكاسب . بل العلم إيمان وإيقان وإحسان وعرفان وإذعان وإتقان، فهو إيمان بما جاء به الرسول، وإيقان بالمنقول والمعقول، وإحسان يجوّد به العمل، ويحذَر به من الزلل، وعرفان يحمل على الشكر، ويدعو لدوام الذكر، وإذعان يحمل على العمل بالمأمور، واجتناب المحذور، والرضا بالمقدور، وإتقان تصلح به العبادة، وتطلب به الزيادة .

وهذه قصيدة العلامة القاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني الأديب النابغة حسنة جرجان، وفرد الزمان، ونادرة الفلك، وإنسان حدقة العلم، ودرة تاج الأدب، جمع بين خط ابن مقلة ونثر الجاحظ، ونظم أبي تمام وقصيدته هذه هادرة بالقيم مليئة بالشمم مرصَّعة بالهمم ، وهي بديعة ذائعة، فريدة رائعة، عجيبة شائعة، إنها تثب إلى قلبك مبائة وتغوص إلى أعماقك وتسافر في دمك وتصل إلى خلدك في سرعة الضوء ورقة الغيث ودبيب السحر، إنها مسك وعنبر وياقوت وجوهر وريحان معطر ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ أدعها بين يديك فاقرأها بلا نثور، وارجع البصر هل ترى من فطور، ربِّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي القارئ فليسافر مع شوارد الإيمان يوم يرسلها العلماء الأفذاذ في سماء المثل، وفي دنيا السجايا الحميدة، إنها قصيدة أخَّاذة ثائرة خلابة فيها أسرار وحديث لا ينتهي وشجون لا تنقضي وذكريات تمور مور الموج الصاخب الهادر الغاضب وتمر مرّ السحاب المتدافع المتلاحق وتسعى سعي الريح الهائجة . وهكذا فليكن الشعر عذوبة ورقة ومخاجة وجزالة، وسمواً ونبلاً وإيحاءً وتأثيراً، والآن أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه، وأترككم مع القاضي الشاعر المؤثر الجرجاني :

يَقُولُونَ لِي : فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا

رَأَوْا رَجُلاً عَنْ مَوْقِفِ الذُّل أَحْجَمَا

أَرَى النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمْ هَانَ عِنْدَهُم

وَمَنْ أَكْرَمَتَهُ عِزَّةَ النَّفْسِ أَكْرَمَا

وَلَمْ اقْضِ حَقَّ الْعِلْمِ إِنْ كُنْتَ كُلَّمَا

بَدَا مَطْمعٌ صَيَّرْتُهُ لِي سُلَّمَا

وَمَا زِلْتُ مُنْحَازًا بَعْضِي جَانِبًا

عَنِ الذُّلِ أَعْتَدُ الصِّيَانَة مَغْنَمَا

إِذَا قِيلَ: هَذَا مَنْهَلٌ قُلْتُ: قَدْ أَرَى

وَلَكِن نَفْسُ الحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا

أُنَزِّهُهَا عَنْ بَعْضِ مَا لا يُشِينُهَا

مَخَافَةَ أَقْوَالِ العِدَا: فِيمَ أو لِمَا

فَأُصْبِحُ عَنْ عَيْبِ اللئِيمِ مُسَلَّمًا

وَقَدْ رُحْتُ فِي نَفْسِ الكَرِيمِ مُعَظَّمًا

وَإِنِّي إِذَا مَا فَاتَنِي الأَمْرُ لَمْ أُبِتْ

أُقَلِّبُ كَفِّي إِثْرَهُ مُتَنَدِّمَا

وَلَكِنَّهُ إِنْ جَاءَ عَفْوًا قَبِلْتُهُ

وَإِنْ مَالَ لَم أُتْبِعْهُ هَلّ وليتما

وَأَقْبِضُ خَطْوِي عَنْ حُظُوظٍ كَثِيرَةٍ
إِذَا لَمْ أَنَلْهَا وَافِرَ الْعَرْضِ مُكْرَمَا
وَأُكْرِمُ نَفْسِي أَنْ أُضَاحِكَ عَابِسًا
وَأَنْ أَتَلَقَّى بِالْمَدِيحِ مُذَمَّمَا
وَكَمْ طَالِبٍ رِقِّي بِنِعْمَاهُ لَمْ يَصِلْ
إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ الرَّئِيسُ الْمُعَظَّمَا
وَكَمْ نِعْمَةٍ كَانَتْ عَلَى الحُرِّ نِقْمَةً
وَكَمْ مَغْنَمٍ يعتُّه الحُرُّ مَغْرَمَا
وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهْجَتِي
لأَخْدُمَ مَنْ لاقَيْتُ لَكِنْ لأُخْدَمَا
أَأَشْقَى بِهِ غَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً
إِذًا فَاتِّبَاعُ الجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا
وَإِنِّي لَرَاضٍ عَنْ فَتًى مُتَعَفِّفٍ
يَرُوحُ وَيَغْدُو وَلَيْسَ يَمْلِكُ دِرْهَمَا
يَبِيتُ يُرَاعِي النَّجْمَ مِنْ سُوءِ حَالِهِ
وَيُصْبِحُ طَلْقًا ضَاحِكًا مُتَبَسِّمَا

وَلا يَسأَلُ الْمُثْرِين مَا بِأَكُفِّهِم
وَلَوْ مَاتَ جَوْعًا عِفَّةً وَتَكَرُّما
فَإِنْ قُلْتَ: زِنْدُ الْعِلْمِ كَابٍ، فَإِنَّمَا
كَبَا حِينَ لَمْ نَحْرُسْ سَمَاهُ وَأظْلَمَا
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ
وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظِّمَا
وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانُوا وَدَنَّسُوا
مُحَيَّاهُ بِالأَطْمَاعِ حَتَّى تَجَهَّمَا
وَمَا كُلُّ بَرْقٍ لاحَ لِي يَسْتَفِزُّنِي
وَلا كُلُّ فِكْرِي مُنْجِدًا ثُم مُنْهِمَا
إِلَى أَنْ أَرَى مَا لا أَغُضُّ بِذِكْرِهِ
إِذَا قُلْتُ: قَدْ أَسْدَى إِلَيَّ وَأَنْعَمَا

* * *

المقامة السلفيّة

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه ﴾

هُمُ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا
أَجَابُوا وَإِنْ أُعْطُوا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا
وَلا يَسْتَطِيعُ الفَاعِلُونَ فِعَالَهُم
وَلَوْ حَاوَلُوا فِي النَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوا

قال الراوي : نراك صاحب تحف ، فحدثنا عن مذهب السلف ، ليقتدي به الخلف، فملأه السرور ، وحضره الحبور ، وغشيه النور ، ثم أنشد :

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِالخِيفِ مِنْ مِنًى
فَهَيَّجَ أَشْوَاقَ الْفُؤَادِ وَمَا نَدْرِي
دَعَا بِاسْمِ لَيْلَى غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا
أَطَارَ بِلَيْلى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي

ثم قال ذكرتمونا خير القرون، ونون العيون ، فحديثهم ذو شجون .

فهم أهل الاتّباع لا الابتداع، وأهل الرواية والسماع، والأُلفة

والاجـتمـاع، نزل الوحي بناديهم، وسـارت السنة من واديهم، شهـدوا التنـزيل ، وعرفوا التـأويل ، قولهم سديد ، وفعلهم رشيـد ، ومنهجهم حميد ، ومذهبهم فريد ، اعتصموا بالدليل ، وتركوا القال والقيل ، فهم صفوة كل جيل ، وخلاصة كل قبيل :

هُمُ النُّجُومُ مَسَائِلُهَا إِذَا الْتَبَسَتْ
عَلَيْكَ عِنْدَ السرى يَا صَاحِبِي السُّبُلُ
اتَّبِعْ طَرِيقَتَهُمْ اعْرَفْ حَقِيقَتَهُمْ
اقْرَأ وَثِيقَتَهُمْ بِالْحُبِّ يَا رَجُلُ

السلف أهدى الناس سبيلاً ، وأصدقهم قيلاً ، وأرجحهم تعديلاً .

هم أعلام يُهتدى بهم في بيداء الضلالة ، وهم أقـمار يستضاء بها في ليل الجهـالة ، هم الموازين الصادقـة للمذاهب ، وهم المعـين العذب لكل شـارب ، وهم الرعيل المـختـار المقـتدى به كل طالب . تـركوا التشدّق، والتفيهق ، والتشقق، والتحذلق، والتمزق .

وهجـروا التعـسف والتكلف ، لـهم منا الحب الصـادق ، والعهـد الواثق، والإجلال والتـقدير ، والإكرام والتـوقير ، والنصرة والتـعزير، شـرف الله تلك الأقدار ، وأنزلهـم منازل الأبرار ، وأسكنهم أجل دار، وأحسن قـرار، لو كتبت دموعنا على خـدودنا لما كتبت إلا حُـبَّهُم، لو تمنت قلوبنا غاية الأماني ما تمنّت إلا قربَهم .

أَمَـا وَالَّذِي شَقَّ الْقُلُوبَ وأَوْجَـدَ الـ
مَحَبَّةَ المحبَّةُ فِيهَا حَيْثُ لا تَتَصَرَّمُ
وَحَـمَلَهَـا قَلْبُ الْمُـحِبِّ وَإِنَّهُ
لَيَضْعُفُ عَنْ حَمْلِ القَمِيصِ وَيَأْلَمُ
لأَنْتُمْ عَلَى قُـرْبِ الدِّيَارِ وَبُعْدِهَا
أَحِبَّتَنَا إِنْ غِبْتُمُوا أَوْ حَضَرْتُمُوا
سَلُوا نَسَمَاتِ الرِّيحِ كَمْ قَدْ تَحَمَّلَتْ
مَحَبَّةُ صَبٍّ شَوْقُهُ لَيْسَ يُكْتَمُ

السلف خير منا ، ارتفع قدرهم عنا، سبقوا بالإيمان، وحب الديان، والعمل بالقرآن، ونيل درجة الإحسان، هم أهل الهجرة والجهاد، والصبر والجلاد ، عندهم خير زاد ، ليوم المعاد ، وهم صفوة العباد . السلف ليسوا معطلة ، ولا معتزلة ، ولا مؤوِّلة ، ولا مجهّلة ، ولا مخيّلة ؛ لأن **المعطلة** عطلوا الباري مما دلت عليه الأحاديث والآيات، **والمعتزلة** نفوا الصفات، **والمؤولة** أوّلوا ما أتت به النصوص الواضحات، **والمجهلة** قالوا : إن الرسل ليس عندهم إلا تخيلات ، فضلّ الجميع في العقليات ، وجهلوا النقليّات ، فهدى الله أهل السنة لأحسن الأقوال في الظنيات واليقينيات ، والصفات ، والذات .

والسلف ليسوا خوارج أقوالهم كفرية ، وليسوا جبرية ، ولا قدرية، ولا أشعرية .

لأن **الخوارج** كفّروا بالكبيرة، وأخرجوا المسلم من الدين بالجريرة ، وحملوا السيف على أئمة الحيف ، وخلَّدوا الفاسق في النار ، مع الكفار ، **والجبرية** قالوا : إن العباد جبروا على الذنوب ، وقهروا على معصية علام الغيوب . **والقدرية** قالوا :لم يسبق القدر علم ولا كتاب ، والأمر مستأنف خطأه والصواب .

والأشعرية أثبتوا الأسماء وسبعًا من الصفات، وأوّلوا الباقيات، ولهم مقالات زائفات، **والسلف** قابلوا النصوص بالإذعان والتسليم ، والتوقير والتكريم، فأمَرُّوها على ظاهرها كما جاءت من غير تمثيل ، وقبلوها من غير تعطيل ، وعرفوها من غير تكييف، وفهموها من غير تشبيه ولا تزييف .

وأنا إلى السلف أنتسب، لأنني رضعت منهجهم ويحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، والمبتدعة ليسوا منا ولا إلينا، لأن البقر تشابه علينا. إذا أتاني كتاب مختوم ، عليه توقيع المعصوم ، لثمتُه بدموعي وأنفاسي ، ووضعته على رأسي ، وقلت سمعًا وطاعة، لصاحب الحوض والشفاعة .

وإذا جاءني كتاب بالباطل منمرق ، وبالبدعة مزمرق ، وبالبهتان ممخرق ، مزقته كل ممزق . واعظ الله في كل سريرة ، فإذا ألقيت

قميص يوسف على يعقوب البصيرة . عاد القلب بنور الوحي بصيراً ، وارتد طرف الباطل حسيراً ، وانفل حَدُّ الزور كسيراً . سلام على السلف، من الخلف، ما غرد حمام وهتف، وما حَنّ حبيب لحبيب وعطف، وما رقص قلب صب ورجف، وما همع دمع ونزف .

جمرك البضاعة بختم محمد ، واكتب على البطاقة لا يستبدل ولا يجدد ، واقرأ على الكيس خرج من مدينة الرسول ، وحامل الكيس هو المسئول ، واحذر من التزوير ، فإن موزع البريد بصير، وقارئ الرسائل خبير، إذا طلع فجر البشرى من المدينة أَذّنّا ، وإذا رأينا الركب من طيبة أعلنّا ، وإذا سمعنا الهتاف المحمدي أمنّا ، وكلنا حول رايته دندنّا .

خبز كانون الرسالة أبيض ، لا يأكله كل معرض ، الدقيق بالصدق مطحون ، فلا يأكله المبطون ، ما لك لا تهتدي في المسالك ؟ وتقع في المهالك ، نناديك إلى أحمد بن حنبل ، فتذهب إلى أحمد بن أبي دُؤاد المغفل ، ونقول رافق إبراهيم بن أدهم ، فترافق الجعد بن درهم ، تهجر الصادق السلفي يحيى بن معين، وتصاحب ابن سينا وابن سبعين ، ويعجبك كلام ابن الراوندي اللعين ، عليك بمجلس مالك وسفيان ، واهرب من الجهم بن صفوان، عندنا حماد بن زيد، وعندهم عمرو بن عبيد، احذر من الكشاف، فإنه ليس بكاف شاف ، وأحذرك الفصوص ، فإن بين أسطره اللصوص ، السلف أبرياء من الاختلاف واللّجاج ، وظلم الحجّاج ، وخرافات الحلاّج .

السلف أطهر من ماء الغمام ، وأزكى من المسك والخزام ، حسبهم تزكية الملك العلاّم ، جمعنا الله بهم في دار السلام ، هجروا العلوم المنطقية ، والقضايا السفسطية ، والعقائد القرمطية ، ولزموا الطريقة الوسطيّة .

السلف صادقون لا يكذبون ، عدول لا يظلمون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، ولهذا أمر أبو بكر الصديق بقتل مسيلمة الكذاب ، فمُزق بالحِراب : عندنا خالدان : سيف الله خالد بن الوليد، وخالد القسري ذو البطش الشديد ، فخالد ذبح مسيلمة في اليمامة ، وخالد نحر الجعد بن درهم وهو في محراب الإمامة .

لدينا أحمدان ، ولديهم أحمدان ، صادقان ، وكاذبان ، عندنا أحمد ابن حنبل ، إمام السنة المبجل ، وعلامة الحديث المفضل ، وأحمد بن تيميّة ، مجدد الأمة الإسلامية ، صاحب التدمرية والحمويّة .

وعندهم أحمد بن أبي دُؤاد ، صاحب البدعة والعناد ، والخلاف والفساد ، وأحمد غلام مرزا قاديان ، حامل الزور والبهتان ، والدجل والطغيان .

عندنا حمادان، وعندهم حمادان ، عندنا حماد بن زيد ، الراوية المفيد ، والمحدث المجيد، وحماد بن سلمة ، نصب للصدق علمه، وأجرى في العلم قلمه، وعندهم حماد عجرد، الشاعر المعربد، والضال الملحد ، وحماد الراوية ، صاحب الأفكار الخاوية ، أمه هاوية .

لَشَتَّانِ مَا بَيْنَ اليَزِيدَيْنِ فِي النَّدَى
يَزِيدُ بن عَمْرٍو وَالأَغَرُّ بْنُ حَاتِمِ
فَهَمُّ الْفَتَى الأَزْدِي إِتْلافُ مَالِهِ
وَهَمُّ الفَتَى الْقَيْسِي جَمْعُ الدَّرَاهِمِ

السلف كالعيون ، علاجها أن لا تمس ، وكالدرر جماله أن لا يدس، والسلف كالماء الزلال فلا تشوبه بالطين، وكلامهم مبارك متين ، لا يفهمه إلا فطين .

السلف أعلم ، وأحكم ، وأسلم ، وأحلم ، وأكرم ، والمبتدعة أظلم ، وأغشم ، وأشأم ، وأجرم ، قل لا يستوي الخبيث والطيب ، والقحط والصيّب .

الذباب إذا وقع في الإناء ، فاغمسه فإن في أحد جناحيه داء ، وفي الآخر دواء ، وإذا وقع المبتدع في إناء السنة النبوية ، فأهرقه بالكلية ، لأن في جناحيه كلها بلية .

الكلب المعلَّم كُل ما صادَه ، لأنه جعل العلم زاده ، وإذا جاءك المبتدع بصيد ، فقل حرام صيدك يا بليد ، لأنك مفسد رعديد .

بشّر من سبّ السلف ، بكل تلف ، مزّق الله قلبًا لا يحب الأسلاف، وأزهق الله روحًا تهوى المبتدعة الأجلاف ، نفس لا تحترم السلف مريضة ، وروح لا توقّر السلف بغيضة . جزاء علماء الكلام

الجريد والنعال ، والسياط الطوال ، والقيد والأغلال ، لأنهم اشتغلوا بالقشور وتركوا اللباب ، وفارقوا السنة والكتاب ، وخالفوا الأصحاب .

السلف : موحدون مسدّدون ، مقتصدون ، عابدون ، مجاهدون ، زاهدون ، متحدون ، متوادون ، متهجدون .

والمبتدعة : متفرقون ، متحذلقون ، متنطعون ، متفيهقون ، متشدقون ، قلقون ، متمزقون.

نوح الهداية ، ينادي ابن الغواية : اركب معنا ، فإن القارب يسعنا ، فقال الهبل : سآوي إلى جبل ، وما علم أن أعظم جبل ، اتباع سيد الرسل ، وطاعة الملك الأجل ، والعمل بما نزل .

* * *

■ المقامَــة اليـوسـفـيّــة ■

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾

كَــأنَّ الثُّــريَّا عَلَقَتْ بِجَــبِــينِهِ
وَفِي جِيدِه الشِّعْرَى وَفِي وَجْهِهِ القَمَرْ
وَلَوْ نَظَرَتْ شَمْسُ الضُّحَى فِي خُدُودِهِ
لَقَـالَتْ مَـعَـاذَ اللهِ مَـا يُـوسُفُ بَشَـرْ

كنا نجلس كل يوم ، مع قوم ، ينتقون من الحديث درره ، ويذكرون لنا العـالم بحره وبرّه . فـدلَف علينا يومًـا من الأيام ، شيخ ممشـوق المقام، كثير الابتسام ، فصيح الكلام ، فنظر في وجوهنا وتوسّم ، ثم تبسّم وسلّم ، ثم جلس واتكى ، وتأوّه وشكى .

قلنا: مـا الخبـر، أيها الشـيخ الأغَرُّ؟ قال: تـذكرت من غبـر، أهل الأخبار والسير، فعلمت أننا بالأثر، قلنا: ما الاسم، فقد أعجبنا الرسم.

قال : أنا عـبيد الله بن حسـان ، من أهل ميسـان ، قلنا : كلامك محـبوب ، فقص علينا قـصة يوسف بن يعقـوب ، فقال : مهـما اهتم العـالم بالحفظ وحـرص ، لكن الذهن فـتـر والخاطر نكص . وكـفى بقصص اللـه وهو يقول : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ ، لكن سوف أخبركم بوقفات ، والعفو عما نسيناه وفات .

لما نصح يعقوب يوسف أن لا يقص مـا رأى ، لأنه يخشى عليه ما جرى، فإنه ما خـلا جسد من حسد ، وكم من قلب بنعم الغـير فسد ، فيـا أيها العبد استـر جمـال يوسف النعم ، خوفًا من أن تلقى في غـيابة جب النقم ، فيسلط عليك ذئب البغضاء ، لا ذئب الصحراء :

عَوَى الذِّئبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذِّئْبِ إِذْ عَوَى

وَصَـــوَّتَ إِنْسَـــانٌ فَكِدْتُ أَطِيـــرُ

لا تعتـذر للمخـالف ، فيـأخذ العذر منك وأنـت واقف ، أما ترى يعقـوب ، يوم خاف على ابنه الخُطُوب ، قـال : أخاف أن يأكل الذئب يوسف ، فـقالوا : أكله الذئب فـلا تأسف ، فكأنّه هيـأ لهم الحجـة ، حينما ضلوا في المحجّة .

وجاءوا على قـميصه بدم كـذب ، لأن الذئب لا يخلع الثوب ، بل يشقه ويسحب ، والذئب لا يفتح الأزرار ، بل يمزقها بلا وقار :

يَا مُـمْـعِنًا فِي السُّـوءِ وَالعـيَبِ

لا يَنْفَعُ التَّـهْـذِيـبُ فِي الذِّيبِ

لو علمت القافلة بمكانة يوسف : ما قـالوا : يا بشرى هذا غلام ، بل لقالوا : يا بشرى هذا إمام ، وولي مقدام ، وسيد همام ، ولكن وما أدرى الليل ببدر التمام

يوسف لديه جمال وجلال ، فردعه وازع الجلال ، عن نوازع الجمال، لما قال : معاذ الله ، حماه ربه وتولاه .

لو ترك يوسف كلمة اذكرني عند ربك وذكر هو ربَّه ، لكشف كربه، وأزال خطبه ، وأسعد قلبه .

يوسف ما نسي إيمانه ، سُئل عن الرؤى وهو في الزنزانة ، فدعا إلى التوحيد ، لأن التوحيد حياة العبيد ، لا يرده قيد ولا يمنعه حديد .

قَدْ قُلْتُ للذّئْبِ الوَفيِّ لِصَحْبِهِ
يَا صَاحِبَ الأظْفَارِ وَالأَنْيَابِ
أَأَكَلْتَ يُوسُفَ فِي العَرَاءِ بِخِلْسَةٍ
وَدَمِ النُّبُوَّةِ سَالَ فِي الأَثْوَابِ
فَأَجَابَنِي وَاللهِ لَمْ أَهْمِمْ بِهِ
هَذَا مَعَاذَ اللهِ غَيْرُ صَوَابِ
إنِّي أُحِبُّ الأَنْبِيَاءَ وَمُهْجَتِي
تَفْدِي النَّبِي وَمُقْلَتِي وَإِهَابِي

الذئاب ما تأكل الأنبياء، ولا تلطخ أفواهها بدماء الأولياء، لأنهم أصفياء أوفياء وإنما يقتل الأنبياء ذئاب الخليقة ، إذا عميت عليهم الحقيقة، وأظلمت عليهم الطريقة:

الذِّئبُ أَكْـرَمُ عِـشْـرَةً مِنْ ثُلَّةٍ

خَـانُوا عُـهُـودَ مَـوَدَّةِ الإِخْـوَانِ

في سـورة يوسف قـمـيص بريء من الذئب ، وقـمـيص بريء من العيب، وقميص مضمخ بالطيب .

فالأول : قميص يوسف وقد مزّقه الإخوان ، **والثاني** : قميصه وقد مزّقته امرأة السلطان ، **والثالث** : قميصه وقد ألقي على يعقوب فأبصرت العينان :

كَـأَنَّ كُلَّ نِدَاءٍ فِي مَـسَـامِـعِـهِ

قَمِيصُ يُوسُفَ فِي أَجْفَانِ يَعْقُوبَ

لما قـال إخوة يوسف له : ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ، نسوا أنهم هم الذين أوقعوه في همٍّ كثير ، فهو بسـبب ما فعلوه في حزنه أسير ، وفي بيته كسير ، فهم يحتجون به وقت الحاجة ، وينسونه وقت اللجاجة .

لما قـال يعقوب : لا تدخلـوا من باب واحد، لأنه خاف الحـاسد، فهو في مكان النعـيم قاعد، فإذا أقبلوا في حملة ، قـتلهم جملة ، فَعمِّ على الحسود الأمر ، لتضع في عينيه الجمر .

أَعْطَيْتُ كُلَّ النَّاسِ مِنْ نَفْسِي الرِّضَى

إِلاّ الحَـسُـودَ فَـإِنَّهُ أَعْـيَـانِي

مَـــالِي إِلَيْـــهِ خَطِيـــئـــةٌ أَوْ زَلَّةٌ
إِلا تَـرَادفُ نِعْـــمَـــةَ الرَّحْـــمَـــانِ
وَأَبَى فَـــمَـــا يرْضِـــيـــه إِلاَّ ذلَّتِي
وَذِهَابُ أَقْـــوَالِي وَقَطْعُ لِسَـــانِي

الدنيا وجهها نحس ، يباع يوسف بثمن بخس ، وحزن يعقوب يكاد يذهب بالنفس، والفراعنة بملكهم يفرحون، وفي دنياهم يمرحون ، وفي نعيـمهم يسـرحون لكن انظر إلى العـواقب، عندما تكشـف عن الأولياء النوائب ، وتزول عنهم المـصـائب . فإذا الفـرحـة الغامـرة ، والحيـاة العامرة، والنعيم في الآخرة .

أما الفجار ، فسحابة نهار ، وراحة حمار ، ثم نكال في أسوأ دار .

هَمَّ يوسفُ هَمّة ، فتذكر علو الهمة، وإمامة الأمّة ، ففر إلى الباب، يطلب الطريق إلى الوهاب ، بعد ما هيئت له الأسباب ، لأن يوسف من سلالة الأطياب ، فتاب وأناب .

يوسف شاب، من العزاب، تعرّضت له امرأة ذات منصب وجمال، وحسن ودلال ، فغلقت الأبواب ، وَرَفَلَتْ في أبهى الثياب ، فتذكر يوم القيامة ، وسـاعة الندامة ، فقال : أواه معاذ الله ، فـمنعه الله وكفاه ، وأنت تتـعرض للنسـاء صبـاح مساء، غـرك الوجه المـبرقع، والحُسْنُ المرقع، ولا تحذر وتتوقّع .

هَبْ أَنَّ نَظْرَتُكَ الَّتِي أَرْسَلْتَهَا

عَادَتْ إِلَيْكَ مَعَ الهَوَى بِغَزَالِي

نَظَرُ المُهَيْمِنِ فِيكَ أَسْرَعُ مَوْقِعًا

فَخَفْ العَظِيمَ الوَاحِدِ المُتَعَالِي

في قلب يوسف من الوحي نصوص ، وفي قلبك من المعصية لصوص ، في شرايين يوسف دماء الإمامة والدين ، وفي شرايينك شهوة الماء والطين .

يوسف تخرج من جامعة ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾، وأنت تخرجت من جامعة: **يَشْكُو العُيون السُّودَ قَلْبِي وَالْهَوَى** .

يوسف تربيته على شريعة ، وأخلاق رفيعة ، وبعضهم يُرَبَّى على مجلات خليعة ، وآداب شنيعة ، ودشوش فظيعة .

وا أسفي على منهج يوسف، في هذا الواقع المؤسف، صورةٌ عارية، وكأسٌ وجارية، وشهواتٌ سارية ، كلها تقول : هيت لك ، وليس عند الجيل صرخة معاذ الله .

الآن حصحص الحق ، وبان الفرق ، فيا شباب الصدق ، قولوا في أحسن نطق : معاذ الله ، من أراد السناء ، والثناء ، والعلياء ، وأن يحمي نفسه من الفحشاء ، والفعلة الشنعاء ، فليحفظ متن الأولياء : معاذ الله . من عاذ بالله أعاذه ، وأكرم ملاذه .

المقامة السُّلَيْمَانِيَّة

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾

لا شَيْءَ مِمَّا تَرَى تَبْقَى بَشَاشَتُه
يَبْقَى آلُ لَهُ وَيُودِي المَالُ وَالْوَلَدُ
لَمْ تُغْنِ عَنْ هُرْمُزٍ يَوْمًا خَزَائِنُهُ
وَالْخُلْدُ قَدْ حَاوَلَتْ عَادٌ فَمَا خَلَدُوا
وَلا سُلَيْمَانَ إِذْ تَجْرِي الرِّيَاحُ لَهُ
وَالجِنُّ وَالإِنْسُ فِيمَا بَيْنَهَا تَرِدُ
أَيْنَ المُلُوكُ الَّتِي كَانَتْ لِعِزَّتِهَا
مِنْ كُلِّ أَوَّابٍ عَلَيْهَا وَافِدٌ يَفِدُ
حَوْضٌ هُنَالِكَ مَوْرُودٌ بِلا كَذِبٍ
لا بُدَّ مِنْ وِرْدِهِ يَوْمًا كَمَا وَرَدُوا

ما مر من قديم الزمان ، مُلْك كملك سليمان ، فقد علم منطق الطير بلا ترجمان ، وقد اجتمعت في غيبته الحيوانات والطيور ، في يوم فرح وسرور، وهناء وحبور، فقالت البهائم للأسد : أيها الأمير ، اجلس على السرير ، فإنك أبونا الكبير ، فتربع جالسًا ، ثم سكت عابسًا ، فخاف الجميع، وأصبحوا في موقف فظيع، فقام الحمار، أبو المغوار ،

فقال: يا حيدرة، سكوتك ما أنكره، فقال الأسد: يا حمار البلد، يا رمز الجلَد، سكتُ لأن الثعلب غاب، وقسمًا لو حضر لأغرزن في رأسه الناب، فقام الذيب يتكلم وهو خطيب مصيب، فقال للأسد: يا أبا أسامة إن الثعلب قليل الكرامة ، عديم الشهامة ، فليتك توره الندامة ، فهو لا يستحق السلامة ، وكان أحد التيوس مع الجلوس ، فانسل إلى الثعلب فوجده يلعب فقال : انتبه أيها الصديق ، فالكمين في الطريق، إن الأسد يتوعدك بالذبح ، فاجتهد معه في الصلح ، فقال الثعلب : فمن الذي دهاني عنده ، وَغَيَّرَ علي وده ، قال التيس : هو عدوك وعدوي ، الذي في كل وادٍ يدوي ، هو الذيب الغادر ، صاحب الخيانة الفاجر ، قال الثعلب : أنا الداهية الدهياء ، لأنثرن لحمه في العراء ، أما سمعت الشاعر أحمد ، إذ يقول في شعر مسدد :

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ

هُوَ أَوَّلٌ وَهِيَ المَحَلُّ الثَّانِي

فلما حضر الثعلب إلى الأسد ، ودخل مجلسه وقعد ، قال أبو أسامة ، والثعلب أمامه : ما لكَ تأخرت يا بليد ، تالله إن الموت أقرب إليك من حبل الوريد .

قال الثعلب : مهلا أبا أسامة ، أبقاك الله للزعامة ، سمعت أنك مريض ، فذهبت إلى البلد العريض ، ألتمس لك دواء ، جعله الله لك شفاء ، قال : أحسنت ، وسهلت عليّ الأمر وَهَوَّنت ، فماذا وجدت ،

قال : وجدت أن علاجك في كبد الذيب مع حفنة من زبيب ، فقال الأسد للذيب ، أمرك عجيب ، وشأنك غريب ، علاجي لديك ، وقد سبق أن شكوت عليك ، فلما دنا الذيب واقترب ، سحبه الأسد فانسحب ، فخلع رأسه ، وقطع أنفاسه ، ثم سلخ لبده ، وأخرج كبده، فصاح الهدهد ، وهو فوق بعض الأخشاب ، يا أبا أسامة ، ما تترك الظلم والغشامة ، فرد عليه الأسد ، اسكت سَدّ الله فاك ، أنسيت أنك عصيت أمر مولاك.

قال الهدهد: يا ظلوم يا غشوم يا مشئوم . أنا الذي دَلَّ على بلقيس يا خسيس، وجيت سليمان ملك الإنس والجان، بنبأ من سبأ ، وحملت الرسالة في بسالة، ودعوت للتوحيد ، وهو حق الله على العبيد ، فبلقيس أسلمت بسببي، وحسبي معروف ونسبي ، ثم أنشد الهدهد :

وَلَقَدْ حَمَلْتُ رِسَالَةً مَخْتُومَةً
يَهْدِي سُلَيْمَان بِهَا بِلْقِيسَا
فَوَضَعْتُهَا فِي حِجْرِهَا مُتَلَطِّفًا
كَانَتْ تُقَدِّس شَمْسَهَا تَقْدِيسَا

فأعرض أبو أسامة ، وقطع كلامه ، وإذا بحية لها فحيح ، أقبلت تصيح ، قد ذبل شعر رأسها وشاب ، وما بقي لها إلا ناب ، فقال الأسد : مَنْ بالباب .

قالت الحية : أنا أم الجلباب ، فقال : ما اسمك يا حية ، وما معك من قضيــة ، قالت : اسمي لس ، وخبــري على ظاهر فقس ، أنا كنت اسكن ، في قــريــة من قــرى فلسطين ، رأسي في الــمــاء ، وذنبي في الطين، فعصى أهل القــرية خالقهم، وكفروا رازقهم ، فــساقني إليهم ، وسلطني عليهم ، فــقذفت في بيرهم من ســمي زعافًا ، فمــاتوا آلافًا ، وهلكوا أصنافًا ، وردم الله عليهم القرية ، لأنهم أهل فرية .

فلما ملك سليمــان، اختفت القرية عن العيــان، فأراد أن يرى القرية رأي العين، فاستدعى الرياح في ذلك الحين، فقال للريح الشمالية، هبي قوية، وأخرجي لنا تلــك البئر المطوية، والقرية المنســية، قالت: يا نبي الله أنا أضــعف من ذلك بكثيــر، أنا خلقني ربي لتلقــيح الثمــار، بقدرة القدير ، فقال للغربية: أنت لازلت فــتية ، فهبي على هذه الدار ، لنرى ما تحتها من الآثار، قالت: يا نبي الله ، أنا خلقني ربي لتلطيف الهواء، وتبريد الماء ، ولكن عليك بالدَّبور ، فإنها التي أهلكت كل كفور .

فقــال سليمان : أيها الدبور ، بَــأْسُكِ مشهور ، وبطشك مــذكور ، فأخرجي لنا القــرية المنكوبة ، لنرى كل أعجوبة ، فــهبت ولها هرير ، وزلزلة وصرير ، فــاقتلعت التــراب والحجر ، ونســفت الشجــر ، حتى خرجت القرية واضحة المعالم ، كل شيء فــيها قائم ، فوجد الحية في البئر ، بناب واحد صغير ، فسمى القرية باسم البئر وناب الحية ، فصار اسمها نابلس كما في السيرة المرويّة .

فقال الأسد للحمامة ، يا أم يمامة ، حدثينا عن مُلْك سليمان ، فلن يملك أحد مثله إلى يوم القيامة ، قالت : حبًّا وكرامة ، يا أيها الهزبر، ليس الخَبَر كالخُبْر، اعلم أنه ما أصبح يفرح بالملك بعد سليمان، لما أعطاه الله من الملك والسلطان ، ملك الإنس والجان، والطير والحيوان، وكلم الوحوش بلا ترجمان ، بنيت له القصور من القوارير ، ونحتت له من الجبال المقاصير ، وخزنت له في البحر القناطير ، وسخر الله له الرياح ، تحمله كل صباح ، فملكه فوق ما يصفه الواصفون ، ولا يعلم ذلك إلا العارفون :

مَا عَادَ يَفْرَحُ بِالوِلايَة بَعْدَهُ
أَبَدًا وَلا يَهْنِي بِعَيْشٍ نَاعِم
دُنْيَا متى مَا أَضْحَكَتْ فِي يَوْمِهَا
أَبْكَتْ غَدًا مِنْ قَاتِلٍ أَوْ هَادِم

ثم مرت النملة تقفز قفزًا ، وتهمز همزاً ، وهي تقول : أما علمتم بخبري المنقول ، أنا التي كلمها سليمان ، وأعطاها الأمان ، وسجلت قصتي في القرآن ، أما قلت للنمل ، ادخلوا مساكنكم ، واحفظوا أماكنكم ، ثم أنشدت :

لا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَ الجِسْمِ تَحْسَبُهُ
بِالْجِسْمِ يَبْلُغُ آفَاقًا وَأَمْجَادًا

لَكِنَّهَا هِمَمٌ تَسْمُو بِصَاحِبِهَا

وَهِمَّتِي ذكرت بِي الدَّهْر أَحْفَادَا

ثم مر الكلب ، رمز السلب والنهب ، قال : يا جماعة ، اسمعوا مني ساعة ، فأنا مقصود بالمدح والهجاء ، وما زالت الأشراف تهجو وتمدح كما ذكر صاحب الإنشاء ، فأنا أصيد الصيد ، وأقيده بقيد ، وحفظي للبيت سديد ، وبأسي لصاحبي شديد ، لكنني دائما بخس محدث ، كما ورد إن تحمل عليه يلهث ، فلي إصابات وغلطات ، والحسنات يذهبن السيئات ، فلا تظنوا أني آية في الخساسة ، ومضرب المثل في النجاسة ، بل أنجس مني ، وهذه فائدة خذها عني ، من ترك العمل بلا علم ، وأعرض عن التقوى بعد الفهم ، وأسرف في الظلم . ثم انفض المجلس وقد امتلأت بالأنس الأنفس .

واعلم أيها الملهم أن سليمان أعظم مَنْ مَلَكَ من بني الإنسان ، وأقصر رسالة في الحديث والقديم :

﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

حَتَّى سُلَيْمَانَ مَا تَمَّ الْخُلُودُ لَهُ

وَالرِّيحُ تَخْدُمُهُ وَالْبَدْوُ وَالحَضَرُ

دَانَتْ لَهُ الأَرْضُ وَالأَجْنَادُ تَحْرُسُهُ

فَزَارَهُ المَوْتُ وَاشْتَاقَتْ لَهُ الحُفَرُ

المقامة الحُسَيْنيّة

﴿ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾

مَرْحَبًا يَا عِرَاقُ جِئتُ أُغَنِّيـ

ـكَ وَبَعْضٌ مِنَ الغِنَاءِ بُكَاءُ

مَرْحَبًا مَرْحَبًا أَتَعْرِفُ وَجْهًا

نَحَتَتْهُ مَصَائِبُ دَهْيَاءُ

فَجِرَاحُ الحُسَيْنِ بَعْضُ جِرَاحِي

وَبِصَدْرِي مِنَ الأَسَى كَرْبَلاءُ

يَا دَمَ الطُّهْرِ غَسِّلِ الأَرْضَ مِمَّا

قَدْ عَلاهَا فَأَنْتَ طِيبٌ وَمَاءُ

أنا سُنيّ حسينيّ ، جعلت ترحمي عليه مكان أنيني ، أنا أحب السبطين ، لكني أقدّم الشيخين ، ليس من لوازم حب الشمس أن تكره القمر ، وموالاة الحسن والحسين تقتضي موالاة أبي بكر وعمر ، لأنه يحبهم ويحبونه ، ويحترمهم ويحترمونه .

قاتل الله عبيد الله بن زياد ، يحرّج على رءوس العظماء في سوق المزاد .

الحسين لا يمجد بضريح ، ولا بالإسراف في المديح ، لكننا نصدق في حبه ، إذا اتبعنا جَدَّه ، وحملنا وُدَّه ، وليس بأن نعكف عنده .

بعض الناس ذبابة ، يجفو القرابة ، ويسب الصحابة .

عظماؤنا ما بين مقتول ومذبوح ، ومسجون ومبطوح ، ومضروب ومجروح .

وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ

وَلَكِنْ بِحَدِّ السَّيفِ فِي الرَّوْعِ نُقْتَلُ

يا صاحب الفطن ، تريد أن تدخل الجنة بلا ثمن ، يا من يريدون الغروس والعروس، ابذلوا النفوس ، وقدموا الرءوس .

تريد شراء الجنة بصاع من شعير ، وهو لا يكفي علوفًا للعير ، ولا فطورًا للبعير ، إذا ناداك المسكين ، كأنه طعنك بسكين ، وأنت تتمنى على الله الأماني ، وتشتاق لمثل تلك المغاني . أنت من سنين ، تبكي على الحسين ، مَنْ يحب الحسين بن علي ، فليطع الولي ، هذا هو الحب الجلي .

أنت مثل شيخ فزاره ، حينما قطع أزراره ، قالوا مالك ، قال : أفدي بها أخي أبا عمارة .

جَاءوا بِرَأْسِكَ يَا ابْنَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ

مُتَزَمِّلاً بِدِمَائِهِ تَزْمِيلا

وَيُكَبِّرُونَ بِأَنْ قُتِلْتَ وَإِنَّمَا
قَتَلُوا بِكَ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلا
تَرَكُوكَ فِي الصَّحْرَاءِ ثُمَّ كَأَنَّمَا
قَتَلُوا بِقَتْلِكَ عَامِدِينَ رَسُولا

أنا أعلن صرخة الاحتجاج ، ضد ابن زياد والحجاج ، يا أرض الظالمين ابلعي ماءك، ويا ميادين السفاحين اشربي دماءك .

آه ما أطوله من يوم للقتلة ، إذا جاء المقتول ومن قتله ، في يوم لا يكون الحاكم فيه إلا الواحد ، ولا المُلْك إلا للماجد ، وقد خاب فيه الجاحد المعاند .

الحسين شهيد ، على رغم أنف العنيد ، ما قتل وما نهب ، وما ظلم وما سلب .

وقد أخطأ ابن خلدون حينما نقل أن الحسين قتل بسيف الشريعة ، وهذا النقل من الأمور الشنيعة ، بل قال شيخ الإسلام ، علم الأعلام : قتل الحسين بسيف الظلم والعدوان ، وقتله مصيبة يؤجر عليها من استرجع من أهل الإيمان : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وإنا لرسوله عند المصائب لتابعون .

أَلا إِنَّ عَيْنًا لَمْ تَجِدْ يَوْمَ وَاسِطٍ
عَلَيْكَ بِغَالِي دَمْعِهَا لَجَمُود

إن كان قَتْل الحسين من العدل ، فقد ألغى مدلول النقل والعقل ، وما عاد في الدنيا ظلم ، وما بقي في الأرض إثم ، وإذا احتاج إثبات النهار إلى كلام ، فقل على الدنيا السلام .

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الأَذْهَانِ شَيْءٌ
إِذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلِ

في كربلاء ، كرب وبلاء ، على ثراها قلب ذكي ، ودم زكي .

كَأَنَّ قَتْلَكَ يَا ابْنَ الطَّيِّبِينَ لَنَا
سَيْفٌ مِنَ البَغْيِ فِي الأَعْنَاقِ مَشْهُورُ
كَأَنَّمَا دَفَنُوا الإِسْلامَ فِي كَفَنٍ
مِنَ المَصَاحِفِ حَاكَتْهُ المَقَادِيرُ

الحسين ليس بحاجة إلى مآتم ، وولائم ، تزيد الأمة هزائم إلى هزائم .

الحسين على نهج جده محمد ﷺ ، وعلى مذهب أبيه المسدد ، تقوى تمنع من الانحراف ، وعَدْل يحمل على الإنصاف . ولو أن الحسين صاحب دنيا ، لما بكينا ، ولو أنه طالب جاه ما اشتكينا ، لكنّه من البيت الطاهر ، صاحب النسب الباهر ، أمانته رصينة ، وأخلاقه حصينة .

عَفَاءٌ عَلَى دُنْيَا رَحَلَتْ لِغَيْرِهَا

فَلَيْسَ بِهَا لِلصَّالِحِينَ مُعَرِّجُ

كَدَأْبِ عَلِيٍّ فِي المَوَاطِنِ كُلِّهَا

أَبِي حَسنٍ والغُصْن مِنْ حَيْثُ يَخْرُجُ

صح الخبر في السنة ، أن الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة ، فإذا قتل السيد كيف حال المسود ، وضحية الحاسد هو المحسود ، وقال جدهما المعصوم : هما ريحانتاي من الدنيا ، فهم بهذه التزكية في الدرجة العليا ، والريحانة تشم ولا تقطع ، وتمسح ولا تقلع ، جاءوا بالرأس إلى ابن زياد في العراق ، والدم مهراق ، ثم لم تبك للظلمة عيون ، ولم تتحرك شجون ، وهذا برهان على أن قلوب الظلمة كالحجارة ، وأن نفوسهم مُلِئتْ بالمرارة .

إِذَا لَمْ تَبْكِ مِنْ هَذِي الرَّزَايَا

وَلَمْ تَفْجَعْك قَاضِيةُ القَضَايا

فَمُتْ كَمَدًا فَمَا فِي العَيْشِ خَيْرٌ

إِذَا جَمَعَ البَرَايا كَالمَطَايا

لما أغمد سيف الجهاد، سلَّه ابن زياد، على العلماء والعباد . لو كانت الأمة شاركت في قتل الحسين لكانت ظالمة، ولو رضيت بذلك لأصبحت

آثمة ، وقعت الأمة بين فكي زياد ويزيد، يدوسون الجماجم ويقولون: هل من مزيد، وتصفق له أراذل العـبيد . ليل الحسين صـلاة وخشوع وبكاء، وليلهم رقص وطرب وغناء، نهار الحـسين تلاوة وذكر وصيـام، ونهارهم لهو وعشق وغرام . ولهذا وقع الخلاف وعدم الإنصاف .

إِذَا عَـيّـرَ الطَّائيَّ بِالبُـخْلِ مَـادِرٌ

وَعَـيَّـرَ قِـسّـاً بِالفُـهَـاهِةِ بَاقِلُ

وَقَالَ الدُّجَى للشَّمْسِ أَنْتِ كَسِيفَةٌ

وَقَالَ السُّهَى للبَدْرِ وَجْهُكَ حَائِلُ

وَطَاوت الأرضُ السَّمَـاء سَفَـاهَةً

وَنَافَسَت النَّجْمَ الحَصَى وَالجَنَادِلُ

فَيَا مَوْتُ زُرْ إِنَّ الحَيَاةَ ذَمِيمَةٌ

وَيَا نَفْسُ جِـدِّي إِنَّ دَهْرَكِ هَازِلُ

يا أهل العقول ، إن قتل سبط الرسـول ، وابن البتول ، أمر مهول ، فلا تخبـروا أعداء الملة ، بهذه الزلة ، فإنها للأمـة ذلة . الحسين ليس بحـاجـة إلى وضع أشـعـار ، ولكن إلى رفع شـعـار ، دعنا من ترديد القصيـد، والتباكي بالنشيـد ، ولكن تابع الحسين في تجريد التـوحيد ، وتوقير الشيخين أهل الرأي الرشيد .

العظماء يقتلون بالسيف أعزاء ، والظلمة يموتون على فرشهم أذلاء جبناء . فالعظيم قتل بتذكية شرعية ، والجبان مات ميتة بدعية . ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ .

تَأَخَّرتُ أَسْتَبْقِي الحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ
لِنَفْسِي حَيَاةٌ مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَا
وَلَيْسَ عَلَى الأَعْقَابِ تُدْمَي كُلُومُنَا
وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدِّمَا

فاتت الحسين الشهادة في بدر لأنه صغير ، فَعَوَّضَهُ الله بها في صحراء العراق وهو كبير ، الرجل يريد أن يكتب اسمه بدم ، وهو يحب البيع لا السَّلم ، ومن يشابه أبه فما ظلم . الذين ينوحون على الحسين ويقولون قتل وهو مظلوم ، قلنا هذا أمر معلوم ، ولكن كفاكم بالنياحة جهلاً . فهل كان قتل عمر وعثمان وعلي عدلاً ، النياحة في الدين غير مباحة، لأنها مخالفة للمأمور ، وفعل للمحظور ، وتسخط بالمقدور ، لو لم يقتل الحسين لمات . أفتنوحون عليه وقد كسب عز الحياة . وسعادة الوفاة .

من أحب الحسين فليفعل فعله في حفظ الدين ، وكراهية الظالمين، وحب المساكين .

قتل الحسين دليل على عظمة الإسلام ، لأن مهره رءوس تقطع ،

وأرواح تدفع ، وضـريبـته دم يـسيل ، ورأس في سـبـيل الله يمـيل ، الإسلام كالأسد همته ليست سخـيفة ، ولذلك لا يأكل الجيفة ، لعظمة الشمس أصابهـا الخسوف ، ولجلالة القمـر رمي بالكسوف ، والعظماء غرض للحتوف :

قُلْ لِلَّذي بِصُـرُوفِ الدَّهْرِ عَـيَّـرَنَا
هَلْ حَـارَبَ الدَّهْرُ إلا مَنْ لَهُ خَطَرُ
أَمَا تَرَى البَحْرَ تَعْلُو فَوْقَهُ جِيَفٌ
وَتَسْتَقِرُّ بأَقْصَى قَعْرِهِ دُرَرُهُ
وَفِي السَّمَاءِ نُجُومٌ لا عِدَادَ لَهَا
وَلَيْسَ يَكْسِفُ إلا الشَّمْسُ والْقَمَرُ

رحم الله السبطين، الحسن والحسين ، وعليًّا وفاطمة في الخالدين.

والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ، وآله وصحبه أجمعين .

* * *

المقامة التيميّة

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾

عَلامَةُ العُلَمَاءِ وَالْبَحْرُ الَّذي
لا يَنْتَهِي وَلِكُلِّ لجّ سَاحِلُ
افْخَرْ فَإِنَّ النَّاسَ فِيك ثَلاثَةٌ
مُسْتَعْظِمٌ أَوْ حَاسِدٌ أَوْ جَاهِلُ

قال الراوي: نراك متيّم بابن تيميّة ، تذكره باليوميّة، ولك إليه ميل وحميّة ، فقال : ليس عروس إلا بمهر ، وحديثنا عن ابن تيميّة غدوّه شهر ورواحه شهر ، وحسبك أنه عالم الدهر ، ألّف الواسطيّة فذبت في حبها ، ودبّج الحمويّة فتذوّقت من لبِّها ، وجمع التدمريّة تدمّر كل شيء بأمر ربها ، آه يا أحمد ابن تيمية ، يا من اهتدى بسميِّه ، فنصر السنة وهزم الجهميّة ، بذل للطالبين بحره ، وعرّض للسيوف نحره ، ابن تيمية بطل ، هزّ الدول ، وأتْبع القول العمل .

رَأَيْتُه فَرَأَيْتُ النَّاسَ فِي رَجُلٍ
كَالفَجْرِ فِي شَرَفٍ والدُّرُ فِي صَدَف

حُـرُوفُهُ كَـشُعَاعِ الشَّـمْسِ لَوْ قَطَرَت
أَلْفَـــاظُه قُلْتُ هَـذَا الزَّهْرُ فِي تَـرَفِ

ابن تيمـية للشـريعة ابنٌ بارٌّ ، هجر الدرهم والـدينار ، وهو لأعداء الملة سيف بتّار ، جنته في صدره ، لأنه وحـيد عصره ، وفريد دهره ، وقتله شـهادة ، لأنه مجـتهد في العـبادة ، كثـير الإفادة ، أرهب عـبدة الأصنام ، وأذل خصوم الإسلام ، وسلّ على كل ملحـد الحسام، كلامه شهب ، وردوده لهب ، وألفاظه ذهب .

لَهُ مَــوْقِـفٌ يَحْــمِي بِهِ الدِّين ذِكْــره
تَشِـيدُ الرُّكْـبَانُ فِي الْبَـدْوِ والحَـضَرِ
أَقَـامَ عَــمُـودَ الدِّينِ بِالنُّورِ والـهُـدَى
وَسَلَّ حُـسَـامًـا فَـاتِكَ الوَقْعِ بِالْـكُفْـرِ

تعطّل به سوق البـاطل وكسد ، وخافه كل من عـصى وفسد ، لأن قلبه قلب أسد . الرجل مـوحد متعبد مـتهجد متفرد مـجدد، زاهد عابد ساجد مـاجد حامد رائد مجـاهد، كم أزال من بدع ، وأظهر من ورع ، وكم من ملحد قمع ، سيفـه على الضلال مسنون، وقلبه عن حب الدنيا مسجون ، وهو صاحب فنون ومتون وشجون .

سارت في الآفاق أخباره ، طارت في البـقاع أشعاره ، كثر في الحق

أنصاره، هو مدرسة الاعتدال ، وجامعة الاستقلال، ورمز النضال ، لا يهاب ولا يرتاب ولا يغتاب .

لله دَرُّكَ مَا تَرَكْتَ رِسَالَةً
يَوْمَ الوَغَى ويَدَاكَ فِي الْكُلاَّبِ
أَنْفَقْتَ عُمْرَكَ لِلمَعَالِي مِثْلَمَا
أَنْفَقْتَ هَذَا الْعِلْمَ لِلطُّلابِ

ابن تيمية فريد، لا يخضع للتقليد، وما هو ببليد، ولكنه عبقري رشيد. لكلامه حلاوة ، وعلى كتبه طلاوة ، نصر المعصوم ، وأفحم الخصوم، الرجل رجل كفاح ، وإمام إصلاح ، مناضل يحب المناضلين، ويحارب المغضوب عليهم والضالين ، همة وثّابة ، وذاكرة خلاّبة ، ولسان جذّابة، هو إمام التحرير والتحبير والتنوير، ليس بجامد ولا جاحد، ولكنه علامة صامد ، مجاهد ، عابد . أخذ بالعزائم وتورّع في الرّخص، وتجرع من أجل الإسلام الغصص :

إِنْ كَانَ يُرْضِيكَ أَنْ تَهْوَى جَمَاجِمُنَا
عَلَى التُّرَابِ فَهَذَا الْفِعْلُ يُرْضِينَا
مَا تَخْجَلُ الشَّمْسُ إلا مِنْ مَوَاقِفِنَا
وَلا تَهَابُ العِدَى إلا مَوَاضِينَا

هذا الإمام كـأنه بكل فضل مـخصـوص ، أعاد الأمة لـلنصوص ، وأراحنا من ضلال صاحب الفصوص . مـرة يهيل التراب على القدريّة ، وأخـرى يلقي المـوت على النصـيـرية، سـجن الاعـتـزال ، في زنزانة الإهمال، خرج على التـتار بالنار ، وحضر ذاك العـراك ، فأذاق هولاكو الهلاك ، الرجل منصور ، وخصمه مقهور .

ترك المطاعم الشهيّة ، والمراكب الـوطيّة ، والمناظر البهيّة ، له مع القرآن سمر ، ومع الذكر سهر ، وله جلسةٌ في السحر :

قُلْتُ يَا لَيْلُ هَلْ بِجَـوْفِكَ سـرٌّ
عَـامِـرٌ بِالحَـدِيثِ وَالأَسْـرَارِ
قَـالَ لَمْ أَلْقَ فِي حَـيَـاتِي حَـدِيثًـا
كَـحَـدِيثِ الأَحْـبَـابِ فِي الأَسْـحَـارِ

صرامة في الحق ، وإصرار على الصدق ، وعلم في رفق .

زهـد : فكأن الذهب تراب ، والجواهر أخشاب ، والدنيا خراب .

شجاعة : فكأن الموت عطية ، والهلاك مطيّة ، والمنيّة هديّة.

علـم : فكأن البحر زخر ، والمحيط انفجر ، والغيث انهمر.

تواضع : فهو أرق من النسيم ، رحيم بالمسكين واليتيم ، هذا الإمام جاد وليس بهازل ، وعن مبدئه لا يتنازل، ولهذا سكن أعلى المنازل .

أخلاق طاهرة ، وسنة عليه ظاهرة ، وهمة بين جنبيه باهرة :

لَهُ هِمَّةٌ لَوْ أَنَّ للشَّمْسِ عُشْرَهَا
لَمَا غَرَبَتْ حَتَّى يَجِيء لَهَا الغَرْبُ
فَيَوْمًا مَعَ الذِّكْرِ الحَكِيمِ بِمَسْجِد
وَيَوْمًا نَدِيم لِلْقَنَا وَالْوَغَى حَرْبُ

ما هذا العمق والتأصيل ، واتباع الدليل ، وغزارة التحصيل ؟ لو أن ابن تيمية مبتدع ما فهمناه ، ولو انصرف للدنيا لاتهمناه ، لكن الرجل صاحب سنة ، يريد الجنة ، له عقل صحيح ، ولسان فصيح ، يفلج الخصوم بالحجة ، ويدل الناس على المحجة ، نعم الله عليه تامّة ، وهو في العلوم هامّة، ثم هو رجل عامّة، علامة الصدق في العالِم العزوف عن الدنايا ، وعدم الخوف من المنايا ، وجمع السجايا ، وكذلك كان ابن تيمية .

ودليل فلاح العالِم ، لزوم أحسن طريقة ، والغوص على الحقيقة ، وحب الخليقة ، وكذلك كان ابن تيمية .

وبرهان رفعة العالِم ، خشية الملك العلاّم ، وزُهد في الحطام ، ورِفق بالأنام ، وتعليم للعوام ، وكذلك كان ابن تيمية .

فَتَى قَدْ حَبَاهُ اللهُ بِالْحُسْنِ يَافِعًا
كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ نَجَابَتِهِ سُورْ

وَلَمَّـا رَأَى الْمَـجْـدَ اسْـتَـعَـارَ ثِـيَـابَهُ
تَـرَدّى رِدَاءً وَاسِـعَ الْجَـيْـبِ وَاتَّـزرْ

ابن تيمية تفنن في العلوم ، ودفع الخصوم ، ولم يتعلق بالرسوم .

ليس العلم عند ابن تيمية جبّة مدوّرة ، ولا عمامة مكوّرة ، ولا هيئة مصوّرة؛ بل العلم تقى عـميق ، ودليل بتحقيق ، وفـهم دقيق . وليست المنزلة عند ابن تيمـية مراتب ومناصب وتكالب ؛ بل تضحيـة وجهاد ، ونفع للعباد ، وإصلاح للبلاد . سفينة علمه لعباب الجهل ماخرة ، فآتاه الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة .

معـالم علم الرجل : فهم للـسور ، واتباع للأثر ، وجـمع للدرر ، وإيمان بالقدر ، وجهاد لمن كفر ، جعله الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

ليس بقليل علم فـهو يغـرف من معـين ، ولم يتـزوج فهو خـاطب الحور العين ، بطح البطائحية ، وجعل المعطلة ضحية ، مزق الزنادقة، وأغرق بالحجج كل فرقة مارقة ، صار كالحاصب ، والعذاب الواصب، على النواصب ، وأبـرم الردود والنقـائض ، للروافض ، كـسـر ظهـور النصيـرية في كسـروان ، وأبطل خرافـات الجهل بالقـرآن ، وحل ألغاز الحلولية ، ورد كيد الاتحادية ، حفـر لحدًا للملاحدة ، وأخذ كل واحد منهم على حِـدة ، ذاكـرته أصـابها وابل الرسـالة ، حـملت البـراعـة

والجزالة، وهمته جمعت الحكمة والبسالة ، يشفي بعلمه الجهل ، ويعم سيله الجبل والسهل ، ويروي بفتواه الجموع الوافدة ، ويخطب في الجموع الحاشدة ، يفسر الآية في أشهر ، فينفجر منه أنهر ، له صولات وجولات ، وعزمات، وثبات وإخبات. واجه المغول في شقحب ، فذكرنا قصة علي ومرحب، عجب بعضهم من شجاعته في تلك المشاهد، وقال عنه في الليل أحسن عابد ، وفي النهار أشجع مجاهد .

فِي اللَّيْلِ رُهْبَانٌ وَعِنْدَ لِقَائِهِم
لِعَدُوِّهُمْ مِنْ أَشْجَعِ الْفِرْسَانِ
هَذَا ابنُ تَيْمِيةَ الَّذِي عَزَّتْ بِهِ
هَذِهِ الشَّرِيعَةُ آخَرَ الأَزْمَانِ

إذا تكلم قالوا القرآن بين عينيه ، والسنة كلها لديه ، والحكمة تتنزل عليه ، له كلام خالد ، ولفظ شارد، يقول : كل أرض لا تشرق عليها شمس الرسالة فهي أرض ملعونة ، وكل نفس لا تنتصر على الهوى فهي نفس مسجونة ، وكل مهجة لا تبصر الحق فهي مهجة مغبونة ، ويقول : المعاصي تمنع القلب من الجولان في فضاء التوحيد ، وتحبس النفس عن محبة الرحيم الودود .

هذا الإمام بالحق يقول ، وله قبول ، جمع بين المنقول والمعقول ، له قريحة حيّة ، لا تقبل زيف القوانين الأرضيّة ، ونيّة صادقة، معه

حجة ناطقة ، ونفس للحق عاشقة ، نفس تعاف الذل لغير الله حتى كأنه الكفر ، ويد بيضاء بالعطاء ومن وسخ الدنيا صفر ، رجل للملّة مديون، وعمره للشرع مرهون ، وقلبه عن الدنيا مسجون ، وله عند ربه أجر غير ممنون . هذا الشيخ ليس بالمتكلف ، ولا للنصوص متعسّف ، عنده صفاء ذهن يغوص على الحقائق ، وقوة خاطر يدرك الدقائق.

رد على أهل التصوف ، ونهاهم عن الانحراف والتكلف ، وألزم النواصب حب القرابة ، واحترام الصحابة ، وأنكر على الرافضة الغلو والشطط ، وبيّن لهم الخطأ والغلط، وله الكلمة البديعة ، إذ يقول : لا يسع أحد مهما كان أن يخرج عن الشريعة ، ويقول: ليس أحد يدور معه الحق حيثما دار ، غير النبي المختار ﷺ ، وهو القائل: كل يوم وأنا أجدد إسلامي ، وأكثر لنفسي اتهامي .

وهذه مقطوعة من الراس لا من القرطاس، وهي تحية للشيخ أبي العباس:

أَبَدًا لِسِفْرِ الْمَكْرُمَاتِ تُدَبِّجُ

وَتُحِيطُ بُرْدَ الصَّالِحَاتِ وَتُنْسَجُ

لَكَ فِي الْمَعَالِي دَوْلَةٌ وَوِلَايَةٌ

أَنْتَ الَّذِي بِهَدْيِ الرَّسُولِ مُتَوَّجُ

شَيَّدْتَ صَرْحَ الدِّين يَا عَلَمَ الهُدَى
بِالعِلْمِ والإِخْلاصِ أَنْتَ مُدَجَّجُ

نعم ، كان يرى أنه لا يسع أي أحد الخروج على الشريعة ، وأن الأحوال والأقوال والأفعال المخالفة لها إنما هي أمور شنيعة ، ويقول في المنطق ، وهو قول عارف محقق : لا ينتفع به البليد ، ولا يحتاج إليه الذكي الرشيد .

وهو لحم جمل ، غث على رأس جبل ، لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل ، والرجل له حسّاد ، لأنه تفرد وساد ، وجاهد لإصلاح كل فساد.

وهو صاحب أحوال عجيبة ، وآراءٍ مصيبة ، وله مقامات جليلة ، ومذاهب جميلة، حلم عمن حسده ، وأكرم من قصده ، خاطب السلطان بأثبت جنان، وأفصح لسان ، وطالبه بحمل الناس على السنة النبويّة، والأخلاق المحمديّة ، وشفع لأهل الحاجات ، وأرباب الضرورات. ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ، ولم يجعل له من دون الله ملتحدًا ، بل كان يكتفي بالقليل ، ويراه كافيًا لمن عزم على الرحيل ، وكان يعيش على شظف ، مقتديًا بمن سلف ، ويرى أن الزائد على القوت إشغال ، وأن الدنيا دار أهوال ، وكان ينفق كلما يجد ، ولم يحجب معروفه عن أحد ، وكان الغريب ، يجد عنده من الترحيب والتقريب ، والمؤانسة وعدم التثريب .

وكان يعظّم السنة أجل تعظيم ، ويسعى في صيانتها عن كل معتدٍ أثيم ، وقد رزق السعادة في التأليف ، وأعطاه الله الحظ في التصنيف ، وقد طرقت العالم رسائله ، وأذنت في أذن الدنيا مسائله ، وشرّقت كتبه وغرّبت ، وسهّلت كل صعيب وقربت ، وفيها من حسن السبك ، ومتانة الحبك ، ما يدهش العقول ، مع جمعها بين المعقول والمنقول . وكان يعتصم بالبرهان ، ويعود إلى تحقيق وإتقان ، وأقر بعبقريته المخالف والموافق ، وعجب من سرعة بديهته المؤمن والمنافق .

وقد نشر الله علومه ، وقهر خصومه ، وثبّت بالحق جنانه ، وسدّد بالصدق لسانه ، مع تمام ديانة، وكمال أمانة ، وحسن صيانة ، وعظيم مكانة .

والرجل كالقمر الوهّاج ، والبحر الثجّاج ، سديد المنهاج ، قوي الاحتجاج ، وهو صاحب قيام وتهجد، وأذكار وتعبد ، يلازم المسجد، ويحب أحيانًا العزلة والتوحّد، لا يفاخر، ولا تعجبه المظاهر، ولا يكابر، ولا يكاثر .

وهو الذي صال وجال ، وغلب الرجال ، في المحافل المشهودة ، والمجامع المحمودة ، وكان يرهبه الملوك، مع أنه يتواضع لكل مسكين وصعلوك.

وقرع بوعظه أسماع الظَّلَمة ، حتى أهدروا دمه ، وعرّض نفسه للأخطار ، وخاض الأهوال الكبار ، وحسْبه الواحد القهار .

وكأن هذا الإمام للدنيا عين إنسانها ، وهدية إحسانها ، ضَنّت بمثله الأعصار، وطنت بذكره الأمصار، نحْو سيبويه من شفتيه ينساب ، ولغة الخليل في فمه تذاب ، كأن المُزَني قطرة من مزنه ، والكسائي درهم في ردنه ، طالب خصومه بقتله فصفح ، وظفر بهم فعفا وسمح ، لو رآه ابن معين، لقال هذا إنسان العين ، ولو أبصره أحمد ، لقال هذا المجتهد المتفرد ، عرف من الحديث المتن والسند ، وما وقف على الظاهر وجمد، بل غاص في المعاني ، وقطف من أغصانها الدواني ، وكان بمورد الشريعة بصيراً ، وقد تضلع بها وعب منها ماءً نميراً ، عينًا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً ، ولو أدركه الثوري لكان عنده أثيرًا، وقد مدحه ابن كثير كثيرًا، وقد ذهب الذهبي يفضل مذاهبه ، ويعظّم مواهبه، وكان يكتب العقود، ويحل القيود، ويقيم الحدود ، وأقام الحسبة في الأسواق ، ونشر معتقد السلف في الآفاق ، وقد انجبر به كسر الدين، ورفع به عَلَم الموحدين ، وكسرت به قناة الأكاسرة ، وأُرغمت بدعوته أنوف الجبابرة ، وربما خطب عند الولاة بصوت مرتفع ، تكاد القلوب منه تنخلع ، سجن المزّي فأطلقه ، وجادل البطائحي فأغرقه ، ورد على الإخنائي فأشرقه .

أَلّفَ الاستقامة فأحيا بها سوق الاتّباع وأقامه ، وألّف درء التعارض ، وردّ على ابن الفارض ، وما نسينا، اعتراضه على ابن سينا ، ودحض بالرأي المصيب، أخطاء الرازي ابن الخطيب، وحذر من كذب الشعراء، وزجر عن الظلم الأمراء ، وأخبر أن في الصوفية أخطاراً خفيّة، مخالفة

للسنة المصطفويّة ، ودفع بالدليل أهل التأويل ، وبالتأصيل أهل التعطيل، وبحسن التحصيل، أهل التجهيل والتخييل، وهو متكلم بارع، لكل خير مسارع ، متبع للشارع ، وله إشراق في العبارة، ولطف في الإشارة، مع سلامة صدر ، وارتفاع قدر، وربما كتب في الجلسة عدة كراريس، يأتي فيها بكل مفيد نفيس ، وكان يطالع في الآية أكثر من مائة تفسير ، ثم يقلب بعد ذلك التفكير ، فيأتي بعد ذلك بعلم كثير ، وكان يمرغ جبهته ساجدًا، ويدعو الله جاهدًا، فيفتح عليه الفتاح العليم ، بكل معنىً كريم ، ورأيٍ مستقيم ، وكان يكثر من الابتهال والسؤال ، ويلجأ إلى الله في كل حال ، كثير التذلل لمولاه ، كثير الخشوع له إذا دعاه ، وكان يطيل الصلاة، مخبتٌ أوّاه ، دائم الإلحاح والمناجاة، والرجل محفوظ بعين الرعاية، غني عن الإعلان والدعاية ، ترجم له حتى الخصوم ، والرجل ليس بالمعصوم، لكن الله فتح عليه فتوح العارفين ، فكان آية السائلين، وقد كشف أخطاء صاحب الكشّاف، وبيّن مخالفته للأسلاف، وأظهر للأحياء، أغلاط صاحب الإحياء، وزيف كتاب الفتوحات، وأبرز ما فيه من أمور قبيحات ، وأغار على أساس التقديس، وأخرج منه نزغات إبليس، وسقى كأس الندامة، صاحب منهاج الكرامة، وشرح مذهب الوسطية ، في الرسالة الواسطية ، وأظهر لدينه حميّة، في كتاب الحمويّة ، ودمّر صروح أهل المنطق في التدمريّة ، وردّ على الفلاسفة، وأخبر أنهم أهل سفه ، وأنهم أخطئوا في الاسم والصفة،

وغلط التلمساني العفيف ، وأثبت ضلال القونوي صاحب التصنيف، وزندق الحلاّج ، وذم الحجّاج ، وانتقد الغزالي، وذكر أخطاء أبي المعالي، ولام علماء الكلام ، وأهل الجور من الحكام ، وله رسالة في السياسة الشرعية ، وسِفْر في الأمور البدعيّة ، وله رسائل طويلة ، في التوسل والوسيلة .

وتكالب عليه أهل البدع ، وسُجن فما رجع ، وكان الله معه فما وقع ، وجمعوا له العلماء فبزّهم ، وهدّدوه فهزّهم ، وقد خوّفوه السلطان ، وأخرجوه من الأوطان ، فما لانت له عريكة ، وما ذابت له سبيكة ، وعرضوه للموت ، فرفع على الباطل الصوت ، وحاولوا أن يُرْشوه ، وبالمال ينعشوه ، فأبى واستعصم ، وحلف وأقسم ، لا يبيع دينه بعَرَض ، ولا يكون له دونه غرض، وكان يطلب الشهادة ، ويجوّد للآخرة زاده ، ويضمِّر للجنة جواده ، وامتُحن في سبيل الله أكثر من مرّة، وحصل له الجاه فما غرّه ، والعُصاة كانوا يتوبون على يديه ، وتزدحم الوفود عليه ، وكان يتكلم بكلام يدهش الحاضرين ، ويذهب بلب المناظرين، وكانت الطوائف تحضر درسه ، فيذهلهم بكثرة علومه في جلسة وأقسم بعضهم ما رأينا مثلك، وما أبصرنا شكلك ، وكانت العامة تقف إجلالاً له في الطريق فيقابلهم بخلق رقيق، وقد آذى الحسّاد أحبابه، ونالوا أصحابه ، فما زادهم به إلا تعلّقًا ، وعليه إلا تحرّقًا ، والكل عليه مشفق ، والعالم على حبه مطبق، وليس في تركته دينار ولا

درهم، فأنسى الناس بزهده إبراهيم بن أدهم ، وكلما حصل له من مال، أنفقه ذات اليمين وذات الشمال ، وهو الذي أفحم القبورية ، ونشر معتقد السلف في سوريّة ، وألزم الحكام بشريعة الإسلام ، ودفع من قَرْمط في النقليّات ، وسفسط في العقليّات ، وهو الذي قعّد للعقيدة القواعد ، ودبّج تلك الفوائد الفرائد ، وكلامه يتميز على كلام سواه ، وقد نصره الله على من عاداه ، وظهرت على يديه كرامات ، وعليه من السنة علامات ، وذكر المِزي أنه ما سمع بمثله من خمسمائة عام . وأقسم الذهبي أنه ما رأى مثله من سائر الأقوام ، ولو طلب منه أن يحلف بين الركن والمقام ، وترجم ابن كثير لأبي العباس ، فنسي الدولة والناس ، وكتب عنه المستشرقون، وعلى أخباره يتسابقون، وله سيرة طويلة في دائرة المعارف، ومخطوطات كثيرة في المتاحف، وترجمت كتبه إلى اللغات الأجنبية، واستفادت من أفكاره الحضارة الغربية ، والناس في كتبه ما بين مختصر ومعتصر، وناقد ومنتصر، وقادح ومادح، ومخرّج وشارح، وأثنى عليه المستشرق جولدزهير، وألفت فيه عشرات الدكتوراه والماجستير، وهو صاحب أثر، وكتبه غرر، ذب عن القرابة، وأثنى على الصحابة ، له ذاكرة وقّادة، وطبيعة منقادة ، وذهن حاد ، وعزم جاد، إذا قصد باطلاً أزهقه ، وإذا اعترض على قولٍ مزّقه ، وقد طالعت من بعد القرن الثالث إلى زمانه ، فلم أجد مثله في عمله وذكائه وإتقانه، ولا يغمط فضله إلا مكابر ، ولا يعاديه إلا مبتدع ماكر، وله نوافل وأوراد، وأيامه بالطاعة أعياد ، فغفر الله ذنبه ، ولقي بالرضا ربّه،

وأنزله منازل الصادقين ، وجمعنا به مع النبيين والمرسلين ، آمين.

انْظِمِ الدَّمْعَ أَيُّهَا المَوْتُ شِعْراً
مِثْلَمَا تَمْلَئُوا الْمَحَاجِرَ جَمْراً

فَفُؤَادِي مُضَرَّجٌ بِسِهَامٍ
قَدْ رَمَتْهُ الأَيَّامُ شَفْعًا وَوَتْراً

لَيْتَ مِلْيُونَ مُهْجَةٍ سَبَقَتْهُ
لِلْمَنَايَا وَقَدْ تَأَخَّرَ شَهْراً

فَبَقَاءُ الْعَظِيمِ فِي الأَرْضِ نَفْعٌ
وَذِهَابُ اللَّئِيمِ يُذْهِبُ عُسْراً

* * *

■ مقامَة الإمام محمّد بن عبد الوهّاب ■

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾

أَغَرُّ تُشْرِقُ مِنْ عَيْنَيْهِ مَلْحَمَةٌ
مِنَ الضِّيَاءِ لِتَجْلُو حِنْدَسَ الظُّلَمِ
فِي هِمَّةٍ عَصَفَتْ كَالدَّهْرِ وَاتَّقَدَتْ
كَأَنَّهُ الْغَيْثُ يَسْقِي الأَرْضَ بِالدِّيمِ

الإمام المجدد ، شيخ الإسلام الموحد ، الذي جدد دين النبي محمد. أصبح في الإسلام علمًا معروفًا ، وصار بالإمامة موصوفًا . دعا في التوحيد أصل الأصول ، وتابع الرسول ، وجمع بين المنقول والمعقول .

خرج في زمن أحوج ما يكون إلى مثله ، في علمه وعقله ، فذكّر الخلف ، عقيدة السلف، تدرع بالعلم في فترة ركنت العقول إلى الجهل، وتسلح بالصبر في زمن قل الناصر لأهل الفضل ، وذكّر الناس بأعظم مسألة دعا إليها الأنبياء، وهي أهم قضية عند العلماء، فصحح للناس أصل المعتقد الحق في ربهم تبارك في علاه ، ونفض عن عقول أهل زمانه ما نال جناب التوحيد وشوّه محيّاه . فحمى جناب التوحيد، وسدَّ كل ذريعةٍ تفضي إلى الشرك بالولي الحميد، لم تكن دعوته

صوفية، بنيت على شفا جرف هار من المخالفات البدعية ، التي تنافي الأصول الشرعية، بل كان صاحب أثر ودليل، وتحصيل شرعي وتأصيل. ولم تكن دعوته فكرية تبنى على افتراضات العقول ، بل أثرية سلفية تقوم على ما صح من المنقول .

هذا الإمام ، لم يشغل الأمة بعلم الكلام ، بل أسعد الناس بميراث سيد الأنام . ولم يتشدق بعلم المنطق ، بل سال بيانه بالعلم الموثق ، وجرى لسانه بالقول المحقق . وسلّمه الله من طيش الفلاسفة ، أهل الزيغ والسفه، فكان صاحب حجة قاضية، على سنة ماضية، على طريقة من سار ، من السلف الأبرار ، يعرض المسألة في سهولة ويسر ، مجانبًا المشقة والعسر ، فدنا إليه قطاف الملة المحمدية ، وجبى إليه ثمار الشريعة المحمديّة .

عرف الجادة فوصل، ودعا إلى ما دعا إليه الرسل . كان في زمنه علماء، وفي عصره فقهاء، لكن منهم من ظن أن السلامة في السكوت، ولزوم البيوت ، وطلب القوت ، ومنهم من كان في علمه لوثة من البدع، فكيف يدعو الناس إلى ما أنزله الله وشرع ، ومنهم من اشتغل بالمناصب ، عن أداء الواجب ، فَهَمُّه ثمن بخس دراهم معدودة من الحطام ، يأخذها ثمنًا لفتاوى يتخذ بها جاهًا عند الطغام .

أما هذا الإمام المحفوظ بالعناية ، المحاط بالرعاية ، فأشرقت شمسه من مطالع السنة ، وصارت قافلته الميمونة إلى الجنة .

هذا المجدد لم يأت بمرسوم من الأستانة ، ولمن يطلب المنزل لدى العامة والمكانة ، بل جاء مُصْلحًا يعيد الأمة إلى سيرتها الأولى الربانية ، وإلى ما كانت عليه من المحاسن الإيمانية، والتعاليم الربانية . وجد في زمن هذا الإمام، في بلاد الإسلام، مشائخ لهم عمائم كالأبراج، وأكمام كالأخراج . تُفعل أمام أعينهم كل طامة، وهمهم تبجيل العامة، يجبون الأموال بالاحتيال ، فلا يفتي أحدهم إلا بثمن معجل ، أو برهان مؤجل، ليصبح العلم لديهم عمامة مكوّرة ، وجبة مدوّرة ، يعظّم بها لدى الرِّعَاع ، ويسكت عن كل شرك وابتداع . يرى أحدهم الجهال يطوفون بالقبور ، فلا يغضب ولا يثور ، لأن دماء حب الدنيا في عروقه تجمد ، فهو تائه مقلد ، بارد متبلّد .

فجاء هذا الإمام الذي ما تدنس بالدنيا جلبابه ، ولا اتسخت بالبدعة ثيابه ، وقد عقد العزم ، واتصف بالحزم ، تحدوه همة عارمة ، وعزيمة صارمة ، فدعا إلى تجديد ما اندرس من الدين ، وإظهار ما خفي من دعوة سيد المرسلين .

فكان الناس معه أقسام ثلاثة: فأصحاب حسد: ضل رشدهم وفسد، لسان حالهم: لماذا اختير هذا من بيننا، إنه يدعو إلى غير ديننا؟ فكبتهم الله بنصر هذا الإمام ، وتآكل حسدهم في صدورهم على مر الأيام .

وأصحاب بدعة وهوى ، سقط نجمهم وهوى ، ذاق منهم الأمرّ ، فاحتسب الأجر وصبر . **وأصحاب قلوب حيّة ، وفطر نقيّة** ، عرفوا أن

دعوته دعوة مُرْضِيّة ، سلفيّة سنيّة ، فركبوا في سفينة التجديد ، مع هذا الإمام الرشيد ، حتى وصلوا معه إلى شاطئ الإصلاح ، وساحل الفلاح. فإذا رأيت من ينال هذا الإمام ، ويحط من قدر هذا الهمام ، فاعلم أنه مخذول مغرور ، أو جاهل مغمور .

واعلم أن الصادق يجعل الله لدعوته التأييد والتمكين ، والكاذب يظهر الله عواره ولو بعد حين . وهذا الإمام لم يكن مطلبه السلطان ، وجمع الجنود والأعوان ، والاستيلاء على البلدان ؛ بل كان قصده تصحيح معتقد الناس ، وتصفية التوحيد مما أصابه من الأدران والأدناس، وإزالة الخطأ والالتباس ، فأصاب عين الحقيقة ، ولزم أحسن طريقة ، حتى شرّقت بالخير ركائبه ، وغرّبت بالفضل نجائبه ، فتقبلها عباد الله بقبول حسن ، وعدوها عليهم من أعظم المنن ، وشرق بها من ضل رشده ، وخاب جهده ، فما ضر إلا نفسه ، وما اقتلع إلا غرسه ، وهذه سنة الله في البشرية ، وحكمته في البريّة . لا تشرق شمس دعوة صادقة، بالتوحيد ناطقة ، إلا قيض الله لها أنصارًا وأعداء، لتتم سنته في المدافعة بين الفجّار والأولياء ، وليتخذ شهداء .

بدأ الإمام بالتوحيد لأنه المسألة الكبرى ، والعروة الوثقى . لأن من يعلّم الناس الفروع وقد ذهبت الأصول ، كمثل من يداوي الأجسام وقد فقدت العقول ، وكيف تفلح أمة يطوف على القبور رجالها ، وينشأ على الشرك أجيالها .

قبل أن تدرّس الناس الفروع الفقهية، صحح لهم مسألة الألوهية ، وقضية العبوديّة ، لتأتي البيوت من أبوابها، وترد المسببات إلى أسبابها .

وقبل أن يعلم الناس أبواب السياسة ، وطرق الوصول إلى الرئاسة ، يجب تعليمهم الدين الخالص الذي دعت إليه الأنبياء ، والتوحيد الحق الذي جاءت به الملّة الغرّاء .

هل يقر للعبد قرار وهو يسمع ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾ . هل بعد هذا الإنذار من إنذار، وهل فوق الخطر من أخطار ، والله يقول لنبيه وصفيه ﴿ **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾. إن الأحزاب المفلسة ، والطوائف المبلسة ، أهملت مسألة التوحيد من حسابها، وحجبت حقيقته عن أحزابها . فكان جزاؤها الخزي والهوان ، والذلة والخذلان، لأن أعظم المطالب العلمية ، وأكبر المقاصد العملية ، هي قضية الألوهية ، ولهذا تجد أنَّ أي دعوة قامت على غير التوحيد قد انهارت ، وأعلنت هزيمتها وبارت ﴿ **فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ** ﴾ .

ما خُلق الكون وأوجدت فيه حركة وسكون، إلا لمسألة عظيمة ذكرت في الكتاب المكنون: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ .

كانت دعوة الإمام المجدّد ، تنص على أن يعبد الله وحده ويوحّد ،

قبل أن يعلم الناس الأحكام ، لابد أن تطهـر قلوبهم من التعلق بالأوثان والأصنام ، وأن تزكى ضمائرهم من التعلق بالأنصاب والأزلام .

قـد يدرك الحلولي والاتحـادي مـسائل الـفقـه وهو ضـال في باب التوحيد، وقد يلم الصوفي والقبوري بالأحكام وهو جاهل بحق الله على العبـيد . ولهـذا تجد من نصب نفسـه للفتـيا في بعض البـلاد، يشاهد مظاهر الشـرك تعصف بالعـباد، ثم لا ينكر ولو بإشـارة، ولا ينهى ولو بعبارة، فأي صلاح لمن هذه حاله، وأي علم ينتظر لمن هذه أعماله؟ .

لقد استـقبلت الأمة دعوة هذا الإمـام ، بالقبول والاهتمـام ، فصار للمساجـد دوي كدوي النحل بالعلم المأثور ، وصارت كتائب الـتوحيد تزيل القباب عن القبور ، وانتشر دعـاة الحق ينفضون آثار الشرك والبدعة من الصدور ، فصـار العامي بنور هذه الدعوة أصفى تـوحيدًا ، وأخلص دينًا من أئمـة الطوائـف المنحـرفـة ، لمـا جعل الـله في قلبـه من نور المعرفة. بعد أن عمّت الشرور ، وانطفأ النور ، وحار الناس في ظلمات الشرك بين نذور وقبور ، وسحر وكهـانة وفجور ، فجدد الله بهذا الإمام معالم الدين ، وأيده بكتائب الموحدين ، فالحمد لله رب العالمين .

حمدًا على جلال النعمة ، وانكشاف الغمة ، وصلاح الأمة .

*　*　*

مقامة الملك عبدالعزيز آل سعود

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ ﴾

فَإِنَّك شَمسٌ والمُلُوكُ كَواكِبٌ
إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

العظماء يكتبون التاريخ بدمائهم ، ويتوجون الملاحم بأسمائهم .

عَلَى قَدرِ الْعَزْمِ تَأتِي الْعَزَائِم
وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ
وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا
وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ
وَقَفْتُ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٌ
كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ
تَمُرُّ بِكَ الأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَة
وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

عبد العزيز بن عبد الرحمن صقر جزيرة العرب ، ومعيد مجد من ذَهب، وقبلة الأشعار والخطب، أعاد سيرة المجد كما كانت ، بعزيمة

وقف لها الدهر فما لانت، وصارعها الخطب فما هانت، أخرج بالسيف وساوس الظالمين ، وصارت قصة كفاحه أعجوبة في العالمين وآيةً للسائلين .

وَهُوَ الجدُّ حَتَّى تَفْضُلَ الْعَيْنُ أُخْتهَا
وَحَتَّى يَكُونَ الْيَوْمُ لِليَوْمِ سَيِّدا

عبد العزيز لم يحز المجد بِقُرْعَةٍ ، ولم ينل المجد بخدعة ، ولم يصل إلى سُدَّة الحكم عن طريق صناديق الانتخاب ، ولا بفضل تصويت الأحزاب، وإنما حاز الملك بتوحيد يهز الجبال ، وبسيف بتار تهابه الرجال، نال المجد بوثبة عصامية ، تحت راية إسلامية ، ووصل إلى سدة الحكم بهمة كأنها الدهر إذا هاج ، والبحر إذا ماج ، وصوتت له السيوف والرماح حتى شيعته الأرواح .

أَحَقُّهُمْ بِالحُكْمِ مَنْ عَشَقَ الْعُلا
وَبِالأَمْنِ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ الشَّدَائِدُ

عبد العزيز أثبت للعالم أن الهمة الوثّابة ، أقوى من الدبَّابَة ، وأن العزائم الرائعات ، أشد من المدرعات .

وَفَدْتُ إِلَى الصَّحْرَاءِ فَاللهُ أَكْبَرُ
بِكَ المَجْدُ والتَّارِيخُ يُطْوي وَيُنْشَرُ

جَـــزِيرَتُـنَـا فِي مُـــقْلَتَــيْكَ وَدِيعَـــةٌ

وَهَذِي رِمَــال الزَّيْتِ مِــسْكٌ وَعَنْبَــرُ

أشرق عبد العزيز من الصحراء ، ومـعه شريعة غراء ، موحد يردد ، قل هو الله أحد ، في شـجاعة أسد ، في إصـرار وجلد ، له من العون مدد ، ومن النصر عدد .

عـبد العـزيز لم يكن بلشـفـيًّا أحـمر ، يكفـر ولا يشكر ، ينادي بالبرجوازية ، بل كان حنيفًا مسلمًا ، وقائدًا ملهمًا ولم يكن زعيمًا يدعو للنازية ، ويبشر بالليـبرالية ، بل كان إمامًا عادلاً ، وحاكـمًا فاضلاً ، له من التاريخ جولة ، ومع الدهر صولة ، حتى أقام دولة .

ولم يكن عبـد العزيز بعثـيًّا يحفـظ تعاليم ميـشيل عـفلق ، وعلى جمـاجم الأبرياء يتسلق، بل وحّـد رب العبـاد براية الوحدانيـة ، ووحد البلاد بالرسالة الإيمانية .

إِذَا كَــانَ نِهْــرُو مُنْقِــذٌ فَــهْــوَ أَهْوَجُ

وَإِنْ كَــان تِيــتُــو قَــائِدٌ فَــهُــو مُــدْبِرُ

وَلِيـنـيـن سَـــــفّـــاك وَهِـتْـلَر طَـائِـشُ

وَصَــوْلاتُ نَـابِلْيــونَ مَــوْتٌ مُــقَطّرُ

وَهَـذَا حَنِـيفٌ مُـــسْلِمٌ ثَـابِتُ الْخُطَـا

صَـــلاةٌ تُؤَدَّى أَوْ كِــتَــابٌ يُفَــسَّــرُ

وفد ماركس بمشـروع الإلحاد ، تحت مسمى الشيـوعية والاتحاد ، فـقتل الرجـال ، وبز الأموال ، وفـعل الأهوال ، وأطل هتلر بتـفضـيل الألمـان ، على بني الإنسـان ، حتى أحـرق من خـالفه في الأفـران ، وانتهى أمره إلى الهـوان ، وباء بالخسران . وأشرق عبد العـزيز بمشروع الوحدة ، تحت شـعار الله وحده ﴿ **أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ** ﴾ وولدت معه مملكة قـويّة ، ودولة فتية ، دستورها من السماء ، وتعـاليمها من غار حراء، ووثيقتها شريعة سمحاء .

ليس الملك عند عـبد العـزيز مظاهر خـداعة ، ودعـاية لمآعـة ، وليست أمنيته ثكنة من المـباني ، ولا سرب من الغواني ، ولا طائفة من المعزوفـات والأغاني . ولكن الملك عنده ثبات وهمة، وتوحـيد أمة ، والوصـول بهـا إلى القـمـة . والملك عنده جـمع الـقلوب في عناق ، وتأليف الشمل في اتفاق ، وقطع دابر الافتراق:

عَبْدُ الْعَزِيزِ الَّذي ذَلَّتْ لِسَطْوَتِهِ
شُوسُ الجَبَابِرِ مِنْ عَجَمٍ وَمِنْ عَرَبِ
لَمَّا أَتَى الْمَجْدُ صَاحَ فِي طَرَبٍ
المجدُ للسَّيْفِ لَيْسَ المجْدُ للكُتُبِ

والملك لم يُهدَ لعبد العزيز عـلى طبق من ذهب ؛ بل بعزمات كأنها

الشهب ، وبهـمة كـاللهب ، لم يشق الأمة بمـشروع وحدوي اشـتراكي شيوعي ؛ بل أسعـدها بدستور توحيدي محـمدي شرعي ، ولم يؤسس دولته على شعارات وهتافات ومظاهرات ودعايات؛ بل أسسها على آيات بينات ، وحكم وعظات ، وسجايا صالحات .

أسس أفلاطون جـمهورية في الأذهان ، لم تصل للعـيان إلى الآن ، ودعا ديمقراط اليوناني إلى حكومة على الأوراق ، لم تظهر في الآفاق ، وبشّر ماركس بدولة شركـية اشتراكية ، فإذا هـي عناء وشقاء وفناء ودماء ولعنة حمراء . وأسس عبد العزيز آل سعود، مملكة في العالم المشهود، ردد ذكرها الوجـود ، وحمل علمـها الجنود . فمـملكة عبـد العزيز لا شرقية ولا غربية ، بل إسلامية محمديَّة .

فَـإِمَّـا حَـيَـاةٌ نَظْمَ الْوَحْيِ سَـيْـرُهَا
وَإِلا فَـمَـوْتٌ لا يَـسُـرُّ الأَعَـادِيا
رَضِـينَا بِكَ اللَّهُمَّ رَبًّا وَخَـالِقًـا
وَبِالمُصْطَفَى الْمَعْصُومِ نُورًا وَهَادِيًا

رفض عبد العزيز الـرأسمالية لأنها ملكية الفرد ، حـتى يصبح للمال كالعـبد ، ولو وقعت الأمـة في المشقة والجـهد . ورفض عبـد العزيز الشيوعيـة ، لأن شعارها اللعين الكفر بإياك نعبـد وإياك نستعين ، الذي نادى به لينين وإستالين ، صرخـوا في العالم بأن لا إله ، والحياة مادّة ،

مع مساواة الطبقة المترفة بالكادحة الكادّة ، ورفض عبد العزيز الديمقراطية لأنها تدعو إلى حكم الشعب بالشعب ، فالفضلة والسفلة سواء بسواء ، الكعب بالكعب ، ورفض عبد العزيز الجمهورية لأنها مثاليات في أذهان منظريها ، وأحلام معسولة في عقول مصدريها . واختار عبد العزيز دولةً إسلامية ، تقوم على الشريعة ، وتؤمن بالبيعة ، فجمع عبد العزيز بين الإعجاز ، والإنجاز ، إعجاز ماثل في الوحي المقدس ، وإنجاز قام في حضارة تؤسس . وأخذ عبد العزيز من القديم الرسالة ، والأصالة والعدالة ، وأخذ من الجديد ما يخدم الإنسان ، ولا يخدش الإيمان . وحمل عبد العزيز المصحف والسيف ، لغرس الإيمان ورفع الحيف ، مصحف يحمل الهداية ، وسيف يقطع دابر الغواية . فدولة عبد العزيز دولة ليس بها بلاشفة ، ولا أساقفة ، لأن البلشفي يعبد الوجود ، ويكفر بالمعبود ، فـفكرته تقوم على الجمود والجحود ، والأسقفي يريد أن يُدخِل العالم إلى الكنيسة وأن يعيد البشر إلى الحياة التعيسة .

فَلَمْ يَكُ بَعْثِيًّا يُحَارِبُ رَبَّهُ
وَلا بَلْشَفِيًّا بِالرِّسَالَةِ يَكْفُرُ
وَلَكِنْ عَلَى الإِسْلامِ مَدَّ شِرَاعَهُ
وَفِي قَارِبِ المُخْتَارِ يَرْسُو وَيَبْحُرُ

باب المجد لا يقرع بقصائد محبرة ، ولا بأقلام معطرة ، ولا بخطب مسطرة .

إنما يقرع باب المجد بسيوف بتّارة ، وهمم هدّارة ، وعزائم فوّارة، ليحيا من حي على بينة من الخلود ، والسؤدد والسعود ، ويهلك من هلك عن بيّنة بأمانيه المضلّلة ، ووساوسه المعطلة . وعبد العزيز أسهر بالكفاح ليله ، وأسرج بالعزم خيله ، ففتح له الملك بابَه ، ورفع له المجد حجابَه :

فَلا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ دُفًّا وَقَينَةً

فَمَا الْمَجْدُ إلا السَّيْفُ وَالفتكَةُ البكْرُ

وَتَضْرِيبُ أَعْنَاقِ المُلُوكِ وَأنْ تُرَى

لَكَ الهَبَواتَ السُّودُ والعَسْكَرُ المُجَرُ

وَتَرْكُكَ فى الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّمَا

تَدَاولُ سَمْعَ الْمَرْءِ أَنملةُ الْعَشْرُ

قال محمد إقبال، شاعر الأجيال، في خطاب وجيز، إلى عبد العزيز:
أيها الملك انصب خيمتك في الصحراء ولا تستعر أطنابها من الأجنبي فإن استعارة الأطناب من الأجنبي حرام .

وقال مصطفى أمين الكاتب المشهور: لو قيل لي اذكر لنا عشرة

عظماء في القرن العشرين لجعلت عبد العزيز بن سعود الأول ؛ لأن العالم ينظر إلى الإنجاز المشهود ، ولا يعبأ بالدعاوى لمجد مفقود .

لو جاء عبد العزيز بمشروع علماني لزلزلت الجزيرة زلزالها ، ولملأت بالغيظ رجالها، ولو هزّت بالثأر جبالها ؛ لأن الجزيرة سكب من غمام الوحي دستورها ، وأشرق من سماء النبوة نورها ، فلا تصغى إلا إلى صوت الإيمان المحمود ، وهذا ما فعله عبد العزيز بن سعود .

ولو أن عبد العزيز قدم بمشروع أرضي يستمد تعاليمه من بيت العنكبوت، لقالت الجزيرة آمنت بالله وكفرت بالطاغوت، لأن الجزيرة فطرت على التوحيد، ورضعت لبن الدين الرشيد ، وهذا ما قام به عبد العزيز بعزمه السديد . فالجزيرة بلاد الأبرار ، ليس فيها شعار الثوار الأحرار ، والرفاق الشطار ، والملاحدة الكفار .

عبد العزيز أعلن أن دولته إسلامية سنية ، شرعية سلفية ، لأن المبدأ الحق ما كان من نكاح ، والمذهب الدخيل ما كان من سفاح ، ومن أتى إلى الجزيرة بدين غير الإسلام، فكأنه أدخل في الكعبة الأصنام ، ووضع في المحراب الأزلام ، وأباح من على المنارة الحرام، إن الذين يبنون دولاً آثمة ليكون أول إعلان لهم أنهم يكفرون بالله العظيم ، وكأنه لا يصل إلى مجد الدنيا إلا من طريق الجحيم ، هؤلاء استحقوا لعنة الله ومقت التاريخ، ولطخت أسماؤهم برجس التوبيخ . يعلنون التنوير من ميدان التحرير، وإذا التنوير عندهم اعتناق الإلحاد، والكفر برب العباد،

والتحرير لديهم الخروج عن قداسة الملة ، والدخول في سراديب الخيبة والذله . في هذا الوسط الآسن ، وفي هذا التِّيه الفاتن . جاء عبد العزيز بدولة ، تحترم القبلة ، وتقدس الملّة ، ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** ﴾ سمعنا الرفاق الحمر ، والضباط الصفر ، ينادون بالكفر، وكأنها لا تبنى الحضارة ، حتى تهدم المنارة ، ولن تنال القوة ، حتى تجحد النبوة ، فقاتل الله الغباء ، فإنه وباء ، وويل للعقول الممسوخة ، والأفكار المسلوخة، من ذلة في الدنيا ساحقة ، ومن لعنة في الآخرة ماحقة . اللهم انصر من نصر دينك ، وامنحه تمكينك، حتى تعبد وحدك ، إنك لا تخذل جندك، ولا تخزي عبدك ، لك الملك ولك الحمد ، ولك السؤدد والمجد، لا ينفع ذا الجد منك الجد .

* * *

المقـامــة الـبـازيَّـــة

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾

إنْ قَـامَ سُـوقُ الْعِلْمِ فَـهُـوَ كَـمَـالِكٍ

أَوْ مُـدَّ بَاعُ الزُّهْدِ فَـالشَّـيْـبَـانِي

أَوْ غَاصَ فِي التَّـفْـسِيرِ قُلْتُ مُجَاهِدٌ

وَالْفِـقْـه وَالتَّـعْلِيمِ كَـالنُّـعْـمَـانِ

وَإِذَا تَـزَاحَـمَـتْ الْوُفُـود فَـحَـاتِمٌ

وَكَـأَحْنَفٍ فِي الحِلْمِ والْغُـفْـرَانِ

للقلب من ذكـره اهتـزاز ، وللقـصيـد في مـدحه ارتـجاز ، تفـرد بالمكرمات وامتاز ، وحظي بحسن الثناء وفاز ، إنه عبد العزيز بن باز . أوصلته الهمـة ، إلى إمامة الأمة ، وبلغته العـزيمة ، المنـزلة الكريمة ، ودلتـه السنة، طريق الجنـة . خلق أرق من النسـيم ، وعلم أعـذب من التسنيم ، كلامه يوشى بالأثر ، كأنه در انتـثر .

ابن باز : اتباع لا ابتداع ، وقبولٌ عم البقاع ، وفضله كلمة إجماع ، مع اعتصام بالدليل ، واهتمام بالتأصـيل ، وبراعة في التحصيل ، يشرفه تحقيق في النقل ، وسـداد في العقل ، جمع مع كرم الطبيـعة ، رسوخ

في الشريعة ، هجر في طلب العلم الرقاد ، فحصل واستفاد ، وأخذ الرواية بالإسناد ، حتى ترأس وساد ، وعم علمه البلاد والعباد .

ابن باز : على نهج السلف ، بلا تنطع ولا صلف ، روح بالتقوى طاهرة ، ونفس بالعلوم باهرة ، أعذب من ماء السحاب ، وأرق من دمع الأحباب .

ابن باز في هذا العصر : إمام الغرباء ، وعالم الأولياء ، وزاهد العلماء .

تقلد أرفع المناصب ، فكان آية في أداء الواجب . حضرت له مجالس وموائد ، وحملت عنه فوائد ، وألقيت عليه قصائد ، ورويت عنه فرائد .

كَانَتْ مُحَادَثَةُ الرُّكْبَانِ تُخْبِرُنَا
عَنْ شَيْخِنَا البَازِ، تَرْوِي أَرْوَعَ الخَبَرِ
حَتَّى التَقَيْنَا فَلا وَاللهِ مَا سَمِعَتْ
أُذْنِي بِأَحْسَنَ مِمَّا قَدْ رَأَى بَصَرِي

لما جاء خبر وفاة هذا الإمام تعثرت به الأفواه ، وتلعثمت به الشفاه، وقال القلب هذا خبر لا أقواه ، وقالت النفس ما أشد هذا المصاب على القلب وما أقساه .

أُصِـــيبَ بِـهِ الإِسْــــلاَمُ وَارْتَـجَّ أَهْلُـهُ

عَلَى فَـقْـدِهِ حَـتَّى أُصِـيبَ بِـهِ الصَّـبْـرُ

كَـــأَنَّ بَنِي الإِسْـــلامَ يَومْ وَفَـــاتِـهِ

نُجُـومُ سَـمَـاءٍ خَـرَّ مِنْ بَيْنِهَـا الْبَـدْرُ

ابن باز بز بعلمه الأعـلام ، وأتعب بسيرته الأقلام ، وأهدى عـمره للإسلام ، وكـفل بكرمه الأيتام . لو رآه يحيى بن مـعين لقال : مـرحبًا بعلم الإسناد ، ولو أبصره حـاتم الطائي لقال : أهلاً يا سيـد الأجواد ، ولو لقيه الأحنف بن قيس لقال : منكم الحلم يستفاد .

ابن باز بَزَّ الأقران ، بطاعة الرحـمن ، وعلم السنة والقرآن ، وإكرام الضيفان ، واحترام الإخوان ، وبر الأقارب والجيران .

سَـعَى سَـعْـيَـهُـمْ قَـوْمٌ فَلَمْ يُدْرِكُـوهُـمُو

وَمَـا قَـصَّـرُوا عِـنْدَ اللِّحَـاقِ وَلَـمْ يَأْلُوا

وَلَكِـنْ لَهُـمْ سَــبْقُ الـجَــلاَلَةِ وَالْعُـــلا

فَـجَـاءَ لَهُـمْ مِنْ كُلِّ نَاحِـيَـةٍ فَـضْلُ

إن زرته غمرك بالإكرام، وأتحفك بالاحترام ، وآنسك بطيب الكلام، وضيفك ألذ الطعام ، وعلمك الآداب والأحكام ، فهو يجمع الجودين، وبما تقوم الدنيا والدين .

ابن باز أبو الدعاة ، وشيخ القضاة ، وناصح الولاة ، تحبه لتقواه ، وتحترمه لفتواه .

حاضر في الجامعات ، وتشرفت به المحاضرات ، وتعطرت بعلمه الندوات ، وطابت بلقائه الأمسيات ، وسعدت بوجوده الجلسات ، غني في زي فقير ، وزاهد في موكب أمير، ومفتي في منصب وزير ، حمل كل أمر خطير ، فكان نعم المشير ، وصاحب الرأي الفطير والخمير ، عليه بسمة في وقار ، ولين في إصرار ، ودأب في استمرار ، السنة له شعار ، والصلاح له دثار ، وعليه من السكينة أنوار ، لم يكن لسانه كالمقراض للأعراض ، ولم يكن له ارتياض في جلب المال والأغراض :

عَفِيفٌ مِنَ الدُّنْيَا خَفِيفٌ مِنَ الخَنَا
عَلَى سَمْعِهِ مِنْ كُلِّ فَاحِشَةٍ وَقْرُ
فَلَوْ قُسِّمَتْ أَخْلاقُهُ فِي قَبِيلَةٍ
لَصَارَ لِكُلٍّ مِنْهُمُ الْمَجْدُ وَالْفَخْرُ

ابن باز : نفع للخليقة ، وإدراك للحقيقة ، ولزوم الطريقة ، عدل في الأحكام وإنصاف ، وتواضع تعنو له الأشراف ، وكرم تشهد به الأضياف .

أثبت ابن باز أن العلم يشرف من حمله ، وأن المال يسوّد من بذله .

ليس في قاموس ابن باز أن الجود يفقر ؛ بل صاحبه يشكر وبالخير يذكر، لو ترجم كرم ابن باز في أبيات **لقيل** :

أَنْفِقْ وَلا تَخْشَ مِنْ ذِي العَرْشِ إِقْلالاً

وَلا تُطِعْ فِي سَبِيلِ الجُودِ عُذَّالاً

مَنْ جَادَ جَادَ عَلَيْهِ اللهُ وَاسْتَتَرتْ

عُيُوبُهُ وَكَفَى بِالْجُودِ سِرْبَالاً

تميز ابن باز بالتعمق في الأثر ، والغوص على الدرر ، مع تصحيح الخبر ، وصحة النظر .

ابتعد ابن باز عن شقشقة علماء الكلام ، وعقعقة الفلاسفة الطغام ، وتشدق أهل المنطق اللئام . ولم يكن يسقط على السقطات ، ولا يلقط الغلطات ، بل كان يدفن المعائب ، ويذكر المناقب ، فملأ الله بمحبته القلوب ، وطار ذكره في الشعوب .

فالعلم عنده حديث وآية ، ونور وهداية ، وعمل لغاية ، واستعداد لنهاية ، أعرض عن مذاهب المبتدعة الضلال ، وأهل الدنيا الجهال ، وأساطين القيل والقال ، وهجر الجدال ، فسلم من همز الرجال .

خُلقَ كَأَنَّ الشَّمْسَ تَحْسُدُهُ عَلَى

كَرَمِ الطِّبَاعِ وَزِينَةِ الأَوْصَافِ

ضَـمِنَتْ لَهُ الدُّنْيَـا الثَّنَاءَ فَكُلَّمَـا
ذَكَـرُوهُ جَـادَ النَّاسُ بِالإِتْحَـافِ

ليس في مجلسه أرقام الأسعار ، ولا فضول الأخبار ، ولا غرائب الأقطار ، ولا عجائب الأمصار ، وإنما كلام العزيز الغفار ، وحديث النبي المختار ، وما صح من آثار . « كمثل حامل المسك إما أن تبتاع منه وإما أن يتحفك بطيبه » .

زهد ابن باز زهد متواضع ، لم يشر إليه بالأصابع ، ويعلن على الملأ في المجامع ، لأن الدنيا عنده أهون من أن يعظم الزهد فيها ، وأحقر من أن يمدح النظر إليها، فكان زهده صامت، وتواضعه ساكت. خدمته ألسنة الخلق بإعلان الفضائل ، وأحبته قلوب الناس فوعت تلك الرسائل .

أفضل شيء في العالم : مراقبة الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والاستعداد للرحيل ، والرضا بالقليل ، وكذلك كان ابن باز . ﴿ **فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ** ﴾ .

وأحب شيء في الولي : المحافظة على تكبيرة الإحرام ، والكف عن الحرام ، والرحمة بالأنام ، وسلامة الصدر من حب الانتقام ، وطهارة الثوب من الآثام ، وكذلك كان ابن باز . كانت دعوته حسبة ، وعمله قربة ، فصار إمامًا في زمن الغربة .

وأكرم شيء في الرجل ، بسمــة على محياه ، وصدقه في مــسعاه ، وثباته في خطاه ، وإخلاصه في إعلانه ونجواه ، وكذلك كان ابن باز .

وأحسن شيء في الإنسان ، طـهارة الضمير ، والاســتعلاء على كل حقـير ، واحتــرام الكبير ، ورحــمة بالصغـير ، وعطف على الفقــير ، وكذلك كان ابن باز .

العلم ليس متونًا تحفظ ، ولا خطبًا تلفظ ، ولكنه خشية وخشوع ، وتواضع وخضوع ، واتباع في الأصول والفروع ، وكذلك كان ابن باز . ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ .

والعلم ليس شهــادات تعلق، ولا مناصب تتسلق، ولا دنيــا تعشق، ولكنه تقوى ومراقبة، وورع ومحاسبة، وتنبيه للغافل ، وتعليم للجاهل، وكذلك كان ابن باز .

عرفنا من العلماء من اشتهــر بالخطابة ، والذكاء والنجابة ، وسرعة البديهة والإصــابة وهذا أعظم ما يذكر به وعــرفنا من العلماء من عندهم فَــهْمٌ ثاقب ، ونظر صــائب ، وذهن يغوص على الـعجــائب ، ثم ليس يذكر إلا بهذا .

وعرفنا من عنده حافظة قوية ، وفي صدره متون مروية ، وفي ذاكرته علوم مــحكية ، ثم هذا غــاية ما عنــده . ولكن ابن باز حافظة بِفَــهْمٍ ، وذاكرة بعلم ، وســداد في رويَّة ، وثبات مع حــسن طوية ، معه حــجة ناطقة ، ونية صادقة .

كَـالسَّـيْفِ إِنْ تُغْـمِـدْهُ أَوْ تَـسُلَّله مَـا
فِـي حَــدِّه عَــيْبٌ وَلا تَقْــصِــيـرُ
مَــعْــرُوفَــةٌ وَثَبَــاتُهُ وَصِــفَــاتُهُ
فِـي صَــوْتِهِ يَوْمَ الـقِــتَــالِ صَــرِيـرُ

بلغ ابن باز منزلة لا يرفعه المدح ، ولا يضعه القدح ، فاستوى عنده الثناء والهجاء ، ولم ينفعه مدح الأصدقاء ، وما ضره ذم الأعداء ، لأنه يعامل رب الأرض والسماء .

مَنْ كَـانَ فَوْقَ مَـحَلِّ الشَّـمْسِ مَوْضِعُهُ
فَـلَيْسَ يَـرْفَــعُــهُ شَيْءٌ وَلا يَـضَـعُ

ليس في قاموس ابن باز تفصّح ولا تبجّح ولا تمدّح .

لا يحب الإطراء والمراء والإغراء ، لا يتزلف عنده برنين الدعاية ، ولا يتقرب لديه برخيص السعاية ، لأنه قد حقق الولاية .

ليس العلم عند ابن باز بالتفاصح ، والتمادح ، والزهو بالمشالح ، والحرص على المصالح ، بل العلم لديه حمل الشريعة في إخبات ، وطلب الفائدة بإنصات ، والعمل بالحجة في ثبات . العالم من عن الحرام كف ، وعن الشهوات عف ، وقام على غرور الدنيا تف ، وكذلك كان ابن باز .

ابن باز من مدرسة التجديد، وليس من أهل التقليد ؛ بل هو صاحب حجة، سالك المحجة، معتصم بالبرهان ، عالم برضى الرحمن . ليس بمتعـصب للمذهب؛ بل يتبع الحق أينما وجـد ، ولا يتجاوز الدليل إذا صح السند .

صحـبت هذا الشيخ فلم أر فـيه عجـرفة المتطـاولين ، ولا تخرص المتقوّلين ، ولا ترخص المـتأولين ، ولا غرور الجاهلين ، بل دأب في تحصيل الفـضيلة ، وحرص على الصفـات الجليلة ، واتصف بالأخلاق الجميلة .

كان الشيخ يحترم الأئمة السالفين ، ولم يكن يجرّح المخالفين ، بل كان رفيقًا مما جعل الناس له مؤالفين .

إِذَا صَـاحَـبْتَ قَـوْمًـا أَهْلَ فَـضْلٍ
فَكُن لَهُمُ كَـذِي الرَّحِمِ الشَّـفِـيقِ
وَلا تَـأْخُـــذْ بِزَلَّـةِ كُـلِّ قَـــوْمٍ
فَـتَـبْـقَى فِي الزَّمَـانِ بِلا رَفِـيقِ

إن التقوى إخلاص في الأعمال ، وصـدق في الأقوال ، ومراقبة لله في الأحوال ، وكذلك كان هو . أدرك الشيخ شرف الزمان ، فوزع وقته في وجـوه البر والإحـسان ، وهذه أعظـم علامـة ، على بلوغه درجـة الإمامة .

فهو رجل خاصة ينصح ويعظ ويتلطّف ، ولا يغلظ ويشنع ويعنف . وهو رجل عامّة فكان بالناس رفيقًا ، وبالمستضعفين رقيقًا .

وهو رجل شفاعات تُلبَّى لديه الطلبات ، وتحل عنده المشكلات ، ويجيب على التساؤلات ، وتعرض عليه المعضلات .

الإمامة عند هذا الإمام : يقين عند الشبهات ، وصبر عند الشهوات، وتحمل للمسئوليات .لم يكن هذا الإمام في فتواه يفرع المسائل حتى يحير السائل ، بل وضوح في العبارة ، ولطف في الإشارة ، فلا إسهاب يشتت الأذهان ، ولا اقتضاب يربك الحيران ، بل إصابة للقصد ، مع اختصار للجهد . فهو أدرى بقوله تعالى : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴾ .

وقالوا : من تابع الرسول ، ووقف مع المنقول ، وترك الفضول ، نال القبول وكذلك كان رحمه الله .

وقالوا : من تقيد بالمأثور ، وآمن بالمقدور ، وعمل بالمأمور ، واجتنب المحذور ، فعمله مبرور ، وسعيه مشكور ، وهو مأجور وكذلك كان رحمه الله .

وقالوا : من أرضى الحق، ولطف بالخلق، وصدق في النطق، وعمل في رفق، حصل من الرب على القرب، ومن الناس على الحب، وكذلك كان رحمه الله .

ولولا أني عرفته ما وصفته ، والسبب في أنني أحببته ، لأنني صاحبته .

ولا تقل إنني بالغت في المـدح بل قصـرت، ولا تزعم أنني طولت في الثناء بل اختصرت . وقد عرفت في حياتي مئات العلماء ، والأدباء، والشعراء ، والنبلاء ، والكل فيه فـضل، والجميع فيه نبل . ولكن الذي تفرد بالفـضائل واصطفـاها ، وجمع حسن الشـمائل وحـواها ، وعرف دروس المجد ووعاها ، هو هذا الإمام الهمام .

وقد طالعت سِـفْر صـفات الصالحـين ، وقرأت ديوان المـفلحين ، وراجعت علامات الناجحين ، فوجدتها فيه منطبقة ، وعليه متّسقة .

وَلَوْ حَـرِصَ الْكَثِـيرُ لَـمَا اسْـتَطَاعُـوا

إِلَى مَـا فِـيكَ مِنْ كَـرَمِ الخِـصَـالِ

وابن باز جمع بين ثلاث مـيمات ، لها قـيمات ، ولها عليـه سمات وعلامات .

فـميم العلم ، والرسـوخ في الفهم ، وهي إمـامة مـقدسـة ، على الوحي مؤسسة .

وميم الكرم والسخاء ، والتي حرم منها البخلاء ، فصار هذا الشيخ بالكرم رئيسًا ، وعند الناس نفيسًا .

وميم الحلم فلا يغضب ولا يعتب ولا يصخب ولا يضرب .

وقد قـرأت عليه قطعة من مسند أحـمد في المسـجد ، فكان يتكلم بقول مسدد ، ورأي بالصواب مؤيّد ، ولا يتردد . وألقيت عليه قصيدتي

البازيّة ، وهي فصيحة لا رمزيّة ، فقابلها بالقبول ، واللطف في القول ، ودعا لي بالتوفيق ، كأنه والد شفيق .

وألقيت عليه قصيدتي في أبي ذر ، فاستأنس وَسُر ، وقصائد كثيرات، في لقاءات ومخيمات ، وندوات وأمسيات .

يَالَيْتَ أَيَّامِي تَعُودُ فَذِكْرُهَا
فِي عَهْدِ هَذَا الفَذِّ قَدْ أَشْجَانِي

وهو أول ضيف افتتح بيتي في الرياض ، وقد أفاض عليّ من بره ما أفاض ، وما رأيت منه في حياتي الجفاء والإعراض :

أنَا مِمَّنْ سَمَاحَتُهُ أنَالَتْ
وَمِمَّنْ دَرِبَت تِلْكَ الأَيَادِي
عَلَيْهِ تَحِيَّةُ الرَّحْمَنِ تَغْدُو
لِمَا أَسْدَاهُ مِنْ نَفْعِ العِبَادِ

بل كان دائمًا كثير الترحاب ، ليّن الجناب ، قريبًا من الأحباب ، مكرمًا للأصحاب .

وقد شجعني على الدعوة بخطاب منه مختوم ، وباسمه موسوم ، وبأنفاسه مرسوم ، وهو عندي إلى اليوم . وقد وصلت دولاً أعجمية وعربية ، وشرقية وغربية ، فما رأيت مثل هذا الإمام ، على كثرة من

عرفنا من الأنام . وأظن عين المجد قد بكت عليه ، وروح التاريخ حنت إليه ، ولو فاح طيب ثناءه في الوجود لكان مسكًا ، ولو نظمت مكارمه في عقد لانفصم من طوله سلكًا سلكًا . وقد رثاه العامة والحكام، ورجال الإعلام، وحملة الأقلام ، وبكاه رجال الصحافة، وأهل الأدب والثقافة ، ونوه بفضله العلماء ، وبكاه الشعراء ، وأثنى عليه الأدباء، وحزن عليه الزعماء . وما سمعنا بمثل جنازته في الإسلام، ولم نعلم أنه مر مثلها مع الأيام ، من كثرة الزحام ، وما حل بالمسلمين من الآلام .

فقد اختلط الترحم عليه بالدموع ، وماجت كالبحر الجموع ، وأعلن خبر موته الإعلام المرئي والمسموع . ووددت أن النصارى شاهدوا جنازته واليهود، ورأوا ذلك الموقف المشهود ، وأبصروا تلك الحشود والبنود ، والوفود والجنود ، ليعلموا منزلة علمائنا ، وقَدْر حكمائنا ، وأننا أمة تقدس الديانة ، وتوقر حملة الأمانة ، أهل الرزانة والصيانة .

ثَوَى طَاهِرُ الأدرانِ لَمْ تَبْقَ بُقْعَةٌ
غَدَاهُ ثَوَى إلا اشْتَهَت أَنَّهَا قَبْرُ
تَرَدَّى ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمرًا فَمَا أَتَى
لَهَا اللَّيْلُ إلا وَهِيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ

وقد رثيته بقصيدة بازيّة ، أصف فيها عظم الرزيّة ، أنزله الله

رضوانه، وأسبغ عليه غفرانه ، وبوّأه أكرم نزل ، وألبسه أجمل الحلل ، جزاء ما قدّم ، وأفاد وعلّم ، وأتحف وأكرم ، فله علينا حق الدعاء ، وحسن الثناء، وهذه سنة الوفاء ، ومذهب الأصفياء، وعسى الملك العلام ، ذو الأيادي العظام، والمنن الجسام، أن يجمعنا به في دار السلام ، مع السلف الكرام .

قَاسَمْتُكَ الْحُبَّ مِنْ يَنْبُوعِهِ الصَّافِي
فَقُمْتُ أُنْشِدُ أَشْوَاقِي وَأَلْطَافِي

لا أَبْتَغِي الأَجْرَ إِلا مِنْ كَرِيم عَطَا
فَهُوَ الغَفُورُ لِزَلاتِي وَإِسْرَافِي

عَفْوًا لَكَ اللهُ قَدْ أَحْبَبْتُ طَلْعَتُكُم
لأَنَّهَا ذَكَّرَتْنِي سِيَرَ أَسْلافِي

يَفْدِيكَ مَنْ جَعَلَ الدُّنْيَا رِسَالَتَهُ
مِنْ كُلِّ أَمْثَالِهِ تُفْدَى بِآلافِ

* * *

المقامة الدَّعَوِيَّة

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾

أَنْتَ كَنْزُ الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ فِي
لُجَّةِ الدُّنْيَا وَإِنْ لَمْ يَعْرِفُوكَ
مَحْفَلُ الأَيَّامِ فِي شَوْقٍ إِلى
صَوْتِكِ العَالِي عَسَاهُمْ يَسْمَعُوكَ

ترى الناس بلا دعوة أيتامًا ، لا يعرفون حلالاً ولا حرامًا ، ولا صلاةً ولا صيامًا ، ولا سننًا ولا أحكامًا ، فالدعوة لرئة الأحياء هواء ، ولكبد الدنيا ماء ، ولذلك أرسل الله الأنبياء ، وخط في اللوح ما شاء .

وقد حملت القلم والدواة ، ورافقت الدعاة ، ولقيت العلماء والقضاة ، وعرفت البسطاء والدهاة ، وجبت مع إخواني البلاد ، وخالطت العباد ، فكم عرفنا من ناد وواد ، وسرنا في حاضر وباد ، فأخذت من الناس المواهب ، واستفدت من الزمان التجارب ، وميّزت المشارب ، ونزلت تلك الخيام ، والمضارب .

فالداعية الناجح، والواعظ الصالح، من جعل محمّدًا ﷺ إمامه ، فعرف هديه وكلامه ، فراش بهداه سهامه ، وجمّل بسنته مقامه . والداعية من كان بالناس رفيقًا ، وعاش معهم رقيقًا ، وصار بهم شفيقًا،

فاجتنب العنف والتجريح ، والإسراف في المديح ، فلزِم القول الليّن ، والخُلق الهيّن ، فصار لقلوب الناس طبيبًا ، ولأرواحهم حبيبًا .

غُلامٌ إِذَا مَا شَرَّفَ الْجَمْعِ صَفَّقَتْ
لَهُ أَنْفُسُ الْحَضَرِ وَاكْتَمَلَ الْبَشَرُ
لَهُ مِنْطِقٌ لَوْ أَنَّ لِلسَّحَرِ بَعْضُهُ
مَشَى بَيْنَنَا مِنْ حُسْنِ طَلْعَتِهِ السَّحَرُ

ولي في الدعوة انتقال وارتحال ، والفضل لذي الجلال ، وليس لي في الفضل فِلْس ولا مثقال . وكانت البداية في أبها ، وهي من الشمس أبهى، ومن الزلال أشهى، وأهلها من أرق الناس قلوبًا، وأقلهم عيوبًا، تغلب عليهم الاستجابة ، والذكاء والنجابة .

هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ أَيْسَارٌ بَنُو يُسْرِ
صِيدِ بِهَا لَيْل حَفَّاظُونَ لِلجَارِ
مَنْ تَلْقَ مِنْهُم تَقُلْ لاقَيت سَيِّدهُمْ
مِثْلُ النُّجُومِ التي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

ثم زرت مكّة ، فعرفت من الحب يقينه وشكّه ، فصرت لأهلها بالمودة ضامنًا ، وصار الأنس في قلبي كامنًا ، وآمن فؤادي ومن دخلها كان آمنًا .

فلو أن الثرى يُقَبَّل لقبّلت ، لكنني لما رأيتها كبّرت وهلّلت ، وحول البيت هَرْوَلت .

كَـــبَّـــرْتُ عِنْدَ دِيَارِهِمْ لَـمَّـــا بَدَتْ

مِنْهَا الشُّمُوسُ وَلَيْسَ فِيهَا الْمَشْرِقُ

وَعَـــجِـــبْتُ مِنْ بَلَدٍ مَكَارِمُ أَهْلِهَـــا

فِـيـهَـا السَّـحَـابُ صُـخُـورُهَا لا تُورِقُ

ثم سرت إلى الريـاض ، وأنا من الهم خالي الوفـاض ، فلاحت لنا الأعلام النـجدية ، والأماني الورديـة ، ووصلنا أرض التوحـيد ، وبلاد التجديد ، فوجدنا العلماء ، والكرماء ، والحلماء .

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ

قَــوْمٌ بِآبَائِهِمْ أَوْ مَــجْـدِهِمِ قَــعَــدُوا

مَـحْــسُــدُونَ عَلَى مَــا كَــانَ مِنْ نِعَمٍ

لا يَنْزِعُ اللهُ مِنْهُمْ مَــالَهُ حَــسَــدُوا

ثم حملنا الشوق إلى طيبة ، وهي أمنيتنا في الحضور والغيبة ، وهي أرض الجلال والهـيبة ، فيـا قلب والله لا ألومك في هواك ، ولا أردك عن مناك ، لأن أحب الناس يرقـد هناك . أليس في هذه الروابي مـشى محمّد ﷺ ، وصلى وتعبد ، وقام وتهجد .

بِنَفْسِي تِلكَ الأَرْضُ مَا أَحْسَنَ الرُّبَا

وَمَا أَحْسَنَ المَصْطَافَ وَالْمُتَرَبَّعَا

كَتَبْنَا عَلَيْهَا بِالدُّمُوعِ صَحَائِفًا

هِيَ الدَّارُ صَارَتْ للمُحِبِّينَ مَضْجَعا

ثم رحلنا إلى جدة ، ولنا عنها مدة ، فلما وصلناها ذهب كل عناء وشدة ، وقد أخذنا من الحب عدة ، وحملنا في القلوب مودة . فلقينا بها شبابًا كالسحاب، برؤيتهم تم الأنس وطاب، وذهب الهم والأوصاب، أخلاقهم أرق من النسيم، وعشرتهم أجمل من الدر النظيم .

هُمُ الْقَوْمُ إنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا

أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطُوا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا

بهَالِيلُ فِي الإِسْلامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ

لأَوَّلِهِمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ

ثم جاءتنا برقية ، فسافرنا إلى الشرقية ، وما أبقى لنا الشوق بقية ، فقابلونا بالحفاوة والإكرام، والحب والاحترام، ووجدنا رقة الحضارة ، والبشاشة والنضارة ، فعجزنا عن الشكر ، وهام بنا إليهم الذكر ، وما نسيهم الفكر :

لِـلّـــهِ تِـلْكَ الــدَّار أي مَــــــحِلَّةٍ
لِلْجُــودِ والإِفْـــضَـــالِ والتَّكْرِيم
هُمْ كَـالشُّــمُـوس مَـهَـابَةً وَجَـلالَةً
أَخْـلاقُـهُـمْ فِي الحُـسْنِ كَـالتَّسْنِيم

ثم قلت لصاحبي مالك في الجدال خصـيم ، تقول القيصومة ، وأنا أقول القصـيم ، فلما وصلنا تلك الديار، وعانقنا الأخـيار ، وجدنا أهل الديانة ، والأمانة ، والصـيانة . عفـاف في طهر ، كـأنهم نجوم زهر ، أشاد بمكارمهم الدهر .

قُلْ لـلرِّيَاحِ إِذَا هَبَّتْ غَـــوَادِيـهَــا
حَيِّ القَـصِـيمَ وَعَـانِقْ كُلّ مَنْ فِـيـهَـا
وَاكْتُبْ عَلَى أَرْضِـهِم بِالحُبِّ مَلْحَمَـةً
أَرْضُ الدِّيَـانَةِ قَـاصِـيـهَـا وَدَانِيـهَـا

ثم دخلنا حائل ، والقلب إليها مائل ، فلقينا أبناء المكارم ، وعانقنا أحفاد حـاتم ، فرجح حبهم في الميـزان ، وحدثناهم في جامع برزان ، واعتذرت من إبطائي ، ثم ألقيت قصيدة نادي الطائي :

لا عَـيْبَ فِـيهِمْ سِوَى أَنَّ المُقِيمَ بِهِمْ
يَـسْلو عَـنِ الأَهْلِ بَـلْ كُلِّ الأَحِـبَّـاءِ

فِي حَـائِلٍ قَـدْ بَنَى الإِكْـرَامُ مَنْزِلَةً

أَبُوهُمُـوا فِي المَعَـالِي حَـاتِم الطَّائِي

ولمـا هبطنا البـاحة ، وجـدنا الأنس والراحـة ، وقد عـانق القلب أفراحه، ونسي أتراحه ، فغمد حسام الإسلام غامد ، كم بها من عابد ، وزاهد ، وساجد . وزهرة الـمكارم زهران ، صرت في ليلي عندهم من الفرح سـهران، سيرتهم أطيب سـيرة، وسريرتهم أحـسن سريرة، لأنهم أبناء أبي هريرة :

فِي البَـاحَـةِ الغَـرَّاءِ كَـانَ لِقَـاؤنَا

مَـا أَحْـسَنَ اللُّقْـيَـا بِلا مِـيـعَـادِ

شُـيِّـدَتْ بِهَـا فِي أَوْطَانِـهَـا

تَلْقَـاكَ بِالأَجْـوَادِ والعُـبَّـادِ

وقـد هبطنا تهامـة ، فلا مـلل ولا سآمـة ، وأقمنا أحـسن إقامـة ، فـوجـدت الجود خلـفي وأمامي ، ولمـست الإكـرام ورائي وقُـدامي ، وكفـاهم أن الرسول تهـامي ، تفيض وجوههم مـما عـرفوا من الحق ، وتشرق وجوههم مما حملوا من الصدق :

اتُّهِـمْتُ فِي طَلَـبِ المَـحَبَّـةِ وَالهَـوَى

يَا ابْنَ المَـحَـبَّـةِ وَالْوِدَادِ تَهْـيَـامِي

لَمَا أَتَيْتُهُموا نَسِيتُ سَوَاهُمُو

ضَيَّعْتُ قَبْلَ وُصُولِهِمْ أَيَّامِي

ولما أتينا جيزان ، والجو قد زان، نسينا من السرور الأهل والجيران، ووجدنا الحلقات الشرعية، والآثار القرعاوية، والجهود الدعوية، والكل منّا يلاحظ، تلاميذ الحكمي حافظ، حيث ولدت العبقرية ، ولازالت القرائح غضة طريّة ، ولمسنا العزم والهمم ، ووجدنا الجود والكرم :

جَازَانِ إِنِّي مِنْ هَوَاكِ لَشَاكِ

أَشْجَيْتِنِي وَأَنَا الَّذِي أَشْجَاكِ

يَا فِتْنَةَ النّادِي طَرِبْتِ وَعَادَنِي

مَا يُشْبِهُ الأَحْلَامَ مِنْ ذِكْرَاكِ

وأهم ما يُدعى إليه التوحيد ، فإنه حق الله على العبيد، ومن أجله بعث الرسل ، وكل كتاب به نزل، وهو رأس العمل . وعلى الداعية أن يعمل بما يقول ، ليضع الله له القبول ، فكل من ترك الهدى فهو مخذول، كلامه ساقط مرذول . ولتكن للداعية نوافل وأوراد ، وحسن خُلق مع العباد، وإصلاح لنفسه وجهاد ، ومحاسبة لها قبل يوم التناد .

وليكثر من الأذكار ، بالعشي والإبكار ، وليراقب الواحد القهار ،

مع قراءة سيرة الأخيار، ومصاحبة الأبرار ، والزهد في هذه الدار ، وليعتقد في نفسه التقصير ويعترف ، ويخشى مما اقترف ، ويبكي على ما سلف، وعلى ما كان عليه السلف يقف، وليسلم من الهلاك والتلف، وليتقيّد بما شرع ، وليحذر البدع ، فإن النفس أمّارة ، والنفس غرّارة ، وليُجَوِّد العبارة ، ويحسن الإشارة ، وليوقر الكبير، ويرحم الصغير، ويعطف على الفقير . وليأت المنابر بعزم وثاب ، وقلب غير هيّاب ، وأسلوب جذّاب ، وليعد العدة قبل أن يلقي الخطاب ، وليتذكر حديث: « **لَئن يَهْدِي اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمُرِ النِّعَم** » ، فإن هذا من أجل النعم ، وليحمد ربه وليشكر ، حيث جعله يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وليعلم أن مُعَلِّمَ الخير ، وناصح الغير ، يستغفر له الطير، والحوت في الغدير . فطوبى لمن كان للرسول خليفة ، وما أجلها من وظيفة ، فهي المنزلة الشريفة ، والدرجة المنيفة ، فهذا عمل الأنبياء ، وشغل العلماء ، وقربة الأولياء ، فهنيئًا له الأجر ، وَرِفْعَة الذكر ، وجلال القَدْر ، وصلاح الأمر .

فسبحان من اصطفى من عباده دعاة إلى الجنة ، أعلامًا للسنة ، له عليهم أجل نعمة ، وأعظم منّة .

* * *

■ المقامات الوَعْظيّة ■

﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾

أَمَــــا وَاللـهِ لَـوْ عَـلِـمَ الأَنَـامُ
لِمَــا خُلِقُــوا لَمَــا غَــفَلُوا وَنَامُــوا
حَــيَــاةٌ ثُمَّ مَــوْتٌ ثُمَّ نَشْــرٌ
وَحَــشْــرٌ ثُمَّ أَهْـوَالٌ عِظَـامُ

قلنا لأحد العلماء ، النبلاء ، الأولياء : عظنا موعظة ، للقلوب موقظة ، فإن قلوبنا بالذنوب مريضة ، وأجنحتنا بالخطايا مهيضة ، فنحن قد أَدْمَنَّا الذنوب، وعصينا علاّم الغيوب، حتى قست منا القلوب، فقال: واحرّ قلباه، واكرباه، يا ربّاه، يا ابن آدم تذنب ولست بنادم، الأنبياء يبكون، والصالحون يشكون، تتابع المعاصي، وتستهين بمن أخذ بالنواصي، ويحك كيف تلعب بالنار؟! وتستهين بالجبار ، يغذيك ويعشّيك، ويقعدك ويمشيك، ثم تنهض على عصيان أمره، مع علوّ قدره، وعظيم قهره، ويلك هذا الملك كسر ظهور الأكاسرة، وقصّر بالموت آمال القياصرة ، وأرغم بالجبروت أنوف الجبابرة، الروح الأمين، وَجِل مسكين، من خوف القويّ المتين، ومحمد يتهجد ويتعبد، وهو الذي دعا كل موحِّد، ومع هذا يتوعد ويهدد، من ركن لكل كافر وملحد .

أين عقلك يا مغرور ؟ هل نسيت يوم العبور ، وساعة المرور ؟ كل طائر من خوفه يخرُّ صريعًا ، وكل كاسر يئن من خشيته وجيعًا ، أبو بكر انتفض من خوفه كالعصفور ، وصار صدره بالنشيج يفور ، وسقط الفاروق من الخشية على الرمال، حتى حُمِل على أكتاف الرجال ، وبقي ذو النورين ، من منظر القبر يبكي يومين ، وهذا علي بن أبي طالب دموعه من التذكر سواكب، كان عمر بن عبد العزيز، يرتعد ولصدره أزيز، ويقول : يا قوم ، اذكروا صباح ذلك اليوم ، ويلك والله لو أن القرآن نزل على صخر لتفجر ، ولو هبط على حجر لتكسر ، وتقرؤه وأنت لاهٍ ساه ، تتفكر في المنصب والجاه ، كأن الليالي لا تطويك ، والكلام لا يعنْيك، تدفن الآباء والأجداد ، وتفقد الأخوة والأولاد ، وأنت لازلت في إصرار وعناد ، سبحان الله!! تغترّ بالشباب ، وتزيّن الثياب ، وتنسى يوم يُهال عليك التراب :

أَبَدًا تُصِرُّ عَلَى الذُّنُوبِ وَلا تَعِي
وَتُكْثِرُ الْعِصْيَانَ مِنْكَ وَتَدَّعِي
أَبَدًا وَلا تَبْكِي كَأَنَّكَ خَالِدٌ
وَأَرَاكَ بَيْنَ مُوَدِّعٍ وَمُشَيِّعِ

لا تغفل ذكره ، ولا تنس شكره ، ولا تأمن مكره ، هو الذي عفر بالطين أنف فرعون اللعين ، وفرّق جنوده أجمعين ، مساكن من عصاه

قاع قرقر ، بعد ما أرسل عليهم الريح الصرصر ، إذا غضب دمر المنازل على أهلها، وسوّى جبالها بسهلها ، شابَ رأسُك، وما خفّ بأسك، وما زال في المعاصي فأسك ، ما لك ما تردّك الآيات ، ولا تزجرك العظات ، ولا تتذكر الأموات ، مُصِرٌّ مستكبر ، تركب كل أمر منكر .

سمع ابن وهب آية ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ ﴾ ، فسقط مغشيًّا عليه في الدار ، ثم مات في آخر النهار ، سمع عمر ، بعض السور ، فطرح دُرّته وانقعر ، فبقي مريضًا شهر ، وصارت دموعه نهر ، قرأ سفيان سورة الزلزلة ، فسُمع له ولولة ، كأنها أصابت مقتله ، بعض الصقور تسقط من السماء ، وإن من الحجارة لما يشقق فيخرج منه الماء ، وأغميَ من الخشية على كثير من العلماء .

كَأَنَّكَ مَا سَمِعْتَ بِطُورِ سَينَا
وَيَوْمٌ صَارَ مِنْ طُولٍ سِنِينَا
تَخِرُّ لَهُ الْجَبَابِرُ وَهِي تَبْكِي
وَيُحْصِي فِيهِ رَبِّي مَا نَسِينَا
عُرَاةٌ نَحْنُ فِيهِ فَيَا لِهَوْلٍ
كَأَنَّا مَا طَعِمْنَا أَوْ كُسِينَا

ويحك خَفْ ربك، وراجع قلبك ، واذكر ذنبك ، موسى خرّ من الخوف مغشيًّا عليه مصعوقًا ، ويوشع صار قلبه من الوجل مشقوقًا ،

وبعضهم أصبح وجهه من الدموع محروقًا ، كيف تصبح وتمسي ، والرسل كل يقول نفسي نفسي ، أعجبتك الدور والقصور يا مغرور ، ونسيت القبور ، ويوم النشور ، يوم يُحَصَّل ما في الصدور .

والذي نفسي بيده ما تساوي الدنيا فتيلة ، ولا تعادل في القبر فزع أول ليلة ، يوم تطرح فيه وليس لك حيلة ، استنفق مالَك ، وراجع أعمالك ، وزن أقوالك .

وخطك الشيب ، وما تركت العيب ، تشاهد المصارع ، وتسمع القوارع ، وتنهال عليك الفواجع ، تنسى الرب ، يا ميّت القلب ، الصحابة من الخوف مرضى ، وطلحة ينادي : اللهم خذ من دمي حتى ترضى ، ما شاء الله ما تحضر صلاة الفجر ، ولا تطمع في الأجر ، وجعفر تقطعت بالسيوف أوصاله، وارتفع بالفرح تهليله وابتهاله .

عَلَى شَفرَاتِ السَّيْفِ مَزَّقْتُ مُهْجَتِي
لِتَرْضَى وَإِنْ تَرْضَى عَلَيّ كَفَانِي
فَلَوْ كَتَبَتْ مِنَّا الدِّمَاءَ رِسَالَةً
لَخَطّتْ بِحُبِّ اللهِ كُلَّ جَنَانِي

ويلك أنت مهموم بالقرش، والفرش، والكرش، وسعد يهتز لموته العرش.

تهاب الوضوء إذا برد الماء ، وحنظلة غُسل قتيلاً في السماء ، تعصي حي على الفلاح ، ومصعب بن عمير قدم صدره للرماح ، ما تهتز فيك ذرة ، والموت يناديك في كل يوم مائة مرة ، والله لو أن في الخشب قلوب لصاحت ، ولو أن للحجارة أرواح لناحت ، يحن المنبر للرسول الأزهر ، والنبي الأطهر ، وأنت ما تحن ولا تئن ، ولا يضج بكاؤك ولا يرن . لو مُتَّ لعذرناك ، وفي قبرك زرناك ، ولكنك حيٌّ تأكل وتشرب، وتلهو وتلعب ، وتغني وتطرب .

بعض الصالحين أتى لينام ، فترك الفراش وقام ، وأخذ ينوح كما تنوح الحمام ، قالوا ما لك ؟ قال : تذكرت ﴿**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ**﴾ وهذه الآية كافية .

تُواصِلُ الذَّنْبَ لا تَدْرِي بِعَاقِبَةٍ
وَتَسْتَهِينُ بِأَمْرِ الْوَاحِدِ الصَّمَدِ
كَأَنَّ قَلْبَكَ مَطْبُوعٌ عَلَيْهِ فَلا
تَخْشَى عِقَابًا وَلا تَبْكِي عَلَى أَحَدِ

سعيد بن المسيّب ، الإمام المحبب ، والزاهد المقرب ، ذهبت عينه من كثرة الدموع ، واصفر وجهه من الخشوع ، وهو ما بين سجود وركوع . يزيد بن هارون ، الإمام المأمون ، عمي من البكاء ، فما أَنّ ولا اشتكى ، فقالوا له : ما فعلت عيناك الجميلتان ، فقال : أحتسبهما

عند الواحد الديّان ، أذهبهما بكاء الأسحار ، وخوف الواحد القهار.
والله إن فينا علّة ، ننام الليل كلّه ، كأنا لسنا من أهل الملّة .

شُغِلْنَا بِالبَنِينِ وَبِالْحُطَامِ
وَلَمْ نُسْرِعْ إِلَى دَارِ السَّلامِ
كَأَنَّا قَدْ خُلِقْنَا للنَّوَادِي
وَإِكْثَارِ الشَّرَابِ مَعَ الطَّعَامِ

الملَك حمل الصور لينفخ ، والملائكة تكتب عليك وتنسخ ، وأنت بالذنوب ملطّخ، ما تبكي لك مقلة ، كأنك أبله ، كان ابن المبارك من البكاء يخور ، كأنه ثور منحور ، وابن الفضيل يموت في الصلاة ، لأنه سمع من الإمام قرآنًا تلاه ، ترك ابن أبي ذئب القيام لأمير المؤمنين ، وقال ذكرت يوم يقوم الناس لرب العالمين ، كان ميمون بن مهران ، كأن عينيه نهران ، حفر له في البيت قبر ، إذا رآه فكأنه يُنقر في قلبه نقر، يا ويلاه القبر القبر .

يقول أحد السلف : يا مغرور إن كنت تظن أن الله لا يراك ، وتفعل هذه الأفعال فأنت شاكّ ، فما غرّك وألهاك ، وإن كنت تعلم أنه يبصر أفعالك ، ويحصي أعمالك ، ويراقب أقوالك ، ثم تتجرأً على محارمه، وتستهين بمعالمه ، فقد سُلب قلبُك ، وأُخذ لُبّك.

وَلَوْ أَنَّ قَلْبًا يَعْرِفُ اللهَ لاسْتَوَى
لَدَيْهِ نَعِيمُ الْعَيْشِ وَالْحَدَثَانِ
فَمَا هِيَ إِلاَّ جِيفَةٌ طَافَ حَوْلَهَا
كِلابٌ فَلا تَخْدَعْكَ بِاللَّمَعَانِ

ابن تيمية يمرغ وجهه في التراب، وينادي يا وهّاب، يا فاتح الأبواب الطف بنا ساعة الحساب، وأنت ميّت الإرادة ، ظاهر البلادة ، عريض الوسادة . الملائكة يسبِّحون الليل والنهار لا يسأمون ، ويذكرون ربهم ولا يفترون ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولم يعملوا سيئات ، ولم يقترفوا خطيئات ، ولم يرتكبوا موبقات ، ونحن أهل العصيان ، والتمرد والنكران ، ومع هذا ترانا لاعبين ، وفي طرق اللهو ساربين، ولكأس الغفلة شاربين . الأمر فصل ، وجدٌّ ليس بالهزل ، يوم قمطرير، شرُّه مستطير ، تكاد القلوب منه تطير ، تذهل المرضعة عما أرضعت، وتُسقط الحامل ما حملت ،وترى كل نفس ما عملت ، الخلائق تضيق نفوسهم ، الولدان تشيب رءوسهم .

هَدِّ مِنْ لَهْوِكَ شَيْئًا هدِّ هَدّ
إِنَّ أَمْرَ اللهِ فِينَا جِدٌّ جَدّ
أَرْغِمِ النَّفْسَ عَلَى فِعْلِ التُّقَى
فَازَ مَنْ فِي عُمْرِهِ جَدّ وَكَدّ

أراد علي بن الحسين أن يلبي على الراحلة ، فسقط من الخوف بين القافلة ، فلما أفاق ، قال للرفاق : أخشى أن أقول لبيك ، فيقول : لا لبيك ولا سعديك ، مع أنه زين العابدين ، وريحانة المتهجدين ، لكن القوم عرفوا ربهم ، فبكوا ذنبهم ، وجمعوا خوفهم وحبهم ، فيا صاحب العين التي لا تدمع ، والنفس التي لا تشبع ، والقلب الذي لا يخشع ، إلى متى تؤجِّل التوبة ، أما لك أوبة :

فَيَا عَيْنُ هَذِي لَيْلَةُ البَيْنِ أَقْبَلَت

فَهَات غُرُوبًا تُبَرِّدُ الزَّفَرَاتِ

وَيَا قَلْبُ قَدْ عَاهَدتَّنِي فَكَذَبْتَنِي

كَأَنَّكَ لا تَجْزَعْ مِنَ الغَدَرَاتِ

العمر قصير ، والشيب نذير، والدار جنة أو سعير . نراك تضحك كأنك أتاك أمان، من الملك الديان، ما لك لا تحزن، هل عبرت الصراط حتى تأمن، الندم على ما فرطت أحسن، يا مسكين: إبراهيم الخليل، وهو النبي الجليل، بكى ذنبه، ودعا ربه، وقال: ﴿ **وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ** ﴾، فكيف بنا نحن المذنبين . خلقك فسوّاك، وأطعمك وسقاك، وآواك وكساك، ومن كل بلاء حسنٍ أبلاك، ثم تعصاه وهو يراك:

نُسِجَتْ لَنَا الأَكْفَانُ مِنْ أَعْمَارِنَا

وَنَظَلُّ نَضْحَكُ مَا لَنَا تَفْكِيرُ

أَوَ مَــا ذَكَــرْتَ الْقَــبْــرَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ
يَلْقَــاكَ فِــيــهِ مُنْكَرٌ وَنَكِيــرُ

أحسن ماء دموع التائبين ، أعظم حـزن حزن المنيبين ، وأهنأ نعاس نعاس المتهجدين، أجمل لباس لباس المحرمين، ما ألذ جوع الصائمين، ما أسـعد تـعب القائمـين ، ما أكـرم بذل المتـصدقـين . أين المبـاني والمغـاني؟ أين الغواني والأغانـي ؟ أين الأفراح والتهـاني؟ أين من شاد وسـاد؟ أين ثمود وعـاد؟ أين سـاسان، وقـحطان، وعـدنان، وفرعـون وهامان؟ أين مُلْك سليمان ؟ أين أصـحاب الأكاليل والتيجـان ؟ ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْـهَـا فَـانٍ * وَيَبْـقَى وَجْـهُ رَبِّكَ ذُو الْجَـلالِ وَالإِكْـرَامِ ﴾، والطَّول والإنعام .

أمـا زرت المـقـابر ، أمـا هالتك تلـك المناظر ، أمـا رأيت القـوم صرعى، والدود في عيونهم يرعى ، عـن الحديث سكتوا ، وعن السلام صـمتـوا ، الظالم بجـانب المظلوم ، والمنتـصـر بجـانب المهـزوم ، والضـعـيف مع الأمـير، والـغني مع الفـقيـر ، وانظر إلـى المغـمـور والمـشهـور، والغالب والمـقهـور ، ذهب الحُسْن والجـمال، والجـاه والمال، وبقيت الأعمال ، أموات يتجاورون ، ولا يتزاورون .

سَكَتُــوا وَفِي أَعْـمَـاقِـهِم أَخْـبَـارُ
وَجَــافَــاهُمُ الأَصْــحَـابُ والزُّوَّارُ

وَتَغَـيَّـرَتْ تِلْكَ الوُجُـوهُ وَأَصْبَـحَتْ

بَعْـدَ الجَـمَـالِ عَلَى الجُـفُـونِ غُـبَـارُ

ماذا أعددت عندما توقَف ، يا من هجر المصحف؟ .

الزبير بن العوام، بطل الإسلام، جسمه كله جراح، من آثار السيوف والرماح . وخالـد بن الوليد ، الشجاع الفـريد، يُمزق جسمه بـالسهام، ويخطط بدنه بالحُسام، ليـنتصـر الإسلام . بلال بن رباح، يسـمع حي على الفلاح ، فيجيب لسان حاله لبـيك منادي الإصلاح ، يُصهر جسمه على الحجـارة ، ليصـبح مؤذن الإسلام على المنارة ، يـعذِّبونه ، وفي الرمضـاء يذيبونه، فـيردد أَحَـدٌ أَحَدٌ ؛ لأنه ذاق قُلْ هُوَ اللهُ أَحَـد ، الله الصمد، يُضرب رأسه ، ويُكتم نَفَسه ، فما يزيده ذلك إلا إصرارًا ، وفي طريق الحق استمرارًا :

سَـيِّـدِي عَلِّل الْفُـؤادَ العَلِيـلا

وَأَحْـيِنِي قَـبْلَ أَنْ تَرَانِي قَـتِـيـلا

إنْ تَكُنْ عَـازِمًـا عَلَى قَـتْلِ رُوحِي

فَـتَـرفَّق بِهَـا قَلِيـلاً قَلِيـلا

انظر لسلمـان، أقبل من خـراسان، يبحـث عن الإيمان، هجـر ماله وأوطانه ، وإخوانه وخلانه ، وأعوانه وجـيرانه ، يسأل عن الإمام ، بدر

التمام ، رسول الإسلام ، فينطرح بين يديه ، ويلقي نفسه عليه ، ويبث شجونه إليه، فمرحبًا يا سلمان يوم أتيت ، وهنيئًا لك يوم اهتديت ، واقبل هدية : « **سَلْمَانُ مِنَّا آلَ الْبَيْتِ** » :

فَلا تَحْسِبُ الأَنْسَابَ تُنْجِيكَ مِنْ لَظى
وَلَوْ كُنْتَ مِنْ قَيْسٍ وَعَبْدِ مُدانِ
أَبُو لَهَبٍ فِي النَّارِ وَهُوَ ابنُ هَاشِمٍ
وَسَلْمَانُ فِي الفِرْدَوْسِ مِنْ خُرسَانِ

لما حضر الصحابة مدينة تستر ، وسل كل منهم سيفًا أبتر ، فنادوا بطل المعارك ، الذي يلقي نفسه في المهالك ، أعني البراء بن مالك .

والذي قال فيه المعصوم ، يوم رآه عن الدنيا يصوم : رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأَبَرَّه ، فكان البراء لعين الإسلام قُرة، وباع نفسه من الله كل مرة ، قال الصحابة يا براء ، أقسم على رب السماء والغبراء ، على أن ينصرنا على هؤلاء الحقراء ، فأقسم على الله بالنصر ، وأن يكون أول قتيل بعد العصر ، ثم لبس أكفانه ، وودّع إخوانه ، فسل الحسام ، وفلق الهام ، وانتصر جند الإسلام .

لَكَ اللهُ مَا هَذِي الشَّجَاعَة فِي الْوَغَى
أَأَنْتَ زَحُوفُ السَّيْلِ أَمْ أَنْتَ حَيْدَرة

تَقَـدَّمْتَ حَـتَّى هَابَت البِـيض والْقَنَا
وَصَـارَت رِمَـاحُ الْقَـوْمِ فِـيكَ مُكَسَّـرَة

الذي لا يحـضـر صلاة الصـبح ، لا يطمع في الربـح ، وليس بيننا وبينه صلح .

تريد نصـر الإسلام ، وأنت لا تحـافظ على تكبـيرة الإحـرام ، مع الإمام، هذه أوهام ، السلف الصالح ، والجيل الناصح ، أعطوا الإسلام الأموال والدماء ، فـأصبحت هاماتهم في السـماء ، وأنت ماذا أعطيت، وماذا لدِينك أهديت ، ولأمتِّك أسديت ، حـي كَمَيْت ، عشت بين لعلّ وليت، وما دريت، بأنك في الخسار هويت .

مَـتَى يَـسْتَـفِقْ مَنْ عَـقْلُهُ فِي غِـشَـاوَةٍ
وَمَـطْـلَـبُـــــهُ فِـي هَذِهِ الأَرْضِ دِيـنَـارُ
لَقَــدْ خَلَّفَ البَــازِي فِــينَا حَـمَـامَـةً
وَأَصْـــبَـحَ بَـعْـدَ اللَّيْثِ فِي دَارِنَا فَــارُ

قلبك من الذنوب مجروح ، ولا تبكي ولا تنوح ، كـأنك جسد بلا روح ، ما أثّر فيك الوعظ ، وما فهـمت اللّحظ ، وما ميَّزت بين المعنى واللفظ ، الحمام يبكي على الأغصان ، من فقد الخلاّن ، والغراب على البان ينحب ، وعلى الشـجر يشغب ، لسفـر أصحابه ، وبُعْد أحـبابه ،

وقلبك قاسي، كما الصـخر الراسي ، لا تدمع لك عين ، ولا يؤثر فيك الفراق والبَـيْن، ولا يردعك حيـاء ولا دِين، الغراب قـتل أخاه، ثم ندم فواراه ، ودفنـه وبكاه، وأنت قتلت نفـسك بالكبر والرياء ، ومـا منعك الحياء ، كأنك لست من الأحيـاء ، النملة أنذرت بنات جنسها ، فعادت إلى رَمسها ، تبقي لقوت يومها من أمسها ، وأنت تجاهر الواحد القاهر، الباطن الظاهر ، بالكبائر .

أَمَـا أَتَاكَ مِنَ الرَّحْـمَنِ مَـوْعِظَةٌ
مَـا قَالَ فِي سَأَلَ مِنْهَـا وَفِي عَبَسَـا
مَـرْكُـوبُكَ يُنْسِـيكَ المَـراكِبَ فِي
دُنْيَـاكَ لمـا رَكِبْتَ الأَدْهَم الفَـرَسَـا

ما لك في دنيـاك تتبلد ، وفي غـيك تتردد ، وما فـعلت كمـا فعل الهدهد ، سافر إلـى اليمن وهو وحيد ، يدعو إلى التوحـيد ، فعاد إلى سليمان ، بعدما أعطاه الأمان، فـجاء من سبأ بنبأ ، وأنكر على بلقيس، إذ زين لها إبليس ، تسـجد للشمس ولا تسجـد لمن أجراها، وما أدرى الشـمس عن الخليقـة مـا أدراها . فأصـبح الهـدهد داعيـة، أذنه للحق واعية، وقدمه في التوحيـد ساعية ، وأنت هل دعوت أحدًا ، أو مددت للخير يدًا ، أو أسمعت الهدى بلدًا .

الفيل وجّـهوه لهدم البـيت ، فنادى لسان حاله يـا أبرهة ضللت وما

اهتديت ، وظلمت واعتديت ، والله لا أنقل إلى البيت القدم ، وأموت هنا وكعبة الله لا تنهدم.

وَقَفْتُ حَيَاءً عِنْدَ بَابِكَ مُطْرِقًا

وَلَمْ أَنْقُلِ الأَقْدَامَ مِنْ رَوْعَةِ الخَجَلِ

فَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَمَا سِرْتُ خُطْوَةً

أَهَذَا جَزَاءُ الفَضْلِ مِنْ رَبِّنَا الأَجَلِّ

الفيل يلوي عن المعصية رأسه ، ويبرد عن المخالفة حماسه ، وأنت لا يردك عن الخطيئة باب ، ولا يحجزك عن السيئة حجاب .

لا تستهن به فإنه قوي ، ولا تمُنَّ عليه فإنه غني ، أهلك ثمود في ناقة ، وألحق عاداً بالساقة ، عصته أمم فهز بهم الأرض هزًّا ، ثم قال : ﴿ **هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا** ﴾، حطّم سد سبأ بفارة ، وأحرق إرم ذات العماد بشرارة ، ومزق أعداءه بغارة ، أعتق رقبتك من النار ، وأنقذ نفسك من البوار.

هذا عثمان بن عفان ، سمير القرآن ، جهز جيش العسرة ، وأفطر على كسرة ، قرأ القرآن يومه، وشرى بئر رومة ، وأنت تريد الجنة ، وصدقتك بالمَنّة ، وقد هجرت السنة.

علي بن أبي طالب قدم رأسه للشبا ، وصار جسمه بالدماء مخضبًا ، وذبح عدو الله مرحبا ، وأنت ما حضرت قتالاً ، ولا أنفقت مالاً ، وما

ذقت في سبيله نكالاً ، نطالبك فحسب بالصف الأول ، ولا تلعب بالدين وتتأول ، ولا تأكل الحرام ومنه تتمول .

هَذَا سَكَارُ النَّفْسِ لَيْس يَرُدُّهَا
عَنْ غَيِّهَا إلا فَتًى مِغْوَارُ
هَلْ عِنْدَكُمْ يَا قَومُ مِيثَاقٌ فَلا
تَخْشَوْنَ أَنْ يَجْتَاحَكُمْ جَبَّارُ

ألّف البخاري لك الصحيح ، وجمع لك كل حديث مليح ، كان يصلي عن كل حديث ركعتين ، وعرض عليه كتابه مرتين ، ثم هجرت صحيحه ، ولم تقبل النصيحة ، أعرضت عن أصح المؤلفات ، وأقبلت على الصحف والمجلاّت .

جمع أحمد المسند ، بالرأي المسدد ، والصدق المجرد ، والورع المجود ، طاف الدنيا على الأقدام ، من صنعاء إلى دار السلام ، فلما أصبح المسند لديك مطبوعًا ، مقروءًا ومسموعًا ، جعلته في بيتك وسادة،وما فتحت جلاّدة ، ولا ذقت زاده .

جَزَاهُمُ اللهُ عَنْ دِينِ الرَّسُولِ فَمَا
أَحْلَى مَآثِرَهُمْ فِي سَالِفِ الحِقَبِ
لَوْلا لَطَائِفُ صُنْعِ اللهِ مَا نَبَتَتْ
تِلْكَ الْمَكَارِمُ فِي لَحْمٍ وَلا عَصَبِ

ألّف ابن جرير ، كتاب التفسير ، وحرّره أيما تحرير ، فهو لكل مؤمن سمير ، وبكل نفع جدير ، فأغلقتَ عليه في زنزانة ، كأنك ما عرفت شانه ، ولا شكرت إحسانه ، واستصحبت كتاب ألف ليلة وليلة، وجعلته إلى اللهو وسيلة ، وللعب خميلة ، ولطلب الدنيا حيلة ، تغفل الآيات البينات ، والحكم البالغات ، والنصائح والعظات ، وتقبل على كتاب الأغاني ، للأصفهاني ، وهو فيما قال جاني .

خَفِ اللهَ وَاحْفَظْ ذَا الزَّمَانِ فَإِنَّهُ
سَرِيعُ التَّقَضِّي مُخْلِفَ الحَسَرَاتِ
نَهَارُكَ يَا مَغْرُورُ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ
وَلَيْلُكَ يَمْضِي فِي رُؤى وَسُبَاتِ

أسأل الله بالاسم الأعظم ، والوصف الأكرم ، فإنه الأعلم الأحلم الأحكم ، أن يهدي قلبي وقلبك ، وأن يغفر ذنبي وذنبك ، وأن ينير بالوحي دربي ودربك .

* * *

المقامـــة الـجـهـاديـــة

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾

أَيَا رَبِّ لا تَجْعَلْ وَفَاتِي إِنْ دَنَتْ
عَلَى مَضْجَعٍ تَعْلُوه حُسْنُ المَطَارِفِ
وَلَكِنْ شَهِيداً ثَاوِيًا فِي عِصَابَةٍ
يُصَابُونَ فِي فَجٍّ مِنَ الأَرْضِ خَائِفِ

قال أبو شجاع ، محمد بن القعقاع : ما رأيت مثل الجهاد ، في سبيل رب العباد ، فيه تصان الملة ، ويدخل على الكفار الذلة .

قلنا يا أبا شجاع : حدثنا عن بعض التحف ، من مواقف السلف ، في ساح الوغى ، يوم قاتلوا من بغى وطغى .

فقال : كان المسلمون مع قتيبة بن مسلم في حصار كابل ، وكل ذاهل ، فأرسل إلى محمد بن واسع، الإمام الخاشع، فلقيه بجفن دامع، وكف ضارع ، يشير بسبابته إلى السماء، ويقول : يا سميع الدعاء، عظم فيك الرجاء ، اللهم ثبت أقدامنا ، وسدد سهامنا وارفع أعلامنا ، فلما أخبروا قتيبة بما شاهدوا ، وأطلعوه على ما وجدوا، قال: والله لإصبع محمد بن واسع خير عندي من مائة ألف شاب طرير ، ومن مائة ألف

سيف شـهير. ثم بدأ القتـال ، فنصرهم ذو الجلال ، وانهـزم الكفار ، وولوّا الأدبار .

قـال : ولما حـضر خـالد لقتـال الروم ، قدمـوا له قارورة مـملوءة بالسموم، وقالوا له : إن كنت متوكلاً على الله ولا تخاف ، فاشرب من هذا السم الزعاف . فـقال : بسم الله ، توكلت على اللـه ، ثقة بالله ، ثم شرب القارورة ، فما مسه ضرورة .

ولما رأى المسلمون جيش الروم ، وكـثرة القوم ، قال أحد الناس ، لما رأى البأس : اليـوم نلتجئ إلى جبل سلمى وأجّـا ، قال خالد : بل إلى الله الملتجى .

قال : ولما حضـر المسلمون في تستر ، ما بين مـهلل ومكبر ، قال المسلمون: يا براء بن مالك ، أقسم على إلهك ، عله أن يرزقنا النصر، وعظيم الأجر . فـأقسم على الديان ، فهزم الله أهل الطغـيان ، وذهب البراء إلى الجنان .

والبراء هو صـاحب حديث « **رُبَّ رَجُلٍ أشعث أغبـر ذي طمـرين لو أقسم على الله لأبره** » فأبرّ الله قسمه وبلغه كل مسرّة .

ثم قال أبو شجاع : اعلموا أن صرخات التفجع ثلاث ، سجلت أهم الأحداث، وهي : **وَا مُعْتَصِمَاهُ ، وَا إِسْلامَاهُ، وَا أُمَّاهُ** .

فوا معتصـماه : أطلقتها امرأة في عُمُّورِيّة ، بعد أن أهينت في البلاد الروميّة ، فـسمعها المعتـصم الأسد الهصور ، فترك الـقصور ، وخرج

بجيش يمور ، فأذل أتباع نقفور ، وأخذ الكفور ، وجعله عبد للمسلمة التي صرخت باسمه من وراء البحور .

وأما وا إسلاماه : فأطلقها قطز وبيده البتار ، يوم نازل التتار ، فهزم من كفر وولّوا الأدبار .

وأما وا أماه : فهي صرخة مفجوعة، وصيحة مقطوعة ، قالها طفل من الأندلس ، لما رأى أمه وهو في حضنها تختلس. فقال أبو البقاء يصف هذا الشقاء :

يَا رَبَّ أَمٍّ وَطِفْلٌ حِيلَ بَيْنَهُمَا

كَمَا تَفَرَّقُ أَرْوَاحٌ وَأَبْدَانُ

أحب عبد الله بن عمرو الأنصاري ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ ، فهب إلى أُحد، فقيل له: البينة، على المدعي للمحبة، فضرب في سبيل الله ثمانين ضربة .

بعضهم هوايتهم منصب شريف ، أو قصر منيف . أما ابن رواحة ، فهوايته طعنة بسيف ، حتى قال :

لَكِنَّنِي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً

وَطَعْنَةً ذَاتَ قَرْعٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا

يأتي الشهيد يوم القيامة وعليه علامات ، وآيات بينات ، والبراهين

على عبـد الله بن جحش واضحات ، ذهـاب العينين ، وقطع الأذنين ، وبتر اليدين ، لأن لكل قضية شاهدين .

كَـتَـبْتُ بِـالدَّمِ آيَاتٍ مُـبَـيِّنة
يَوْمَ الوَغَى وَدَفَـعْتُ الرُّوحَ وَالْبَـدَنَا

شَـرَيْتُ جَنَّةَ فِـرْدَوْسٍ مُنَعَّـمَـةً
أَحْضَرْتُ للسَّيْفِ يَوْمَ المُنْحَنَى ثَمنا

أتى إلى مؤتة جعفر ، فتقدم وما تأخر ، وكان يوم الجماجم يتعثر ، ودمه يتقطر ، فضرب بسيفه في الكفار حتى تكسر ، فلما قطعت يداه ، وأسلم الروح إلى الله ، طاب وطـاب مسـعـاه ، أبدله الله بجناحـين ، يطيـر بها على الرياحـين ، ويتنعم في الفردوس كل حـين . كل يكتب اسمه بمداد ، إلا الشهيد فإنه يكتبـه بدم في سفر الأمجاد . كأن الشهيد يموت مختاراً ، وغيره يمـوت مضطراً . كل ميت يوضع المسك معه في الأكفان ، إلا الشهيد فإن دمه كله مسك يملأ المكان .

تَفُـوحُ أَطْيَـابُ نَجْـدٍ مِنْ ثِـيَـابِـهِـمُـو
عِنْدَ الْقُـدُومِ لِقُـرْبِ الْعَـهْـدِ بِـالدَّارِ

آل سعد ثلاثة في العد ، أهل وعد وعـهد . اهتز عرش الله لسعد ، ووجد ريح الجنة من دون أحد سعد ، وقال ﷺ في أحد: « **ارمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي يَا سَعْدُ** » .

فالأول : سعد بن معاذ سيد الأنصـار ، وقدوة الأبرار ، الذي ألحق باليهود البوار .

والثاني: سعد بن الربيع ، المقدام الشجيع، صاحب الموقف البديع.

والثالث : سعد بن أبي وقاص ، كان مع النبي من الخـواص ، أخذ من الفُرس القصاص .

قتل عمر في المسجد بعد الفجر عندما غدت الطيور من وكورها ، لأن معلمه يقول: «**بَارَكَ اللهُ لأمَّتِي فِي بُكُورِهَا**» .

مَنْ كَانَ مُبْتَجِهًا لِمَقْتَلِ شَيْخِنَا
فَلْيَأتِ نِسْوَتَنَا بِوَجْهِ نَهَارِ
يَجِدُ الْقُلوبَ مُفْجِعَاتٍ كَلَّهَا
بِالهَمِّ عِنْدَ تَبَلُّجِ الأَنْوارِ

وقتل علي في المسجد قبل الفجر ، لأنه وقت استغفار ، ونزول للغفار ، وجلسة للأبرار ، والرجل يحب الأسحار .

يَا لَيْتَهَا إِذْ فَدَتْ عَمْرًا بِخَارِجَةٍ
فَدَتْ عَلِيًّا بِمَنْ شَاءَت مِنَ الْبَشَرِ

استحت خزاعة ، أن ترد الحوض يوم الشفاعة ، مزجيّة البضاعة ،

فقدمت أحمد بن نصر ، الذي قتله الواثق في القصر ، فدخل الجنة بعد العصر .

قال له الواثق : وافق . قال : لا يا منافق . حـاول الواثق أن يجيبه ولو بإدغام فيـه غنة فقال لسان الحال : الخـداع ليس من السنة ، فذبحه بعد أن اشتاق إلى الجنة .

اثنان تاجـان عظيمـان، من قبـيلة بني شيـبان، جـاهدوا في سبـيل الرحمن: ابن حنبل والمثنى، وكل منهما لدينه تعنّى ، وللقاء ربه تمنّى.

قدَّم المـهاجرون أربعة خلفـاء ، فقدم الأنصار أربعـة قراء ، أهدت قريش مصعب بن عمير ، فأهدى الأنصار ابن الحمام عمير .

تأخر أنس بن النضر عن بدر ، فجمع بين الغزوتين في جمع وقصر، فقتل في أحد بعد الظهر .

لما عذر الله عـثمان ، يوم بيعة الرضوان ، علم الله صـدقه فسعت إليه الشهادة إلى الديوان .

أبو بكر صدَّيق ، والمخطوطة لا تحـتاج إلى تحقيق ، والرجل غنيٍ عن التوثيق ، فلم يقتل لأنه أخذ حكم الرفيق .

السلام على الشهداء ، فهم عند ربهم سعداء .

* * *

المقامة الزهدية

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾

أرَى أشْقِيَاءَ النَّاسِ لا يَسْأَمُونَهَا
عَلَى أَنَّهُم فِيهَا عُرَاةٌ وَجُوَّعُ
أَرَاهَا وَإِنْ كَانَتْ تَسُرُّ فَإِنَّهَا
سَحَابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تُقْشَعُ

قال سعيد بن أدهم ، ركبت الأدهم ، وذهبت إلى السلطان أطلبه في درهم ، فوضع في رجلي الأدهم ، فمر بي الزاهد علي بن دينار ، وهو أحد الأبرار ، فقال لي مالك يا سعيد ، أراك في الحديد ، فقلت : والله الولي ، ما سرقت يا علي .

قال : فما الشأن ؟

قلت : أتيت السلطان ، أطلب الجود والإحسان ، فوضعني في هذا الهوان .

فقال: أف عليك وتف ، ومن التراب استف . تطلب السلطان، وتنسى الرحمن، تسأل البخيل، وتترك الجليل، تبًّا لك، أفي قلبك شك، تأتي من أغلق بابه ، وأسدل حجابه، وحرم أصحابه . وتترك المعبود، الذي ملأ العالم بالجود، وأغدق على الخلق العطاء الممدود.

قلت : يا علي غلطت غلطة، وسقطت سقطة، وتورطت ورطة، ووالله لئن فرّج الله عني، وفك هذا القيد مني، لا آتي بشرًا ، ولو طلب مجيئي بشراء، ولا أقصد الصعلوك ، بل أقصد ملك الملوك، فلما أطلقني من الحبس، وعادت إليّ النفس ، تركت باب الأمير ولزمت بيتي على خبز الشعير . فعاد لي لبي، وجعل الله غناي في قلبي، فوالله إني أرى المترفين في حسرة ، وإن مُلْك كسرى عندي ما يساوي كِسْرة . فأنا بين المسجد والبيت أرضى بالقوت، لا مال يفوت، ولا ولد يموت، ليس عندي بنز، ولا كنز، ولا أرز، ولكن عندي دين وعلم وعز، فأنا أسعد من كسرى أنوشروان، إذا حف به الخدم في الإيوان ، وأنعم عيشًا من النعمان، فأنا أسكن الكوخ، وآكل العدس المطبوخ، لا ألبس الجوخ، ولا آكل الخبز المنفوخ . ليس عندي دار، ولا عقار، ولا حمار، ولا دينار .

أنام بلا هموم ، وأبيت بلا غموم ، لا أعرف عَدّ المال ، ولا شد الجمال، ولا مبايعة الرجال، لا أعرف الريال من القرش، ولا أميّز بين الكنب والفرش، معي قميص ، وبطن خميص، لا أعرف الكبسة ولا الخبيص، ما يأتيني في النوم كوابيس، ولا أشعر في النهار بالهواجيس. فأنا أسعد من رأيت، وأنعم من لقيت . معي كتاب، أغناني عن الأصحاب، وسلاني عن الأحباب . معي ملحفة للمنام، وجفنة للطعام، وعصا للقيام . لا أخاف على نفسي العين، ولا يطلبني أحد بدين، ولا أسأل مال هذا من أين ؟

فأنا خفيف الظهر، دائم البِشر ، قليل الوزر، ما بعت ولا شريت، ولا اكتريت ولا اقتنيت، لا أخشى سقوط بيت، ولا ذهاب مَيْت. نجوت من الضغط والسكر، لأنني في غير الآخرة لا أتفكر، في قلبي عيادة السعادة وفي صدري بنك السرور، ومصرف الحبور، وعندي علم وإيمان ونور على نور، أعجب من الفجار والتجار، وأقول ما هذا الشجار. أتقتتلون على جيفه ؟ ما تساوي قطيفة، سُحْقًا لعقولكم السخيفة .

أين كنوز قارون ؟ أين ما مضى من القرون ؟ أين ما جمعوا ، وأودعوا ، وشيدوا وأبدعوا ؟ لا قصور، لا دور، لا أنهار، لا أشجار . ذهبت الأبدان والأرواح . وبلي القفل والمفتاح . فصدقني ما عاش عيشتي هارون الرشيد ، ولا الكاتب عبد الحميد ، ولا الرئيس ابن العميد ، نفسي والحمد لله رَضِيّة ، وعيشتي هنية ، وقد نجوت من كل بلية ، فأنا لا طالب، ولا مطلوب ، ولا أخشى من كنز منهوب، ولا من مال مسلوب . ولا أقف على الأبواب، ولا أتمرغ على العتاب، وما قبلت يد كذاب، طمعًا في طعام وشراب ، وما قلت للكلب يا سيدي ، ويا عضدي ، ويا مؤيّدي :

واعْلَمْ بِأَنَّ عَلَيكَ الْعَارَ تَلْبَسُهُ
مِنْ عَضّةِ الْكَلْبِ لا مِنْ عَضّةِ الأسَدِ

وأحيانًا أجلس أمام كوخي وسقفي السحاب ، ومخدتي صبرة من التراب ، وجليسي الكتاب . فوالله إنني أطيب عيشًا من الناصر في الزهراء ، وسيف الدولة في حلب الشهباء ، ما استذلني متكبر ، ولا مَنَّ علي متجبر ، ولا نهرني متهوّر :

أَنَا لا أَرْغَبُ تَقْبِيلَ يَدٍ
قَطْعُهَا أَحْسَنُ مِنْ تِلْكَ الْقُبَل
إِنْ جَزَتْنِي عَنْ صَنِيعِي كُنْتُ فِي
رِقِّهَا أَوْ لا فَيَكْفِينِي الخَجَل

ثم إن هناك مصلحة لي في هذا الزهد ، وهو السلامة من الجهد ، يوم تنصب الموازين وتكشف البراهين ، فلن أقف طويلاً للقضاء ، كما يقف الأغنياء ، وكفاك بهذا حسنة ، لحديث « **يَدْخُلُ فُقَرَاءُ أُمَّتِي الجَنَّةَ ، قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمَائَةِ سَنَةٍ** » ، فيا له من مكسب رابح ، ومن ميزان راجح ، وما عندي مال في البنوك الربويّة ، ولا مساهمات عقارية ، ولا شركات استثمارية ، بل عندي أغلى ، وأعلى، لأن البر لا يبلى . فإذا كنز الناس الدرهم والدينار ، كنزت الأذكار ، وعمل الأبرار، وأنا أخذت بُغْض الدرهم، من إبراهيم بن أدهم، والزهد في الدينار، من مالك بن دينار ، والورع عن العطاء ، من ابن أبي رباح بن عطاء ، وأخذت قلة الرغبة من الدنيا ، من ابن أبي الدنيا ، وقد رأيت القبور ،

فإذا المعظم بجانب المحتقر ، قد اجتمع بها المخبر ، والخبر ، وتغيرت بها تلك الصور ، فالمَلِك في جوار المملوك ، والغَنِيُّ في حفرة الصعلوك ، والقَوِيُّ مع الضعيف ، والوضيع مع الشريف فبعد هذا المشهد ، أقسمت أن أزهد ، فلزمت المصحف والمسجد ، أتعبد وأتهجد ، وعلى المقابر أتردد ، فعوضني ربي بالهم سرورًا ، وبالحزن حبورًا ، وبظلمة الدنيا نورًا ، وقد هيأت حنوطي وأكفاني ، وكفاني القليل كفاني .

وهذا والله عين العقل ، وموافقة النقل ، ونهج الصالحين من بعد ومن قبل ، فمال للقوم كأنهم في نوم ، صرعتهم الشهوات ، وزلزلتهم الشبهات ، أحبوا التراب والخراب ، والثياب والشراب ، وزهدوا في الكتاب والثواب ، ونسوا الحساب والعقاب ، أنساهم القرش النعش ، في التهام وهرش ، ما تهزهم الرقائق ، ولا تردعهم الحقائق ، كلامهم في الأسعار والعمار والعقار ، وحديثهم عن الدرهم والدينار ، ما يذكرون الجنة ولا النار .

الجلوس معهم يميت القلب ، ويضاعف الذنب ، لكن الأعمى لا يرى الصباح ، والميت لا يحس بالجراح . والصخر لا يسمع الكلام ، وما لجرح بميت إيلام .

أَرَى الدُّنْيَا لِمَنْ هِيَ فِي يَدَيْهِ

عَذَابًا كُلَّمَا كَثُرتْ لَدَيْهِ

تُهِينُ الْمُكْرِمِينَ لَهَا بِصِغَرٍ
وَتُكْرِمُ كُلَّ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ
إِذَا اسْتَغْنَيْتَ عَنْ شَيْءٍ فَدَعْهُ
وَخُذْ مَا أَنْتَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ

* * *

المقـامـة الأدبـيّـة

﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾

أَنْظِمُ الشِّعْرَ وَلازِم مَذْهَبِي
فِي اطِّرَاحِ الرِّفْدِ فَالدُّنْيَا أَقَل
فَهُوَ عُنْوَانٌ عَلَى الْفَضْلِ وَمَا
أَحْسَنُ الشِّعْرِ إِذَا لَمْ يُبْتَذَل

قال الراوي : سمرنا ليلة مع جماعة أبية ، لهم شوق إلى المقامات الأدبية ، والأشعار العربيّة ، فقالوا حدثنا عن الأدب ، فإنه ديوان العرب، ومنتهى الأرب ، ونهاية الطلب .

قلنا : حبًّا وكرامة ، وتحية وسلامة ، فقد رضعت الآداب ، وجالست الأعراب ، وحفظت الشعر من عصر الشباب ، فالشعر عندي سمير ، وهو لنفسي روضة وغدير .

وَحَدِيثُهُ السِّحْرُ الحَلال لَوْ أَنَّهُ
لَمْ يَجْنِ قَتْلُ المُسْلِمِ المُتَحَرِّزِ
إِنْ طَالَ لَمْ يُمْلَلْ وَإِنْ أَوْجَزْتُهُ
وَدَّ الْمُحَدَّثُ أَنَّهُ لَمْ يُوجَزِ

فقال أحد السُّمار ، من محبي الأشعار : أفض علينا من القصائد الغراء ، التي قالها على البديهة الشعراء ، قلت : هذا فن طويل الذيل ، يأخذ في كل سبيل ، ولكن سوف أورد بعض الشواهد ، والشوارد ، والأوابد .

فهذا أبو جعفر المنصور تحدى الشعراء بقافية ، قال : من أجازها فله الجائزة وافية ، إذ يقول ، وفكره يجول :

وَهَاجِرَةٍ وَقَفْتُ بِهَا قُلُوصِي

يَقْطَعُ حَرُّهَا ظَهْرَ الغَطَايَه

فقام الشعراء على رُكَبِهِم جاثين ، كلهم يريد الجائزة من أمير المؤمنين، فقال بشار بن برد ، وكان سريع الردّ :

وَقَفْتُ بِهَا الْقُلُوص فَسَالَ دَمْعِي

عَلَى خَدِّي وَاقْصُرُ وَاعِظَايَه

فأخذ بردة أبي جعفر ، وكانت من خَزٍّ أصفر .

وهذا أبو تمام ، وهو شاعر مقدام ، مدح المعتصم ، فما تعثر وما وهم ، يقول :

إِقْدَامُ عَمْرو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ

فِي حِلْمِ أَحْنَفٍ فِي ذَكَاءِ إِيَاسِ

فقال الحارث الكندي ، ما لك قدر عندي ، أما تخاف ، تصف أمير المؤمنين بالأجلاف ، فانهد أبو تمام كالسيل معتذراً عما قيل :

لا تُنْكِروا ضَـــربِي لَهُ مِنْ دُونِهِ

مَــثَــلاً شَـرُودًا فِي النَّدَى وَالْبَــاسِ

فـــاللهُ قَـــدْ ضَـــرَبَ الأقَلَّ لِنُورِهِ

مَــثَــلاً مِنَ الـمِــشْكَاةِ والنِّبْـــرَاسِ

حكم النعمان ، على نابغــة ذبيان ، بالإعدام ، بعدما اتهــمه ببعض الاتهام ، فأنشده البائيَّة الرائعة الذائعة :

فَــإِنَّكَ شَــمْسٌ وَالْمُلُوكَ كَــوَاكِب

إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يُبْــدُ مِنْهُنَّ كَــوْكَبُ

فعفا عنه وحباه ، وقربه واجتباه .

وأهدر البشير النذير ،دم كعب بن زهير، فعاد إليه ، ووضع يده بين يديه، وأنشده :

بَانَتْ سُـعَاد فَـقَلْبِي الْيَـومَ مَتْـبُولُ

مُــتَــيَّمٌ إِثْرُهَا لَمْ يُفـــدْ مَــقْــبُــولُ

فحلم عليه وصفح ، وعفا عنه وسمح ، واستقام حاله وصلح .

وأصدر حاكم اليمن ، قراراً بإعـدام سبعين من أهل العلم والسنن ، والفقـه والفطن ، فأنشده البيـحاني ، قصـيدة بديعة المعـاني ، هزّ بها أعطافه ، واستدر بها ألطافه ، أولها :

يَا أَبَا الْمَـجْـدِ يَا ابْنَ مَـاءِ السَّـمَـاءِ

يَـا سَلِيلَ النُّجُـــومِ فِي الظَّلْمَـــاءِ

فأكرم مثواه ، وعفا عن السبعين من العلماء والقضاة .

وكاد معاوية أن يفر من صفين ، يوم وقف بين الصفين ، فذكر قول ابن الأطنابة، فأوقف ركابَه :

أَقُـولُ لَهَـا وَقَـدْ جَـشَـأَتْ وَجَـاشَتْ

مَكَـانَكِ تُـحْـمَـدِي أَوْ تَـسْـتَـرِيـحي

وأوشك المتنبي الشاعر الهدّار ، أن يولي الأدبار ، ويجد في الفرار، فكرر عليه غلامه ، أبياتاً ثبتت أقدامه ، حيث يقول :

الخَـيْلُ واللَّيْلُ والْبَـيْـدَاءُ تَعْـرِفُـنِي

والسَّـيْفُ والرُّمْحُ وَالقِـرطَاسُ وَالقَلَمُ

فرجع مقبلاً ، فقتل مـجندلاً . وقتل عضد الدولة الوزير ابن بقية ، ولم تردعه تقـيّة ، فـأنشد ابن الأنباري قـصيدة كـأنها برقـية ، أو رواية شرقية ، اسمع مطلعها ، وما أبدعها :

عُلُوٌّ فِي الحَـيَـاةِ وَفِي المَـمَـاتِ
بِحَقٍّ أَنْتَ إِحْـدَى المُـعْـجِـزَاتِ

فسمعها عضد الدولة فتأسف ، وقال حبذا ذاك الموقف . ولما قتل محمّد بن حميد ، بكاه أبو تمام بذاك القصيد ، ورثاه بذاك النشيد :

كَـذَا فَلْيَـجَلّ وَلْيَـفْدَح الأَمْـرُ
فَلَيْسَ لِعَـيْنٍ لَمْ يفض مَـاؤهَا عُـذْرُ

وسب أحد الأمراء ، المعري أبا العلاء ، وهجاه أشد هجاء ، وسب أستاذه سيد الشعراء ، فقال أبو العلاء : لا تسبه أيها الأمير ، فإنه شاعر قدير ، ولم يكن له إلا قصيدة،

لَـكَ يَـا مَـنَـازِل فِي الـقُـلُوبِ مَـنَـازِل
أَقْـفَـرْت أنْتَ وَهُـنَّ مِـنْكَ أَوَاهِـل

ففهم الأمير ماذا يريد ، لأنه قصد آخر القصيد ، وهي قوله :

وَإِذَا أَتَـتْكَ مَـذَمَّـتِي مِنْ نَـاقِصٍ
فَـهِيَ الـشَّـهَـادَةُ لِي بِأَنِّي كَـامِلُ

ولما زار أبو جعفر المنصور المدينة طلب شيخًا كبيرًا، وجعله عنده أجيرًا، يخبره ببيوت المهاجرين والأنصار، فدار به إلى آخر النهار ، ولم يعطه مالاً ، ونسيه إهمالاً ، فقال الشيخ يا أمير المؤمنين : هذا بيت

الأحوص الشاعر المبين القائل :

يَا بَيْتُ عَاتِكَةَ الَّذي أتَعَزل

حَذر العِدَا وَبِكَ الْفُؤاد مُوَكَّلُ

فتذكر أبو جعفر القصيدة ، وهي فريدة مجيدة ، يقول في آخرها :

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ

مَذقُ الكَلامِ يَقُولُ مَا لا يَفْعَلُ

ففهم المراد ، وأعطى الشيخ الزاد .

أقبل عالم كبير القدر ، ظاهر الأمر ، على شاعر قاعد ، فقام لهذا العالِم الوافد ، وكان العالم يرى أن القيام للقادم باطل ، ولو أن القادم رجل كامل ، فقال للشاعر دع القيام ، فأنت لا تلام ، فقال الشاعر :

قِيَامي وَالإلَه إلَيْكَ حَقٌّ

وَتَرْكُ الحَقِّ مَا لا يَسْتَقِيمُ

وَهَلْ رَجُلٌ لَه لُبٌّ وَعَقْلٌ

يَرَاكَ تَسِيرُ إليْهِ وَلا يَقُومُ

وفد شاعر على وزير خطير ، بالمكرمات شهير، فلما أبصر جلبابه، وشاهد حُجّابه ورأى أصحابه هابه ، فأراد أن يقول مساك الله بالخير، قال من شدة الخجل، ومن دهشة الوجل: صبحك الله بالخير ، فقال

الأمير : أصباح هذا أم مساء ، أم تريد الاستهزاء ؟! فقال الشاعر بلا إبطاء :

صَبَّحْتُهُ عِنْدَ المَسَاءِ فَقَالَ لِي
مَاذَا الصَّبَاحُ وَظَنَّ ذَاكَ مِزَاحا
فَأَجَبْتُهُ إِشْرَاقُ وَجْهِك غَرَّنِي
حَتَّى تَبَيَّنْتُ الْمَسَاء صَبَاحا

وأنا مُحدِّث لا حداثي ، من مكة مركبي وأثاثي ، ومن المدينة ميراثي، أصل الحداثيين من البلاشفة الحمر الكفرة، كأنهم حمر مستنفرة، فرت من قسورة .

لا تتبلد ، أرسلناك إلى المربد ، بالحق تنشد ، وبالإسلام تغرد ، فذهبت تعربد .

اسمك محمد فلا تزد في الحروف ، لتصبح محمدوف ، لأن محمد شرعي، ومحمدوف شيوعي ، ديوان المتنبي مجلد لطيف خفيف، فيه لفظ منيف، ومعنى شريف ، أنصت لشعره الدهر، وَعَبَرَ البر والبحر، وسار غدوه شهر ورواحه شهر . وبعض الشعراء المولّدين، لكل منهم عشرة دواوين، كل ديوان ككيس الأسمنت، إذا قرأت منها قصيدة سكتّ وصمتّ ، وبُهتّ وخُفتَ ثم مُتّ، تعبنا من ركاكة الكلام ، ومن هذا الركام، إذا سألناهم عن المعنى أكثروا من الهمز والغمز ، وقال هذا شعر

الرمز ، فيه إيجاز ، وألغاز وإعجاز ، والصحيح أنه هراء وطلسمة، وشعاب مظلمة ، وتمتمة ، وهمهمة ، وغمغمة .

وقد حكم رسولنا ﷺ في الشعر وقد رضينا حكمه فقال : «**إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَة**» وهو الشعر المحمود، الذي يوافق المقصود، وليس فيه بذاء، ولا هجاء، ولا ازدراء، وكان فيه لطف بلا سخف، مع صدق في الوصف، وليس فيه تبذل ولا إغراب، ولا كذب ولا إعجاب، مع إشراق في العبارة ، ولطف في الإشارة ومتانة في السبك، وجمال في الحبك، فإذا كان كما وصفنا ، وصار كما عرّفنا ، فهو السحر الحلال، وهو فيض من الجمال، وهالة من الجلال، يبهج العاقل، وينبّه الغافل .

واعلم أن في الشعر مختارات، وفي القصائد أمهات، مثل المعلقات، وما اختاره أصحاب الحماسات ، ولا تنس الفريدة الحسناء ،

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ البَطْحَاءُ

وإن تعجب فيحق لك العجب ، من قصيدة :

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ

وأجمل المراثي الرائعات :

عُلُوٌّ فِي الحَيَاةِ وَفِي المَمَاتِ

أو ابن زيدون وهو يشجينا :

أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيلاً عَنْ تَدَانِينَا

أو الشريف الرضي في روعة البيان ، يوم أنشد :

يَا ظِبْيَـــــةَ البَـــانِ

وواعجباه من ،

وَاحَــــرَّ قَلْبَـــاهُ

وما أبهى تاج الكلام ،

تَـفِـتُّ فُـــــؤَادَكَ الأَيَّـامُ

وأبو البقاء الراوندي يوم اهتم ، فقال :

لِـكُـلِّ شَـيْءٍ إِذَا مَـــا تَـمَّ

واعلم رحمك الله أن في الشعر تِبْر وتراب ، وذهب وأخشاب ، ولا يخدعنك قولهم فلانٌ شاعر موّار ، فقد لا يساوي شعره ربع دينار ، فإن من الشعر مسك وعنبر ، ولؤلؤ وجوهر ، يسافر إلى سويداء قلبك ويبحر ، وينادي إنما نحن فتنة فلا تكفر .

وفي الشعر شعير ، وروث بعير ، فيه نذالة وجهالة ورذاله ، فويل لمن أشغل الناس، وسوّد القرطاس، وجلب الوسواس، وحاس وداس، وفي ديار القلوب جاس، يصيبك من شعره تثاؤب وعطاس، ونوم ونعاس، فإذا رأيته فقل له: لا مساس ، ولا باس عليك منه لا باس . وهذا الصنف لا يردّه عقل ، ولا يردعه نقل، جائزته بصل وفجل، لأنه أُشرب في قلبه العجل . إذا قام أحدهم في النوادي ، صاح المنادي:

هذا شاعر الحواضر والبوادي ، وبلبل النادي ، فيصدق المسكين ، قطع بلعومه بالسكين ، فيتمايل طربًا ، ويتيه عجبًا، ويقول للحضور : لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا ، فإذا ألقى القصيدة ، فكأنه يأكل عصيدة ، يلوِّي رأسه ، ويكظم أنفاسه ، كأنما يتخبطه الشيطان من المس ، حتى ينادي الجمهور : بس بس ، فليت قارئاً يبرك على صدره ، ويضع يده على نحره ، ويرش وجهه بماء من تبسي ، ويقرأ عليه آية الكرسي . فإذا خرج شيطان الشعر الرخيص ، وعلم أنه ليس له محيص ، قام هذا الغبي ، كأنه صبي ، ليترك الأشعار ، لأهل الاقتدار ، ويقصد البيع والإيجارة ، أو البناء والنجارة ، أو يصلح عقاره ، ويهجر القوافي ، لكل فصيح وافي .

وليت الناس سلكوا مذهبَهم ، فقد علم كل أناس مشربهم ، ويا من اشتغل بالأشعار، عليك بالأذكار ، وإدمان الاستغفار ، والخوف من القهار ، فإن اللسان ثعبان ، وأمامك قبر وميزان ، ونجاة وخسران ، ولا يكن لسانك كالمقراض للأعراض ، ولا يكن كالمقباض للأغراض ، فإن الأنفاس تكتب عليك ، وعملك منك وإليك .

وويل لمن أطلق لسانه ، وأرضى شيطانه ، وأجرى في اللهو حصانه، من يوم تشيب فيه النواصي ، ويندم فيه كل عاصي ، ويهابه كل دانٍ وقاصي .

ويا شعراء المجون، ما لكم في الغي تلجون، وفي النوادي

تصجّـون، ولكل رأس تشجّـون . ألا عقل يردع ، ألا أذن تـسمع، ألا قلب يخـشع، ألا عين تدمع ، أشـغلتم القلوب، وأنسـيتم الناس عـلام الغـيـوب، ودللتم الأمـة على المـعـاصي والذنوب، أشـعلتم النفـوس الهائجة، أحرقتم القلوب المائجة ، لأن بضاعتكم على الأراذل رائجة ، أتظنون أنه لا حـسـاب ولا عـقاب ، ولا عـذاب ولا ثواب ، المـوقف أصعب مـما تظنون ، والمشـهد أعظم مما تـتصوّرون ، إذا بعثـر ما في القبـور ، وحصّل مـا في الصدور ، وفـار التنور ، وقصمـت الظهور ، وطار الكبر والغرور .

إِذَا جَـــارَ الوَزِيـرُ وَكَـــاتِبَـــاهُ
وَقَـاضِي الأَرْضِ أَجْـحَفَ فِي القَـضَـاءِ
فَـــــوَيْـلٌ ثُـمَّ وَيْـلٌ ثُـمَّ وَيْـلٌ
لِقَـاضِي الأَرْضِ مِنْ قَـاضِي السَّـمَـاءِ

يا شعراء المجون ، ويا أتباع كل غاوٍ مفتون ، وهائم مجنون ، ويل لكم مما كتبت أيديكم ، وويل لكم مما تكسبون .

* * *

المقامـة الخطابيّـة

﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾

وَلِسَانٌ صَيْرَفِيٌّ صَارِمٌ
كَذُبَابِ السَّيْفِ مَا مَسَّ قَطَعْ
سِحْرُ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَلَوْ
كلم الصَّخْرَ بِحَقٍّ لانْصَدَعْ

نحن في زمن عجيب ، وفي عصر غريب ، كم بلينا بخطيب غير أديب ، ولا مصيب، إذا تكلم تلعثم ، وهمهم ، وغمغم ، وتمتم . إذا بدأ في الكلام اعتذر ، لا يدري ما يأتي وما يذر، لأن كلامه هذر مذر، ابتلي الرجل بالسعال ، وكثرة الانفعال ، وسوء التعبير في المقال .

لا يزوّر الكلام في صدره تزويراً، ولا يحبّر الخطب تحبيراً، فلا يساوي كلامه في ميزان الشعر نقيراً، يا ليت بعض الخطباء اشتغل بالتجارة، أو مارس البناء والنجارة، وترك المنبر لأهل الإبداع والجدارة .

الخطيب القدير ، والمتكلم النحرير ، له صولة وزئير ، ومنطق كالحرير ، ولسان كالسيف الطرير ، إذا وثب على المنبر ، فاح منه المسك والعنبر، فكأن منطقه الماء الزلال، والنبع السلسال، يأتي بالحكمة في ارتجال، ويغلب بحجته الرجال ، فإنه الأسد إذا صال

وجـال ، إياّك والكلام الساقط المـرذول ، والعـامي المبـذول، وعليك بفصيح المنقـول، الذي يحبّذه أصحاب العقـول، ما أحوجنا إلى خطيب قوّال ، وبما يقول فعّال ، ليس صاحب إملال، ولا إخلال، ولا إقلال، وإنما يدبج السحر الحلال .

وَكَـلامُـهُ السِّـحْـرُ الحَـلالُ لَوْ أَنَّهُ
لَمْ يَجْنِ قَـتْلُ المُـسْلِمِ المُـتَـحَـرِّزِ
إنْ طَالَ لَـمْ يُـمْـلَلْ وَإِنْ أَوْجَـــزْتَـهُ
وَدَّ الـمُـــحَـــدَّثُ أَنَّـهُ لَـمْ يُـوجَـــزِ

لا يشـرح الصدر مـثل الكلام الصـادق ، والبيـان الناطق ، واللفظ الدافق ، والأسلوب السامق ، أما كلام الحـاكة ، وألفاظ أهل الركاكة ، فهو حُمّى الأرواح ، في الصدور رماح ، وفي القلوب جراح .

ترى بعضـهم إذا تكلم لا يكاد يبين ، كـأنه من الأعجمـيين ، ينطق بالحرف مقلوبًا ، ويجعل المرفوع منصوبًا ، ملأ خطبته عيوبًا ، وندوبًا، وثقـوبًا . غـضب منه في النحـو سيـبـويه ، وفي اللغـة نفطويه ، وفي الحديث راهويه ، وفي الشعر متنبيويه .

الخطيب البارع يأسـر القلوب أسرًا ، ويسري بالأرواح فسـبحان من أسرى ، ويسترق الضمائر فإما منّاً بعـد وإما فداء ، وله على مستعمرات النفوس احتلال واستيلاء . الخطيب الملهم يكتب على صفحات القلوب

رسائل من التأثير ، ويرسم في العقول صوراً من براعة التعبير ، ويبني في الأفئدة خياماً من جلال التصوير . هل تمل من الروضة الغنّاء إذا غنى فيها العندليب ، وحل بها الحبيب ، وأطفأ نسيمها اللهيب ، وكذلك الخطيب النجيب ، في خطبه روضات من الجمال ، وبساتين من الجلال ، ودواوين من الكمال .

تقرأ القصة لا تساوي بعرة ، ولا تهز شعرة ، فيلقيها الخطيب الأشدق ، والفصيح المتدفق ، فكأنها السحر دب في كيانك ، وكأنها الخمر هزت أركانك ، تسمع بيت الشعر لا يساوي ريالاً ، ولا ترى فيه روعة ولا جمالاً ، فيلقيه الخطيب المصقع ، والمتكلم المبدع ، فتبقى من حسنه مبهوتًا ، كأنك لقطت ياقوتًا .

الخطيب الهدّار ، كالسيل الموّار ، يقتلع الأشجار، ويحمل الأحجار، ويقتحم الأسوار ، لا يرده جدار ، ولا تقف في طريقه دار ، لأن الخطيب يقبل ومعه الآية الآمرة، والموعظة الزاجرة، والقصة النادرة، والحجة الباهرة، والقافية الساخرة . تعيش معه في دنيا من الصور والألوان، وفي عالم من المشاهد والألحان، كأنك في إيوان، أو بستان، أو ديوان .

دعني من الخطباء الثقلاء ، كأن كلامهم لهيب الرمضاء ، أو وهج الصحراء ، أو وجه الشتاء ، لا طلاوة ، ولا حلاوة ، لا إبداع ، ولا إمتاع ، ولا إشباع . قوم لم تركض ألسنتهم في ميدان البيان ، ولم تذق

قلوبهم حلاوة القرآن ، ولا تمتعوا بسحر الكلمات ، ولا رشاقة الجمل البالغات ، ولا عرفوا حسن السبك ، ولا براعة الحبك ، هَمُّ أحدهم صحف يتلوها على الناس بكرة وأصيلاً ، لا تترك في الناس من التأثير فتيلاً ، يلوك أحدهم الكلام لوكًا ، كأنه يغرز في الأجسام شوكًا .

أفصح الناس رسول الهدى ، وإمام الندى ، أبلغ من حضر وبدا ، وأوعظ من راح وغدا .

مَا بَنَي جُمْلَةً مِنَ اللَّفْظِ إِلاَّ
وَابْتَنَى اللَّفْظُ أُمَّةً مِنْ عَفَاءِ

مَنْطِقٌ يَمْلأُ الْقُلُوبَ جَلالاً
فِي حُبُورٍ وَبَهْجَةٍ وَصَفَاءِ

إن من أعظم المتع التي عاشها الصحابة ، تلك الفصاحة ، والبراعة، والنجابة ، التي كانوا يسمعونها من سيد الفصحاء ، وإمام البرعاء ، وأبين العرب العرباء ، كان إذا تكلم ملك المشاعر ، واستولى على الضمائر ، واستمال السرائر ، فلا يريدون بعده كلام خطيب ولا شاعر ، إذا نطق عليه الصلاة والسلام وتدفق ، فكأنه الفجر أشرق ، والماء ترقرق ، والنور في الأرواح ترفق . إن من النعيم ، عند ذاك الجيل العظيم ، سماع ذلك النبي الكريم، في منطق سليم، وصوت رخيم، وقول قويم ، ونهج مستقيم . ثم درج خطباء الأمة على منواله،

وسبكوا أقـوالهم على أقواله ، فمن مـقلٍّ ومكثر ، ومن مُؤثِّرٍ ومـتأثر .
فأحـسن الخطباء من جـعل القرآن معـينه ، وملأ بنور الحـديث عينه ،
وجعل البيان خدينه ، ثم أكثر من التدريب، وأدمن التجريب، وأخذ من
كل فن بنصيب، فترى له من البراعة، ومن الجرأة والشجاعة، ما يخلب
ألباب الجـماعة، جمـالاً في بيان، وحسنًا في إتقان، مع عـذوبة لسان،
وثبـات جنان . غـير أن البـلاء، يأتي من الأغـبـياء، المـعـدودين في
الخطباء، فـهم كالغيم في الصـحو ، وكاللحن في النحو، عـبارات من
حجاب البيان سافرة ، وجـمل متنافرة . وتركيب غريب، ليس عليه من
سلطان الإبداع رقـيب ، هَمُّ أحـدهم أن يقـول، ولو أخطأ في النقـول،
وعاث في العـقول، فـمَنْعُ هؤلاء من الخطابة إصابة ، حـتى يراجع كل
منهم حسـابه . فليست المنابر أسواق باعـة ، ولا أحواش زراعة ، ولا
ورش صناعة ، إنما المنابر مواضع طاعة ، تهـذب بها الأجيال ،وتصقل
بها عقول الرجال .

وَمَنْطِقٌ كَضِيَاءِ الشَّمْسِ تَحْسَبُهُ
مِنْ حُسْنِهِ سِحْرُ هَارُوتَ وَمَارُوتِ
يَدُبُّ فِي الجِسْمِ مِثْلَ البُرْءِ لَوْ نُظِمَتْ
أَلْفَاظُهُ قُلْتَ هَذَا عُقْدُ يَاقُوت

فهذبْ لسانك ، وجوّد بيانك ، ودرّب جنانك ، وأطلق في الفصاحة عنانك ، لتكون الخطيب المسدّد ، والمتكلم المؤيد . وحذار من ترداد الكلام ، فإنه يتحول إلى ركام ، ويصبح الخطيب أقبح في العين من الظلام، وإيّاك والتقعر والغرابة، فإنها من عيوب الخطابة، ولا تكرر العبارة، ولا تكثر الإشارة، ولا تقحم نفسك في فنون أهل الاختصاص، ولا تجرح الأشخاص. واخلط الترغيب بالترهيب، والوعظ بالتأديب، وتحبب إلى السامعين بالطَّيِّب من الكلام، ولا تتعرض للشتم والملام، وتألف القلوب، وذكرهم برحمة علاّم الغيوب . وتخولهم بالموعظة ، لتكون لقلوبهم موقظة ، وتحدث فيما يحتاجون إليه من مسائل، وما يهمهم من فضائل، وكن لطيفاً مع الناس، كالطبيب الآس.

واجعل إمامك في الخطابة رسول البيان ، صاحب القرآن ، سيد ولد عدنان . فقد كان الْجِذْعُ يحنّ لكلامه ، ويئن من كثرة شوقه وهيامه ، وكانت الدموع من وعظه تتحدر ، والقلوب تتفطّر ، والنفوس تتحسر ، هذا إذا أنذر وحذر ، أما إذا ذكرهم بمغفرة الغفور ، فهناك تسبح النفوس في صرح ممرّد من السرور ، وفي جدول من الحبور، فيمد كلامه نور الفطرة فالكل نور على نور .

هَذَا الْكَلامُ الَّذِي مَا قَالَهُ أَحَدٌ

وَلا تَلا مِثْلَهُ فِي الْجُمَعِ سَحْبَانُ

عَلَيْـــــهِ مِنْ حُلَلِ الأَنْوَارِ أَرْدِيَةٌ
فَكُلُّ قَلْبٍ مِنَ الأَشْـوَاقِ نَشْـوَانُ
يَصْدَعُ الصَّخْرُ فِي زَجْرٍ وَمَوْعِظَةٍ
وَفِي البِشَارَةِ رَوْضٌ فِيهِ رَيْحَانُ

أيها الخطباء كونوا أبطالاً ، ورصّعوا من الحكمة أقوالاً ، ودبّجوا من الفصاحة أمثالاً ، وانفروا خفافًا وثقالاً ، وفقكم الله تعالى .

* * *

مقامَــةُ الـتَّـوبَــةِ

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذاهِبِي
جَعَلْتُ الرَّجَا رَبِّي لِعَفْوِكَ سُلَّمَا
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرِنْتُهُ
بِعَفْوِكَ رَبِّي صَار عَفْوكَ أَعْظَمَا

يا باغي الخير أقبل ، فالباب غير مقفل ، يا من أذنب وعصى ، وأخطأ وعتى ، تعال فلعل وعسى ، يا من بقلبه من الذنوب جروح ، تعال فالباب مفتوح ، والكرم يغدو ويروح ، يا من ركب مطايا الخطايا، تعال إلى ميدان العطايا ، يا من اقترفوا فاعترفوا ، لن تنسوا: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا** ﴾ ، يا من بذنب باء ، وقد أساء ، تذكر : «**يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ**» .

أسقت بغيٌّ كلبًا، فأرضت ربًّا، ومحت ذنبًا . قتل رجل مائة رجل، ثم تاب إلى الله عز وجلّ ، فدخل الجنة على عجل .

لَوْ لَمْ تُرِدْ نَيْلَ مَا أَرْجُو وَأَطْلُبُهُ
مِنْ جُودِ فَضْلِكَ مَا عَلَّمْتَنِي الطَّلَبَا

من الذي ما أساء قط ؟ ومن له الحسنى فقط ؟ ومن هو الذي ما سقط ؟ وأين هو الذي ما غلط ؟ يا كثير الأخطاء ، أنسيت : كلكم خطَّاء ، كم يقتلك القنوط كم ، وأنت تسمع : «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ**» .

اطْرُقِ الْبَابَ تَجِدْنَا عِنْدَهُ
بِسَخَاءٍ وَبَذْلٍ وكَرَمِ
لا تَقُلْ قَدْ أُغْلِقَ البَابُ فَلا
تَحْمِلِ اليَأْسَ فَتُلْقَى فِي النَّدَمِ

إذا أذنبت فتب وتندّم ، فقد سبقك بالذنب أبوك آدم ، ومن يشابه أباه فما ظلم ، وتلك شنشنة نعرفها من أخزم ، فلا تقلد أباك في الذنب وتترك المتاب ، فإن أباك لما أذنب أناب ، بنص الكتاب .

أصبحت وجوه التائبين مُسْفِرةٌ ، لما سمعوا نداء : «**لَوْ أَتَيتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرةً**» ، اطرح نفسك على عتبة الباب ، ومد يدك وقل : يا وهّاب . أرغم أنفك بالطين وناد : رحمتك أرجو يا رب العالمين .

إنْ جَرَى بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ عَتْبٌ
وَبَعُدْنَا وَشَطَّ عَنَّا المَزَارُ

فَـــالقُلُوبُ الَّتِي عَـــرَفَت تَلَظَّى

والدُّمُــوع الَّتِي عَــهــدت غِــزَارُ

يا من أساء وظلم، اعلم أن دمعة ندم، تزيل أثر زلة القدم . أنت تتعامل مع من عرض التوبة على الكفار، وفتح طريق الرجعة أمام الفجّار، وأمهل بكرمه الأشرار . أنزل بالعفو كتبه، وسبقت رحمته غضبه .

وَاللهِ مَـا لَمَـحَتْ عَـيْنِي مَنَازِلكم

إلا تَوَقَّـدَ جَـمْـرُ الشَّـوْقِ فِي خُلْدِي

وَلا تَذَكَّـــرْتُ مَـــغْنَاكُم وأَرْضَكُمُ

إلا كَـأنَّ فُـؤَادِي طَارَ مِنْ جَـسَـدِي

اسمه التوّاب، ولو لم تذنب لما عرف هذا الوصف في الكتاب، لأن الوصف لا بد له من فعل حتى يوصف بالصواب . ما تدري بالذنب محى العجب ، وبالاستغفار حصل الانكسار ، لكأس الاستكبار ، وصار الانحدار ، لجدار الإصرار .

لا تصر ، بل اعترف وقر ، فإن طعم الدواء مُر ، وسوف تجد ما يسر ولا يضر ، واحذر الشيطان فإنه يغر .

يَـا رَبِّ إِنْ عَـظُمَـتْ ذُنُوبِـي كَــثْــرَةً

فَلَقَــدْ عَلِمْـتُ بِأَنَّ عَــفْـوَكَ أَعْظَمُ

الاعتراف بالاقتراف ، طبيعة الأشراف ، قف بالباب ، وقل : أذنبنا، وطف بتلك الديار وقل : تبنا ، وارفع يديك وقل : أنبنا ، ﴿ **أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ ، سبحان من يغفر الذنب لمن أخطأ ، ويقبل التوبة ممن أبطأ .

التوبة تَجُبُّ ما قبلها ، وتعم بركتها أهلها . يقول ﷺ : «**التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ**»، وهذا قول يجب أن نقبله، فهنيئًا لمن تاب وأناب، قبل أن يغلق الباب . التائب سريع الرجعة، غزير الدمعة ، منكسر الفؤاد ، لرب العباد ، دائم الإنصات ، كثير الإخبات.

- للتائب فرحتان ودمعتان وبسمتان .

فرحة يوم ترك الذنب ، **والأخرى** إذا لقي الرب ، **ودمعة** إذا ذكر ما مضى، **والثانية** إذا تأمل كيف ذهب عمره وانقضى ، **وبسمة** يوم ذكر فضل الله عليه بالتوبة ، وهي أجلّ نعمة ، **والأخرى** يوم صرف عنه الذنب وهو أفظع نقمة .

بشرى لمن عفّر جبينه، وأشعل في قلبه أنينه ، وأضرم بالشوق حنينه، التائب تبدل سيئاته حسنات ، لأن ما فات مات ، والصالحات تمحو الخطيئات .

للتوبة أسرار ، ولأصحابها أخبار ، فالتائب يزول عنه تصيد المعائب، وطلب المثالب، لأنه ذاق مرارة ما تقدّم ، فهو دائمًا يتندّم، وهو يفتح باب المعاذير، لمن وقع في المحاذير ، ولا يفعل فعل

المعجب المنّان ، الذي قال : والله لا يغفر الله لفلان ، بل يستغفر لمن أساء من العباد ، ويطلب الهداية لأهل الفساد ، والتائب يطالع حكمة الرب ، في تقدير الذنب ، وأنه لا حول للعبد ولا قوّة ، في منع نفسه من الوقوع في تلك الهُوّة ، فاللهُ غالب على أمره ، بعزته وقهره ، والتائب ذهبت عن نفسه صولة الطاعات ، والدعاوى الطويلات ، والتبجح على أهل المعاصي ، وأصبح ذليلاً لمن أخذ بالنواصي ، فإن بعض الناس إذا لم يقع في زلّة ، ولم يذق طعم الذلة ، جمحت به نفسه الأمّارة ، حتى جاوز أطواره ، فكلما ذُكِرَ له عاصٍ تأفّف ، وكلما سمع بمذنب تأسّف ، وكأنه عبد معصوم ، في حياته غير ملوم ، يحاسب الناس على زلاتهم ، ويأخذ بعثراتهم ، فإذا أراد الله تقويمه ، ليسلك الطريق المستقيمة ، ابتلاه بذنب لينكسر لربه ، وأراه ضعف قوته فيعترف بذنبه، فيصبح يدعو للمذنبين ، ويحب التائبين ، ويبغض المتكبرين .

ومنها أن كأس الندم يتجرعه جرعة جرعة ، مع انحدار دموع الأسف دمعة دمعة، حينها ينال الولاية ، ويدرك الرعاية ، لأنه عرف سر العبودية، ودخل باب الشريعة المحمديّة ، فإن ذل العبد مقصود ، وتواضعه محمود ، لصاحب الكبرياء المعبود .

ومنها أنه يشتغل بالاستغفار ، عن الاستكبار ، فهو دائم الفكر في تقصيره ، مشتغلاً به عن غروره ، لأن بعض الناس لا يرى إلا إحسانه ، ولا يشاهد إلا صلاحه وإيمانه ، حتى كأنه يَمنّ على مولاه ، بطاعته

وتقواه ، بخلاف من طار من خوف العاقبة لبه ، وتشعب بالندم قلبه ، فهو كثير الحسرات، على ما مضى وفات ، وهذا هو حال من عرف العبادة ، وسلك طريق السعادة .

واعلم أن لوم النفس على التقصير ، والنظر إليها بعين التحقير ، والإزراء عليها في جانب مولاها ، وعدم الرضا عنها لما فعله هواها ، يقطع من مسافات السير ، إلى اللطيف الخبير ، ما لا يقطعه الصيام ولا القيام ، ولا الطواف بالبيت الحرام ، فهنيئاً لمن على ذنبه يتحرق ، وقلبه يكاد من الأسف يتمزّق ، ودمعه على ما فرّط يترقرق .

وَقَفْنَا عَلَى الأَبْوَابِ نُزجِي دُمُوعَنَا

وَنَبْعَثُ شَوْقًا طَالَمَا ضَجَّ صَاحِبُهُ

أجمل الكلمات ، وأحسن العبارات، لدى رب الأرض والسموات، قول العبد: يا رب أذنبتُ، يا رب أسأتُ، يا رب أخطأتُ، فيكون الجواب منه سبحانه: عبدي قد غفرت وسامحت، وسترت وصفحت .

إنَّ المُلُوكَ إذَا شَابَتْ عَبِيدُهُمُو

فِي رِقِّهِمْ عَتَقُوهُمْ عِتْقَ أَبْرَارِ

وَأَنْتَ يَا خَالِقِي أَوْلَى بِذَا كَرَمًا

قَدْ شِبْتُ فِي الرِّقِ فَاعْتِقْنِي مِنَ النَّارِ

عفّر الجبين بالطين ، وناد : يا رب العالمين ، تبنا مع التائبين ، اغسل الكبائر بسبع غرفات من ماء الدموع وعفرها الثامنة بتراب المتاب، فهذا فعل من أناب ، حتى يفتح لك الباب . تأوّه المذنبين التائبين ، أَحَبُّ من تسبيح المعجبين ، من قضى ليله وهو نائم ، وأصبح وهو نادم، أحب ممن قضاه وهو مسبّح مكبّر ، وأصبح وهو معجب متكبّر .

إذا أردت القدوم عليه، توسل برحمته وفضله إليه، ولا تمنن بطاعتك لديه، لا تيأس من فتح الباب، ورفع الحجاب، فأدم الوقوف عنده، واخطب ودَّه، فإن من قصده لن يرده، ما أحوج الجيل ، إلى آخر ساعة من الليل، لأنها ساعة الهبات، والأعطيات والنفحات، إمام الموحدين، يقول: ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ، فجعل غاية مناه ، أن تغفر خطاياه ، وأنت تُصِرّ ، ولا تُقِرّ ، وتحسو كأس الذنب وهو مُرّ ، فأفق من سبات اللهو ولا تكن من الغافلين، وأكثر من ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

أيها التائبون اقبلوا النصح واتركوا المدح واسمعوا قول أبي الفتح :

زِيَادَةُ الْمَرءِ فِي دُنْيَاهُ نُقْصَانُ
وَرِبْحُهُ غَيرُ مَحْضِ الخَيْرِ خُسْرَانُ
وَكُلُّ وِجْدَانُ حَظٍّ لا ثَبَاتَ لَهُ
فَإِنَّ مَعْنَاهُ فى التَّحْقِيقِ فُقْدَانُ

كُلَّ الذُّنُوبِ فَإِنَّ الله يَغْفِرُهَا

إِنْ شَيَّعَ المَرْءُ إِخْلاصٌ وَإِيمَانُ

وَكُلَّ كَسْرٍ فَإِنّ الله يَجْبُرُهُ

وَمَا لِكَسْرِ قَنَاةِ الدِّينِ جُبْرَانُ

يَا عَمِراً لِخَرَابِ الدَّارِ مُجْتَهِداً

بالله هَلْ لِخَرَابِ العُمْرِ عُمْرَانُ

وَيَا حَرِيصًا عَلَى الأَمْوَالِ يَجْمَعُهَا

أَقْصِرْ، فَإِنَّ سُرُورَ المَالِ أَحْزَانُ

دَعِ الفُؤَادَ عَنِ الدُّنْيَا وَزُخْرفِهَا

فَصَفْوهَا كَدَرٌ، وَالوَصْلُ هُجْرَانُ

وَأَعِرْ سَمْعَكَ أَمْثَالاً أُفَصِّلُهَا

كَمَا يُفَصِّل يَا قُوتٌ وَمُرْجَانُ

أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ تَستَعْبِدْ قُلُوبَهُمْ

فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الإِنْسَانُ إِحْسَانُ

وَإِنْ أَسَاءَ مُسِيءٌ فَيَكُنْ لَكَ فِي
عُروضِ زَلَّتِهِ صَفْحٌ وَغُفْرَانُ
وَاشْدُدْ يَدَيْكَ بِحَبْلِ اللهِ مُعْتَصِمًا
فَإِنَّهُ الرُّكْنُ إِنْ خَانَتْكَ أَرْكَانُ
مَنِ اسْتَعَانَ بِغَيْرِ اللهِ فِي طَلَبٍ
فَإِنَّ نَاصِرَهُ عَجْزٌ وَخِذْلانُ
مَنْ جَاءَ بِالمَالِ مَالَ النَّاسُ قَاطِبَةً
إِلَيْهِ، وَالمَالُ للإِنْسَانِ فَتَّانُ
مَنْ سَالَمَ النَّاسَ يَسْلَمْ مِنْ غَوائِلِهِمْ
وَعَاشَ وَهُوَ قَرِيرُ الْعَيْنِ جَذْلانُ
وَالنَّاسُ أَعْوَانُ مَنْ وَاتَتْهُ دَوْلَتُهُ
وَهُمْ عَلَيْهِ إِذَا خَانَتْهُ أَعْوَانُ
يَا ظَالِمًا فَرِحًا بِالسَّعْدِ سَاعِدُهُ
إِنْ كُنْتَ فِي سِنَةٍ فَالدَّهْرُ يَقْظَانُ

لا تَحْسَبَنَّ سُرُورًا دائمًا أَبَدًا

مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ

لا تَغْتَرِرْ بِشَبَابٍ رَائقٍ خَضْلٍ

فَكَمْ تَقَدَّمَ قَبْلَ الشِّيبِ شُبَّانُ

وَيا أَخَا الشَّيْبِ لَوْ نَاصَحْتَ نَفْسَكَ لَمْ

يَكُن لِمِثْلِكَ فِي اللذَّاتِ إِمْعَانُ

هَب الشَّبِيبَةَ تُبْدِي عُذْرَ صَاحِبِهَا

مَا عُذْرُ أَشْيَبَ يَسْتَهْوِيهِ شَيْطَانُ؟!

*   *   *

المقامة التّاريخيّة

﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ﴾

اقْرَأ التَّأْريخَ إِذْ فِيهِ العِبَرْ
ضَلَّ قَوْمٌ لَيْسَ يَدْرُونَ الخَبَرْ
وَتَأَمَّل كَيْفَ أَفْنَى مُلْكَهُم
مَنْ عَلَى الْمُلكِ تَولَّى وَقَهَرْ

قال أبو كثير ، جرير بن الأثير ، سلوني عن التاريخ ، فإني في علمه شيخ .

قلنا : **يا أبا كثير ، فضلك كبير ، فما هو التعليق ، على أحداث نذكرها لك بالتحقيق .**

قال : تقدموا وتكلموا .

قلنا : مولد النبي محمد ﷺ .

قال : مولد النور ، وإشراق السرور ، وهو فتح من الله على هذا الكون ، ونبأ عظيم ما سمع بمثله في حركة ولا سكون .

قلنا : فهجرته إلى المدينة .

قال : بداية الانطلاق ، وفجر الإشراق ، بها قامت الدولة ، وصار للإسلام جولة، وللحق صولة .

قلنا : فغزوة بدر .

قال : إثبات صدق الصحابة ، واجتثاث تلك العصابة ، وقطع الرءوس الكذَّابة ، وجلال للدين ومهابة .

قلنا : فوفاة الرسول ﷺ .

قال : نزفت منها القلوب دمًا ، وامتلأت النفوس ألمًا ، وهي دليل على أن لا بقاء إلا للواحد ، وما مخلوق بهذه الدنيا خالد .

قلنا : فمعركة القادسية .

قال: مشهد من مشاهد الحق إذا هجم، ونهاية ماحقة ساحقة لدولة العجم، وأن من عادى الرحمن فليس له سلطان، ولا أمان ولا صولجان .

قلنا : فمعركة اليرموك .

قال : فرار الروم كالبوم ، ولكل طاغية يوم معلوم ، وإن الدين أمضى سيف للمجاهدين .

قلنا : فعين جالوت .

قال : نهاية المغول ، ومأساة حظهم المغلول، وجندهم المخذول ، على أيدي أتباع الرسول .

قلنا : في حطين .

قال : حطين ، تمريغ الباطل في الطين ، وهي يوم جلاء الصليب من فلسطين .

قلنا : فموت خالد بن الوليد على الفراش .

قال : دليل على أن الأجل درع حصين ، وموته مصيبة للموحدين ، وفرحة عابرة للكافرين ، وعيد للجبناء الفاشلين . وكأن القتل هاب من خالد ، فأتاه على غرة وهو قاعد .

قلنا : ففتنة القول بخلق القرآن .

قال : هي نتاج الفلسفة الشنعاء ، التي زاحم بها المأمون الشريعة الغراء ، ولكن الله نصر الحق وأتباعه ، وهزم الباطل وأشياعه .

قلنا : أحسنت في هذا الحوار ، فحدثنا عن بعض ما ورد في التاريخ من الأخبار .

• قال: لما ابتلى المأمون الناس بالمحنة، قيض الله له بطل السنة ، فكان المأمون رأساً في علوم اليونان، وأحمد رأسًا في علوم السنة والقرآن.

• أما رأيت الحجاج قتل ابن الزبير ، وذبح سعيد بن جبير ، ووضع إبراهيم التيمي في بير ، ثلاث عورات لكم .

• قال فرعون ثلاث كلمات مهلكات ، يقول : ﴿ **مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي** ﴾ فدس أنفه في الطين ، و﴿ **أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ** ﴾ فأخرج منها وهو لعين ، و﴿ **مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى** ﴾ فما باع بعدها ولا اشترى .

• علي بن أبي طالب ، مرفوع بين الرافضة والنواصب ، لأنها لا تدخل على المرفوع النواصب .

● يا لله العجب ، جولدا مائير امرأة ، هزمت رجال العرب ، كيف لو كانت رجلاً ذا شنب .

● قال جميّل : سوف أبيد إسرائيل ، فألقى على اليمن البراميل ، قلنا: ضللت السبيل .

● وقال صدام : سوف أحرق اليهود ، فأرسل إلى الكويت الجنود . قلنا : أسد عليّ وفي الحروب نعامة شرود .

● يوم كانت تركيا تحكم بالشريعة السمحاء ، أرسلت للعالم الزعماء والعلماء والأدباء . فلما حكمت بمنهج الكافرين ، أرسلت للعالمين الحلاقين والراقصين والمغنيين.

● أخذ العرب في فجر الإسلام قياد العالم، فلما خفيت عليهم المعالم، منوا بالهزائم .

فنقل الله السلطان للأكراد ، لأنهم نصروا رب العباد ، فملّكهم البلاد. ثم أخذ الريادة السلاجقة ، وأمم لاحقة ، ثم انتقل مفتاح الأملاك ، إلى الأتراك ، فلما صاروا في ترف وانهماك ، سلب منهم المفتاح، لأنه لا يحمله إلا من صدق في حي على الفلاح ، واعلم أن في هذا برهان ، على أن الإسلام لا يعترف بالألوان ، وليس لبلد خاص من البلدان . لكنه لكل من نصر الحق ، وأتى بالصدق .

● أهدت لنا خراسان سلمان ، وأهدت صهيباً لنا الرومان ، فأهدى لهم رسولنا القرآن والإيمان .

● الجيش إذا لم يصم رمضان ، يهزم في حزيران ، وجيش لا يؤمن بتعاليم جبريل ، لا ينتصر على إسرائيل .

● التأريخ إن شئت جعلته شريفًا أو سخيفًا ، فالتاريخ الشريف : تاريخ الفتوحات والانتصارات ، والنكبات والدروس المستفادات . والتاريخ السخيف : تاريخ القيان، وكيف كانت تضرب العيدان ، وخبر الجواري في قصر السلطان .

● أشغلونا في التاريخ بأخبار سخيفة ، فقالوا : الجارية غضبت على الخليفة ، فأهداها قطيفة ، فعادت للوظيفة .

●لا بد أن يقرن التأريخ بالأثر، ويُرَصَّع بالسير، وتستفاد منه العبر .

● تاريخ ابن خلدون مقدمة بلا كتاب، لكنها عجب من العجاب . وتاريخ ابن الجوزي غرائب وعجائب، كأنه لا بد في كل قصة من مصائب . وتاريخ الطبري دقائق ، أشغلتنا عن الحقائق ، وتاريخ ابن كثير ، أحسن الجميع بلا نكير ، لكنّه طول في تراجم الشعراء ، وقصر في تراجم العلماء .

● الذهبي يكتب بقلم السلف ، فتجده كثير النقد للخلف ، تخرج من مدرسة المحدّثين، فتراه يشن الغارة على المُحْدَثِين . وابن خِلَّكَانَ يترجم للضُّلاّل، وكأن شيئًا ما كان ترجم لابن الريوندي فدبج فيه ثناءً ثمينًا كأن الكلب ما أكل له عجينًا .

● العظمة في اتباع المعصوم، لا في المناصب والرسوم، والدليل على ما أقول ، أن دائرة المعارف البريطانية ، ترجمت بعشرين صفحة للدولة العباسية ، وترجمت لابن تيمية بأربعين صفحة ، لجهوده الإسلاميّة .

● ألسنة البشر، أقلام تكتب بها السير، إذا ذكر عمر بن عبد العزيز قال الناس: رحمه الله، وإذا ذكر الحاكم الفاطمي قال الناس: قاتله الله .

● لما تولى بنو أمية الخلافة قالوا: سوف تبقى لنا دوامًا ، فما أكملوا ثمانين عامًا . فلما تولى بنو العباس قالوا: سوف نحكم الأرض بالأثر والنظر، حتى خروج المهدي المنتظر، فلم يبق الله لهم في الأرض مكانًا، كأنهم خبر كان .

● من قرأ التاريخ هيجه على البكاء ، والاتساء ، والاقتداء . كم في التاريخ من زفرة وحسرة وعثرة ؟ لقد كان في قصصهم عِبْرَة .

أما تأريخنا نحن المسلمين فيقول عنه صفي الدين :

سَلِي الرِّمَاحَ العَوَالِي عَنْ مَعَالِينَا
وَاسْتَشْهِدي الْبِيضَ هَلْ خَابَ الرَّجَا فِينَا

لَمَّا سَعَيْنَا فَمَا رَقَّتْ عَزَائِمُنَا
عَمَّا نَرومُ وَلا خَابَتْ مَسَاعِينَا

قَوْمٌ إِذَا اسْتَخْصَمُوا كَانُوا فَرَاعِنَةً
يَوْمًا وَإِنْ حُكِّمُوا كَانُوا مَوَازِينَا
تَدَرَّعُوا العَقْلَ جِلْبَابًا فَإِنْ حَمِيَتْ
نَارُ الوَغَى خِلْتَهُمْ فِيهَا مَجَانِينَا
إِذَا ادَّعُوا جَاءَتِ الدُّنْيَا مُصَدِّقَةً
وَإِنْ دُعُوا قَالَتِ الأَيَّامُ: آمِينَا
إِنَّا لَقَوْمٌ أَبَتْ أَخْلاقُنَا شَرَفًا
أَنْ نَبْتَدِي بالأَذَى مَنْ لَيْسَ يُؤْذِينَا
بِيضٌ صَنَائِعنَا ، سُودٌ وَقَائِعُنَا
خُضْرٌ مَرَابِعْنَا ، حُمْرٌ مَوَاضِينَا

* * *

المقامة السلطانية

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾

جَانِبِ السُّلْطَانَ وَاحْذَرْ بَطْشَهُ
لا تُعَانِدْ مَنْ إِذَا قَالَ فَعَلَ
لا تُمَازِحْ أَسَدًا فِي غَابَةٍ
وَتَرَفَّقْ عِنْدَ أَرْبَابِ الدُّوَل

قال عليُّ بن عمران: اعلموا أن السلطان ، ظل الله في الأوطان ، بهيبته تحفظ البلاد وتسعد العباد، وبعدله تأمن الآفاق، وتقام الأسواق، وبسيفه تنصر الملّة ، وترفع الذلّة .

أما الظلوم الغشوم، فمجده مهدوم، وسيفه مثلوم، وجنده مهزوم. اسمعوا ابن خلدون ، لعلكم تعتبرون . إن السلطان إذا عدل، شفيت بعدله العلل، وزال الخلل، وذهب الزلل، ونصر الله دولته بين الدول . أما إذا السلطان جار ، ألزمه الله الصغار ، وألبسه العار ، وسلط عليه الدمار ، وجعل مصيره النار .

قلنا يا ابن عمران : وكيف يكون العلماء مع السلطان ؟

قال : لا تقابل السلطان بالقوة ، فيلقيك في هوّة ، وكما قالت العرب

في الكتب : لا تمازح الأسد، فإنه أبو لبد . فالعالم لا يخالط السلطان حتى كأنه حاجب، أو كاتب، أو حاسب، لأن الصاحب ساحب، بل ينصحه من بعيد ، ويزوره كل عيد ،ويدعو له بالتسديد . ولا ينصحه أمام العوام ، لأنهم هوام ، أصحاب طوام ، بل يداريه ولا يماريه، وينكر عليه ولا يجاريه . ويكلمه كلامًا بيِّنا ، ويقول له : قولاً ليِّنًا .

قلنا : فإن أعطاه السلطان مالاً ، وقال يأخذه حلالاً ، ويصلح به حالاً .

قال : إن كان هذا المال ليشتري به دينه ، من أجل أن يذله ويهينه ، فالمنيّة ولا الدنية ، وركوب الجنائز ، ولا قبول الجوائز . وإن كان هذا العطاء من بيت المال بلا سؤال ، ولا مكْرٍ واحتيال ، فرزق ساقه الله إليك ، سواء كان بنقد أو بشيك ، فهو لك لا عليك .

قلت : فما رأيك في الخروج على السلطان ؟

قال : لا تفعل إلا إذا رأيت كفراً عندك فيه من الله برهان .

قلت : فإن حرمني وشتمني وظلمني ؟

قال: حسيبك الملك الديان ، يوم يوضع الميزان ، ويظهر البهتان .

قلت : فماذا يجعل السلطان من الصلحاء ويحمله على نهج الخلفاء الأوفياء ؟

قال : إذا شاور العلماء، وخالف السفهاء، وجالس الحكماء، وصاحب الحلماء .

قلت : يا ابن عمران فماذا يفسد السلطان ؟

قال : الاشتغال عن الرعية ، والجور في القضية ، وعدم الحكم بالسويّة .

قلت : فماذا يلزم السلطان حتى يعان ؟

قال : تنفيذ الحدود ، وتقوية الجنود ، والوفاء بالوعود ، والالتزام بالعهود ، وإكرام الوفود .

قلت : فماذا يجب للسلطان على الرعية ، من الواجبات الشرعية ، والحقوق المرعية ؟

قال : الدعاء له بظهر الغيب ، ولا ينشر ما فيه من عيب ، وطاعته إلا في الحرام ، والنصح له في توقير واحترام .

قلت : أخبرنا بما في سيرة الحكام من العبر ، وما ورد فيها من أثر ، فإن الله ينفع بالسير ؟

قال: انظروا ما ذكره الله في القرآن، وما سطره في التأريخ والأعيان .

قلت : لماذا فسد الحجّاج ، ووثب على الأمة وهاج ؟

قال: الرجل بالله مغرور، غره المدح والظهور، فأخذ يظلم ويجور.

قلت : فمن جُلاسه ؟

قال : هم ما بين عامّي عري عن العلم ، محروم من الفهم ، أو فاجر مات قلبه ، وتبلد لبه .

قلت : ولماذا فسد الخليفة الأمين ؟

قال : أقبل على اللعب ، واشتغل بالطرب ، وأهان أهل الحسب ، وقرب الوشب .

قلت : فلماذا أَيَّدَ الله عمر بن عبد العزيز ، وجعله في حرز حريز ؟

قال : الرجل اتقى ربه ، وخاف ذنبه ، وأصلح ما بينه وبين الديان ، فعمّر الله به البلدان . ركب سفينة السنة ، فأوصلته الجنة .

قلت : فأخبرنا بصفات تصلح السلطان ، وتوصله الرضوان ؟

قال : عليه بصدق الصدِّيق ، وعدل الفاروق ، وسخاء عثمان ، وشجاعة عليّ إذا التقى الجمعان .

قلت : فمن أحق الناس بإكرام السلطان ؟

قال : عالم عامل ، وعابد فاضل ، وشيخ كبير ذابل .

قلت : فمن أحق الناس بعقوبة السلطان ؟

قال : السفهاء ، الذين يحتقرون العلماء ، والمجاهرون بالمعاصي صباحًا ومساءً . ومن يأخذ حقوق العباد بالاعتداء .

قلت : فلماذا أحب الناس الخلفاء الراشدين ؟

قال : لأنهم كانوا صادقين ، وبربهم واثقين ، وبرعيتهم رفيقين .

قلت : فلماذا سقطت الدولة الأموية ، وقد كانت قوية ؟

قال : أخّر القوم الصلاة ، وأكرموا العصاة ، وجاروا في الأحكام ، فانقلبت بهم الأيام .

قلت : فلماذا سقط بنو العباس ، وقد كانوا أهل نجدة وبأس ؟

قال : هجر القوم المثاني، واشتغلوا بالأغاني، وملئوا القصور بالغواني، وغرتهم الأماني .

قلت : فلماذا سقطت الدولة العثمانية ؟

قال : قربوا الصوفية، وحاربوا الدعوة السلفية، وأهانوا الرعية ، واشتغلوا بالملذات الدنيوية ، وأهملوا الشعائر الدينية .

قلت : فما معنى كلام ابن تيمية : إن الله ينصر الدولة الكافرة ، إذا كانت عادلة ويمحق الدولة المسلمة ، إذا كانت ظالمة ؟

قال: هذا كلام صحيح، وفهم مليح . فالدول إذا عدلت قرّت، واستقرت، وأعطاها الله الأمان، من روعات الزمان ، ومن مصائب الحدثان . وإذا ظلمت محقت وسحقت ، وتمزّقت وتفرّقت . وهذه سنة ماضية، وحكمة قاضية .

قلت : ولماذا قال عمر على المنبر يوم صاح بطنه من الجوع وقرقر : قرقر أو لا تقرقر والله لا تشبع حتى يشبع الفقير الْمُقْتِر ، والشيخ المعسر ؟

قال: عمر إمام العدالة ، شرح الله بالعدل باله ، صدق الله فأصلح أحواله ، وجعل التقوى سرباله . فسيرة عمر تخوف الظالمين ، وترهب الآثمين ، وهي قصة بديعة في العالمين .

قلت : ما رأيت الظالم طال عمره ، ولا حماه قصره ، ولا ارتفع قدره .

قال : أما تدري أن الله أخرج كل ظالم من قصره وجره ، وقطع دابره بالمرة ، واستنزله من برجه العاجي كأنه هرة .

قلت : مثل ماذا يا هذا ؟

قال : عجبًا لك أما تعي ، وأنت بالعلم تدعي . أما أهلك فرعون وخرب داره ، وترك قصوره منهارة ، ودس أنفه في الطين كأنه فارة .

أما رأيت شاوسسكوا رئيس رومانيا المهين ، مزقه شعبه وهو لعين ، سحبوه في الشارع كأنه تنين ، فما كان له من فئة ينصرونه وما كان من المنتصرين .

أما رأيت شاه إيران، السفيه الغلطان، الذي كان بكأس الظلم سكران، أَكْثَرَ من السلب والنهب، والضرب والصلب، فطرده شعبه كالكلب . فمات في مصر مع فرعون ، وكتب في التاريخ الشاه الملعون .

أما رأيت ماركوس رئيس الفلبين، أحد الظلمة الكاذبين ، أذاق قومه الويلات ، وأسقاهم كأس النكبات ، فمال عليه قومه ميلة واحدة، فإذا دولته بائدة ، فصار في العالم طريدًا ، وأصبح في الأرض شريدًا .

قلت : أرشدتني أنار الله فكرك ، وأعلا ذكرك ، وقد حملت شكرك .

* * *

المقامة الجامعيَّة

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

اطْلُبِ الْعِلمَ وَحَصِّلْهُ فَمَنْ
يَعْرِفُ الْمَقْصُودَ يُحَقِّرُ مَا بَذَل
لا تَقُلْ قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ
كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَل

بكى زميلي في الجامعة عمرو بن كُلثوم ، كأنه أكل الثوم ، فلما رأيت الدمع ملأ عيونه ، تذكرت قول الشاعر : بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه .

فقلت : ما لعينك دامعة . قال : من كثرة العناء في الجامعة .

قلت : من صبر ظفر ، ومن ثبت نبت . فقال زميلي عمرو ، وكأن في قلبه جمر : حدثنا عن دراستك في كلية أصول الدين ، فإني لك بالنصح مدين .

قلت : كنت أدرس في أبها ، والعلم عندي من الشهد أشهى ، لا أخرج من الحارة، من البيت إلى المنارة ، وقليلاً ما أركب السيارة . كانت الكتب أغلى عندي من الذهب، فإذا تفردت بكتاب ، نسيت الأصحاب والأحباب .

كنت أصلي الفجر ، ثم أجلس في مصلاي لطلب الأجر ، فإذا داعبني النعاس ، قلت : لا مساس ، فإذا غدا الطير من وكره وطار ، وقضيت وجبة الإفطار ، ذهبت إلى الكلية ، ونسيت الدنيا بالكلية .

وكان زملائي أهل جد وجلد ، والكل منهم مثابر مجتهد . ذكرونا بالصحب الأول ، وكانوا من سبع دول ، اثنان من **السعودية** ، أخلاقهم ندية، وصداقتهم ودية، وآمالهم ورَدية . وأربعة من **اليمن** ، تشتري صحبتهم بأغلى ثمن، وأعدّها عليّ من أحسن المنن ، وواحد من **أوغندا**، يهد الدروس هدًّا ، كأنه ليث إذا تبدا ، وطالبان من **السودان** أعذب من الماء عند الظمآن ، وطالب من دولة **بنين** ، قوي أمين ، ومن **نيجيريا** أربعة طلاب ، يكرمون الأصحاب ، ويتحفون الأحباب ، وواحد من **الصومال** ، من خير الرجال ، مع صبر واحتمال . فإن اختلفنا في الديار ، فنحن إخوة في شريعة المختار .

فاجتمع في الفصل اللسان ، والألوان ، واللّغات ، واللهجات ، من كل الجهات . فصرت أنا بينهم كسحبان وائل، ولو أنني أعيا من باقل . فكنا في أحسن زمالة، لا سآمة ولا ملالة، ودرّسنا أساتذة، بعضهم جهابذة ، فكان منهم من يحضر وينظر ، ويأتي الفصل وهو مبكر .

تَخَالُهُ مِنْ ذَكَاءِ الْقَلْبِ مُتَّقِدًا

وَمِنْ تَلَهُّبِهِ فِي الْعِلْمِ نَشْوَانَا

ومنهم من كان يقرأ علينا من صحف اكتتبها ، فهي تُملى عليه بكرة وأصيلاً ، فكان يرتل علينا المقرر ترتيلاً . وربما تعب فأمرنا بوضع خط، تحت كل كلمة ولا يزيد قط . ومنهم من كان يأخذ ثلث المحاضرة في تحضير الطلاب، من حضر ومن غاب، وربما دَلَّسْنَا عليه الغياب ، وهو لا يدري بدهاة الأفارقة والأعراب . ويأخذ ثلثها الثاني في تعريفنا بشخصه العظيم ، وما حصل له من تكريم ، فهو يردد علينا هذا الحديث السقيم . وأما ثلثها الأخير فيشرح لنا المقرّر ، وقد تبلد ذهن كل منا وتحجّر، مما سمعناه من الحديث المعطر .

ومنهم من شكانا شكوناه ، وأبكانا وأبكيناه، فمرة يشكونا للعميد، فنسمع الوعيد والتهديد، فنسخر ونقول: الحمد لله على السلامة ، أَسَدٌ عليّ وفي الحروب نعامة، وربما كتبنا فيه خطابا، فيملؤنا سبابًا، ويقول: لن أخاف من كيدكم ولا أقلق ، كما قال الأول : زعم الفرزدق .

ومنهم من عجب من إجابتي ، وكثرة إصابتي ، وأقسم لو جاز أن يعطي فوق الدرجة لأعطاها ، ولا يخاف عُقْبَاهَا ، فأجد الامتعاض من الزملاء ، ثم نعود إلى جو الإخاء . وقد نظمت في الأساتذة بعض الأبيات ، فيقول الزملاء : بهذه الطريقة نلت الدرجات ، فيهمزون ويلمزون ، وإذا مرّوا بنا يتغامزون . وربما أطلقت في الفصل النكات ، فيهتز الفصل من الضحكات .

أَذْكُرُ مرّة ، كانت لحظة مسرة ، أن أحد الدكاترة ، وكانت أذهاننا

معه فـاترة ، قال لنا : إن الغزالي صاحب الأحياء مـات والبخاري على صدره ، يقصد كتاب الصحيح، فـقلت بلا استحياء : هذا أمر عجيب ، وخبر غريب ، لأن البخاري مـات في القرن الثالث ، والغزالي في القرن السادس ، فكيف يكون البخاري على صدر الغزالي .

فقال الأسـتاذ : أنت قد بلبلت بالي ، قلت : قصيـدة البلبلة لصفي الدين الحلي وهي مهلهلة . ثم أنشـدتها بدون استئذان ، حـتى أدخلتها الآذان ، ومطلعها :

يَا بَلي البَـالِ قَدْ بَلْبَلَتِ بِالبلْبَـالِ بَالا

بِالنَّوَى زَلْزَلْتَنِـي وَالْقَلْبُ بِالزِّلْزَالِ زَالا

فقال الأسـتاذ وقد تميز من الغيـظ: زدنا يا عائض من هذا الفيض، فأنشدت: قول المتنبي:

فَـقَلْقَلْتُ بِـالهَمِّ الَّذي قَلْقَلَ الحَـشَى

قَـــلاقِلُ عَـــيس كُلُّهُنَ قَـــلاقِلُ

والطلاب في ضحكهم هائمون . ثم قلت للأستاذ : سامحني يا علم الأفذاذ ، فقد تذكرت بيت الأعشى :

وَقَـد غَـدَوْتُ إِلَى الحَـانُوتِ يَتْبَـعنِي

شَـــاوٍ مِـــشَلٌّ شَلولٌ شَلْشَلٌ شَـــوِلُ

وشجعني أن بضاعته من العلم مزجاة ، فقلت : أزجي الوقت كما أزجاه ، وإذا ذهب العلم فليذهب الجاه .

وكنت أستأذن بعضهم في أول كل محاضرة ، ووجوه الطلاب يومئذٍ ناظرة ، فأنظم أرجوزة ، أبياتها مهزوزة ، فيتركني الأستاذ ولسان حاله يقول : دعوه على حاله ، فالله هو الذي يهب العقول . ولا أفعل هذا إلا مع أستاذ هو كَلٌّ على مولاه ، فأريد أن أجازيه على ما أولاه .

ومرة ذهبنا في رحلة برية ، فجعلوني رائد السَّرِيَّة ، فانذهل مني المدرب وتعجب، واستغرب وتعذب، فلم أظهر له أنني عنيد، بل جعلت نفسي كأنني أبله بليد ، فإن صاح فينا : استعد استرحت ، وإن قال : استرح استعديت، وإذا قال : إلى الأمام سر ، رجعت إلى الورى، وإذا قال: إلى الخلف در مشيت إلى الأمام ، وإذا طلب منا العد بالأرقام، قفزت عشرين رقمًا للأمام، فإن كان رقمي عشرة قلت: ثلاثون، والناس يضحكون، وَالْكُلُّ مرتاحون، إلا المدرب فقد جف ريقه، وظهر حريقه .

وربما تساجلنا في بعض الأمسيات ، فأنظم في الحال الأبيات ، وليس هذا والله من المبالغات .

وربما أنشد بعضهم نصف بيت سابق ، فأكمله من عندي :

نَحْنُ الَّذِينَ صَبَّحُوا الصَّبَاحَا

فقلت :

وَقَـدْ أَكَلْنَا الْمَـوزَ والتُّـفَّـاحَـا

وقال آخر :

حَـتَّى إِذَا جَنَّ الظَّلامُ وَاخْـتَلَط

فقلت :

سَمِعْتُ صَوْتَ الْقِطِّ مِنْ بَيْنِ الْقِطَطْ

وكان أستاذٌ يلحن في العربية ، فكنت أقول :

واللَّحْنُ عِنْدَ شَـيْخِنَا يَجُـوزُ

كَـقَـولِهِمْ مَـرَرْتُ بِالْعَـجُـوزُ

وأنشدنا أستاذ الأدب بيت صفي الدين الحلّي

سَلِ الرِّمَاحَ الْعَوَالِي عَنْ مَعَالِينَا

وَاسْتَشْهِدِ الْبِيضَ هَلْ خَابَ الرَّجَا فِينَا

فذكرت حالنا المعاصر ، فقلت :

سَلِ الصُّحُونَ التَّبَاسِي عَنْ مَعَالِينَا

وَاسْتَشْهِدِ الرُّزَّ هَلْ خَابَ الرَّجَا فِينَا

وأرادوا في الكلية التشجيع ، فجعلوني الطالب المثالي في الحفل الختامي الوسيع ، فجئت لآخذ الجائزة ، والنفس بالفرح فائزة، فكان العميد يناول الجائزة المسئول، والمسئول بدوره يناولها الطالب المقبول، فأخذت الجائزة من العميد في استعجال ، وسلمتها المسئول في ارتجال، فضجت بالضحك القاعة ، لأنها حركة ملفتة خَدَّاعة .

وفي المرحلة الجامعية ، كانت زمن الهمة الألمعية ، والعزيمة اللوذعية، فقد أعانني الرحمن، على حفظ القرآن ، وجودته على الشيخ الرباني ، عبيد الله الأفغاني، وحفظت بعض المتون، في بعض الفنون، أما القراءة والمطالعة ، فكانت شمسها ساطعة ، فلم يكن لي غير المطالعة عمل ، وهي أحسن متعه لَدَيَّ وأقصى أمل ، فإذا خلوت بالكتاب ، فقد اجتمع عندي أفضل الأصحاب ، وأحب الأحباب ، حينها لا يعادله عندي روضة خضراء ولا حديقة فيحاء ، فالكتاب أشرف صاحب على الدوام ، وخير جليس في الأنام ، وكنت أتعجب ممن لا يطالع ، أو يقضي وقته في الشارع . وقد أقبلت على علم الحديث بانكباب ، وقبل ذلك كنت منهمكاً في الآداب .

أما المقرر فلم أذاكره إلا وقت الامتحان ، لأنني أراه أقل من أن يصرف له كل الزمان . وفترة الجامعة ، كانت أخصب فترة عندي لحضور المخيّمات، والرحلات والأمسيات ، ونظم المقطوعات والأرجوزات ، وما تأثرت في تلك الأيام ، بأستاذ ولا شيخ ولا إمام ، كتأثري بزميلين، ماجدين ، عابدين ، صادقين .

أحدهما : النيجيري عبد الرشيد ، وكان عندي من أصدق من رأيت في عبادة الحميد المجيد ، كثير قيام الليل ، بعيد عن القال والقيل ، لا تراه إلا ذاكرًا ، أو مذاكرًا ، أو شاكرًا ، له أذكار وأوراد ، وهو عليها مُعْتَاد ، وقد رزقه الله بَسْطَةً في الجسمِ ، وحبًّا للعلم . وأخبرني بأن جدته دعته إلى العبادة ، حتى صار قيام الليل له عادة .

والثاني : سراج الرحمن، من باكستان ، وقد ملأ الله قلبه بالإيمان، أكثر نهاره صامت، وبالليل قانت ، متواضع ، خاشع ، طائع ، مضرب المثل في النبل والفضل .

وكان لي زميل إفريقي درس في باريس ، فكان يلقي الشبه على هيئة التدريس ، وكان مبغضًا للعرب ، فلقينا منه العجب ، فكان إذا أورد شبهة انتفض ، وأقوم وأعترض، فربما غضب وأزبد ، وأرعد وتهدد ، فيغضب لي كل الفصل لأنه متطاول متوعد ، وهو مفتون بحب فرنسا ، حب لا ينسى ، وقد أغضبنا بالسفه والطيش ، ولكننا نغصنا عليه العيش. ولما تخرجنا من الكلية ، كانت النتيجة حصلتُ على الأولية ، ومع الامتياز هدية، وألقيت قصيدة عربية منها :

أَيُّهَا الخِرِّيجُ يَا نَجْمَ الْعُلا

يَا شُعَاعَ الأَمَلِ المُرْتَقَبِ

قُلْ هُو الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ
واتَّبَعْنَا هَادِيًا مِنْ يَثْرِبِ

مِنْ بِلادِي يُطْلَبُ العِلْمُ وَلا
يُطْلَبُ العِلْمُ مِنَ الْغَرْبِ الغَبِي

وَبِهَا مَهْبَطُ وَحْي اللهِ بَلْ
أَرْسَلَ اللهُ بِهَا خَيْرَ نَبِي

فلما انتهيت من القصة ، قلت لزميلي عمرو ، هذا كل ما في الأمر . ولك مني الدعاء والشكر .

* * *

المقامـــة الـشيطـانيـــة

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾

وَقُلْتُ أَعُـــوذُ بِالرَّحْـــمَنِ مِـــمَّـــا
دَهَانِي مِنْكَ يَا شَـــيْطَانُ عَـــصْـــرِي
حَـسَبْـتُكَ نَاصِـحًا فَـسَلَبْتَ عَـقْلِي
بِأَخْـبَـارِ الـمُنَى وَأَضَـعْتَ عُـمْـرِي

قال عبد الله بن آدم : حاورت الشيطان الرجيم ، في الليل البهيم ، فلما سمعت أذان الفجر أردت الذهاب إلى المسجد ، فقال لي : عليك ليل طويل فارقد .

قلت : أخاف أن تفوتني الفريضة .

قال : الأوقات طويلة عريضة .

قلت أخشى ذهاب صلاة الجماعة .

قال : لا تشدد على نفسك في الطاعة .

فما قمت حتى طلعت الشمس . فقال لي في همس : لا تأسف على ما فات ، فاليوم كله أوقات . وجلست لآتي بالأذكار ، ففتح لي دفتر الأفكار .

فقلت : أشغلتني عن الدعاء .

قال : دعه إلى المساء .

وعزمت على المتاب .

فقال : تمتع بالشباب .

قلت : أخشى الموت .

قال : عمرك لا يفوت .

وجئت لأحفظ المثاني .

قال : رَوِّح نفسك بالأغاني .

قلت : هي حرام .

قال : لبعض العلماء كلام .

قلت : أحاديث التحريم عندي في صحيفة .

قال : كلها ضعيفة .

ومرت حسناء فغضضت البصر .

قال : ماذا في النظر ؟

قلت : فيه خطر .

قال : تفكر في الجمال ، فالتفكر حلال .

وذهبت إلى البيت العتيق ، فوقف لي في الطريق ، فقال : ما سبب هذه السفرة ؟

قلت : لآخذ عمرة .

فقال : ركبت الأخطار ، بسبب هذا الاعتمار ، وأبواب الخير كثيرة، والحسنات غزيرة .

قلت : لابد من إصلاح الأحوال .

قال : الجنة لا تدخل بالأعمال . فلما ذهبت لألقي نصيحة ، قال : لا تجر إلى نفسك فضيحة .

قلت : هذا نفع للعباد .

فقال : أخشى عليك من الشهرة وهي رأس الفساد .

قلت : فما رأيك في بعض الأشخاص ؟

قال : أجيبك عن العام والخاص .

قلت : أحمد بن حنبل ؟

قال : قتلني بقوله : عليكم بالسنة ، والقرآن المنزل .

قلت : فابن تيمية ؟

قال : ضرباته على رأسي باليومية .

قلت : فالبخاري ؟

قال : أحرَق بكتابه داري .

قلت : فالحجاج ؟

قال : ليت في الناس ألف حجاج، فلنا بسيرته ابتهاج، ونهجه لنا علاج .

قلت : ففرعون ؟

قال : له منا كل نصر وعون .

قلت : فصلاح الدين ، بطل حطين ؟

قال : دعه فقد مرّغنا بالطين .

قلت : محمد بن عبد الوهاب ؟

قال : أشعل في صدري بدعوته الالتهاب ، وأحرقني بكل شهاب .

قلت : فأبو جهل ؟

قال : نحن له إخوة وأهل .

قلت : فأبو لهب ؟

قال : نحن معه أينما ذهب .

قلت : فلينين ؟

قال : ربطناه في النار مع إستالين .

قلت : فالمجلات الخليعة ؟

قال : هي لنا شريعة .

قلت : فالدشوش ؟

قال : نجعل الناس بها كالوحوش .

قلت : فالمقاهي ؟

قال : نرحب فيها بكل لاهي .

قلت : ما هو ذكركم ؟

قال : الأغانـي .

قلت : وعملكـم ؟

قال : الأمانـي .

قلت : وما رأيكم في الأسـواق ؟

قال : علمنا بها خفّاق ، وفيها يجتمع الرفاق .

قلت : فحزب البعث الاشتراكي ؟

قال : قاسمته أملاكي ، وعلمته أورادي وأنساكي .

قلت : كيف تضل الناس ؟

قال : بالشهوات والشبهات والملهيات والأمنيات والأغنيات .

قلت : فكيف تضل النساء ؟

قال : بالتبرج والسفور ، وترك المأمور ، وارتكاب المحظور .

قلت : فكيف تضل العلماء ؟

قال : بحب الظهور ، والعُجْب والغرور ، وحسد يملأ الصدور .

قلت : فكيف تضل العامّـة ؟

قال : بالغيبة والنميمة ، والأحاديث السقيمة ، وما ليس له قيمة .

قلت : فَكَيف تضل التجّـار ؟

قـال : بالربا في المـعامـلات ، ومنع الصـدقات ، والإسـراف في النفقات .

قلت : فكيف تضل الشباب ؟

قال : بالغزل والهيام ، والعشــق والغرام ، والاستخفاف بالأحكام ، وفعل الحرام .

قلت : فما رأيك في إسرائيل ؟

قال : إياك والغيــبة ، فإنها مصــيبة ، وإسرائيل دولة حبــيبة ، ومن القلب قريبة .

قلت : فالجاحظ ؟

قال : الرجل بين بين ، أمره لا يستبين ، كما في البيان والتبيين.

قلت : فأبو نُوَاس ؟

قال : على العين وعلى الرأس ، لنا من شعره اقتباس .

قلت : فأهل الحداثـة ؟

قال : أخذوا علمهم منا بالوراثة .

قلت : فالعلمانيــة ؟

قال : إيمــاننا علماني ، وهم أهل الدجل والأماني ، ومن ســمّاهم فقد سماني .

قلت : فما تقول في واشنطن ؟

قال : خطيـبي فيها يرطن ، وجيشي بها يقطن ، وهي لي موطن .

قلت : فما رأيك في الدعاة ؟

قال : عـذبوني وأتعبوني وبهـدلوني وشيـبوني يهدمـون ما بنيتُ ، ويقرءون إذا غنيتُ ، ويستعيذون إذا أتيتُ .

قلت : فما تقول في الصحف ؟

قال : نضيع بـها أوقات الخلف ، ونذهب بها أعـمار أهل الترف ، ونأخذ بها الأموال مع الأسف .

قلت فما تقول في هيئة الإذاعة البريطانية ؟

قال : ندخل بها السم في الدسمْ ، ونقاتل بها بين العرب والعجم ، ونثني بها على المظلوم ومن ظلم .

قلت : فماذا فعلتَ بالغراب ؟

قال : سلطته على أخيه فقتله ودفنه في التراب ، حتى غاب .

قلت : فما فعلتَ بقارون ؟

قال : قلت له : احـفظ الكنوز ، يا ابن العجـوز ، لتفـوز ، فأنت أحد الرموز .

قلت : فماذا قلتَ لفرعون ؟

قال : قـلت له : يا عظيم القصـر ، قل : أليس لي ملك مـصر ، فسوف يأتيك النصر .

قلت : **فماذا قلتَ لشارب الخمر ؟**

قال : قلت له : اشرب بنت الكروم ، فإنها تذهب الهموم ، وتزيل الغموم ، وباب التوبة معلوم .

قلت : **فماذا يقتلك ؟**

قال : آية الكرسي ، منها تضيق نفسي ، ويطول حبسي ، وفي كل بلاء أمسي .

قلت : **فمن أحب الناس إليك ؟**

قال : المغنّون ، والشعراء الغاوون ، وأهل المعاصي والمجون ، وكل خبيث مفتون .

قلت : **فمن أبغض الناس إليك ؟**

قال : أهل المساجد ، وكل راكع وساجد ، وزاهد عابد ، وكل مجاهد .

قلت : أعوذ بالله منك ، فاختفى وغاب ، كأنما ساخ في التراب ، وهذا جزاء الكذاب .

* * *

■ المقامَــة الأبــويَّــة ■

﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

يَا كَـوْكَبًـا مَـا كَـانَ أَقْصَـرَ عُـمْـرِهِ
وَكَـذَا تَكُونُ كَـوَاكِبُ الأَسْـحَـارِ
جَـاوَرْتَ أَعْـدَائِي وَجَـاوَرَ رَبَّهُ
شَـتَّـانَ بَيْنَ جِـوَارِهِ وَجِـوَارِ

هذه المقامة، لأبنائي وصية، وهي أعظم هديَّة، وإنما العمل بالنية .

اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، فمن فعل ذلك فإن الله ظهيره ونصيره . وكل ما سمعتم حديثاً لصاحب الشفاعة ، فقولوا : سمعاً وطاعة . وأوصيكم ببر الآباء والأمهات ، وأنهاكم عن منعٍ وهات ، وتضييع الصلوات ، واتباع الشهوات . والله الله في تدبر المثاني ، وهجر الأغاني ، وترك الأماني .

واعلموا أنها قامت عليكم الحجة ، وبانت المحجة . وأوصيكم بتوقير شعائر الدين ، فإنها تقوى رب العالمين . واستعدوا للرحيل ، إلى الملك الجليل ، فإنكم قادمون إليه عما قليل . وإذا سمعتم الأذان ، فأجيبوا داعي الرحمن ، فليس بعد الأذان أعمال ولا أشغال ، بل ذهاب إلى بيت ذي الجلال .

وقد دعيتم فأجيبوا الداعي ، بقلب واعي ، فإني أخشى على من تهاون بتكبيرة الإحرام ، مع الإمام ، أن يحرم التوفيق على الدوام ، وأن لا يبلغه الله المرام .

وَلَقَدْ نَصَحْتُ وَلِي تَجَارِبُ جَمَّةٌ
وَلَقِيتُ كَلَّ مُعَلّمٍ مَأْمُونِ
فَإِذَا النَّعِيمُ وَكُلّ مَاجِد زَائِل
يَفْنَى وَيَبْقَى سَعْيُكُمْ للدِّينِ

واعلم أن من صحب الفسّاق ، ونقض الميثاق ، ابتلاه الله بالنفاق . ولا تقولوا نحن في عصر الصبا ، وكم من سيف نبا ، وجَواد كبا، فهذا كلام من غره بالله الغرور، حتى فاجأته قاصمة الظهور ، وطرح في القبور ، وتذكروا ليلة صبحها يوم القيامة ، فما أكثر الأسف فيها والندامة . وتذكروا أول ليلة في القبر، فلا إله إلا الله ما أعظمه من أمر، ليلة ليس فيها جليس ولا أنيس ، يرتجف لها القلب ، ويذهب من هولها اللب ، ليس معكم فيها صديق ولا رفيق . تخلى عنكم الأحباب وترككم الأصحاب ، وجردوكم من الثياب ، ووسدوكم التراب . الأموال بعدكم قسمت ، والبيوت سكنت ، والزوجات نكحت ، فأين قلوبكم والعقول ، ما لكم في ذهول ، وأنتم في نقول .

فارقعوا بالاستغفار ما مزقته أيادي الذنوب الكبار . واغسلوا بدمع

العيون غبار الذنوب ، وتولوا إلى علام القلوب ، وعليكم بالسكوت ، ولزوم البيوت ، والرضا بالقوت ، فإنه كاف لمن سيموت . والحرص على تكبيرة الإحرام ، وسلامة الصدور من الآثام ، وإطابة الطعام ، وحسن الخلق مع الأنام ، عربون صادق لدار السلام . وطهروا القلوب من الإحن ، والزموا السنن ، وفروا من الفتن ، تجدون عونه عز وجل وقت المحن، مع إسباله عليكم ثوب المنن .

وأشرف تاجٍ تاجُ الديانة، وثوب الصيانة، والصدق والأمانة ، والوقار والرزانة . وثوب الرياء ثوب مخرق ، ورداء الكبر رداء ممزق . والعمل بالسُّنَّة ، أقرب طرق إلى الجنة ، ومرافقة الأشرار ومصاحبة الفجار ، هي الخسار والبوار، وهم الدعاة إلى النار ، ومن ألان كلامه ، ووصل أرحامه ، وبذل طعامه ، ونشر سلامه ، أكرم الله في الجنة مقامه. وويل لمن كان خصمه لسانه ، وأشهد على نفسه إخوانه ، واستشار في أمره شيطانه ، وأرخص للشهوات إيمانه . وخلوة بكتاب ، ودمعة في محراب ، وتواضع للأصحاب ، خير من القصور والقباب . وما أقبح من ناداه ربه إلى المسجد ، فتبلد وتردد . وَمَنْ عَوَّدَ لسانه الذكر، وقلبه الشكر ، وعقله الفكر ، وبدنه الصبر ، نال أعظم الأجر ، وحط عنه الوزر .

وكل لباس يبلى إلا لباس التقوى ، ومن كان في دنياه شقيًّا ، بمخالفة مولاه فهو في الآخرة أشقى، والمأسور من أسره هواه ،

والمخذول من عـصى مولاه ، والمفلس من خاب مـسعاه . وعليكم يا أبنائي بالصـبر على المصـائب، والتجلد للنوائب، ومـجانبـة الغضب، والإجـمـال في الطلب، والإخـلاص في الطـاعـة، والزهد والقناعـة . واعلمـوا أنه ليس معكم فـي شدائد الزمـان، غيـر الواحد الديَّان، فـلا يغرركم كـلام الإخوان، فإن الناس في وقت العـافية أعوان، واسـتنطقوا الذكر الحكيم، واتبعوا الرسول الكريم ، والزموا الصراط المستقيم .

واعلموا أن للذنوب كفّارات ، وأن الحـسنات يذهبن السيئات ، وأنه لا أنفع من الصـالحـات، ولا أضـر من المـوبقـات . وللذنب من الله طالب، وعلى الضـمـائر مراقب، ولـلأعمـال محـاسب . واعلمـوا أن شرفـكم صدق اللسـان ، ونسبكم الإحـسان ، وكنـزكم الإيمـان . ولن ينقذكم من النار ، إلا طاعـة العزيز الغفـار ، واتباع المختـار . واطلبوا الكفاف، واستروا بالعفاف ، وخذوا وأعطوا الإنصاف ، فإن الحق كاف واف .

واسلكوا من الطرق الوسط، ودعوا الغلو والشطط، والتهور والغلط. واسمعوا مني نصـيحة . اعلموا أن الدنيا لا تساوي تسبـيحة، ولو كانت مليحة، لجعلها الله لأوليائه مريحة . وصونوا أنفسكم من سؤال الناس، واستـغنوا عما في أيديـهم باليأس . واطلبوا العلم فـإنه أَجَلُّ المطالب، وأعظم المواهب ، وهو أرفع من المناصب ، وأكـرم من كل المراتب . وزينته العمل ، وخـوف الأجل ، والاعتصام بمـا نزل . والداء العضال

معاداة الرجال ، ومـن سالم الناس سلم ، ومن صمت غنم . والناس لا يطلبـون منكم الأرزاق ، وإنمـا يطلبون جـمـيل الأخلاق . وأوصـيكم بالأذكار ، فـي طرفي النهار ، فـإنها عـبادة الأبرار. ولا تهـجروا تلاوة القرآن كل يوم . فإنـه دواء الهموم والغموم . وركـعتان في السحـر خير مما طلعت عليه الشمس والقمر ، ووقروا الكبير ، وارحموا الصغير .

واحذروا أن يكون لسـان أحدكم كالمقراض فـي الأعراض ، فإن هذا من ضـعف البصـيرة، وخـبث السيـرة، ورافقوا أهـل الصلاح، وأحـبوا أصحاب الفـلاح، ولا تستصغروا شـيئًا من المعاصي، وراقـبوا من يأخذ بالنواصي . وقسـوة القلب يذيبها الندم، والـدمع المنسجم، والأسف من الذنب المنصرم . ولا تتـنعموا تنعم المـترفين، ولا تزروا بأنفـسكم فعل الشحّـاذين، فإن المـبالغـة في الزينة للنساء، والوقـاحة للإمـاء، والشره للسفهاء، فكونوا أنتم العلماء الحكماء . وأدمنوا الاستغفار كل حين، فإنه مفتـاح رضى رب العالمين، وهو قوة وتمكين، وعلى كل كـربة مُعِين . ومن لم يراقب الحسـيب، ويردعه الشيب، ويخـاف العيب، فليس له في الفضيلة نصـيب . وويل لمن غرته دنياه، وخدعـه مُنَاه، وصرعه هَوَاه . وطوبى لعبد إذا أُنْعِم عـليه شكر ، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استـغفر . وعليكم بتوقير الصحـابة، وحب القرابة ، مع لزوم مذهب السلف ، فهم أعلم وأحكم من الخلف . حـفظكم الله بالدين، وعصـمكم من نزغات الشياطين .

واسمع قبل الختام إلى قول أحد الأعلام :

أبَا بَكْرٍ دعَوْتُك لَوْ أَجَبْتَا
إلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ إنْ عَقِلْتَا

إلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهَا إمَامًا
مُطَاعًا إنْ نَهَيْتَ وَإنْ أَمَرْتَا

وَتَجْلُو مَا بِعَيْنِكَ مِنْ عَشَاهَا
وَتَهْدِيكَ السَّبِيلُ إذَا ضَلَلْتَا

وَتَحْمِلُ مِنْه فِي نَادِيكَ تَاجًا
وَيَكْسُوكَ الْجَمَالُ إذَا اغْتَرَبْتَا

يَنَالُكَ نَفْعُهُ مَا دُمْت حَيًّا
وَيَبْقَى ذُخْرُهُ لَكَ إنْ ذَهَبْتَا

هُوَ العَضْبُ المُهَنَّدُ لَيْس يَنْبُو
تُصِيبُ بِهِ مَقَاتِلَ مَنْ ضَرَبْتَا

وَكَنزٍ لا تَخَافُ عَلَيه لِصًّا
خَفِيفُ الْحَمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنْتَا

فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حُلْوَاهُ طَعْمًا
لآثَرْتَ التَّعَلُّمَ وَاجْتَهَدْتَا
وَلَمْ يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوًى مُطَاعٌ
وَلا دُنْيَا بِزُخْرُفِهَا فُتِنْتَا
وَلا أَلْهَاكَ عَنْهُ أنِيقُ رَوْضٍ
وَلا خِدْرٌ بِرَبْرَبِهِ كُلِّفْتَا
فَقُوتُ الرُّوحِ أَرْوَاحُ المَعَانِي
وَلَيْسَ بِأَنْ طَعِمْتَ وَإِنْ شَرِبْتَا
فَوَاظِبْهُ وَخُذْ بِالجِدِّ فِيهِ
فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللهُ أَخَذْتَا

* * *

المقامة الفضائيّة

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾

لا تُحَدِّثْنِي عَنِ البَثِّ الْمُبَاشِرْ
وَالعَرْبَسَاتِ وأَقْمَارِ المُسَافِرْ

أَنَا بَثِّي دَعْوَةٌ قُدْسِيّة
تَنْشُرُ النُّورَ وَتَجْتَاحُ الدَّيَاجِرْ

قَمَرِي الْمُخْتَارُ مِنْ غَارِ حِرَا
شَعَّ كَالْفَجْرِ لِيَمْحُو كُلَّ كَافِرْ

وَالسَّمَوَاتِ الْعُلا تَهْمِسُ فِي
أُذِنِ الأَرْضِ غَدًا تَجْلي الْبَصَائِرْ

وَلِجِبْرِيل غُدُوٌّ بَاكِر
كُتِبَتْ مِنْ لَوْحَةٍ تِلْكَ الدَّفَاتِرْ

أَشْرَقَتْ أَيَّامُنَا سَاطِعَةً
وَامْتَطَيْنَا الدَّهْرَ وَالدُّنْيَا مَنَابِرْ

سَـــقَطَتْ كُلُّ عُـــرُوشِ الظُّلْمِ مِنْ
قَيْـصَرِ الرُّومِي أَوْ كِسْرَى الْمَغَـافِرْ

لنا قناة واحـدة ولهم قنوات ، بثنا من فوق السـموات ، وبثـهم من العـربسـات، إرسـالنا من عند سـدرة المـنتـهى ، وإرسـالهم من الزيغ والهوى، جبريل يحمل الملفات ومحمد يقلب الصفحات ، وغار حراء يستقبل تلك البُشْرَيات ، والعالم يستيقظ على تلك الصيحات .

يا أصـحاب قـنوات الفضـاء ، يا من أعـرض عن الوحي والرسـالة والقضـاء، ما لكم تنشرون غسـيلكم ، وتجعلون الهوى سـبيلكم ، أين الكلمة الأمينة، والفكرة الرصينة والمـقولة الرزينة ؟ أين البيان الخلاّب، والمنطق الجذاب؟ لغـة سوقيـة ، ولهجة فوقـية ، ودعوة شقـية ، أزياء وإغراء ، وغثاء وهراء ، وادعاء وافتراء .

يا أهل القنوات أين الدعوة لإقام الصلوات وإيتـاء الزكوات ، وعمل الصالحات ، وهجر المنكرات ؟ .

نريد صحة الخـبر ، وسداد النظر ، وعرض أحب السـير ، وأجمل العبر ، شبع العالم جرمًا وإثمًا وهمًّا وغمًّا، وجاع من القيم والأخلاق ، ونسى نصوص الميثاق ، وأغرق في الشـقاق والافتراق وسوء الأخلاق ، كيف تصلح الشعوب وهذه القنوات تدعـوها إلى الذنوب ، كيف تصحو الأمة والشاشة تمطرها بمـصائب مدلهمة، كيف يسـتيقظ العقل ، وهذه المحطات تزف له ركامًا من الجهل .

كانت الأمة واعـية ، ولأوامر ربها راعـية ، إلى سبيله داعـية، وإلى مرضاته ساعية ، يوم كانت تستقبل من السماء النور ، وتعانق من الفضاء الخيـر المنشور ، فلما تغـيرت البضـاعة بهذه الشناعـة ، تبلدت العزائم وكثـرت الإحباطات والهـزائم ، وانتكست الفطرة ، وسفح الحـياء قطرة قطرة .

يا أهل القنـوات مـا هذه التـرهات والغلطات والـسـقطات ، تَبَـذُّلٌ مكشوف ، وكلمـات تبرؤ منها الحـروف ، كأن الكون ينقصه مـجون ، وكأن الدنيا يديرها مجنون ، وكأن العالم مفتون . سَقَطٌ ولَغَطٌ وَشَطَطٌ ، الهـوى رائج ، والزيف مـائج ، والعـقـل هائج ، ولكل دعـاية مـذيع وبرنامج ، كأن البشرية تعيش ليلة رقص ، فهي في إدبار ونكص ، هيام وغرام وأفلام وأحـلام وأزلام ، تَهْيِيجٌ للعـواطف ، وبث لكل لغو زائف ألا عقل يردع ، ألا قلـب يخشع ، ألا عين تدمع ، ألا نـفس تخضع . الأخبـار عن القتل والدمار، والحـريق والإعصـار والعواصف والأمطار، فأين أخبار العلي الجـبار، والقوي القهار ، والعزيز الغـفار، وأين أخبار المرسلين الأبـرار والأنبياء الأخـيار، أين ذكر الآيات والعظـات والبينات والمـعجـزات والغزوات والـفتـوحات، لمـاذا لا يخـبر الجـيل بالوحي الجليل، والنـهج الجـمـيل الذي جـاء به جـبـريل إلى صـاحب الغـرة والتحجـيل المذكور في التـوراة والإنجيل، أين ردع النفس عن هواها ، وزجرها عن مبـتغاها ، وتذكيـرها بأخراها، وإرشادها إلى عقـباها، كان

المنتظر من التلفزيون ، أن يشفي باليقين الظنون ، وأن ينهى عن الفتون، وأن يحبذ الطهر وأن يشيد بالعفاف ، وأن يدعو إلى التقوى ، وأن ينادي بالرحمة ، وأن يحث على معالي الأمور ، وأن يلتزم بأدبيات الملّة ، وحدود الشرع ، ومراسيم الديانة .

إن المشاهدين أسرى لما يعرض على هذه الشاشات . خشعت أبصارهم وسكتت أصواتهم وسكنت جوارحهم ، فهل من العدل أن يؤخذوا على غرة ليزرع في قلوبهم نفاق أو تغرس في نفوسهم ريبة أو تبنى في ضمائرهم شبهة ، فأوقات الشاشة أربعة أقسام على التمام ، قسم للسياسة وما تحمله من تعاسة ، وقسم للرياضة والتبجح بها بلا غضاضة ، وقسم للاقتصاد وعرض قصة المال على العباد ، وقسم للفن والغناء ودغدغة العواطف والإغراء . فأين قسم الشريعة والأخلاق البديعة؟ وأين حصة الدين ، ورسالة رب العالمين؟ وأين وقت الوحي المقدس والهدى المؤسس ؟ وأين هي القصة الكبرى والقضية العظمى التي حملها محمد ﷺ للبشرية ، وبلغها الإنسانيّة ، من المحيط إلى الخليج ؟ لغط وتهريج ، وثرثرة وضجيج .

يا من أشغلنا بذكر الجنيهات ، ألا حدثتنا بأخبار الجنات ، يا من أكثر علينا بحديث الدولار ، ألا ذكرتنا بالنار ، عالم الآخرة منسي عند الحديث عن الفرنك الفرنسي، مارك الألمان ، وين اليابان أهم عندهم من رسالة الرحمن ، وطاعة الديان ، ومصير الإنس والجان .

هذه القنوات للتدمير والتزوير والتبرير والتحرير والتنوير والتغرير والتخدير ، فهي تدمر الفضيلة والمبادئ الجليلة ، والأخلاق الجميلة ، وهي تزوّر الخبر ، وتكذب في الأثر، وتلبس على البشر ، وهي تبرر الغلط ، وتوجه الشطط ، وهي تحرر العقل من القيود ، والنفس من العهود ، ليعيش الإنسان بلا حدود ، وهي تنور الفكر لكن بالظلام ، وتغسل القلب لكن بالآثام ، وتدعو النفس لكن للحرام ، وهي تغرر بالجيل وتنسيهم الجليل ، وتوقعهم في كل خطر وبيل ، وهي تخدّر الشعوب ، وتبنج القلوب ، وتحبذ الذنوب ، وتنشر العيوب ، وتذكر كل شيء إلا علام الغيوب .

يا مَنْ يدعو للإباحية إنكم في الإثم غارقون ، يا من ينادي بالكفر إنكم في الحياة مَارِقون ، ويا من سَلب الأمُة تُراثها : ﴿ **أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ** ﴾ .

اتفاق ووفاق ورفاق وإغراق وإرهاق ونفاق وإخفاق وشقاق وسوء أخلاق وطمس آفاق ، وإنفاق وإزهاق .

فاتفاق على هدم الديانة ، ونسف الأمانة ،ووفاق على تأجيج الشهوات ، واستثارة النزوات، ورفاق على محاربة العفاف، ونبذ الحشمة في استخفاف، وإغراق في المعاصي من الأخمص إلى النواصي، وإرهاق للنفوس بما تبثه من خبر منحوس وفكر معكوس، ورأي منكوس، ونفاق في الْمُعْتَقَدِ، وخروج على قل هو الله أحد، وإخفاق في التعليم الصحيح، والتثقيف الصريح والأدب المليح، بما

تصبه من رجس قبيح، وشقاق للأمة بإهمالها الأمور المهمة، وسوء أخلاق بما تعرضه من الفحش في أطباق، وما تصدّره من رذيلة في الأسواق، وطمس آفاق لسجنها العقل في زنزانة المخالفات، وتقييده بحبال السيئات، وإنفاق للخزينة في الأمور المهينة والكبائر اللعينة، وإزهاق لأرواح الأطفال بما تطرحه من تبذل في الأقوال ، وتفسخ في الأحوال ، وفحش في الأعمال .

وليس لهذه القنوات حَلٌّ إلا في الوفاء والصفاء والاقتفاء والاحتفاء، فالوفاء للخالق جل في علاه ، بطاعته وتقواه، واتباع هداه ، والصفاء في المادة الإعلامية ، بأن تكون تربوية علمية، والاقتفاء باتباع الحق ، وتوخي الصدق وحسن النطق، والحكمة والرفق، والاحتفاء بتعاليم السماء، واحترام العلماء ، وتوقير الحكماء .

يا من نشر على الشاشة قماشه وبسط فراشه ، أَنتَ لست في مسرح هوليود وبالخطايا تتلطخ ، ولست في ليالي باريس، حتى تبالغ في التدليس ، وتمعن في التلبيس، أما تعلم أنك تخاطب أحفاد الأبرار ، وسلالة المهاجرين والأنصار، وذرية الأخيار ، احترم القبلة يا أبله ، ولا تضع المصحف على طبله ، فإنه عادة نذلة، وقِّر الرسول يا مهبول ، ولا تسخر من المنقول، وتكذب المعقول . ﴿ **وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ** ﴾ .

يقول الدكتور القرني ظافر ، مخاطباً كل مسلم وكافر ، من البحر الوافر :

وَمِنْ أَبْنَاءِ قَومِي مَنْ تَرَدّى
تَرَدّى فِي الحَيَاةِ وَفِي المَمَاتِ
يَقُومُ اللَّيْلَ لَكَنْ فِي ضَيَاعٍ
يُقَلِّبُ مِنْ قَنَاةٍ فِي قَنَاةِ
وَيَسْتَجْدِي اليَبَابَ بِكُلِّ وَادٍ
وَيَسْتَهْدِي الغَوَى وَالْمُغْرِيَاتِ
وَيَكْفُرُ فِي الهُدَى بِبَلاغِ صِدْقٍ
وَيُؤْمِنُ فِي الهَوَى بِالشَّائِعَاتِ
وَيَقْرَأ فِي دَفَاتِرِ كُلِّ لاهٍ
وَمَا قَرَأَ الضُّحَى وَالعَادِيَاتِ
وَمَنْ كَانَتْ تِجَارَتُهُ الْمَعَاصِي
أَضَاعَ البَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ

* * *

■ مقامة القلم ■

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾

أَنْصِتْ لِمِيمِيَّةٍ جَاءَتْكَ مِنْ أُمَمِ
مِدَادُهَا مِنْ مَعَانِي نُون وَالْقَلَمِ
وَاكْتُبْ بِهِ أَحْرُفَ الْعَلْيَاءِ إِنَّ لَهُ
نُوراً مِنَ الحَقِّ يَمْحُو حَالِكَ الظُّلَمِ

يا أيها الذي جمع الحكم ، أما سمعت نون والقلم ، إن القلم شأنه عجيب ، ونبأه غريب، نحيف الجسم ، عظيم الاسم ، جميل الرسم، إن خطًّا في القرطاس، أنصت له الناس ، بالقلم تجهّز الجنود ، وترفع البنود، وتوثق العقود، وتحل العهود، بحروفه تقضي المحاكم ، وترد المظالم، وتقطع الجماجم ، وتعقد المواسم ، إن غضب فجر الدماء، وأباد الأحياء، وأشعل حربًا شعواء ، وإن رضي منح المواهب ، وأعطى الرغائب، وأهدى المناصب ، من حروفه يجنى العسل ، وتسل الأسل، إن شاء فمداده سم الحيات ، وأم النكبات ، وسبب البلايا الموجعات ، وإن أراد جعل سطوره نورًا ، وصيرها سرورًا ، وملأها حبورًا ، ونمقها حسنًا منشورًا ، هو رسول القرون الأول ، وخادم الدول ، وحافظ الملل والنحل ، إذا سال لعابه ، كثر صوابه ، وحضر جوابه ، وتزاحم عبابُه ،

لا تسمع له كلامًا، ولكنه صار للحكمة إمامًا ، وللمعارف قائدًا هُمامًا ، لفظه أغلـى من اليـاقـوت ، به خط الوحي في المـلكوت ، وهو الذي أخبرنا بطالوت وجالوت، وهو أسحر من هاروت وماروت، مصيبة القلم أنه يذيع الأسرار، ولا يـكتم الأخبار، ولا يقـر له قرار، إذا تشـجع ملأ الصـفحات، وعـبأ المـجلدات، وبسط المـختـصرات، وإذا جبن ألـغز وأوجز، وطلسم وأعجز، وإن تحامل همز، وغمز ونبز . كتب به اللوح المـحـفوظ، وسطر بـه العلم المـحفـوظ ، وقـسم به رزق المنحـوس والمـحظوظ ، تخـاطب به المـلوك أهل الآفـاق ، وتقطع به الجـبـابرة الأعناق ، ويخوف به الفـسّاق ، ويحذر به أهل النفاق والشـقاق، وسوء الأخلاق، بالقلم يقضى الأمر ، ويقع القتل والأسر ، وينصت له الدهر، وتسطر وقائع العصر .

أمضى من الألسنة ، لفظهُ مـا أحسنه ، يخبـر عن من مات من ألف سنة ، به تُسَطّرُ كُلُّ سيئةٍ وحسنةٍ .

تصبح الأوراق به في حسن الرياض ، ويسّـود به البياض ، ويذب به عن الأعراض، وبه تشفى الصدور ، من العلل والأمراض .

فتاك سفاك بتاك هتاك . كتوم غشوم ظلوم عزوم

هو الذي كتب رسائل الصفاء ، وهو دبّج أسطر الوفاء ، وهو سجل أخبـار الخلفاء، دون السـؤال والجواب ، والشكوى والعـتاب ، والخطأ والصواب، وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، بريشته تحل المعضلات،

وتشرح المشكلات ، وتصان المأثورات ، وتبقى المحفوظات . يخطب بلا صوت ، ويأكل بلا قوت ، ويجمع بين الحياة والموت ، به يرسم الهجر والوصل ، والولاية والعزل ، والجد والهزل .

به يقع العدل والحيف ، والحق والزيف ، وهو القاضي على السيف، به تنسخ المعرفة، وتنقل الفلسفة ، وتخط الزخرفة . يسفسط ويقرمط ، وينسج ويدبّج ، يهدم بكلمة بناء عام، ويلغي بجملة كيد أقوام ، له غمغمة ، وهمهمة ، وتمتمة .

كم من عقل قلقله ، ومن قصر زلزله ، ومن بال بلبله ، ومن كيد أبطله . برسائله عرفت الأرض والسماء ، وعلى رسمه خُلِّدَتْ آثار الحكماء ، وبِتَصرفه سفكت الدماء، وعلى حركته نسجت مآثر العلماء.

أفصح من اللسان ، وأحفظ من الإنسان . إذا حملته الأصابع ، فانتظر القوارع ، وارتقب الفواجع . له أزيز كأزيز المرجل ، ودبيب كدبيب الأرجل ، وحصاد كحصاد المنجل . عار من اللباس ، دقيق الرأس ، قوي البأس ، عظيم الأثر في الناس .

يشرب ولا يأكل ، ويجيب ولا يسأل . إن عبأته مدادًا ، أحال بياضك سوادًا . إذا غلط غطش ، وإذا احتد بطش . عقله مرهون ، وخصمه مغبون ، وعذابه غير مأمون .

إن خط بالأحمر قلت : هذا شفق ، أو دم على ورق ، وإن نسخ بالسواد ، صار المداد كنون عيون العباد . وإن كتب بالأخضر قلت : هذه طلعة بستان ، أو بهجة أفنان .

إذا سهـا رجع القهقـري ، وإذا شك مشى إلى الورى ، له رأس بلا عينين ، ولسان بـلا شفتين ، وصدر بلا يدين ، لا يتكلـم حتى يشبع ، ولا يخطب حـتى يرضع، ولا يسـكت حـتى يوضع ، ولا يكتب حـتى يقرع . إن سلطته على مـختصر شرحه ، أو على غـامض أوضحه ، أو على سر فضحه ، أو على عاص نصحه .

إن كنت عَرَبِيًّا فهو أفصح من سحبان، وإن كنت أعجميًّا صار أنطق من الهرمزان، يسمـعك وليس له أذنان . إن نمت نام ، وإن قمت قام ، وإن جوّعته صام ،وإن أهملته هام

مُـتَـحَـذْلِقٌ يَقِظ فَـإنْ أَرْسَلْتَـهُ
أَجْـرَى لُعَـابَ رَحِـيـقِـهُ مِنْ صَـدْرِه
بَـتّـار أَعْنَـاقِ الأَنَـامِ بِـلَـفْظِـه
سَـلاَّبُ أَفْـئِـدَةِ الْمُلُوكِ بِسِـحْـرِه

والقلم بيانك، وهو طوع بنانك، وهو حاضر الفكر ، كثير الشكر ، صاحب ذكـر ، إن حمله اللوذعي ، وكـتب به العبقـري ، سالت أودية بقدرها ، وانبـجست عين من حجـرها ، وإن صحبـه البليد ، وخط به الرعديد ، كـثر عثاره ، وتبلد حـماره ، وحجب عيونه غـباره ، يوافق المزاج ، في الاستقامة والاعوجاج ، والثبات والارتجاج . مسدد إلا إذا غضب ، ومليح إلا إذا عتب، وفـصيح إلا إذا حجب ، إذا انتهى زاده ،

ونفذ مداده ، وقف جواده ، هوّنوا عليه اللوم وأقلوا ، فإنه لا يمل حتى تملوا ، إن لقنته حكمة وعاها ، وإن أرسلتـه إلى ذاكرةٍ أخرج منها ماءها ومرعاها ، وهو الـذي سطر الحكمة تسطيرًا ، فلم يغادر منهـا قليلاً ولا كثيرًا ، ولا صـغيرًا ولا كبيرًا ، وإن قصـد أحدًا بالأذى فلن تجد له من دون الله وليًّا ولا نصيرًا، يرقص على نبضات قلبك، فإن أوقفت الإملاء نادى اذكرني عند ربك، فذكرك غذاؤه ، وكفك حذاؤه ، ومدادك ماؤه ، وجيبك وعاؤه ، يعرف طريق النجاة ، وهو عظيم الجاه ، يعذر ولو جئنا ببضاعة مزجاة ، إن غلطت غلط ، وإن جهلت ركب الشطط ، لا يغفل الشكل والنقط .

صمت الخطبـاء وما صمت ، وسكت الشعـراء وما سكت ، ومات الملوك ولم يمت ، حذر به المـصطفى الأكاسرة ، وأنذر به القـياصرة، وخوّف به الـجبابرة ، صـدر به قتل الحـسين ، وخط به خلـع الأمين، وسطر به الوحي في طور سـينين ، وَرَوَى لنا الْجَمَـلَ وصِفين ، يـشعل الحرب ولا يحـضرها ، ويستودع الأسـرار فينشرها ، يتـململ في كفك تململ السليم ، ويتـقلب تقلب السقـيم ، ويبكي بكاء اليتـيم ، خط به أفلاطون كتاب الجـمهورية، وأقام به المعتصم وقـعة عموريَّة ، ونمّق به ابن تيمية الواسطيَّة ، والحمويَّة ، والتدمريَّة ، نقل لنا سيرة ابن إسحاق، وحـديث عبـد الرزاق ، وعجـائب الآفـاق ، وأخبـار العشـاق ، نقض الصعلوك ، ودفع الشكوك ، ونادم المـملوك ، يفهم بالإشارة ، ويرسم

العبـارة ، إن كتب به الأحمق تدفق ولم يـترفق، وضل ولم يُوَفَّق ، وإن كتب به الرجل الرشـيد جاءك بالقـول السَّديد، والعلم المجـيد، والنقل الحميد .

يطير العلم من الرأس ، فيقيده القلم في القرطاس، وإذا حمله الأمي قال لا مـساس، مؤدّب لا ينتـقد، ومقلّـد لا يجتهـد، يسهر بلا قـيام، ويجوع بلا صيام، له كل يوم شـجون، وعنده من الحكمة فنون، يخون الحفظ وهو لا يخون، صغير الجرمِ ، كبير الجرمُ

واسمع أبا تمام يصف الأقلام في أبدع كلام :

لَكَ القَلَمُ الأَعْلَى الَّذي بِشَـبَّـاتِه
تُصَابُ مِنَ الأَمْرِ الكُلَى وَالْمَفَاصِلُ
لُعَابُ الأَفَاعِي القَاتِلاتُ لُعَابُهُ
وَأَرْيُ الجنا اشْتَارَتْهُ أَيْدٍ عَوَاسِلُ
لَهُ رِيقَةٌ طلٌّ وَلَكِنَّ وَقْعَهَا
بِآثَارِهِ فِي الشَّرْقِ وَالغَرْبِ وَابِلُ
فَصِيحٌ إِذَا اسْتَنْطَقْتَهُ وَهُوَ رَاكِبٌ
وَأَعْجَمُ إِنْ خَاطَبْتَهُ وَهُوَ رَاجِلُ

إِذَا مَا امْتَطَى الخَمسَ اللُّطَافَ وَأُفْرِغَت

عَلَيْهِ شِعَابُ الْفِكْرِ وَهِيَ حَوَافِلُ

أطَاعَتْهُ أطرَافُ القَنَا وتَقَوَّضَت

لِنَجْوَاهُ تَقْوِيضَ الْخِيَام الجَحَافِلُ

إِذَا اسْتَغْزَرَ الذِّهْنَ الذَّكِيَّ وَأَقْبَلَت

أَعَالِيهِ فِي الْقِرطَاسِ وَهِيَ أَسَافِلُ

وَقَدْ رَفَدَتْهَ الحِنْصِرَانِ وَسَدَّدَت

ثَلاثَ نَوَاحِيهِ الثَّلاثُ الأَنَامِلُ

رَأَيْتَ جَلِيلاً شَأْنُهُ وَهُو مُرْهَفٌ

ضَنِيً وَسَمِينًا خَطْبُهُ وَهُوَ نَاحِلُ

* * *

■ مقامَـــة الكتَــاب ■

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾

أَعَـزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنَى سَـرْجُ سَـابِحٍ

وَخَيْـرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَـانِ كِـتَـابُ

أَنِيسٌ إِذَا جَـالَسْـتَـهُ طَابَ قَـوْلُه

وَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ الفِـرَاقِ عِـتَـابُ

عليك بالكتاب ، فإنه خير الأصحاب، وهو روح المؤانسة ، وقوت المجالسة، أقسم الله بالكتاب المسطور ، في رَقٍّ منشور، لأن الكتاب كنز الإفادة، وعنوان السعادة، وهو أمين لا يخون، وعزيز لا يهون، إن حملته في النادي شرفك، وإن جهلت أحدًا عرفك، يقوي جنانك، ويبسط لسانك، بالكتاب يجلس الصعلوك ، على كراسي الملوك، يُقَوِّم الزلل، ويسد الخلل، ويطرد الملل، ويشافي العلل، يحفظ الأخبار، ويروي الأشعار ، ويكتم الأسرار، ويبهج الأبرار، وهو أشرف لك من المال، وأطوع لك من الرجال، وآنس عندك من العيال، وبه تبلغ الكمال .

مَلَلْتُ كُلَّ جَلِيسٍ كُنْتُ آلَفُـــهُ

إِلاَّ الْكِتَـابَ فَـلا يَعْـدِلُهُ إِنْسَـانُ

عَـاشَـرْتُهُ فَـأَرَانِي كُلَّ مَكْرُمَـةٍ

لَهُ عَلَيَّ رَعَـاهُ اللهُ إِحْـسَـانُ

والكتاب إذا خان الصديق وفى ، وإذا تكدر الزمان صفا ، ينسيك جحود الجاحد ، وحسد الحاسد، وضغينة الحاقد ، خليل ما أملحه، وصاحب ما أصلحه، وصامت ما أفصحه، يقرأ في كل زمان، ويطالع في كل مكان، على اختلاف الأعصار، وتباعد الأمصار، بشير ونذير، ونديم وسمير، إذا وعظ أبكاك، وإن حدث أشجاك، وإذا فرح أضحكك، وإذا بشر أفرحك، سليم من العيب، يحمل في الجيب، لا يشرب ولا يأكل ، ولا يغضب ولا يجهل ، إن هجرته حَفِظَ وُدَّكَ ، وإن طلبته صار عندك .

يغنيك عن الأرحام ، والأحباب والأصحاب ، فخير جليس في الأنام كتاب .

يقودك إلى الكرامة ، ويبعدك من الندامة ، ويطرد عنك السآمة ، هو نسب ما أشرفه ، وهو بوابة المعرفة ، وخلاصة الفلسفة ، يصلك بأساطين التفسير ، من كل عالم نحرير ، وإمام شهير ، ومحقق بصير ، ويحضر لك المحدثين ، أهل الرواية الصادقين ، والدراية العارفين ، وجهابذة النقل الواعين . ويجمع لك الفقهاء ، رواد الشريعة الغراء ، وأرباب الفهم الأذكياء ، ويتحفك بقصيد الشعراء ، ونتاج الأدباء ، وبيان البلغاء ، وإنشاء الفصحاء .

يَا حُرُوفًا قَدْ أَضَاءَتْ فِي الصُّحُفِ
أَخْبَرَتْنِي بِأَحَادِيثِ السَّلَفْ
قَدْرُهَا عِنْدِي لَوْ تَعْلَمُهُ
كُلُّ فَضْلٍ وَجَلالٍ وَشَرَفِ

جَزَىَ اللهُ الكتابَ ، أفضل ثواب ، فقد أغناك عن البخلاء ، وكفاك الثقلاء ، وأجلسك مع النبلاء ، وعرّفك بالفضلاء ، يوفي لك الكيل ، ويقصّر عليك الليل ، هو تاجك في كل ناد ، وأنيسك في كل واد ، وهو سلوة الحاضر والباد ، وخير ما أنتجه العباد .

أَمَا تَرَاهُ خَفِيفَ الْجِسْمِ مَوْضِعُهُ
عَلَى الصُّدُورِ بَيْنَ الأَنْفِ والْمُقَلِ
هُوَ الَّذِي فَخَّمَ السَّادَاتَ وَاحْتَفَلَتْ
بِهِ الْمُلُوكُ وَأَهْلُ الشَّأْنِ والدُّولِ

اصرف له أثمن الأوقات، وأنفق عليه أعظم الهبات، ولا تطع فيه أهل الشهوات. هو الذي حبّب إليك الزمان، وأجلسك في صدر المكان، قال القط: يا أيها البط، اخرج من الشط ، فالتفت إليه ورد عليه وقال : يا سيد الجهاد ، لو كنت من القراء، لما أعظمت الافتراء ، أما طالعت في كتاب الهجرتين ، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

ليس المـجد حلي وآنيـة ، ولا دُفّ وغانيـة ، ولا قطوف جانيـة . وليست السعادة كنـز ، وبنــز ، وبز ، وجنـز ، ورز ، وقز ، فهذا ليس بعز . وليس السؤدد ، بنود ، وجنود ، وحشود ، ووفود . لكن المجد والسعادة ، والشـرف والسيادة ، علم أصيل ، وبرهـان ودليل ، وكتاب جليل ، يغنيك عن كل خليل .

أَغْلَقْتُ بَيْتِي عَلَى نَفْسِي وَمَكْتَبَتِي
مَـــعِي العُلُومُ بِهَـــا ذِكْـــرٌ وَآثَارُ
جَالَسْتُ فِي البَيْتِ أَهْلَ العِلْمِ كُلَّهُمُوا
هُمْ فِي الحَـقِيـقَـةِ إِخْـوَانٌ وَسُـمَّـارُ
كُنْ جَلِسَ بَيْتِكَ مِثْلَ السَّيْفِ فِي كَرَمٍ
فِي غِـــمْــدِهِ وَهُو لِلأَعْنَاقِ بَتَّـــارُ

* * *

■ المقامَــة الـطبّيــة ■

﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

كَـيْفَ أَشْكُو إِلَى طَبِـيـبي مَـا بِي
وَالَّذي قَـدْ أَصَـابَنِي مِنْ طَبِـيـبِي
زَادَ فِي جُـرْعَـةِ الْعِـلاجِ فَـصَـارَتْ
مُـهْـجَـتِي فِي مَنَازِلِ التَّـعْـذِيبِ

وجدنا كتابًا لابن سينا ، بعدما أغفلنا ذكره ونسينا ، فإذا هو يقول ، ورأيه مقبول: ما أهلك البَرِيّة ، وقتل البهائم في البَرِّيّة ، إلا إدخال الطعام على الطعام ، وترك المشي على الأقدام . ثم قال : عليكم بالنوم بعد الغداء ، والمشي بعد العشاء ، وترك الامتلاء ، والغذاء خير من الدواء .

وكنا جلوسًا، فجاءنا أحدهم برسالة من جالينوس ، فإذا هو يقول : يا أهل العقول ، لا يغتسل أحدكم وهو شبعان ، ولا يأكل إلا وهو جوعان ، ولا ينم وهو من الطعام ملآن ، ولا يقطع الليل وهو سهران .

وقال من اقتصد في الطعام ، وقلل من الكلام ، وهجر الاهتمام والاغتمام ، عاش في صحة وسلام ، أما سمعتم شاعركم ابن الرومي ، ليت عندنا شاعرًا مثله من قومي :

فَــإِنَّ الـدَّاءَ أَكْــثَــر مَــا تَـرَاهُ
يُـرَكَّبُ مِنْ طَعَــامِكَ والـشَّــرَابِ

قلنا : يحق للمتنبئ المجيد ، أن يقول عنك لما مدح ابن العميد :

مِنْ مُـخْـبِـرِ الأَعْـرَابِ أَنِّي بَعْـدَهُم
جَــالَسْتُ جَــالِينُوس والإِسْكَنْدَرَا

قال : بلغوا كلامي لابن الحسين ، وقالوا : شكراً مرتين .

قلنا : وقد ذكرك فقال في بعض الأمثال :

يَـمُــوتُ رَاعِي الـضَّــأْنِ فِي سِــرْبِـهِ
مِــيــتَــةَ جَــالِينُوس فِي طِبِّــهِ

فَهَمْهَمَ وتمتم وما تكلم .

ثم جـاء صديقنا أبو عـثمـان الغازي ، فـقلنا : حـدثنا عن أبي بكر الرازي .

قال: حسبتكم تتحدثون عن الحب، وإذا بكم تتكلمون عن الطب .

قلنا : دعنا من الشـجون والعـيون، وحـدثنا عن الصحـون والبطون، فضحك حـتى بدت نواجذه، وقال: مات الطب وجـهابذه . ولكن أبا بكر طيب الذكر ، كان يُدْنِينَا ولا يقصينا ، وينصحنا ويوصينا . فيقول : الحسدُ يذيبُ الأجسام، والحقدُ لا ينفع معهُ طعـام، والبغضاءُ لا يهنأ معها منام ،

والذكر يشـرح الصدور، ويجلب السـرور، ويسهل الأمـور، ويدخل على النفس النور، وإياكم وَالْمُسْكِرِ، فإنه داء أكبر، وحرام منكر .

قلنا: أنت حدثتنا عن طب الأبدان ، ونعرف أنك فـيه من الأعيان ، فحدثنا عن طب القلوب ، فقد نسيناه من كثرة الذنوب .

قال : أما سمعتم ابن المبارك، وهو في الأدب شارك، حيث يقول:

رَأَيْتُ الذُّنـوبَ تُمِـيتُ الْقُلُوبَ

وَقَـدْ يُورِثُ الذُّلَ إِدْمَـانُهَـا

وَتَـرْكُ الذُّنُوبِ حَـيَـاةُ الْقُلُوبِ

وَخَـيْـرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَـا

قلنا فماذا قال طبيب العيون ، فإنه ثقة مأمون ، قال سمعته ينشد :

وأَنْـتَ مَـتَى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا

لِقَلْبِكَ يَوْمًـا أَتْعَـبَتْكَ المَنَاظِرُ

رَأَيْتَ الَّذِي لا كُلُّهُ أَنْتَ قَـادِرٌ

عَلَيْـهِ وَلا عَنْ بَعْضِـهِ أَنْتَ صَـابِرُ

قلنا فمـاذا قال طبيب الأذن ، قـال دخلت عليه بلا إِذن ، فـسمعـته ينشد :

لا تَسْمَعَنّ الخَنَا إنْ كُنْتَ ذا رَشَد

فالأذْنُ نقّالَةٌ وَالْقَلْبُ حَفّاظُ

وَصُنْ سَمْعَاك عَنْ لَغْوٍ وَعَنْ رَفَثٍ

قَدْ تُدْخِلُ النَّاسَ فِي النِّيرَانِ أَلْفَاظُ

قلنا فماذا قال طبيب القلب ، فإنه يجيد الطب . قال :

يا مَنْ لِجُرْحٍ كُلَّمَا عَالَجْتُهُ

غَمَرَ الْقُنُوطُ جَوَارِحِي وَحَوَاسِّي

وَلَوْ أَنّهُ فِي الرَّأْسِ كُنْتُ ضَمَّدتُهُ

لَكِنَّهُ فِي الْقَلْبِ لا فِي الرَّأْسِ

قلنا فماذا قال طبيب الولادة ، فإنه ظاهر الإجادة ؟ قال :

وَلَدَتْكَ أُمُّكَ بَاكِيًا مُسْتَصْرِخًا

وَالنَّاسُ حَوْلَكَ يَضْحَكُون سُرُورًا

فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ أَنْ تَكُونَ إذَا بَكُوا

فِي يَوْمِ مَوْتِكَ ضَاحِكًا مَسْرُورًا

قلنا : فماذا قال طبيب الباطنيّة، فإنه طيّب النيّة، قال سمعته ينشد :

أَكْلُ الحَرَامِ يُثِيرُ دَاءً دَائِمًا
فِي الْبَطْنِ لا يَدْرِي بِهِ الجَرَّاحُ
فَكُلِ الحَلالَ فَرِزْقُ رَبِّكَ وَاسِعٌ
إِنَّ الَّذِي تَرَكَ الرِّبَا مُرْتَاحُ

قلنا : فماذا قال طبيب العظام ، فإنه من الرجال العظام ، قال سمعته ينشد :

عِظَامُكَ أَنْقِذْهَا وَلَحْمُكَ مِنْ لَظَى
جَهَنَّم فَالأَجْسَام تُشْوَى وَتُحْرَقُ
وَإِيَّاكَ إِيَّاكَ الحَرَام فَإِنَّهُ
تُقَطِّعُ أَوْصَالٌ بِهِ وَتُمَزّقُ

قلنا فماذا قال طبيب الكبد ، فإنه من أشهر الأطباء في البلد ؟

قال سمعته ينشد ويقول :

وَلِي كَبِدٌ مُقَرَّحَةٌ مَنْ يَبِيعُنِي
بِهَا كَبِدًا لَيْسَتْ بِذَاتِ قُرُوحِ
أَبَاهَا عَلَيّ النَّاسُ لا يَشْرُونَهَا
وَمَنْ يَشْتَرِي ذَا عِلَّةٍ بِصَحِيحِ

قلنا : فماذا قال الطبيب النفسي ، قال سمعته ينشد ، حين يصبح وحين يمسي :

يَا نَفْسُ هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ مَقْبُولَةٍ

ضَاعَ الزَّمَانُ وَأَنْتَ فِي الْعِصْيَانِ

أَوَمَا تَرَيْنَ الْمَوتَ أَشْهَرَ سَيْفَهُ

كَمْ رَاعٍ يَوْمَ الرَّوْعِ مِنْ إِنْسَانِ

قلنا : فمن أعظم طبيب ؟ قال : محمد الحبيب ، صاحب النهج العجيب ، والرأي المصيب ، قلنا : أوصنا بوصية ، لينة غير عصية ، فأنشد :

خُذْ مَا أَرَدْتَ مِنَ العِلاجِ فَإِنَّه

لا بُدَّ مِنْ مَوْتٍ يَقْطَعُ ذَا العُرَى

مَاتَ المُدَاوِي وَالْمُدَاوَى وَالَّذِي

صَنَعَ الدَّوَاءَ وَبَاعَهُ وَمَنِ اشْتَرَى

* * *

■ المقامـــة التجـاريّـــة ■

﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾

فَصَاحَةُ سَحْبَانٍ وَخَطّ ابنِ مُقْلَةٍ
وَحِكْمَةُ لُقْمَانٍ وَزُهْدُ ابنِ أدْهَمِ
إِذَا اجْتَمَعَتْ فِي المَرءِ والْمَرْءُ مُفْلِسٌ
وَنُودِي عَلَيْهِ لا يُبَاعُ بِدِرْهَمِ

قال أبو ريال دينار بن مثقال: ورد في الأثر أن: أكثر التجار فجار ، لكنني رأيت منهم قومًا يتصدقون، وفي سبيل الله ينفقون، وعلى الفقراء يُغْدِقُون .

قلنا: يا أبا ريال ، يا خير الرجال، فما للتجار يبنون ما لا يسكنون ، ويدخرون ما لا يأكلون ، ما لهم على ربهم لا يتوكلون ؟ قال : هذا من البطر ، والترف والأَشَر ، ومن فعل ذلك فهو على خطر :

وَمَنْ يُنْفِقُ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِه
مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ

قلنا : حدثنا عن التجار الصالحين ، والأغنياء المفلحين ، قال : يكفيك عثمان بن عفان ، أرضى بماله الرحمن ، وأرغم به الشيطان ،

واشترى به الجنان ، جهز في غـزوة تبوك الجنود ، وشرى بئر رومة من اليهود ، وله في سبيل الله مواقف وجهود .

ولا تنسوا عبد الرحمن بن عوف، الذي جمع بين الرجاء والخوف ، جاءته قافلة من الشام ، تحمل الطعام ، فقـسمها على الأيتام ، واشترى بذلك دار السلام .

قلنا : فقص علينا قصة التاجر الفاجر ، أميّة بن خلف ، الذي جعل الله ماله للتلف .

قال يـكفيكم : ويل لكل همـزة لمزة ، الذي جـمع مـالاً وعدده ، يحسب أن ماله أخلده

قلنا : فهل للتاجر الخاسر علامات ، وهل له سمات .

قال : إذا رأيته يأكل وحده ، ويمنع رفده ، ويمسك نقده ، ويغضب ممن يجلس عنده

قلنا : فلماذا بعض التـجار ، يصاب بالضـغط والسكر ، قال : لأنه في كل لحظة يفكر ، ولا يشكر ، ولا يذكر ، ومزاجه معكّر ، وخاطره مكدّر .

ذِكْـرُ الْفَـتَى عُـمْـرُهُ الثَّـانِي وَحَـاجَـتُـهُ
مَـا قَـاتَـهُ وَفُـضُـول الْـعَـيْـشِ أَشْـغَـالُ

أمراض التجار : فقر الدم ، وكثرة الهم ، ودوام الغم .

فأما فقر الدم : فمن قلة الغذاء ، لأنه مشغول عن الفطور والغداء ، غائب عن العشاء .

وأما كثرة الهم : فلانشغال باله بالسندات ، وتعلقه بالشيكات ، وانصرافه إلى العقارات ، وتفكره في الواردات والصادرات .

وأما دوام الغم : فلحرصه على الزيادة ، وتذكره أولاده وأحفاده ، فتذهب عنه السعادة ، ويشغل عن العبادة . وأحب أبواب العلم إلى التاجر البخيل ، باب الحث على الاقتصاد . وأثقل باب عليه باب الجود والأجواد .

ثم قال : ولا تنس حديث : «**ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ**» ، فهؤلاء أهل العمل المبرور، والسعي المشكور ، والتجارة التي لا تبور ، وهم الذين بنوا المساجد، لكل راكع وساجد ، وأطعموا الفقراء والمساكين ، وأسعفوا البؤساء والمحتاجين ، وبذلوا المال والطعام ، وكفلوا الأيتام ، فهم يجمعون الحسنات كل حين ، وتذكر حديث : «**لا حَسَدَ إلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ**» .

قلنا : فما أحسن المكاسب لمن أراد التجارة ، أهو البيع أم الإجارة؟ أم المنصب والوزارة ؟ أم الزراعة والعمارة ؟

قال : أما البيع فإذا سلم من الغش والكذب ، والخداع واللعب ، فهو أعظم سبب ، لنيل الفضة والذهب :

لا تَبِعْ فِي السُّوقِ دِينًا غَالِيًا
واحْفَظَنْ دِينَكَ مِن نَارِ الكَذِبْ

وأما المنصب : فَنَصَب ، ووصب ، وتعب

نَصَبُ الْمَنْصِبِ أَوْهَى جَلَدي
يَا عَنَائِي مِنْ مُدَارَاةِ السَّفَلِ

وأما الإمارة فنعمت المرضعة ، وبئست الفاطمة ، ويعترضها أمور قاصمة :

يَسُرُّكَ أنِّي نِلْتُ مَا نَالَ جَعْفَرُ
مِنَ الْمُلْكِ أَوْ مَا نَالَ يَحْيى بنُ خَالِدِ
وَأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَغَصّنِي
مَغَصّهُمَا بِالمُرْهَفَاتِ البَوَارِدِ

وأما الزراعة ، فهي لأهل المسكنة والضراعة، ويجتنبها أهل البراعة، لأنها تعب وإجهاد ، وصدود عن الجهاد :

إِذَا زَرَعَ الْقَوْمُ النَّخِيلَ بِأَرْضِهِم
فَزَرْعُكَ أَغْلَى مِنْ نَخِيلِ الفَضَائِلِ

وأما العمارة ، فتارة وتارة ، بين الربح والخسارة ، صادقة غدَّارة .

يَا عَامِراً لِخَرَابِ الدَّارِ مُجْتَهِداً

باللهِ هَلْ لِخَرَابِ الدَّارِ عُمْرَانُ

ولكن أحسن المكاسب ، معاملة الفتّاح الواهب ، فهو الرزاق ذو القوة المتين ، الذي لا يضيع عمل العاملين ، وإحسان المحسنين .

فإذا رأيت الناس كنزوا أموالهم في البنوك، وأحرزوا عقارهم بالصكوك، وأحاطوا حدائقهم بالشبوك . فاكنز حسناتك في بنك الرحمن، وأحرز عملك من الشيطان، وأحط نيتك من البغي والعدوان . فمن صفّى من الحرام ديناره ، وعمر بالتقوى داره ، وأكرم جاره . فقد أحسن معاملة مولاه ، وشكر ربه على ما أَوْلاه .

واعلم أن للتجارة آدابًا ، وقد ذكر لها العلماء أسبابًا ، وسوف أذكرها بابًا بابًا .

فمنها الصدق في النطق ، واللطف بالناس والرفق .

ومنها البكور ، والطيور في الوكور ، في سعي مشكور ، لطلب ما قسمه الغفور الشكور .

ومنها السلامة من الربا، فإنه وبا ، ومصاحبة الأمانة ، ومجانبة الخيانة ، وملازمة الصيانة، وأداء زكاة العرض ، ومساعدة المحتاج بالصدقةِ والقرض ، يجد ثوابه يومَ العَرضِ.

وتحبيس الأوقاف ، على الفقراء الضعاف ، وإكرام الأضياف ، والمحافظة على أوقات الصلوات ، وإخلاص النية في الصدقات ، فمن فعل ذلك فهو مأجور مشكور ، وهو من أهل الدثور ، الذين ذهبوا بالأجور .

واعلم أن الشحيح، عمله قبيح ، والكريم له أجر عظيم ، ولا ساد إلا من جاد ، وبذل معروفه للعباد . واعلم أن من جعل ماله في صُرَّة ، ومنع بِرّه ، أخذه الموت على غِرّة .

وقد عاصرنا تاجرًا كريمًا ، كان فضله في الناس عميمًا ، كان في كل باب خيرٍ من المتبرّعين ، وعن الحرام من المتورّعين . فلما مات كان موته على الناس من أعظم الخطوب ، ترك جرحاً في القلوب .

وعرفنا تاجرًا بخيلاً ، عاش طويلاً ، كان من ماله في حياته محرومًا، وذهبَ وتركَ مَاله مذمومًا ، فلا انتفع بماله في دنياه ، ولا قدم منه لأخراه ، وقد مَات غريبًا ، ومن ماله سليبًا ، حتى تصدق عليه بعض الناس بكفنٍ ، وصَارت هذه آية لأهل الفِطَنِ .

وقد قال المختار ﷺ : «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ**» ، لأنه يهدي صاحبه إلى النار .كما أن الدرهم قد يدور بالهم، والذهب قد يوصل إلى لهب، والفلوس قد تذهب بالنفوس .

وختم أبو ريال المقال ، بعد أن تحدث عن المال ، فقال :

اللهُ أَعْطَاكَ فَابْذُلْ مِنْ عَطِيَّتِهِ
فَالْمَالُ عَارِيّة وَالْعُمْر رَحَّالُ
الْمَالُ كَالمَاءِ إنْ تَحْبِس سَوَاقِيه
يَأْسَنْ وَإِنْ يَجْرِ يَعْذُب مِنْهُ سِلْسَالُ

* * *

■ مَقامَــةُ الْمُتَنبِّي ■

« شَاعِرُ الدُّنْيَا وَشَاغِلُ النَّاسِ »

لقيت أبا الطيب أحمد بن الحسين ، بعد بضع سنين ، وهو من الشعراء المحسنين .

فكلما سألنا عن الأخبار ، أجاب بالأشعار :

قلنا : من أنت ؟

قال :

أَنَا الَّذِي نَظَرَ الأَعْمَى إِلَى أَدَبِي
وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِى مَنْ بِهِ صَمَمُ
الْخَيْلُ واللَّيْلُ والْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِى
وَالسَّيْفُ والرُّمْحُ والقِرطَاسُ والْقَلَمُ

قلنا : أما ترى السفهاء ، ينالون العظماء .

قال :

وَإِذَا أَتَتْكَ مَذَمَّتِي مِنْ نَاقِصٍ
فَهِي الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلُ

قلنا : نراك تعبت في طلبك للمجد .

قال :

جَـزَى اللهُ الْمَـسِـيـرَ إِليَكْ خَـيْـرًا

وَإِنْ تَـرَكَ الـمَـطَـايَا كَــالـمَـــزَادِ

قلنا : أما ترى أن المجد يتعب ؟

قال :

لَوْلا الـمَـشَـقَّـةُ سَـادَ النَّاسُ كُلُّهُـمُـو

الْـجُــودُ يُفْـقِـرُ والإِقْـدَامُ قَـتَّـالُ

قلنا : نرى السلف يتأثرون عند سماع القرآن ونحن لا نتأثر ؟

قال :

لا تَعْـذِلِ الـمُـشْـتَـاقَ فِي أشْـوَاقِـهِ

حَـتَّى يَكُونَ حَـشَـاكَ فِي أَحْـشَـائِهِ

قلنا : نرى المنافق أحياناً يبكي ؟

قال :

إِذَا اشْـتَـبَكَـتْ دُمُـوعٌ فِي خُـدُودٍ

تَبَـيَّـنَ مَنْ بَـكَى مِـمَّـنْ تَبَـاكَى

قلنا : نرى واحداً من الناس يعادل أمة في الفضل ؟

قال :

وَإِنْ تَـفُـقِ الأنَـام وَأَنْـتَ مِـنْـهُـم
فَـإِنَّ الـمِـسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَـزَالِ

قلنا : نرى لك حُسّادًا كثيرين ؟

قال :

أَبْدُو فَـيَـسْجُدُ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِي
فَـلا أُعَـاتِبُـهُ صَـفْـحًـا وَإِهْوَانًـا

قلنا : بعض الناس غلب عليه سوء الظن ؟

قال :

إِذَا سَـاءَ فِـعْلُ المَـرْءِ سَـاءَتْ ظُنُونُهُ
وَصَـدَّقَ مَـا يَعْـتَـادُهُ مِنْ تَوَهُّم

قلنا : القوميّون العرب يهددون إسرائيل من خمسين سنة ؟

قال :

وَإِذَا مَـا خَـلا الجَـبَـانُ بِأَرْضٍ
طَـلَبَ الـطَّعْنَ وَحْـدَه والنِّـزَالا

قلنا : نعرف أغنياء ألسنتهم سخيّة وأيديهم بخيلة .

قال :

جُودُ الرِّجَالِ مِنَ الأَيْدِي وَجُودُهُمُو

مِنَ اللِّسَانِ فَلا كَانُوا وَلا الْجُودُ

قلنا : من يتأمل الشريعة يملكه حبها .

قال :

وَمَا كُنْتُ مِمَّنْ يَمْلِكُ الحُبُّ قَلْبَهُ

وَلَكِنْ مَنْ يَنْظُر عُيُونَكَ يَعْشَقِ

قلنا : نسمع لأعداء الإسلام شبهات يثيرونها عنه ؟

قال :

وَلِلهِ سِرٌّ فِي عُلاكَ وَإِنَّمَا

كَلامُ الوَرَى ضَرْبٌ مِنَ الْهَذَيَانِ

قلنا : ما رأيكم في الدنيا ؟

قال :

لَحَا اللهُ ذِي الدُّنْيَا مُنَاخًا لِرَاكِبٍ

فَكُلُّ بَعِيدِ الهَمِّ فِيهَا مُعَذَّبُ

قلنا : والمال ؟

قال :

إِذَا المَالُ لَمْ يُرْزَقْ خَلاصًا مِنَ الأَذَى
فَلا الْحَمْدُ مَكْسُوبًا وَلا الْمَالُ بَاقِيًا

قلنا : بعضهم يستطيع أن يكون أفضل فلا يفعل ؟

قال :

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيْبًا
كَنَقْصِ القَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

قلنا : عرفنا من تمنى الموت لسوء حاله .

قال :

كَفَا بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى المَوْتَ شَافِيًا
وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

قلنا : بعضهم لا يتأثر بالنقد .

قال :

مَنْ يَهُنْ يَسْهل الهَوَانُ عَلَيْه
مَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلامُ

قلنا : بُلينا بمثقفين عندهم ألقاب بلا حقيقة .

قال :

أُعِـيـذُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً

أَنْ تَحْسِبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ

قلنا : أظنه لابد من مجاملة بعض الناس في هذه الحياة .

قال :

وَمِن نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَى

عَدُوًا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدٌّ

قلنا : كان للعلماء قدر عند الناس واليوم جُهِل قدرهم .

قال :

أَتَى الزَّمَانَ بَنُوه فِي شَبِيبَتِهِ

فَسَرَّهُمْ وَأَتَيْنَاهُ عَلَى هِرَمِ

قلنا : نرى العظماء لا يبالون بالمصاعب .

قال :

إِذَا اعْتَادَ الْفَتَى خَوْضُ الْمَنَايَا

فَأَهْوَنُ مَا يَمُرُّ بِهِ الوحُولُ

قلنا : بعض الناس يستفيد من نكبات الآخرين .

قال :

كَـذَا قَـضَتِ الأَيَّامُ مَـا بَيْنَ أَهْلِهَـا

مَـصَـائِبُ قَـوْمٍ عِنْدَ قَـوْمٍ فَـوَائِدُ

قلنا : ما رأيك في الزمان؟ .

قال :

رُبَّمَـا تُحْـسِنُ الصَّنِيعَ لَيَـالِيـ

ـه وَلَكِـنْ تُكَـدِّرُ الإِحْـسَـانَا

قلنا : والموت .

قال :

الْمَـوْتُ آتٍ وَالنُّفُـوسُ نَفَـائِسٌ

وَالْمُـسْـتَـغَـرُّ بِمَـا لَدَيْهِ الأَحْـمَقُ

قلنا : ومَنْ خير جليس ؟

قال :

أَعَـزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنا سَـرْجُ سَـابِحٌ

وَخَـيْـرُ جَلِيسٍ فِي الأَنَامِ كِـتَـابُ

قلنا : هل الرأي أفضل أو الشجاعة ؟

قال :

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ
هُوَ أَوَّلُ وَهْيَ الْمَحَلُّ الثَّانِي

قلنا : ما أحسن وسيلة لقضاء الحاجات ؟

قال :

مَنِ اقْتَضَى بِسِوَى الْهِنْدِي حَاجَتَهُ
أَجَابَ كُلَّ سُؤَالٍ عَنْ هَلٍ بِلَمِ

قلنا : أراك تجامل الناس

قال :

وَلَمَّا صَارَ وُدُّ النَّاسِ خِبًّا
جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامِ

قلنا : وكيف حالك الآن ؟

قال :

وَحِيدٌ مِنَ الخِلاَّنِ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ
إِذَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ الْمُسَاعِدُ

قلنا : نراك تسرف في المديح أحيانا .

قال :

وَقَــــدْ أَطَالَ ثَنَائِي طُولِ لابِســــه

إِنَّ الثَّنَاء عَلَى التِّنْبَـــالِ تِنبَـــالُ

قلنا : نراك أحياناً لا تصل لمقصودك .

قال :

مَــا كُلُّ مَــا يَتَــمَنَّى الْمَــرْءُ يُدْرِكُــه

تَجْرِي الرِّيَاحُ بِمَا لا تَشْتَهِي السُّفُنُ

قلنا : متى تزور أحبابك ؟

قال :

أَزُورُهُمْ وَظَلامُ اللَّيْـلِ يَشْـــفَعُ لِي

وَأَنْثَنِي وَبَيَــاضُ الصُّــبْحِ يُغْـرِي بِي

قلنا : ما رأيك في شعرك ؟

قال :

وَمَـــا الدَّهْرُ إِلا مِنْ رُوَاةِ قَـــصَـــائِدي

إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْـبَحُ الدَّهْرُ مُنْشِدا

قلنا : ما رأيك في اللئام ؟

قال :

إِذَا أَنْتَ أَكْـرَمْتَ الكَرِيمَ مَلَكْتَهُ
وَإِنْ أَنْتَ أَكْـرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَـرَّدَا

قلنا : ما رأيك في الناس ؟

قال :

إِنَّا لَفِي زَمَنٍ تَرْكُ القَبِيحِ بِهِ
مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانٌ وَإِجْمَالُ

قلنا : نراك تحسن القول ولا تعطي شيئاً .

قال :

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلا مَالُ
فَلْيَسْعَدِ النُّطْقَ إِنْ لَمْ تَسْعَدْ الحَالُ

قلنا : بعضهم يسهر على اللهو وبعضهم على العبادة .

قال :

مَا الَّذِي عِنْدَهُ تُدَارُ الْمَنَايَا
كَالَّذِي عِنْدَهُ تُدَارُ الشُّمُولُ

قلنا : ما رأيك في أهل العشق ؟

قال :

تَفْنَى نُفُوسُهُمُو شَوْقًا وَأَدْمُعُهُم

فِي إِثْرِ كُلِّ قَبِيحٍ وَجْهُهُ حَسَنُ

قلنا : ماذا تقول في مقام الرسول ﷺ ؟

قال :

إِذَا تَغَلْغَلَ فِكْرُ الْمَرْءِ فِي طَرَفٍ

مِنْ مَجْدِهِ غَرِقَتْ فِيهِ خَوَاطِرُهُ

قلنا : لماذا عاداك حسادك ؟

قال :

أُعَادِي عَلَى مَا يُوجِبُ الْحُبَّ لِلفَتَى

وَأَهْدَأُ والأَفْكَارُ فِيَّ تَجُولُ

قلنا : يسيء لنا بعض الناس فنستفيد من إساءتهم .

قال :

رُبَّ أَمْرٍ أَتَاكَ لا تَحْمِدُ الفُعَّا

لَ فِيهِ وَتَحْمِدُ الأَفْعَالا

قلنا : بعض العداوة نافعة .

قال :

وَمِنَ العَـــدَاوَةِ مَـــا يَـنَـالُك نَفْــعــه

وَمِنَ الصَّـدَاقَـــةِ مـا يَـضُـــرُّ وَيُؤْلِـمُ

قلنا : بماذا عاقبت حسادك ؟

قال :

إنِّي وَإِنْ لُمْـــتُ حُـــسَّـادِي فَــمَـــا

أُنْكِـــرُ أَنِّي عُــــــقُـــــوبة لَـهُـــمُ

قلنا : ما أحسن الحلل الملبوسة ؟

قال :

وَرَفِلْـتُ فِي حُلَـلِ الثَّـنَـاءِ وَإِنَّـمَـــــا

عَـــــدَمُ الثَّـنَـاءِ نِـهَـايَـةُ الإِعْـدَامِ

قلنا : ما أحسن ما خلّف الإنسان بعد موته ؟

قال :

كَـــفَـلَ الثَّـنَـاءُ لَـهُ بِـرَدِّ حَـــيَـاتِـهِ

لَـمَـــــا انْـطَـوَى فَكَـأَنَّهُ مَـنْشُــورُ

قلنا : بعضهم يكثر من الحلف ؟

قال :

وَفِي اليَـمِـيـنِ عَلَى مَـا أَنْتَ وَاعِـدُهُ

مَـا دَلَّ أَنَّكَ فِي المِـيـعَـادِ مُـتَّـهَمُ

قلنا : من أحق الناس بالمجد ؟

قال :

أَحَقُّهُمُو بِالْمَجْدِ مَنْ ضَرَبَ الطِّلَى

وَبالأَمْرِ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ الشَّدَائِدُ

قلنا : ما الأمن والخوف ؟

قال :

وَمَا الخَوْفُ إلا مَا تَخَوَّفَهُ الْفَتى

وَمَا الأَمْنُ إلا مَا رَآه الْفَتَى أَمْنًا

قلنا : نحن بين خوف ورجاء .

قال :

وَأَحْلَى الْهَوى ما شَكَّ فِي الوَصْلِ رَبّه

وَفِي الهَجْرِ فَهُو الدَّهْرُ يَرْجُو وَيَتَّقِي

قلنا : بلينا والدهر ما بَلي .

قال :

إِذَا مَـا لَبِـسْتَ الدَّهْرَ مُـسْـتَـمْتِـعًـا بِـهِ

تَخَـرَّقْـتَ وَالْمَلْبُـوسُ لَـمْ يُتَـخَـرَّقِ

قلنا : نحن نحاول كتم مشاعرنا فما نستطيع .

قال :

بَادٍ هَـوَاكَ صَـبَـرْتَ أَمْ لَـمْ تَصْـبِـرا

وَبُكَاكَ إِذْ لَمْ يَجْـرِ دَمْـعُكَ أَوْ جَـرَى

قلنا : بعضهم يضع من علماء الإسلام .

قال :

مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحِلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعُهُ

فَلَيْسَ يَرْفَـعُـهُ شَيْءٌ وَلا يَـضَـعُ

قلنا : ما وصف من أراد العلياء ؟

قال :

كَـثِـيرٌ سُـهَـادُ الْعَيْنِ مِنْ غَـيْـرِ عِلَّةٍ

يُؤَرِّقُـهُ فِـيـمَـا يَشْـرُفُـهُ الْفِكْرُ

قلنا : تزداد همتنا عند قراءة سير السلف ؟

قال :

فَـلا تُسْـمِعَـاهُ ذَا الْمَـدِيحِ فَـإِنَّـهُ
شُجَاعٌ مَتَى يُذْكَرْ لَهُ الطَّعْنُ يشتقِ

قلنا : أظنه لا يُهرب من الموت ؟

قال :

نَعُدُّ الْمَـشْـرَفِـيَّةَ والْعَوَالِي
وتَقْـتُلُنَا المنُونُ بِلا قِـتَالِ

قلنا : بعضهم لا يرضى إلا بالمحل العالي .

قال :

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تأتي العَزَائمُ
وَتَأتِي عَلَى قَدْرِ الكِرَامِ الْمَكَارِمُ

قلنا : ما رأيك في الحمَّى ؟

قال :

وَزَائِرَتِي كَأَنَّ بِهَا حَيَاءً
فَلَيْسَ تَزُورُ إلا فِي الظَّلامِ

قلنا : والفراق ؟

قال :

لَوْلا مُـفَـارَقَـةُ الأحْـبَـابِ مَـا وَجَـدَت

لَـهَـا الْـمَـنَايا إلى أَرْوَاحِـنا سُـبُــلا

قلنا : صف لنا نفسك ؟

قال :

خُلِقْتُ أَلُوفًا لَوْ رَجَـعْتُ إلى الصِّـبَـا

لَفَارَقت شَـيْبِي مُـوجَع الْقَلْبِ بَاكِـيا

قلنا : أما ترى فصاحة بعض الناس ؟

قال :

إِذَا سَــمِــعَ الـنَّـاسُ أَلْـفَــاظَـهُ

خُلِقْنَ لَـهُ فِي الْقُـلُـوبِ الحُـسَّـدِ

قلنا : ما أحسن صفات المتقي لربه ؟

قال :

عَلَيْكَ مِنْكَ إِذَا أُخْلِيتَ مُـرتَقَبٌ

لَمْ تَأْتِ فِي السِّرِّ مَـا لَمْ تَأْتِ إِعْلانًا

قلنا : بعضهم يخشع ظاهره فحسب ؟

قال :

وَإِطْرَاقُ طَرْفِ الْعَيْنِ لَيْسَ بِنَافِعٍ

إِذَا كَانَ طَرْفُ الْقَلْبِ لَيْسَ بِمطرقِ

قلنا : ما أجمل كلام ؟

قال :

فَهُوَ الْمُشَيَّعُ بِالْمَسَامِعِ إِنْ مَضَى

وَهُوَ الْمُضَاعَفُ حُسْنُهُ إِنْ كُرِّرا

قلنا : هل للموت من طبيب ؟

قال :

وَقَدْ فَارَقَ النَّاسُ الأَحِبّة قَبْلَنَا

وَأَعْيَا دَوَاءُ الْمَوْتِ كُلَّ طَبِيبِ

قلنا : الناس اختلفوا في معاني أبياتك ؟

قال :

أَنَامُ مِلْءَ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا

وَيَسْهَرُ النَّاسُ جَرّاهَا وَيَخْتَصِمُ

قلنا : أُدميت قدما رسول الله ﷺ لما عاد من الطائف فما تعليقكم ؟

قال :

إنْ كَانَ سَرَّكُمُو مَا قَالَ حَاسِدُنَا

فَمَا لِجُرْحٍ إذَا أَرْضَاكُمُو أَلَمُ

قلنا : أما ترى سب المنافقين لأهل الدين ؟

قال :

مَا أَبْعَدَ العَيْبُ والْنُقْصَان من شَرَفِي

أَنَا الثُّرَيَّا وَذان الشَّيْبِ والْهِرَمُ

قلنا : نحن نطمع في لقاء رسولنا ﷺ في الآخرة .

قال :

وَمَا صَبَابَةُ مُشْتَاق عَلَى أَمَلٍ

مِنَ اللِّقَاءِ كَمُشْتَاقٍ بِلا أَمَلِ

قلنا : عندنا شريعة فهل نضيف إليها تجارب الآخرين .

قال :

خُذْ مَا رَأَيْتَ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ

فِي طَلْعَةِ الْبَدْرِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ

قلنا : ماذا تقول لو طلب منك وصف الرسول ﷺ ؟

قال :

الشَّمْسُ مِنْ حُسَّادِهِ والنَّصْرُ مِنْ
قُرَنَائِهِ والسَّيْفُ مِنْ أَسْمَائِهِ
أَيْنَ الثَّلاثَةُ مِنْ ثَلاثِ خِلالِهِ
مِنْ حُسْنِهِ وَإِبَائِهِ وَمَضَائِهِ
مَضَتِ الدُّهُورُ وَمَا أَتَيْنَ بِمِثْلِهِ
وَلَقَدْ أَتَى وَعَجَزْنَ عَنْ نُظَرَائِهِ

قلنا : هل لحسد الحاسد من دواء ؟

قال :

سِوَى وَجَعِ الحُسَّادِ دَاوِ فَإِنَّهُ
إِذَا حَلَّ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحُولُ
وَلا تَطْمَعَنْ مِنْ حَاسِدٍ فِي مَوَدَّةٍ
وَإِنْ كُنْتَ تُبْدِيهَا لَهُ وَتُنِيلُ

قلنا : لمن يكتب النصر ؟

قال :

لِمَنْ هَوَّن الدُّنْيَا عَلَى النَّفْسِ سَاعَة

وَلِلبَيضِ فِي هَامِ الكُمَأةِ صَلِيل

ماذا قلت يوم زرت سيف الدولة : قال :

الْمَجْدُ عُوفِي إِذْ عُوفِيتَ وَالْكَرَمُ

وَزَالَ عَنْكَ إِلى أَعْدَائِكَ الأَلَمُ

صَحَّتْ بِصِحّتِك الغَارَاتُ وَابْتَهَجَتْ

بِهَا الْمَكَارِمُ وَانْهَلَت بِهَا الدِّيَمُ

وَرَاجَعَ الشَّمْسَ نورٌ كَان فَارَقَهَا

كَأَنَّمَا فَقَدَهُ فِي جِسْمِهَا سَقَمُ

وَمَا أخُصُّكَ فِي بُرْءٍ بِتَهْنِئَةٍ

إِذَا سَلِمْتَ فَكُلُّ النَّاسِ قَدْ سَلِمُوا

قلنا : بعض الناس يتقدم إلى المعالي بشجاعة .

قال :

هُوَ الجِدُّ حَتَّى تَفْضُلَ الْعَيْن أُخْتَهَا

وَحَتَّى يَكُونَ اليَوْمُ لليَوْمِ سَيِّداً

قلنا : كيف نعاقب الأحرار إذا أخطئوا ؟

قال :

وَمَا قَـتْـلُ الأَحْـرَارِ كَـالْعَـفْـوِ عَنْـهُـمُـو

وَمَن لَـكَ بِالحُـرِّ الَّذي يَحْـفَظُ اليَـدَا

قلنا : هل تصلح الشدة مكان اللين والعكس ؟

قال :

وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالعُلى

مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدى

قلنا : ماذا تقول لحبيبك لو مرض؟ .

قال :

وَإِذَا صَحَّ فَـالزَّمَـانُ صَـحِـيحٌ

وَإِذَا اعْـتَلَّ فَـالزَّمَـانُ عَلِيلُ

قلنا : أما تخشى أن يشوه الإسلام من قبل بنيه؟ .

قال :

وَكَـيْفَ تُعِلُّكَ الدُّنْيَـا بِشَيْءٍ

وَأَنْتَ بِعِلّةِ الدُّنْيَـا طَبِـيبُ

قلنا : ألا ترى كيف تقلب بنا الزمان؟ .

قال :

وَصِرْنَا نَرَى أَنَّ المُتَارِكَ مُحْسِنٌ
وأنَّ خَليلاً لا يَضِرُّ وُصُولُ

قلنا : نشكو قلة الإنصاف من أهل زماننا .

قال :

ولَمْ تَزَلْ قِلَّةُ الإنْصَافِ قَاطِعَةً
بَيْنَ الرِّجَالِ وإنْ كَانُوا ذَوِي رَحِمِ

قلنا : أحيانًا نشكو ما بنا إلى الأصحاب .

قال :

ولا تَشَكَّ إِلَى خَلْقٍ فَتُشْمِّتَهُ
شَكْوَى الجَرِيحِ إلى الغِرْبَانِ والرَّخَمِ

قلنا : كيف نعامل الناس ؟ قال :

وكُنْ عَلَى حَذَرٍ للنَّاسِ تَسْتَرُهُ
ولا يَغُرُّكَ مِنْهُم ثَغْرٌ مُبْتَسِمِ

غَاضَ الوَفَاءُ فَمَا تَلْقَاهُ فِي عُدة
وَأعوز الصِّدْقُ فِي الأَخْبَارِ والقَسَمِ

قلنا : هل يشعر الناقصون بنقصهم ؟

قال :

كَـدَعْـوَاكَ كُلٌّ يَدَّعِـي صِـحـةَ الْعَـقْـلِ

وَمَنْ ذَا الَّذي يَدْرِي بِمَـا فِيـه مِـنْ جَهْلِ

قلنا : معنا علماء بين أظهرنا ونرى الناس لا يستفيدون منهم .

قال :

ولَـيْـسَ الَّذِي يَتَّـــبِعُ الوَبْـل رَائِـدًا

كَـــمَنْ جَـــاءَهُ فِي دَارِهِ رَائِـد الـوَبـلِ

قلنا : خلاصة تجربتك مع الناس ما هي ؟

قال :

وَمَنْ عَـرِفَ الأَيَّامَ مَـعْـرِفَـتِـي بِـهَـا

وَبِـالنَّـاسِ رَوَّى رُمْـحَـهُ غَـيْـرَ ظَالِـمِ

فَلَـيْسَ بِـمَـــرْحُـومٍ إِذَا ظَفَـرُوا بِـهِ

وَلا فِي الـرَّدَى الْجَـارِي عَلَـيْـهِم بِـآثِمِ

قلنا : هل تحب الهدية ممن تحب ؟

قال :

وَمَا أنَا بِالبَاغِي عَلَى الحُبِّ رِشْوَةً
ضَعِيفُ هَوىً يَبْغِي عَلَيْهِ ثَوَابا

قلنا : هل من رسالة ؟

قال :

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُم
وِجْدَانُنَا كُلُّ شَيْءٍ بَعْدَكُم عَدَمُ

قلنا : وداعًا .

قال :

رَحَلْتُ فَكَمْ بَاكٍ بِأَجْفَانِ شَادِنٍ
عَلَيّ وَكَمْ بَاكٍ بِأَجْفَانِ ضَيْغَمِ

قلنا : لا تبك على فراقنا .

قال :

قَدْ كُنْت أُشْفِقُ مِنْ دَمْعِي عَلَي بَصَرِي
فَاليومَ كُلُّ عَزِيزٍ بَعْدَكُمُ هَانَا

* * *

المقامة الشِّفائية

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾

« طَهُورٌ إن شاءَ الله »

مَرِضَ الْحَبِيبُ فَزُرْتُهُ
فَمَرِضْتُ مِنْ خَوْفِي عَلَيهِ
وأَتَى الحَبِيبُ يَزُورُنِي
فَشُفِيتُ مِنْ نَظَرِي إِلَيْهِ

أيها المريض، على السرير العريض ، طهور ما أصابك ، وكفارة ما نابك، والله قد أجابك . مع كل ونّة ، نسيم من الجنة ، ومع كل رنة، بشرى من السنة .

بَشِّرْ المريض بعافية ، أو رحمة وافية ، أو كفّارة كافية ، أو نفحة من الله شافية :

تَمُوتُ النُّفُوسُ بِأَوْصَابِهَا
ولَمْ يَدْرِ عُوَّادُهَا مَا بِهَا
وَمَا أَنْصَفَتْ مُهْجَةٌ تَشْتَكِي
أَذَاهَا إِلَى غَيْرِ أَحْبَابِهَا

أيها المرضى لا تكونوا يائسين ، أو أسِفين ، وردّدوا : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ .

بقي أيوب، في البلايا والخطوب ، ماله مسلوب، وجسمه منكوب، فنادى علام الغيوب ، ﴿ أَنِّي مَسَّنِي الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ، فعاد من السالمين الغانمين .

بَشِّرْ من أصابه الوَصَب والنَّصَب ، بقصورٍ في الجنةِ من قَصَبٍ ، إذا صبرَ واحتسب.

لا تقل : آه ، ولكن قل : يا الله .

كَيْفَ أَشْكُو إلى طَبِيبي مَا بِي

وَالَّذِي قَدْ أَصَابَنِي مِنْ طَبِيبي

إذا أصابك جرح ، فلا تقل أح ، لأن الصبر يقول هذا ما يصح ، ولا يستحق من شكا المدح . سبحان من أحبك فابتلاك ، ليسمع نجواك، وليصعد إليه بكاك ، وترتفع إليه شكواك .

نَحْنُ مَا زِلْنَا عَلَى الْعَهْدِ وَلَوْ

قُطِّعَتْ مِنَّا عَلَى الْعَهْدِ رءوسُ

كُلَّمَا ذُقْنَا مِنَ الهَجْرِ لَظىً

أَشْرَقَتْ فِي حُبِّ مَوْلانَا النُّفُوسُ

هنيئًا لك أنت على سـرير التطهير ، وعلى كرسي التكفـير ، ترعاك عناية اللطيف الخبير .

الرحمة عليك تهبط، والخطايا تسقط، أدخلك الكير ، لتخرج ذهبًا، إذا سلب ما أعـطى فطالما وهبا ، واعـلم أنه يدَّخِر لك أجرًا عـجيـبًا ، وثوابًا طيبًا .

مـا دام أنك منكسـر القلب ، ملقىً على جنب ، فـأنت قـريب من الرب ، لا يغرنك المنافق فهـو عير على شعير ، وبعيـر على شفا بير ، تأتي ضربتـه قاصدة ، ونفسـه جامدة ، وروحه جـاحدة ، فهو كـشجرة الأَرْزة ، منتصبة ، متصلبة ، وفي لحظة وإذا هي متقلبة .

أما أنت يا مؤمن فأنت كالخامة مع ريح الشمال ، مرة من يمين ومرة من شمال ، لأنك شجرة جمال وجلال .

وَاللهِ لَوْ أَحْـرَقُونِي فِي الهَـوَى حِـمَـمًا
مَا اخْتَرْتُ غَيْـرَكُمُو فِي الكَوْنِ إِنْسَانَا
مِنْكُـمْ دَوَائِي وَدَائِي صِـرْتُ عَـبْـدَكُـمُو
أَرَى بَلاءَكُـمُـو فِي الجِـسْمِ إِحْـسَـانَا

يا أيهـا المسـلم المبـتلى ، حظك اعـتلى ، وثمنك غـلا ، وغبـار المعصيـة عنك انجلى . والله إنك أحب إلى ربك من المنافق السمين ، والفاجر البطين ، والعاصي الثخين ، كما أخبر الصادق الأمين . المنافق

كالخروف ، يُسَمَّنُ للضيوف ، ثم يذبح بسكين الحتوف . والمؤمن جواد يضمّر ، ليقطع السير المقدّر ، ويصل إلى المحل الموقّر .

أَلا بَلَّغَ اللهُ الحِمَى مَنْ يُرِيدُهُ
وَبَلَّغَ أَطْرَافَ الحِمَى من يُرِيدُهَا
وَجَازَاكَ رَبِّي أيُّهَا الدَّاءُ نِعْمَةً
فَقَدْ حَرَّكَ الأَشْوَاقَ مِنْكَ بَرِيدُهَا

دع الشحم يذوب ، وتذهب الذنوب، وتخشع النفس وتتوب ، ويعود القلب عودة حميدة ، وترجع الروح رجعة مجيدة . يا أهل الأسِرّة البيضاء ، هنيئاً لكم هذا البلاء ، وأبشروا بالشفاء . أو بمغفرة تغسل الأخطاء، ورحمة أعظم من الدواء .

المرض يُذْهِبُ الْكِبْرَ والبَطَر ، والعُجْب والأشَر ، لأن الرزايا إلى الجنة مطايا ، والبلايا من الرحمن عطايا ، وإلى رضوانه مطايا ، ابتلاك بالأسقام ، ليغسل عنك الآثام . فافرح لأنه رشحك للعبوديّة، لأن البلاء طريقة محمديّة، يُبْتَلَى الناس الأمثل فالأمثل، والأفضل فالأفضل ، والأكمل فالأكمل . إذا أحب الله قوماً ابتلاهم ، وطهّرهم وجلاّهم

إنْ كَانَ سَرَّكُمُو مَا قَالَ حَاسِدُنَا
فَمَا لِجُرْحٍ إذَا أَرْضَاكُمُو أَلَمُ

كان رسولنا ﷺ يوعك كما يوعك رجلان، لأنه حبيب للرحمن ، كامل الإيمان ، تام الإحسان .

مرض عمران بن الحصين ، الصحابي الأمين ، ثلاثين عامًا ، حمل فيها أسقامًا ، وذاق آلامًا ، فقال له أصحابه ، وطلب منه أحبابه ، أن يدعو ربَّه ليكشف كربه ، قال : كلا أحبه إليّ أحبه إلى ربي ، ولعله يغفر ذنبي .

وكانوا يفرحون بالبلية ، ويعدونها عطية ، ونفوسهم بمواقع القدر رضية ، ويرون المحنة منحة ، والترحة فرحة ، لأنهم تعرفوا على الخالق ، فعرفهم الحقائق .

لَعَلَّ عُتْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ
فَرُبَّمَا صَحَّتِ الأَجْسَامُ بِالْعِلَلِ

اصبر على مرارة دواء المصيبة، لترى أحوالاً عجيبة، فعافيتك قريبة، والرِّضا بمُرِّ القضا ، ولو على جمر الغضى ، وحرّ اللّظى .

اسْجُدْ عَلَى الْجَمْرِ فِي مَرْضَاةِ مَوْلاكَا
إِيَّاكَ أنْ تَشْتَكِي فِي الحُبِّ إِيَّاكَا

بوّابةُ البلاء ، لا يدخلها إلاّ الأولياء ، ويرد عنها الأدعياء ، واسأل عن ذلك تاريخ الأنبياء . البلاء أعظم لأجرك ، إذا قوي أيوب صبرك ، تريد الجنة بلا ثمن ، وأنت ما مرضت من زمن ، وفي غفلة العافية

مرتهن . المرض صيحة تفتح الأسماع والأبصار ، وتذكر الأبرار ، وتنفض عن الصالحين الغبار ليكونوا من الأطهار الأخيار .

إذا ابتلى الله العبد بالسقم ، وسلّط عليه الألم ، ثم شافاه مَنَّ عليه بلحم ودم ، وما شاء من نعم ، وإن توفاه غفر له ما تأخر وما تقدم ، من الذنب واللمم .

إذا مرضت ذهب الظمأ بالغفران ، وابتلت العروق بالرضوان ، وثبت الأجر عند الديّان ، وهذّب القلب من الكِبر والطغيان .

كلا إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى، وإلى زينة الدنيا يصغى ، فعلم الله أن تهذيبه في تعذيبه ، وتقريبه في تأديبه . كلما ضرب العبد سوطًا ، عاد إلى الله شوطًا :

يَا نَائِمًا فَوْقَ السَّرِيرِ مُمَرَّضًا
مَرَّتْ عَلَى آلامِهِ أَعْوَامُ
أَبْشِرْ فَإِنَّ اللهَ زَادَكَ رِفْعَةً
فِي كُلِّ مَكْرُوهٍ أَتَى إِكْرَامُ

هذا المرض حماك من فعلة شنعاء ، ووقاك من داهية دهياء ، وكَفّر عنك آثار الفحشاء ، ورفرفت به روحك من الأرض إلى السماء .

بالمرض يجول القلب في سماء التوحيد ، وتطير الروح في فضاء

التجريد ، ويغسل البدن بماء الإنابة ، ويفتح الله للمريض بابه ، ويسارع إليه بالإجابة .

عند المريض رسالة من ربه ، كتبت حروفها في قلبه ، فحواها : أحببناك فأدبناك ، وبالمرض قربناك ، وبالبلاء هذبناك .

وَيَقْبَحُ مِنْ سِوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدِي
وَتَفْعَلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَا

إبل الهدى تتقدم شوقًا للرسول ﷺ وبيده الحربة ، تنتظر منه الضربة، لتذوق حلاوة الألم، من كف سيد الأمم، وأنت تتبرم بالبلاء ، وهو عتاب من رب الأرض والسماء :

وَقُلْتُمْ مَعَاذَ اللهِ أَنْ يُصْرَفَ الهَوَى
لِغَيْرِكُمُو مَهْمَا حَمَلْتُمْ لَنَا عُتْبَا
فَهَا نَحْنُ عَاتَبْنَاكُمُو فَإِذَا الهَوَى
يَخُونُ وصِرْتُم بَعْدَ هَذَا الهَوَى غَضْبَى

أيها المريض: أسأل الله العظيم ، رب العرش العظيم ، أن يشفيك .

* * *

المقامة الرمضانية

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾

« ذَهَبَ الظَّمأُ وَابْتَلَّتِ الْعُرُوقُ وَثَبَتَ الأَجْرُ إِنْ شَاءَ اللهُ »

مَـرْحَـبًا أَهْلاً وَسَـهْلاً بِالصِّيَـامِ
يَا حَـبِيـبًا زَارَنَا فِي كُلِّ عَـامِ
فَـاغْـفِـرِ اللَّهُمْ رَبِّي ذَنْبَنَا
ثُمْ زِدْنَا مِنْ عَطَايَاكَ الْجِسَامِ

مرحبًا برمضان ، شهر التوبة والرضوان ، شهر الصلاح والإيمان ، شهر الصدقة والإحسان ، ومغفرة الرحمن ، وتزين الجنان ، وتصفيد الشيطان .

هذا شهر العتق والصدق والرفق ، رقاب تعتق ، ونفوس ترفق ، وأياد تتصدق، باب الجود في رمضان مفتوح ، والرحمة تغدو وتروح ، والفوز ممنوح ، فيه ترتاح الروح، لأنه شهر الفتوح، هنيئاً لمن صامه ، وترك فيه شرابه وطعامَه ، وبشرى لمن قامَه ، واتبع إمامَه .

القلب يصوم في رمضان ، عن اعتقاد العصيان ، وإضمار العدوان ، وإسرار الطغيان. والعين تصوم عن النظر الحرام ، فتغض خوفًا من

الملك العلام ، فلا يقع بصـرها على الآثام . والأذن تصوم عن الخنا ، واسـتمـاع الغنا ، فتنصت للذكـر الحكيم، والكلام الكريم . واللسـان يصوم عن الفحـشاء، والكلمة الشنعاء ، والجمل الفظيـعة ، والمفردات الخليعة، امتثالاً للشريعة . واليد تصوم عن أذية العباد، ومزاولة الفساد، والظلم والعناد ، والإفـسـاد في البلاد. والرِجل تـصوم عن المـشي إلى المحرّم ، فلا تسير إلى إثم ولا تتقدّم .

والله مَـا جِـئْـتُكُمُـو زَائِرًا
إلاَّ وَجَـدت الأَرْضَ تُطْوَى لـي
وَلا انْـثَـنَـتْ رِجْـلِـي عَـنْ بَـابِـكُـمُ
إلا تَـعَـثَّـرَتْ بِـأذْيَـالِـي

أما آن للعصاة أن ينغمسوا في نهر الصيام ، ليطهروا تلك الأجسام ، من الآثام . ويغسلوا ما علق بالقلوب من الحرام . أما آن للمعرضين أن يدخلوا من باب الصائمـين ، على رب العالمين ، ليجـدوا الرضوان في مقام أمين .

إن رمضان فرصة العمر السانحة ، وموسم البضاعة الرابحة ، والكِفَّة الراجحة ، يوم تعظم الحسنات ، وتكفّر السيئات ، وتُمحى الخطيئات . إن ثياب العصـيان آن لها أن تُخْلَعَ في رمضان ، ليُلْبِس الله العـبد ثياب الرضوان . وليجود عليه بتوبة تمحو ما كان من الذنب والبهتان .

إِنْ مَضَى بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ عَتْبٌ
حِينَ شَطَّت عَنَّا وَعَنْكَ الدِّيَارُ
فَالْقُلُوبُ الَّتِي تَرَكْتَ شَظَايا
والدُّمُوعُ الَّتِي عَهِدت غِزَارُ

في رمضان نزل ذكرنا الحكيم ، على رسولنا الكريم ، وهو سر مجدنا العظيم .

في رمضان كانت فتوحاتنا ، وإشراقاتنا ، وغزواتنا ، وانتصاراتنا .

في رمضان التقى الجمعان، جمع الرحمن وجمع الشيطان ، في بدر الكبرى يوم رجح ميزان الإيمان، ونسف الطغيان ، وانهزم الخسران . في رمضان فتحت مكة بالإسلام، وتهاوت الأصنام، وارتفعت الأعلام ، وعلم الحلال والحرام . في رمضان كانت حطين العظيمة ، يوم انتصرت رايات صلاح الدين الكريمة ، وارتفعت الملة القويمة ، وصارت راية الصليب يتيمة .

صيام النفس في رمضان عزوف عن الانحراف، والانصراف والإسراف والاقتراف، فالنفس تعلن الرجوع، والقلب يحمل الخشوع، والبدن يعلوه الخضوع ، والعين تجود بالدموع . لشهر رمضان وقار فلا سباب، ولا اغتياب، ولا نميمة، ولا شتيمة، ولا بذاء، ولا فحشاء، وإنما أذكار واستغفار، واستسلام للقهار، فالمسلمون في رمضان كما قيل :

هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ أَيْسَارٌ بَنُو يُسْرٍ
أَهْلُ الْعِبَادَةِ حَفَّاظُونَ للجَارِ
لا يَنْطِقُونَ عَنِ الْفَحْشَاءِ إِنْ نَطَقُوا
ولا يُمَارُونَ إِنْ مَارُوا بإِكْثَارِ

مردة الشياطين في رمضان تصفد بالقيود ، فلا تقتحم الحدود ، ولا تخالط النفوس في ذلك الزمن المعدود .

إذا سابّك أحد في رمضان فقل إني صائم ، فليس عندي وقت للخصام ، وما عندي زمن لسيئ الكلام ، لأن النفس خطمت عن الخطيئة بخطام ، وزمّت عن المعصية بزمام . إذا قاتلك أحد في رمضان فقل إني صائم فلن أحمل السلاح ، لأنني في موسم الصلاح ، وفي ميدان الفلاح ، وفي محراب حي على الفلاح .

اغْسِلْ بِنَهْرِ الدَّمْعِ آثارَ الهَوَى
تَنْسَى الَّذِي قَدْ مَرَّ مِنْ أَحْزَانِ

كان السلف إذا دخل رمضان ، أكثروا قراءة القرآن ، ولزموا الذكر كل آن ، ورقعوا ثوب التوبة بالغفران ، لأنه طالما تمزق بيد العصيان .

هذا الشهر هو غيث القلوب ، بعد جدب الذنوب ، وسلوة الأرواح بعد فزع الخطوب . رمضان يذكرك بالجائعين ، ويخبرك بأن هناك بائسين ، وأن في العالمين مساكين، لتكون عوناً لإخوانك المسلمين .

فرحة لك عند الإفطار ، لأن الهم ذهب وطار ، وأصبحت على مائدة الغفار ، بعد أن أحسنت في النهار . وفرحة لك عند لقاء ربك ، إذا غفر ذنبك ، وأرضى قلبك .

بعض السلف في رمضان لزم المسجد ، يتلو ويتعبد ، ويسبح ويتهجد . وبعضهم تصدق في رمضان بمثل ديته ثلاث مرات ، لأنه يعلم أن الحسنات ، يذهبن السيئات . وبعضهم حبس لسانه عن كل منكر ، وأعملها في الذكر ، وأشغلها بالشكر .

هذا شهر الآيات البينات ، وزمن العظات ، ووقت الصدقات ، وليس لقراءة المجلات ، والمساجلات ، وقتل الأوقات ، والتعرض للحرمات .

سلام على الصائمين إذا جلسوا في الأسحار ، يرددون الاستغفار ، ويزجون الدمع المدرار . وسلام عليهم إذا طلع الفجر ، وطمعوا في الأجر ، تراهم في صلاتهم خاشعين ، ولمولاهم خاضعين . وسلام عليهم ساعة الإفطار ، بعد ذلك التسيار ، وقد جلسوا على مائدة الملك الغفار ، يطلبون الأجر على عمل النهار .

سبحان من جاعت في طاعته البطون ، وبكت من خشيته العيون ، وسهرت لمرضاته الجفون ، وشفيت بقربه الظنون . ما أحسن الجوع في سبيله ، ما أجمل السهر مع قيلة ، ما أبرك العمل بتنزيله ، ما أروع حفظ جميلة .

لَهَا أَحَادِيثٌ مِنْ ذِكْرَاك تَشْغَلُهَا

عَنِ الطَّعَامِ وَتُلْهِيهَا عَنِ الزَّادِ

لَهَا بِوَجْهِكَ نُورٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ

وَمِنْ حَدِيثِكَ فِي أَعْقَابِهَا حَادِي

إِذَا تَشَكَّتْ كِلالَ السَّيْرِ أَسْعَفَهَا

شَوْقُ الْقُدُومِ فَتَحْيَا عِنْدَ مِيعَادِ

شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ، هداية للبشرية ، وصلاحًا للإنسانية، ونهاية للوثنية . القرآن حيث أصلح الله به القلوب ، وهدى به الشعوب ، فعمت بركته الأقطار ودخل نوره كل دار .

سَمِعْتُكَ يَا قُرْآنُ قَدْ جِئتَ بِالبُشْرَى

سَرَيْتَ تَهُزُّ الْكَوْنَ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى

*** * ***

■ المقامة الأَخباريّة ■

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾

بَيْنَا تَرَى الإِنْسَانَ فِيهَا مُخْبِراً
أَلْفَيْتُهُ خَبَراً مِنَ الأَخْبَارِ
طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا
صَفْواً مِنَ الأَقْذَارِ وَالأَكْدَارِ

هذه أخبار الموحدين ، من أنباء الأنبياء والمرسلين ، وعباد الله الصالحين، من إذاعة إياك نعبد وإياك نستعين .

■ إليكم موجز الأنباء :

* إبراهيم الخليل ينجو من النار ، بقدرة العزيز الجبار .

* يوسف يلتقي بأبيه يعقوب بعد غياب طويل ، وصبر جميل .

* موسى الكليم يضرب البحر بالعصى فينفلق، وينجو من الغرق .

* محمد ﷺ يعلن التوحيد ، الذي هو حق الله على العبيد .

* **في بدر** : هزيمة ساحقة ماحقة للكفار ، وانتصار المهاجرين والأنصار .

* انتصار المسلمين في القادسيّة ، على الجيوش الفارسيّة .

* عمر بن الخطاب ، يقع شهيدًا في المحراب .

* عثمان بن عفان ، يقتل وهو يقرأ القرآن .

* علي بن أبي طالب يستشهد في المسجد ، وهو يتعبد .

* خالد بن الوليد ، وكتائب التوحيد ، تهزم جيش الروم العنيد .

■ **كان هذا هو الموجز وإليكم تفصيل الأنباء :**

* **وضع إبراهيم الخليل في المنجنيق** ، ورمي به إلى الحريق، فنادى الخليل، حسبنا الله ونعم الوكيل ، فقال للنار: كوني بردًا وسلامًا، فَنَجَّا إبراهيم وصار للناس إمامًا ،لأن ماء الإيمان، يطفئ لهيب النيران ، ولما رأى إبراهيم النار المحماة، نادى لسان الحال يا الله ، فتولاه مولاه، وكفاه وحماه ، وأنقذه ونجاه، وهذا يدلك على أن حسبنا الله ونعم الوكيل، أقوى من كل خطب جليل، وكرب ثقيل ، وخطر وبيل، لأن مَنْ معه الله فمعه القوة التي لا ترام ، والعزة التي لا تضام ، والعروة التي ليس لها انفصام ، فأخلص له الطلب ، وقمَ بما يجب ، ترى العجب .

* **يوسف يلقى أباه يعقوب** ، بمصر بعد أن كاده إخوانه وألقوه في غيابة الجب، وبيع في مصر وحبس بضع سنين فشرد عن الأهل وأبعد عن الوالد، وأصبح في حكم المفقود الفاقد ، والمشرد الشارد ، في بلاد غربة ، وحالة كربة ، وتعرضت له امرأة ذات منصب وجمال ،

فقال إني أخاف الله ذا الجلال ، فنصره الله النصر العزيز ، وسخر له العزيز، وأصبح على خزائن مصر ، إمام العصر، وسلطان القصر ، وجمع الله له أبويه لديه ، وسلموا عليه، وجمع الشمل، وظهر الفضل، وتمت الأفراح، وزالت الأتراح ، جزاء الصبر ، وطاعة الأمر ، وكانت العاقبة للتقوى، لأن حزب الله هو الأقوى ، فعفا يوسف عما بَدَرَ من إخوانه ، فكان مضرب المثل في الحلم لأهل زمانه ، ونسي ما مضى ، لأنه ذهب وانقضى ، فطاب الاجتماع بعد الانقطاع ، وحصل الوئام بعد الانفصام ، وتمت النعمة وزالت النقمة .

* **خرج موسى وفي قلبه إياك نعبد وإياك نستعين** ، فلما صار وراءه فرعون اللعين ، نادى موسى : كلا إن معي ربي سيهدين ، فأنجى الله موسى ومن معه من المؤمنين ، وعفّر أنف فرعون في الطين ، لأن فرعون قال : ما علمت لكم من إله غيري، وهو كذاب ، فأراه الله أن أنف الدَّعِيِّ يمرغ في التراب ، وكان المخذول يقول: أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي وما أجراه ، يفتخر بنهر ما أجراه ، فأجرى الله الماء من على رأسه وأخزاه .

* **بعث في مكة رسول الهداية** ، ومبعوث العناية ، فكان التوحيد عنده البداية ، هتف به في النائمين، وأعلنه في العالمين، فلا إله إلا الله أي نبأٍ عبر الأقطار ، وأي خبر شق الأمصار ، سابقت الفجر كتائبه ، وأخجلت الغيث سحائبه ، أعاد الفطرة إلى سيرتها على التوحيد ،

وأحيا النفـوس من رقدتها الكبرى إلى نهار الدين الجـديد ، ففتح الله به الأسماع والأبصار ، وبشر بالجنة وحذر من النار .

* **وقعت غزوة بدر** ، الفاصلة بين الإسـلام والكفر، حـيث الباطل سُحق، والزور مُحق في بدر نزل جبريل، على الرسول الجليل ﷺ ، فانهـار جيش الكفر الذليل . المـلائكة مع الصحـابة تقاتل ، وفي صف المؤمـنين تنازل ، لقد اشـتركت السـماء مع الأرض في القتـال ، فكان النصـر من نصـيب الحق ولا يزال ، في بدر صنعت مـلاحم الفـداء ، ونسجت بردة الوفاء، ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ** ﴾.

* **قتل عمر بن الخطاب** ، في المحراب ، طعنه أبو لؤلؤة النجس المجوسـي فكان قتل عمر من أعظم المـصائب ، ومن أفظع النوائب ، لأنه كان حصناً للسنة ، وبابًا دون الفتنة ، نشـر العدل ، ومحا الجهل . وبث العلم ، ودوّن الدواوين ، وكـفل المـسـاكـين ، وجنّد الأجناد ، وحمى به الله البلاد ، وأسـعد به العباد ، وبعدمـا قتل ، وقع في الأمة خلل ، وماجت الفـتن، وهاجت المحن . فإنا لله وإنا إليـه راجعون ، ولحكمه سامعون مطيعون.

* **قتل عثمان**، وهو يتلو القرآن، فوقع دمه على المصحف الكريم، وذهب هذا الإمام إلى جوار ربٍّ رحيم ، بعدما جمع القرآن من الصدور إلى السطور ، وسـابق إلى كل عـمل مبـرور . وكـان أحد الأسـخيـاء

المعدودين ، والأجواد المحمودين ، قانتًا آناء الليل ، بدموع كالسيل ، محسناً إلى الأيتام ، فهو حسنة الأيام ، لا يمل من تلاوة الكتاب ، ولا يفتر من ذكر العذاب .

* **وقع علي بن أبي طالب شهيداً** ، وسار إلى الله حميد ، بعدما نصر الملّة ، وأدخل على الكفر الذلّة ، وقمع الخوارج المارقين ، والمبتدعة المفارقين ، وكان بطل المشاهد ، وصاحب المساجد ، مع زهد معروف ، وعلم موصوف ، وفصاحة بارعة ، وعين دامعة ، وهمة عالية ، وأخلاق غالية ، وهو صاحب المواقف المحمودة ، والمآثر المشهودة

* **هزم سيف الله المسلول** ، جيش الروم المخذول ، ورده على عقبيه مكسورًا ، وطرده عن بلاد الإسلام محسورًا ، بعد معركة دامية ، ووقعة حامية ، قتل فيها شهداء، وحضرها علماء ، ثم أنزل الله نصره على أبي سليمان ، وجند الرحمن، بعد مصاولة ومجاولة فالسيوف تتصبب دمًا، والأرض تثور حممًا، والجماجم تتساقط على وقع الرماح، والأبطال تصرع مع خروج الأرواح ، فالحمد لله على نصره ، ونفاذ أمره ، وعلو قدره .

* **استمعتم إلى نشرة الأخبار** ، أيها الأخيار ، وإليكم حالة الطقس اليوم وغداً وأمس . القلب ملبد بالغيوم ، من كثرة الهموم ، وتراكم سحب الغموم ، رياح الذنوب تثير الأتربة ، على من له في الخطايا

تجربة ، مـوعد شروق شمس التوحـيد ، عند عودة العبـيد، إلى الولي الحـميـد ، يتوقع نزول الأمطـار ، وذهاب الأخطار ، عند الإكثـار من الاستغفار ، يخشى من نزول صواعق ، على كل كافر وخائن ومارق .

نستودعكم الله ولنا لقاء ، مع تحيات وكالة الأنباء .

* * *

مقامة الحُبِّ

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾

قَالَ لِي الْمَحْبُوبُ لَمَّا زُرْتُهُ
مَنْ بِبَابِي قُلْتُ بِالْبَابِ أَنَا
قَالَ لِي أَخْطَأْتَ تَعْرِفُ الهَوَى
حِينَمَا فَرَّقْتَ فِيهِ بَيْنَنَا
وَمَضَى عَامٌ فَلَمَّا جِئْتُهُ
أَطْرُقُ البَابَ عَلَيْهِ مُرْهَنَا
قَالَ لِي مَنْ أَنْتَ قُلْتُ انْظُرْ فَمَا
ثَمَّ إِلاَّ أَنْتَ بِالبَابِ هُنَا
قَالَ لِي أَحْسَنْتَ تَعْرِيفُ الهَوَى
وَعَرِفْتَ الحُبَّ فَادْخُلْ يَا أَنَا

الحب على المحبين فرض ، وبه قامت السموات والأرض ، من لم يدخل جنة الحب ، لن ينال القرب، بالحب عُبد الرب ، وتُرك الذنب ، وهان الخطب ، واحتمل الكرب .

عقل بلا حب لا يفكر ، وعين بلا حب لا تبصر ، وسماء بلا حب لا تمطر ، وروض بلا حب لا يزهر ، وسفينة بلا حب لا تبحر . بالحب تتآلف المجرة ، وبالحب تدوم المسرة ، بالحب ترتسم على الثغر البسمة ، وتنطلق من الفجر النسمة ، وتشدو الطيور بالنغمة ، أرض بلا حب صحراء ، وحديقة بلا حب جرداء ، ومقلة بلا حب عمياء ، وأذن بلا حب صماء .

شَكَا أَلَمُ الفِرَاقِ النَّاسُ قَبْلِي
وَرَوع بِالجَوى حَيّ وَمَيْتُ
وَأَمَّا مِثْلُ مَا ضَمَّتْ ضُلُوعِي
فَإِنِّي مَا سَمِعْتُ وَلا رَأَيْتُ

بالحبِّ تُرضعُ الأم وليدَها ، وتروم الناقة وحيدَها . بالحب يقع الوفاق ، والضم والعناق ، وبالحب يعم السلام ، والمودّة والوئام .

الحب هو بِساط القربى بين الأحباب، وهو سياج المودة بين الأصحاب . بالحب يفهم الطلاب كلام المعلم، وبالحب يسير الجيش وراء القائد ويتقدم، وبالحب تذعن الرعيّة ، ويعمل بالأحكام الشرعية ، تصان الحرمات ، وتقدس القربات .

بيت لا يقوم على الحب مهدوم ، جيش لا يحمل الحب مهزوم . لكن أعظم الحب وأجلّه ، ما جاءت به الملّة ، أجمل كلمة في الحب قول الرب : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ . فلا تطلب حبًّا دونه .

لَيْسَ حُبًّا قِطْعَةٌ مَعْزُوفَةٌ
مِنْ يَرَاعِ الشَّاعِرِ المُنْتَحِبِ
لَيْسَ حُبًّا غَزَلٌ يُمْطِرُنَا
فِي سُطُورِ الْكَاتِبِ الحُرِّ الأَبِي
أَوْ خِطَابٌ بَارِعٌ نَمَّقَهُ
وَالِهٌ يَرْوِي صُنُوفَ العَتَبِ
مَا قِفَا نَبْكِي هُو الحُبُّ وَلا
ظَبْيَةَ البَانِ وَذِكْرَى زَيْنَبِ
مَا دَرَى مَجْنُونُ لَيْلَى سِرَّهُ
عَبَثٌ ذَاكَ هَيَامُ الصَّخَبِ
إِنَّمَا الحُبُّ دَمٌ تَنْزِفُهُ
فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرِ القُرَبِ
أَوْ دُمُوعِ ثَرَّةٍ تَبْعَثُهَا
سَحَرًا أَصْدَقُ مِنْ قَلْبِ الصَّبِي
أَوْ سُجُودٌ خَاشِعٌ تَرْسُمُهُ
فَوْقَ خَدِّ الطِّينِ فَاسْجُدْ وَاقْتَرِبِ

أحب امرؤ القيس فتاة ، وأحب أبو جهل العزى ومناة ، وأحب قارون الذهب ، وأحب الرئاسة أبو لهب ، فأفلسوا جميعًا ، لأنهم أخطئوا خطأً شنيعًا . أما حب بلال بن رباح ، فهو البر والصلاح . سحب على الرمضاء ، فنادى رب الأرض والسماء ، انبعث من قلب المحب أَحدٌ أَحد ، لأن في القلب إيمانًا كجبل أُحد .

إِذَا كَانَ حُبُّ الهَائِمِينَ مِنَ الْوَرَى
بِلَيْلَى وَسَلْمَى يَسْلُبُ اللُّبَّ والعَقْلا
فَمَاذَا عَسَى أَنْ يَصْنَعَ الهَائِمُ الَّذِي
سَرَى قَلْبُهُ شَوْقًا إلى العَالَمِ الأَعْلَى

مهر الجنة عند بلال السنة ، ركعتان ودمعتان . الحب لا يعترف بالألوان ولا بالأوطان ، والدليل بلال وسلمان ، بلال أبيض القلب أسود البشرة ، فصار بالحب مع البررة ، وأبو لهب بالبغض ليس من أهل البيت ، وسلمان نال بالحب جائزة: «**سلمان منا أهل البيت**» .

دعني من حب مجنون ليلى ، ومحبوب سلمى ، ومعشوق عفرا ، فلطالما لطخت بأشعارهم الطروس ، وضاقت بأخبارهم النفوس ، وخدعت بقصائدهم الأجيال ، واتبعهم الضلال . حدثني عن أنباء الأنبياء ، وهم من أجل حب الرب يهجرون الآباء والأبناء . فإبراهيم يتبرأ من أبيه ، ونوح من بنيه ، وامرأة فرعون تلغي بنفسها عقد النكاح، لأن البقاء مع الكافر سفاح .

هذا هو عالم الحب بتضحياته ، بأفراحه وأتراحه ، وهو حب يصلك برضوان مَنْ رضاه مطلب ، وعفوه مكسب .

وَاللهِ مَا نَظَرَتْ عَيْنِي لِغَيْرِكُمُو
يَا وَاهِبَ الحُبِّ والأَشْوَاقِ وَالمُهَجِ
كُلُّ الَّذِينَ رَوَوْا فِي الحُبِّ مَلْحَمَةٌ
فِي آخِرِ الصَّفِّ أَوْ فِي أَسْفَلِ الدَّرَجِ

امرؤ القيس يصيح في نجد ، وقد غلبه الوجد ، قفا نبكِ فإذا بكاؤه على الأطلال ، وإذا دموعه تسفح على الرمال، إنه هيام العقل بلا وازع، وحيرة الإنسان بلا رادع . ورسولنا ﷺ يذوق الويلات ، ويعيش النكبات ، ثم ينادي مولاه في مناجاة وإخبات، ويقول : «**لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى**» .

لا تضع عمري بشعر طرفة بن العبد ، وهو يشكو الحب والصد ، حب ماذا ، يا هذا ، أما علمت أن أحد الأنصار ، كان يقرأ ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ بتكرار ، فسئل عن المقصود، قال: لأن فيها مدح المعبود ، وأنا أحب تلك البنود ، فدخل الجنة بالمحبة ، لأن الله أحبه .

دَعْنِي أُمَسِّحُ فَوْقَ الرَّوْضِ أَجْفَانِي
فَالنُّورُ مَوْقِدُهُ مِنْ بَعْضِ أَشْجَانِي

نَسِيتُ فِي حُبِّكُمْ أَهْلِي وَمُنْتَجَعِي
فَحُبّكُم عَنْ جَمِيعِ النَّاسِ أَلْهَانِي

شغلونا بالروايات الشرقيّة ، والمسرحيّة الغربيّة ، ويل هذا الجيل ويله ، سهر مع غراميات ألف ليلة وليلة، وفي الذكر المنزل، والحديث المبجل ، قصص الحب الصادقة، والمعاني الناطقة ، ما يخلب اللب، ويستميل القلب .

الْحُبُّ لَيْسَ رِوَايةً شَرْقِيَّةً
بِأَرِيجِهَا يَتَزَوَّجُ الأَبْطَالُ
الحُبُّ مَبْدَأ دَعْوَة قُدْسِيّة
فِيهَا مِنَ النُّورِ العَظِيمِ جَلالُ

أخرجونا يا قوم من ظلمات عشق الأعراب ، والهيام في الأهداب ، فكل ما فوق التراب تراب ، وأدخلونا في عالم الحب الراقي ، والدواء الواقي ، الذي تطير له الأرواح، وتهتز له الأشباح ، في ملكوت الخلود، وعلى بساط رب الوجود .

بَكَتْ عَيْنِي غُدَاةَ البَيْنِ دَمْعًا
وَأُخْرَى بِالبُكَا بَخِلَتْ عَلَيْنَا

فَـعَـاقَـبْتُ الَّتِي بِالدَّمْعِ ضَنَّت
بِأَنْ أَغْمَضْتُهَا يَوْمَ التَقَيْنَا

دع حب هؤلاء فإنهم مرضى ، وتعال إلى الواحد وناد : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً ﴾ .

فِي حَالَةِ البُعْدِ نَفْسِي كُنْتُ أُرْسِلُهَا
تُقَبِّلُ الأَرْضَ عَنْكُمْ وَهِيَ رَائِدَتِي
وَهَذِهِ دَوْلَةُ الأَشْبَاحِ قَدْ حَضَرَتْ
فَامْدُدْ يَمِينَكَ كَي تَحْظَى بِهَا شَفَتِي

حمزة سيد الشهداء يمزق الحب تمزيقًا ، وأنتم تهيمون بروايات غراميّة لفقت تلفيقًا ، نقول حدثونا عن الحب عند ابن عباس ، فتذكرون لنا عشق أبي نُوَاس ، كفى جفاء ﴿ فأمّا الزبد فيذهب جُفاء .

حب طلحة والزبير ، أعظم من حب شكسبير ، لأن حبهم سطر في بدر لمرضاة القوي العزيز ، وحب شكسبير كتب في شوارع لندن لمراهقي الإنجليز .

إن كنت يا شاعر الغرب كتبت رواية الحب بالحبر ، فالصحابة سجلوا قصص المحبة بدم الصبر .

وَمِنْ عَجَبٍ أَنِّي أَحِنّ إِلَيْهِمُو

فَأَسْأَلُ عَنْهُم مَنْ لَقِيتُ وَهُمْ مَعِي

وَتَطْلُبُهُم عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا

وَيَشْتَاقُهُمْ قَلْبِي وَهُم بَيْنَ أَضْلُعِي

لا تدري ربما عذبت بحبك ، وكتب عنك عند ربك ، هذا فراق ما بيني وبينك ، ونحن نسمع من أجل امرأة بكاءك وأنينك .

وَلَمَّا جَعَلْتُ الحُبَّ خِدْنًا وَصَاحِبًا

تَرَكْتُ الهَوَى والعِشْقَ يَنْتَحِبَانِ

فَلا تُسْمِعْنِي شِكِسْبِير وَلَهْوِهِ

وَرَنّة عُودٍ أَوْ غِنَاءِ غَوَانِي

فَلِي فِي رِحَابِ اللهِ مُلْكٌ وَدَوْلَة

أَظُنّ السَّمَا والأَرْض قَدْ حَسَدَانِي

كلما خرج علينا شاعر مخمور ، فاقد الشعور ، حفظنا شعره في الصدور ، وكتبناه في السطور ، وقلنا : يا عالم هذه قصصنا الغرامية ، ونسينا رسائلنا الإسلامية ، وفتوحاتنا السماوية ، التي ذهلت الإنسانية .

علمني الحب من سورة الرحمن ، ولا تكدر خاطري بهيام يا ظبية

البان . أنا ما أحب لغة العيون ، ولكن أحب لغة القلوب ، ولا اتباع فلتات أبي نواس والمجنون . ولكني أرتع في رياض الكتاب المكنون ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾ .

وَمُعَنِّفِي فِي الحُبِّ قُلْتُ لَهُ: اتَّئِدْ
فَالدَّمْعُ دَمْعِي وَالعُيُونُ عُيُونِي

الحب الصادق في جامعة ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ ، والغرام الرخيص في مسرح الفنانين والفنّانات . استعرض نصوص الحب في وثيقة الوحي المقدس ، لترى فيها حياة الأنفس ، الحب الأرضي يقتل الإنسان بلا قيمة ، والحب السماوي يدعو العبد إلى حياة مستقيمة ، ليجد فضل الله ونعيمه .

أَرَقٌ عَلَى أَرَقٍ وَمِثْلِي يَأْرَقُ
وَجَوَى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقْرَقُ
جُهْدُ الصَّبَابَةِ أَنْ تَكُونَ كَمَا أَرَى
عَيْنًا مُسَهَّدَةً وَقَلْبًا يَخْفِقُ

حب العز عند فرعون ، وحب الكنز عند قارون ، وحب البنز عند شارون ، أما حب الجنة ، فعند أبطال السُّنَّة ، الذين حصلوا على أعظم مِنّة . الجعد بن درهم ذُبح على الابتداع ، وأنت تبخل بدمعة في محراب الاتباع .

سَقَيْنَاهُمُو كَأْسًا سَقَوْنَا بِمِثْلِهَا
وَلَكِنَّنَا كُنَّا عَلَى المَوْتِ أَصْبَرَا
بَلَغْنَا السَّمَا جُودًا وَفَضْلاً وَسُؤدُدًا
وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

أتريد من الجيل أن يحب الملك العلام، ويصلي خلف الإمام، ويحافظ على تكبيرة الإحرام، وأنت تُحفِّظه رباعيات الخيام، ليبلّغهم رسالة لا بعث ولا نشور، أعوذ بالله من تلك القشور . يا حاج، أين حملة المنهاج، ما ترى كيف عشق الإمارة الحجاج، وقتل في البدعة الحلاج، وأنت من أحرص الناس على حياة، فبماذا تدخل الجنة يا أخاه .

من تداجي يا إبراهيم ناجي ، ومن تكلم ومن تناجي : تقول يا فؤادي رحم الله الهوى، بل قتل الله الهوى . من يشارك في ثورة الخبز، لا يحضر معركة العز ، لما نسيت الأمة حب القلوب ، واشتغلت بحب البطون ، رضيت بالدون ، وعاشت في هون .

﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

هل عند الأمة فراغ في الأزمان، تسمع صوت الحرمان، وهو ينادي :

إِنَّ العُيونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ
قَتَلننا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلانَا

يَصْـرَعْنَ ذَا اللُّبِ حَـتَّى لا حِـرَاكَ بِهِ
وَهُنَّ أَضْـعَفُ خَلْقِ اللهِ إِنْسَـانًا

نحن بحاجة إلى صوت خبيب بن عدي وهو يلقي قصيدة الفداء، على خشبة الفناء، في إصرار وإباء ، وصبر ومضاء :

وَلَسْتُ أُبَالِي حِـينَ أُقْـتَلُ مُـسْلِمًـا
عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللهِ مَصْرَعِي
وَذَلِـكَ فِي ذَاتِ الإِلَـهِ وَإِنْ يَـشَـأْ
يُبَـارِكْ عَلَى أَشْـلاءِ شِلْوٍ مُـمَـزَّعِ

بارك الله فيك وفي أشلائك يا خبيب ، فأنت إلى قلوبنا حبيب . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ ، اللهم اجعلنا ممن يحبك ويحب من يحبك ، ليؤنسنا قربك ، اللهم ازرع شجرة حبك في قلوبنا ، لنرى النور في دروبنا ، وننجو من ذنوبنا ، ونطهر من عيوبنا .

فَلَيْـتَكَ تَحْلُو وَالحَـيَـاةُ مَـرِيرَةٌ
وَلَيْـتَكَ تَرْضَى والأَنَامُ غِـضَـابُ
وَلَيْتَ الَّذِي بَينِي وبَيْنَكَ عَـامِـرٌ
وَبَيْنِي وَبَيْنَ العَـالَمِـينَ خَـرَابُ

إِذَا صَحَّ مِنْكَ الودُّ فَالكُلُّ هَيِّنٌ
وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ

وإن تعجب فعجب أن ترى شاعرًا بائسًا ، يشكو طللاً دارسًا ، فهو يبكي من نار الغرام ، ويشكو ألم الهيام ، ولو سافرت روحه في عالم الملكوت ، لصار وحبه عنده كالقوت . لو أدرك عنترة الإسلام ما كبا ، وما قال : اذكري يا عبل أيام الصِّبَا .

جرير يشكو العيون السود ، وبشار يشكو الصدود ، والشريف الرضي يشكو فتنة الخدود ، وكأن الحياة لديهم اختصرت في امرأة حسناء ، وكأن العمر يتسع لهذا الهراء ، ويحسبون أن الناس من أجلهم تركوا المنام ، وهجروا الطعام ، إذا افتخرنا على الغرب بأن لدينا نساء حسناوات ، وفتيات فاتنات ، قالوا لنا : عندنا في ذلك مسارح ومسرحيات ، ومغامرات وغراميّات . لكن فخرنا على الناس أن لدينا رسالة ملأت الكون نورًا ، والعالم حبورًا ، والدنيا طهورًا .

نَحْنُ الَّذِينَ مَلأنَا جَوَّنَا كَرَمًا
وَقَدْ بَعَثْنَا عَلَى قُرآنِنَا أُمَمًا
وَالعَالَمُ الآخَرُ الْمَشْبُوه فِي ظُلَمٍ
مَنْ يَعْبُدِ الجِنْسَ أَوْ مَنْ يَعْبد الصَّنَمَا

المقامة النحوية

﴿ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾

جَمِّلِ المَنْطِقَ بِالنَّحْوِ فَمَنْ
يُحْرَمُ الإِعْرَابَ فِي النُّطْقِ اخْتَبَلْ

فَاللِّسَانُ العَضْبُ سَيْفٌ مُصَلَّتٌ
كَمْ بِسِحْرٍ مِنْ حَدِيث قَدْ قُتِلَ

اللحن في الأقوال ، أهون من اللحن في الأفعال ، لأن اللحن في الفعل يدل على الجهل وقلة العقل ، واللحن في الكلام يدل على أن صاحبه ليس له بالعربيّة إلمام .

ونحن في زمن خفض المرفوع، ورفع الموضوع، وأصبح المجرور منصوبًا، والعلم بالجر مسحوبًا، وأصبحت النكرة معرفة ، والموصوف بلا صفة، والمبتدأ بلا خبر، والأفعال تجر ، فانظر لحال أهل التمييز، كيف تركوا كل وصف عزيز .

واعلم أن بعض اللحن لا يصلحه سيبويه ، ولا يقيمه نفطويه ، ومن لحن عند أولي الشان ، ذهب رأسه في خبر كانْ ، وكان جعفر البرمكي عند الرشيد كالمأمور ، فلما رفع المجرور ، ترك رأسه في البلاط يدور،

وهذا أبو جعفر المنصور ، لما رأى أبا مسلم يضم المكسور ، جعل سيفه في صدره كالضمير المستور .

والعرب لا تبدأ بساكن ، لأنها تحب التنقل في المساكن ، أما تراها فتحت بالسيوف الجوازم الأقطار ، وحررت من سوء الحال الأمصار ، ولا تقف على متحرك ، لأنها تحب الساكن المتنسك ، وتبغض المتغير المتهتك .

النحو لا يعترف بالأنساب ، ولا يقيم وزنًا للأحساب ، لأن الوليد ابن عبد الملك كان يلحن وهو من بني أمية ، وسيبويه عالم في النحو وهو من الديار العجمية ، والبخاري كان في صحة الكلام لا يجارى ، وهو من بخارى .

هنا لحن في الذات ، ولحن في الصفات ، ولحن في الكلمات ، **فلحن الذات** التنكر للمعبود ، وغبش الرؤية للوجود ، **ولحن الصفات** هجر الآداب ، والتنابز بالألقاب ، **ولحن الكلمات** ، الجهل بالحركات والسكنات ، والفتحات والضمّات .

يقول النحاة : ضرب عمروٌ زيدًا ، وما ذكروا لهما وصفًا ولا قيدًا ، فإن كان المقصود عمرو بن العاص ، فهو من الخواص ، وإن كان المقصود عمرو بن معدي كرب ، فهو المقدام ساعة الغضب ، وإن كان المقصود عمرو بن كلثوم ، فسيفه في الأعداء مثلوم .

أما زيد فإن كان ابن ثابت ، ففي الأنصار نابت ، وإن كان ابن

الخطاب ، فقد قتل في سبيــل الوهاب ، وإن كان ابن حارثة ، فهو أسد كل حادثة .

قالوا : كان معروف الكرخي العابد يلحن إذا نطق ، ولكنه يعرب في الأفعال فكلما تكلم قالوا : صدق .

بلال يتكلم الحبشــيّة ، وأبو لهب يتكلم القرشيّة ، فـفهم بلال كلام ذي العزة والجلال، ولم يفهم أبو لهب ، ما جاءت به الكتب، لأن قلب بلال أحب العربي الأمين وقلب أبي لهب في الكفر مهين . دخل جوهر الصقلي باني القاهرة ، بجيوش باهرة ، فتكلم بلغة مغلوطة ، كأن لسانه مربوطة ، قال لــه العرب: أنت رجل لحّان ، لا تجيب في الامــتحان، أنت مــولى بلا نسب، ودخيــل بلا حــسب . فـقــال : كـيف ؟ وسل السيف، وقال : هذا نسبي ، ونثر الذهب ، وقال : هذا حسبي ، فصار أفصح من سحبان ، فالسيف والذهب خطيبان .

الانتماء ليس للسان ولا البلدان ، وإنما للإيمان والقرآن ، والدليل ، البخــاري محــمد بن إسمــاعيل ، والرد على مــذهب القومــية الكريه ، بكتاب سيبويه . أعجميان لهم كـتابان ، عظيمان عربيان ، البخاري أجل كتــاب في الصحيح ، والكتــاب لسيبويه الذي بَــزَّ كل فصيح . سيــبويه عصرنا ، وكسائي مصرنا ، من يرفع الـفاعل ، وينصب المفعول ، فهذا نحوي مقــبول ، يكفى الناس اليوم الآجروميّــة ، وإلا تحولت الأمة إلى فارسية ورومية .

يقول ابن مالك :

كَـلامُنَا لَفْظٌ مُـفِـيـدٌ كَـاسْـتَـقِمْ

اسْمٌ وَفِـعْلٌ ثُمَّ حَـرْفٌ الكَلِمْ

وهذا يقصد به الأقوال ، وأنا أقول في الأفعال .

أفْـعَـالُنَا عَلَى الكِتَـابِ فَـاسْـتَـقِم

كَـمَـا أُمِـرْتَ وَابْتَـعِـدْ عَنِ التُّـهَم

قال :

تَرْفَعُ كَـانَ الْمُـبْـتَـدَا اسْمًـا والخَبَـرْ

تَـنْصِـبُـهُ كَكَانَ سَـيِّـدًا عُـمَـرْ

أقول :

يَـرْفَعُ رَبِّي مَنْ يَصْـدُقُ الخَـبَـرْ

مِـثْلَ أَبِي بَكْرٍ الجَلِيل وَعُـمَـرْ

يقول هو :

وَالأَصْلُ فِي الأَخْـبَـارِ أَنْ تُؤَخَّـرَا

وَجَـوَّزُوا التَّـقْـدِيمَ إِذْ لا ضَـرَرَا

وأقول :

والأصْلُ فِي الأَشْرَارِ أَنْ تُؤَخَّرَا

وَقَدِّمِ الأَخْيَارَ مِنْ بَيْنِ الوَرَى

القرآن كاف شاف ، بلا كشاف ، لأن الزمخشري ، في سوق البدعة مشتري ، لحن في العقيدة ، وأعرب في القصيدة ، لو شرب من معين السلف الماء الزلال ، لما ورد نهر الاعتزال . بعض الظلمة من الرؤساء كان فصيحًا ، وظلم ظلماً قبيحًا ، قال : أنا إمام عادل ، وورع فاضل ، فقال شعبة : أنت عادل إمام ، ولكنك قدمت وأخّرت في الكلام

لما لحن الجيل في الجمع والمثنى ، ونسي سيرة المثنى ، تعنّى وما بلغ ما تمنى .

ضرب المعتصم أحمد ، وتوعّد وهدّد ، فما أجاب بحرف ، لأن أحمد ممنوع من الصرف ، أما أحمد بن أبي دُؤاد فصرف في سوق الذهب ، لأن الورع من قلبه ذهب .

يا أيها المسلمون : اصرفوا إسرائيل ولو كانت ممنوعة من الصرف ، لأن للضرورة أحكامًا في اللغة والعرف . لا تخدعك الأسماء وتنسى الأفعال ، فنصير الدين الطوسي ، صار عدو الدين المجوسي ، لأنه كسر رءوس المسلمين بالسيوف الجازمة ، وأفتى هولاكو تلك الفتاوى الآثمة .

اشتغلنا بالفعل الماضي عن الفعل المضارع والأمر ، فكلامنا :

انتصرنا فيما مضى ، وهذا ذهب وانقضى ، وفتح أجدادنا البلاد ، وأين فَتْحُنَا اليوم يا أحفاد ؟ أسلافنا مبتدأ لكن أين الخبر ؟ ليتم الكلام المعتبر :

وَالخَبَرُ الجُزْءُ المُتِمُّ الفَائِدَة

كَاللهُ بَرٌّ وَالأَيَادِي شَاهِدَةٌ

يقول النحاة : المصغّر ، لا يصغر . قلت : بل يصغره الله يا أعراب ، أما رأيتم ما فعل بمسيلمة الكذاب ، كيف صغّره وحقّره ، وبالتراب عفّره . أما مسلمة بن عبد الملك فلم يكن مصغّرًا ، فعاش مجاهدًا مظفّرًا .

إذا رأيت الصفات تتقدم الأسماء ، فاعلم أن المعاني هباء ، فالمتأخرون يصفون البعض ، عند العرض ، فيقولون : علامة عصره ، وفريدة دهرة، وقدوة الأنام، وعلم الأعلام . بينما كان السلف يقولون: أبو بكر وعمر ، ولا يذكرون النعوت والسير ، لأن المعارف لا تعرّف ، وكامل الأوصاف لا يوصف .

احذر ثلاث كلمات ، إذا وقعت بلا إضافات صحيحات .

كلمة أنا فهي مدح الشياطين ، لما قال كبيرهم : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، ولكن قل : أنا العبد الضعيف ، أطلب عفو اللطيف .

وكلمة **لي** قال فرعون في القصر : أليس لي ملك مصر ، فصار في الهلاك آية لكل عصر ، ولكن قل : لي ذنوب ، أرجو رحمة علام الغيوب .

وكلمة **عندي** قالها قارون ، فجعلها بالخسف عبرة لكل القرون ، ولكن قل : عندي تقصير ، يصلحه اللطيف الخبير .

علي بن أبي طالب مرفوع عندنا بين الفتح والخفض ، فقد أخطأ فيه أهل النصب والرفض، فالنواصب هضموا حقه، ونسوا صدقه، والروافض أنزلوه فوق المنزلة ، فصار وصفهم مهزلة .

فيا أيها الناصبي : عليٌّ مرفوع وعلامة رفعه ، علو الهمة ، وتزكية رسول الأمة .

ويا أيها الرافضي : لا تغالِ ، فعليٌّ بغير هذا الغلو عالِ .

ذُكِرَ عن سيبويه، ذلك العالم الوجيه، أنه أتى ليُعرِّف اسم الجلالة، فلما وقف أمام كلمة الله وتذكر كماله، وتأمل جماله . قال: الله أعرف المعارف، لا يحتاج إلى تعريف، ومن جمع الصفات لا ينقصه التوصيف .

يَا أَنْتَ يَا أَحْسَنَ الأَسْمَاءِ فِي خُلْدِي
مَاذَا أُعَرِّف مِنْ عِزٍّ وَمِنْ شَرَفِ
تَقَاصَرَت كُلُّهَا الأَعْلامُ إِنْ ذُكِرَتْ
أَوْصَافُكُمْ قَدْ رَوَاهَا عَنْكَ كُلُّ وَفِي

خُذْهَا مِنَ الوَحْيِ نَعْتًا لِلْجَلِيلِ وَلا
تَأْخُذْ مِنَ الجَهْمِ وَالكَشَّافِ والنَّسَفِي
فَارْفَعْ شَعَائِرَهُ وانْصَبْ لِخِدْمَتِهِ
وَجُرَّ رِجْلَكَ فِي ذُلٍّ وَفِي أَسَفِ
وَكُنْ مُضَافًا إِلَى أَصْحَابِ طَاعَتِهِ
وَلا تَعْرِفْ شَقِيًّا بَاتَ فِي تَرَفِ
وَاجْزِمْ بِحِكْمَتِهِ فِي نَصْرِ شِرْعَتِهِ
وَقِفْ عَلَى سَاكِنِ التَّنْزِيلِ كَالسَّلَفِ

قال شاب لأحد الأولياء : يا ليتني أدركت الرسول ﷺ وكنت خادماً بين يديه ؟

قال : لعلك ترحم بهذا لأن المضاف يأخذ حكم المضاف إليه .

- زاد اليهود نقطة ، فوقعوا في ورطة ، وسقطوا سقطة ، قيل لهم قولوا : حِطةٌ ، فقالوا : حِنطةٌ .

- وزاد المبتدعة حرفًا ، فصرفوا عن الصواب صرفًا ، قالوا : استولى مكان استوى ، وهذا من الزيغ والهوى .

- للوصف صلة بالاسم ، فأبو بكر الصديق ، لما صدق في القول والاعتقاد ، عرف بهذا الوصف بين العباد ، وعُمَر عَمَّر الدولة بالعدل ،

وطرد الجهل ، وعثمان بن عفان ، عف عن كل فان ، وعلي بن أبي طالب ، علا في المناقب ، فَسَلِمَ من المثالب .

- كن بالتوحيد مرفوع الهامة ، وبالأخلاق منصوب القامة ، وليكن عليك من الصلاح علامة ، لتنجو يوم القيامة .

- واعلم أن المزاح المباح ما عارض به بعضهم الألفية النحوية ، وجعلها للمطاعم الشهية .

قال ابن مالك :

وَالأَصْلُ فِي الأخْبَازِ أَنْ تُؤَخَّرَا

وَجَوَّزُوا التَّقْدِيمَ إِذْ لا ضَرَرَا

قال أحدهم :

وَالأَصْلُ فِي الأَخْبَازِ أَنْ تُحَمَّرَا

وَجَوَّزُوا الفَطِيرَ إِذْ لا ضَرَرَا

وقال الشيخ ابن عثيمين كان له شيخ يقول على سبيل المزاح

وَالأَصْلُ فِي الأَخْبَازِ أنْ تُقَمَّرَا

وَجَوَّزُوا التَّرْقِيقَ إِذْ لا ضَرَرَا

* * *

مقامة الجمال

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾

لَيْسَ الْجَمَالُ بِمِئْزَرٍ
فَاعْلَمْ وإِنْ رُدِّيتَ بُرْدًا

إِنَّ الجَمَالَ مَآثِرٌ
وَمَنَاقِبٌ أَوْرَثْنَ حَمْدًا

الله جميل يحب الجمال ، موصوف بالجلال ، انظر نهجه ، وقد أنبت حدائق ذات بهجة، خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وأبدع الكائنات في تصوير مستقيم، جمال في كواكب السماء ، وحسن يكسو الأشياء، نجوم زاهرة ، وبحار زاخرة ، كأن الأرض مكسوة بأحسن نسيج ، والحدائق فيها من كل زوج بهيج ، رسم الجمال في الكائنات ، وخط الحسن في المخلوقات .

الجمال في العين بلونها الأسود ، وبجفنها المقعد ، بسحر نظرتها ، وروعة خطرتها ، مدورة في بهاء ، متحركة في سناء ، لها في الظلام بريق ، ولها في الحركة تلفت رشيق ، عليها رمش يحميها ، ويغسلها ولا يُدْمِيهَا ، وهي في نهر من الماء تسبح ، وفي هالة من النور تمرح، في نظرها أسرار ، وفي تلفتها أخبار ، لها لغة تفهمها القلوب ، ولها

سحر تكاد منه النفس تذوب . في طرفها حور ، يقتل من نظر ، لها في النفوس إيماءات ، وفي الأرواح إضاءات ، يعرف بها الرضا والغضب ، والجد واللّعب :

فِي عُيُونِ المُحِبِّ أَحْرُفُ وُدٍّ
سُطِّرَت بِالدُّمُوعِ عِنْدَ الْفِرَاقِ
قُتِلَتْ أَنْفُسٌ بِنَظْرَةِ عَيْنٍ
وَقُلُوبٌ مُشْتَاقَةٌ للتَّلاقِي

الجمال في الفم وهو بالحسن محبوك ، وبالأسنان مسبوك ، يرسل الكلمات، ويبعث النغمات ، بلسان فصيح ، وصوت مليح ، لا ينطق حتى يؤمر ، ولا يسكت حتى يزجر ، فيا له من خلق ما أبدعه ، ومن صنع ما أروعه ﴿ **أَلَمْ نَجْعَل لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** ﴾ الجمال في الوجه، بطلعته البهية ، وإشراقاته الرضية ، قسمات ترسم، وقبلات عليه من البهاء تبسم ، خَدٌّ بماء البشاشة يسيل ، وطرف بإيحاء الحسن كحيل ، دمع كالسيل ، وشعر كالليل . وجبين كالمهنّد ، وفم منضّد .

الجمال في قامة الإنسان ، وروعة هذا البنيان ، أذنان وصماخان ، وعينان نضاختان، ويدان منافحتان ، ورجلان كادحتان .

الجمال في الروض الجذاب ، بجماله الخلاب ، طيور تلقي قصائد

الحنان ، على منابر الأغصان ، وحمام ينشد إلياذة الفراق ، على أطراف الأوراق ، وماء يسكب ، ونسيم يكتب ، أنهار ودوح ، ومسك من الروض يفوح ، حسن باهي ، وإبداع إلهي ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ .

انْظُرْ إِلَى الرَّوْضِ وَاشْهَدْ أَنَّ مُبْدِعَهُ
رَبّ الوُجُودِ عَظِيم الْقَدْرِ والشَّانِ
وَسَرِّحِ الطَّرْفَ فِيمَا شِئْتَ مِنْ حُسْنٍ
مَا بَيْنَ زَهْرٍ وَأَطْيَارٍ وَأَغْصَانِ

الجمال في الصبح إذا تنفّس ، فسبحان من صوره وتقدّس ، الصبح بطلعته الآسرة، وإطلالته الباهرة ، الصبح وهو يغشى العالم ، ويمر على كل قاعد وقائم ، الصبح وهو ينشر عباءته الذهبية على الوجود ، فيكاد يكلمه من حسنه الجلمود ، الصبح يوم يتوضأ الفكر في عباب نوره ، ويغتسل القلب في بحر سروره ، وتسرح النفس في مهرجان عرسه، وتنصت الروح لهمسه وجرسه .

الجمال في الليل إذا عسعس ، وأقبل في هدوء يتوجس ، يقبل الليل بردائه الأسود ، وشعره المجعد ، فيستر الأحياء بثيابه ، ويضع الأشياء تحت جلبابه ، فيملأ بجيشه المساكن ، فكل متحرك ساكن ، والليل له هيبة في العيون ، كأنه كتيبه تحمل المنون .

مَنْ لَمْ يَرَ هَذَا الوُجُودَ بِقَلْبِهِ
خَسِرَ الجَمَالَ وَلَمْ تَرَ عَيْنَاهُ
فَافْتَحْ كِتَابَ الكَوْنِ تَقْرَأْ قِصَّةً
هَلْ فِي الوُجُودِ حَقِيقَةً إلا هُو

الجمال في الشمس وهي على الكون تتبرج ، ليتمتع في الحسن كل حيٍّ ويتفرج ، أشعة تعانق العين في صفاء ، وتداعب الروح في وفاء ، نور يطارد الظلام ، ويبعث في الكون الإشراق والوئام ، الشمس جرم هائل من النور ، فيها معاني الفرح والسرور ، تجري لمستقر لها ، فويل لمن غفل عن آياته ولها .

تَقُولُ الشَّمْسُ يَا بِلْقِيس إنِّي
كَمِثْلِكَ أَعْبُدُ الأَحَدَ الْمَجِيدا
حَرَامٌ تَسْجُدِينَ لَنَا فَهَيَّا
نُرِي رَبُّ الوَرَى مِنَّا سُجُودا

الجمال في القمر يوم يبدو علينا بهذا الوجه الصبيح، والمنظر المليح، هالة من الصفاء، وفيض من السناء ، ينزل أبراجه في وقار ، ويطارد الظلام بالأنوار ، كثيرُ إحسان ، حبيبٌ إلى كل إنسان ، إذا خسف بكى الناس، كأن حل بهم الباس، يتدرج في النمو حتى يكتمل،

ويهرم شيئًا فشيئًا حتى يضمحل ، فسبحان من صوّر ودبّر ، وزين القمر وكوّر.

يَا بَدْرُ كَمْ لَكَ مِنَّة
يَا أَيُّهَا الشَّيْخُ الجَلِيلُ
لا تَبْتَعِد عَنْ دَارِنَا
يَا صَاحِبَ الوَجْهِ الجَمِيل
رَافَقْتَ مَنْ غَبَرُوا وَمَنْ
عَرَفُوا الحَيَاةَ بِكُلِّ جِيل

والجمال في النجوم اللاّمعة ، والكواكب الساطعة، انظر إلى السماء، في الظلماء، وقد رصع تاجها بالنجوم ، التي تذهب رؤيتها الهموم والغموم، مهرجان حي من الحسن الباهر، حفل بهيج من الجلال الظاهر ، الجوزاء تضحك في الظلماء، كأنها حسناء في قصر أحد العظماء ، الثريا في صويحباتها ، ومع رفيقاتها ، في مشهد عجيب ، وفي صمت رهيب ، سُهيل وقد هجر الجميع واعتزل ، وهو واقف ما مشى وما نزل ، آلاف النجوم تجمل هذا الفضاء الكبير ، بتقدير اللطيف الخبير ، نجم تراه عن الجميع شاردًا ، ونجم يحرق ماردًا ، ونجم يُعرف به السفر ، ويستدل به البدو والحضر ، ونجم إنما هو زينة ، لهذه السماء الحسينة .

أَلَمْ تَرَ هَذَا الكَوْنَ فِي صُنْعِهِ عِبَر

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ فِي طَلِيعَتِهِ خَبَر

كَأَنَّ الثُّرَيَّا عَلَقَتْ بِجَبِينِه

وَفِي جِيدِهِ الشِّعْرى وَفِي وَجْهِهِ الْقَمَر

الجمال في الجبال ، بالوقار قائمة، وفي جلال القدر هائمة، ثابتة على مر الأزمان، باقية ما تعاقب الحدثان، تمر بها الرياح الهوجاء، وهي صامدة صمّاء . عاش معها ثمود وعاد، وساسان وشداد، وهي باقية والجمع قد باد، صاحبت القرون، وشاهدت فرعون وقارون، فبقيت وهم ماتوا ، وحضرت وهم فاتوا ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا* فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا** ﴾. وكل ما مر يدخل في جمال الذات ، وحسن الصفات .

أما جمال المعنى ، فكن معنا ، ولا تذهب وتدعنا . فمن ذلك جمال البيان ، مثلما أشرقت به شمس القرآن ، أما رأيت حسن هذا الكتاب المقدس ، الذي على الصدق تأسس .

تأثير يسافر إلى أعماق الأرواح، وأسر يشد ما اهتز من الصور والأشباح ، نبأ يقف العاقل متفكرًا ، وخبر يجعل الإنسان متذكرًا ، حقيقة تغوص في الضمائر ، وطهر يرسخ في السرائر ، موكب من النور يجتث أكوام الرذيلة ، فيض من الحق يحمل معاني الفضيلة ، قافلة من

الصلاح تطوي صحراء النفوس طيًّا ، نهر من البر يروي القلوب العطشى رِيًّا ، إيماء وإيجاز ، وإفحام وإعجاز ، عذوبة وحلاوة ، وسلاسة وطلاوة ، قوة وأصالة ، فصاحة وجزالة ، لغة جميلة ، مقاصد جليلة ، براعة استهلال ، وحسن تفصيل وإجمال ، يسافر بقلبك إلى عالم الخلود ، ويرتحل بروحك إلى حقيقة الوجود ، ويغسل ضميرك من لوثة الخيانة ، ويطهر كيانك بماء الأمانة ، مشاهد وصور ، وأحداث وعبر ، وأخبار وسير، وقصص وأمثال، وأفعال وأقوال ، عالم الحياة بأريجه وضجيجه، وعالم الموت بأنَّاته ونشيجه، دول تمر مر السحاب ، وملوك تدس في التراب ، تقرأ هذه المعجزة الخالدة ، فإذا الأمم البائدة ، حضارات تسقط كأوراق التوت ، وممالك تتهاوى كبيت العنكبوت ، والقرآن يناديك من أطراف لبك ، ومن سويداء قلبك .

تدبر يا عبد ، جد فإن الأمر جد ، ودع الرد والصد ، استفق يا إنسان ، اهجر عالم الغفلة والنسيان . انبعث من قبور الأشقياء ، وتعال إلى جنات الأتقياء ، انفض غبار الوثنية، ارفض وساوس الجاهلية ، أعتق رقبتك من النار ، حصن نفسك من البوار، ارفع رأسك في سماء الكرامة ، أنت من أمة الخلافة والإمامة ، تقدم لإصلاح العالم ، فالكل سواك هائم عائم .

سَمِعْتُكَ يَا قُرآنُ وَاللَّيْلُ وَاجِمٌ

سَريت تَهزُّ الكَوْنَ سُبْحَانَ مَنْ أَسْرَى

فَتَحْنَا بِكَ الدُّنْيَا فَأَشْرَقَ نُورُهَا

فَسَلْ دَوْلَةَ الأَخْبَارِ يَرْمُوكَ أَوْ بَدْرَا

أيها الإنسان ، شاهد الكون ، بعين الإيمان ، تنظر للشوك ولا ترى الزهور ، تشاهد الآسن ولا تبصر الطهور ، يهولك الليل بالظلام ، ولا تستمتع ببدر التمام ، تشكو من حرارة الشمس اللاذعة ، ولا تتلذذ بتلك الأشعة الساطعة . تستوحش من وحدة الصحراء ، ولا يؤنسك فيها روعة الإيحاء ، ما لك تزعجك الرياح الهوجاء، فأين حسنها إذا زارتك وهي رخاء؟ تنظر إلى الصخر كيف تحجّر، ولا تنظر إلى الماء منه كيف تفجر، تبصر رداءة التراب، ولا تدرك أنه مادة الإنجاب والإخصاب، لا ترى من السيل إلا الدمار ، وهو مصدر النماء والعمار ، تأخذ من المصيبة العويل، وتنسى الأجر الجزيل .

تضع على عينيك نظارة سوداء ، لترى الحياة جرداء مرداء ، فأين الندى والطل ، وأين الخضرة والظل؟ تسمع نعيق الغراب ، ولا تنصت لهديل الحمام الجذاب ، انظر إلى الحياة في ثياب جمالها ، وفي رداء جلالها ، شاهد الكون وهو في عباءة البهاء ، وحلة السناء ، طالع العالم بعين الحب ، لتشاهد بديع صنع الرب ، واعلم أن الجحود إلحاد ، والتنكر فساد ، ومن لم يشاهد إلا القبيح ، فرأيه غير صحيح ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ ﴿ **هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ** ﴾ .

■ المقامَــة الـفـقـهـيَّــة ■

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾

يَأْبَى السُّــؤَالُ فَــلا يُـرَاجِعُ هَـيْـبَــةً
وَالسَّــــائِلُونَ نَوَاكِسُ الأَذْقَـــانِ
أَدَبُ الـوَقَــارِ وَعِــزُّ سُلْطَانِ التُّــقَى
فَــهُــوَ المُطَاعُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ

من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين ، والفقهاء أفضل من العابدين . بل فقيه واحد، أشد على الشيطان من ألف عابد ، والتفاضل ليس بشجاعة الشجعان ، فليس الأسد أفضل من الإنسان ، والإنسان لا يراد منه المصارعة ، بل المحاجّة بالدليل والمقارعة ، وليس المدح بقوة البنيان ، وهل عظمت بقوة أجسامها الثيران ، ولكن العبد يراد منه الفهم، ويفضل بالعلم ، فإذا فقه الحجة ، وعرف المحجة ، نال السعادة الأبدية ، والفضيلة السرمدية .

وقد عيّر الله أعداءه بعدم الفقه في آياته ، ووصفهم بسوء الفهم لبيّناته . وقد وصف المنافقون بضخامة الأجسام، والتشدق في الكلام ، لكنهم ذموا بالفهم السقيم ، ووصموا بالرأي العقيم ، فقد حرمهم الله نور البصيرة ، لخبث السريرة ، ولسوء السيرة ، فليس التمايز بكثرة

المال ، ولا بصفة الجمال ، ولا بكمال القوة ، ولا بتمام القوة ، إنما التمايز بتفاضل العقول ، في سوق الرد والقبول . فهنيئًا لمن ترك العنق في سيره ونصّ ، واستنبط من النص ، فإن تقليب البصيرة في صفحات الأدلة ، من أعظم حسنات خدّام الملة ، وإن تحديق القلب في مناجم الآثار ، من أفضل أعمال الأبرار، وهل فاق وبز، إلا من بالوحي اعتز ، فليس العلم بكثرة الرواية ، ولكنه بالفقه والدراية، وليس الفقه كلامًا يحفظ ، ولا جملاً تلفظ ، بل فهم عن الله وعن رسوله ، ومعرفة القول بدليله ، وليس الفقه حكاية آراء الرجال ، وجمع القيل والقال ، بل الفقه معرفة مقاصد الشريعة ، واستنباط المعاني البديعة . وانظر لابن عباس ، كيف بز الناس ، لما دعا له بالفقه في الدين ، سيد المرسلين، ولما تكلم الزنادقة ، والفرقة المارقة ، في أصحاب الحديث، واستهزءوا بسعيهم الحثيث، وقالوا : إنهم ينقلون أحاديث ليس لها معاني، ولا تقوم على مباني، مثل يا أبا عمير ، ما فعل النغير ، تصدى لهم محمد ابن إدريس، فاستنبط كل معنى نفيس ، فأفحمهم ، وفي كل بلاء أقحمهم، وقيل لابن عباس، في مجلس إيناس ، بم حصلت على هذا العلم، ووصلت إلى هذا الفهم ؟ قال : بلسان سئول ، وقلب عقول ، وامتن الله على سليمان ، وفضله على أبيه في معرفة البرهان ، لما حضر لديه الخصمان ، قال بعض العلماء : الفقه ما دلك على الرشاد، وأبعدك عن الفساد ، ومن سجايا الفقيه ، صبره على السفيه ، ومجانبته

كل أمر كريه ، فمن عقل عن الله أمره ، وعرف قدره ، فهو العالم العارف ، والمتقي الخائف .

كان أبو حنيفة يبيع البز ، ثم نال بالفقه العز ، كلما أعضلت المشكلات ، أخرج من دماغه القبسات النيّرات ، فحلها برأي جزيل ، وفهم جليل .

الفقه أغلى بضاعة في سوق العلوم ، وأشرف مواهب القوم ، فإنك تجد الفقيه محل الاعتبار ، ترمقه الأبصار ، ويعظمه ذوو الأخطار ، لأن حاجة الناس إلى الفقه شديدة ، ومجالس الفقهاء لكل الطبقات مفيدة ، وقد تجد الرجل في اللغة من الأعيان ، يشار إليه بالبنان ، وترى النحوي أصبح مرجعاً في علمه ، جهبذاً في فهمه ، وتبصر الشاعر بشعره الرائع يخلب لبّ السامع ، وتشاهد الخطيب ، يستولي على القلوب ، ويأتي بالقول المحبوب ، غير أن الفقيه الربّاني ، يجمع محاسن المعاني ، ويبلغ بهمته الأماني ، وقد بز الكل ، وارتقى المحل الأجل ، لعظيم حاجة الناس إليه ، وتزاحمهم عليه .

وقد عرفت بالتجربة ، أن الفقه أجلّ موهبة ، إذا قرن بالدليل ، وبني على التأصيل ، فإني رأيت الفقيه إمامًا ، وفي كل جمع مقدامًا ، وحضرت اجتماعات ، وندوات ، ومحاضرات وأمسيات ، فإذا الفقه أعظم مطلوب ، وأجل موهوب ، فالفقهاء يُسألون في أعضل المسائل ، وتفد لهم من الأقطار الرسائل ، والكل ينصت للفقيه بما يقرره ويمليه ،

فالجميع يصحح على الفقيه عبادته ، والسلطان يقوي بالفقهاء سيادته ، ولو لحن في الخطاب ، وأبطأ في الجواب ، ولو قصر في التأريخ لما قابلوه بالتوبيخ ، لكن من قصر في الأحكام ، قوبل بالملام من كافّة الأنام، فالعلم ما دل على الرب ، وصلح به القلب ، وهجر به الذنب، وما سواه فليس بذي بال ، ولو تشدق به الرجال ، وقد عَرَفْنَا مَنْ دَرَس الفقه سنوات ، فصار به من السادات ، وعرفنا من أفنى عمره في بعض الفنون ، وهو في خانة النسيان مدفون ، لم يستفد منه أحد ، ولم يعرفه أهل البلد ، والسبب في اهتمام البشر ، بفقه الأثر ، لأن علم الكتاب والسنّة ، أقرب طريق إلى الجنّة ، فبهذا عظم قدر فقهاء الإسلام ، على مرّ الأيام ، فهم طائفة الموقعين ، عن رب العالمين ، وهم سرج الظلماء ، وغيث السماء .

زين الله بهم الأمة بين الأمم، كما زين السماء بالنجوم في الظلم ، فهم كتيبة الديانة، وحملة الأمانة، وحراس المنهاج، وفرسان الحجاج ، وهم حفاظ النصوص الشرعية ، ومحاربو الطرق البدعية ، كلما تسلق إلى سماء الشرع كاذب ، أحرقوه بشهاب ثاقب ، وصبوا عليه العذاب الواصب ، فتوى في صحيفة ، أقوى من قذيفة ، ومسألة بدليل ، أفضل من مال جزيل ، بفتوى الفقهاء تحقن الدماء ، ويفصل بين الناس في القضاء ، وتقام الحدود ، وتنفذ الشروط والقيود ، ينفذ أحكامهم الأمراء، ويحترم كلامهم الوزراء، ويقوم بفتواهم البيع والشراء ، وتجلّهم

المحـاكم ، وتتزين بهم المواسم، يوقـر الناس ما سطروه، ويتبعـون ما حرّروه، ويتناقل حديثـهم الركبان، وتطير مسـائلهم في البلدان ، يتشوق العالم لأخـبارهم، ويفد الطلاب إلى ديارهم، ولايتهم لا تقـبل العزل، وقولهم فصل ليس بالهزل، والناس ينتظرون أقوالهم، ويقلدون أفعالهم، تشيعهم الأبصار، ويدعو لهم الأخيار، يتباشر الناس بقدومهم ، وينهلون من علومهم ، فهم في الوجـود كالتيجان ، وكلامهـم كالمرجان ، وهم أئمة الإنس والجان .

* * *

▪ المقامَــة الـجُغْـرَافـيَّــة ▪

﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الـمَوْتَ شَافِيًا

إِذَا لَمْ تَفْـقَـهْ أَسْـرَارَ الجُـغْـرَافِـيَـا

واعلم أن الأشياخ ، أخبرونا أن الإنسان يتأثر بالتضاريس والمناخ . فأهل الجبال ، أهل صفاء وجمال ، وأهل عاطفة واستعجال ، وأهل الصحراء ، أهل مكر ودهاء ، وصبر وجفاء ، وكلما قرب الإنسان من خط الاستواء ، كثرت حِدّته والبغضاء ، ومن يسكن القطب البارد ، فإنه ثقيل جامد ، ومن يعش في أرض خضراء ، تجد له رِقة ورواء، ولطفًا ووفاء ، ومن كانت داره في أرض مقفرة ، رأيت منه طبائع منكرة ، من الغلظة والشدة ، والضيق والحِدَّة .

فأهل جزيرة العرب، يغلب عليهم الذكاء والأدب، لصفاء سمائهم ، وطيب هوائهم ، وعذوبة مائهم، ولذلك اختار الله منهم الأنبياء، لأن طبيعة بلادهم في استواء، واعتدال ونقاء ، فليس لهم خفة البلاد الحارّة، لأن أمزجتهم غير قارة ، فتجدهم أهل عجلة وطيش ، والطرب عندهم ألذ من العيش . وليس لأهل الجزيرة كثافة طبع الأوربيين، لأنك تراهم على المادة مربين ، فتعلقهم بالعالم المشهود ، مع إنكار العالم المفقود، وشكهم في غير الموجود .

وللصفات الحيوانية ، أثر على الفصيلة الإنسانية ، فتجد أهل الإبل أهل كبر وخيلاء، وأهل الغنم أهل سكينة ووقار وحياء ، كما أخبر بذلك خاتم الأنبياء ، ومعاشرة السباع ، تؤثر في الطباع ، ومن خالط الوحوش توحش ، فتجده إذا أكل يهرش وينهش ، لأن الصاحب ساحب ، والطبع جاذب . يقول المصطفى : «**مَنْ بَدَا جَفَا**» وأهل المدن والحواضر أهل رقة ، وفي النظر أهل دقة ، والله أرسل من القرى الحاضرة، رسله بالشرائع الطاهرة، لأن أهل القرى الآهلة بالسكنى أصحاب تجربة ، وأذهان مدربة ، وآداب قويمة، وفطر في الغالب مستقيمة .

وانظر إلى أهل فارس الأعاجم ، لما سكنوا الريف واشتغلوا بالزراعة فكل عليها قائم ، صرفت أذهانهم عن التفكير ، وضعفت في جانب التدبير، فلم يكن عندهم استعداد لفهم المنقول ، لعدم خصوبة العقول .

ولما جمح الروم إلى الخيال ، وأوغلوا في التصور حتى غابوا به عن الحال ، كثر فيهم الزيغ الفكري ، والضلال النظري ، لسابق ما عندهم من دين محرّف ، وأثاره من علم متلقف . فاختير العرب للرسالة المحمديّة ، لتمام الفطرة النقية ، ووفرة الأذهان الذكية .

واعلم أن من البلدان من تنتج الكاكاو والأناناس، وبعضها تصدر الذهب والألماس، والأخرى تصدر الرجال من أهل الكرم والباس ، وبعض الدول تنتج للعالم الحديد ، وبعضها تعلم العالم التوحيد ، ولأن العالم بحاجة إلى صَلاح وبِرٍّ ، أشد من حاجته إلى شعير وبُر .

والجغرافي المؤمن ينظر إلى الجبال كأنها منائر تعلن الأذان ، أو أصابع مؤمن توحّد الرحمن ، ويذكّره النسيم ، بنفحة النعيم المقيم ، وقيظ الصيف الحار ، بحرارة النار ، ويذكّره برد الشتاء وله هرير ، ببرد النار والزمهرير ، وتذكّره الغابات ، حدائق الجنات ، ويتذكّر كم مرّ على الجبال من أجيال ، ثم دفنوا تحت الرمال . ويعجب من قدرة القدير ، وحكمة اللطيف الخبير ، حيث جعل كل شيء بحكمةٍ ، وكل فعل برحمةٍ ، فلما كانت الصحراء ، قليلة الماء ، معروضة للشمس في العراء ، أنبت فيها شجراً يناسبها ، وطبيعته تقاربها ، وانظر إلى الأشجار ، على ضفاف الأنهار ، دائمة الرواء ، كل فصل هي خضراء، تقاوم كثرة الماء ، وجعل حيوان البر بلا وبر ، قليل الشعر ، فهو على حر الرمضاء مصطبر ، وحيوان القطب عليه من الشعر غطاء ، ومن الوبر رداء ، ليعتبر بالحكمة من شاء .

يَا مَاسِحَ الأَرْضِ بِالأَمْيَالِ تَذْرَعُهَا

يَوْمًا بِعَرْضٍ وَيَوْمًا تَمْسَحُ الطُّولا

انْظُرْ لِمَمْلَكَةِ الإِبْدَاعِ ضَاحِكَةً

فِي عَالَم صَارَ بالأَحْيَاءِ مَأْهُولا

* * *

المقامَــةُ الْبُولِيسِيَّةُ

﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾

وَمَنْ عَــرفَ الأَيَّامَ مَـعْــرِفَـتِي بِـهَــا
وَبِالـنَّاسِ رَوَّى رُمْــحَـــهُ غَــيْـــرَ ظَالِمِ
فَلَيْسَ بِمَـــرْحُـــومٍ إِذَا ظَفَـــرُوا بِـهِ
وَلا فِي القَـضَـا الجَـارِي عَلَيْهِـمْ بِآثِمِ

الأفكار الإبليسية، ما تردها عن العبد الهراوي البوليسية ، بل تردها الأذكار، كما وردت عن المختار ، ولكن البوليس ، عمله نفيس ، إذا قام بالواجب ، وحمى الناس من كل سالب وناهب . وفي الآثار : عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الجبار ، وعين باتت تحرس الديار ، ولو لم يكن في البلاد بوليس وشرطة ، لوقع الناس في ورطة، وسوف يأكل القوي الضعيف ، ويعتدي السخيف على الشريف ، وتوزع الناس إلى أحزاب، وكسر كل باب ، ولقفز اللص من الدريشة ، ولملّ الناس العيشة ، وسمعت دوي الرصاص ، وصاح الناس هل من مناص ، وصار أمن الناس أضحوكة ، لأنه مهدد بعصابات محبوكة ، وأصبح الليل ، يزحف كالسيل ، بكل ويل ، وتحولت الأسواق ، إلى

عَذَابٍ لا يطاق ، فيسلط الله البوليس ، على جنود إبليس ، لأن من لا يردعه القرآن ، أدبه أعوان السلطان .

أُرْهِبُ بِسَيْفِ اللهِ كُلَّ مَكَذِّبٍ
مُتَهَتِّك فِي الزُّورِ والْبُهْتَانِ
فَالسَّيْفُ دَاءٌ للخَلِي مِنَ التُّقَى
وَمُكَذِّبِ الآثَارِ والقُرْآنِ

فالذي هجر المسجد ، وذهب يعربد ، وهدّد أمن الناس وتوعد ، ليس له إلا سوط حار ، أو سيف بتّار ، ليكون عِبْرَةً لغيره من الأشرار ، ولكن على من حك العين أن لا يدميها ، لئلاّ يكون حاميها حراميها ، بل يتقي الله البوليس في العباد ، ويكون همه إصلاح البلاد ، ليعم الأمن والأمانة ، والهدوء والصيانة .

ورضي الله عن عمر ولله درّه، لأنه كان في يمينه دِرّة، أغلى من الدُّرة ، يؤدب بها من عصاه، ويضرب بها من رفض الحق وأباه . وعمر أول من أنشأ العسَّة في البلد، لردع من فسد، وقد أحضروا له رجلاً فاسد الفكر، ظاهر النكر، لبّس على الناس في الدِّين، ليكونوا مرتدين، فزجره عمر وفضحه، وضربه بالدِّرة وبطحه، وأذهب من رأسه بهراوة السلطان، وساوس الشيطان، فلما أفاق الرجل من الغيبوبة ، ودماؤه مسكوبة، صاح في رأسه مؤذن التوحيد ، أصبحنا وأصبح الملك لله

الحميد، فـهذا العلاج الجذّاب ، والدواء المُذاب، يصرف مـن صيدلية عمر بن الخطاب :

يَا نَاسِفَ الظُّلْمِ ثَارَتْ هَاهُنَا وَهُنَا

فَظَائِعُ أَيْنَ مِنْهَا زِنْدُكَ الوَارِي

واعلم أن من الناس طائفة ، ليست من ربها خائفة ، لا تجدي فيهم النصائح ، ولا يخافون الفضائح ، وإنما ينفع فيهم عصا خيزران ، كأنها ثعبان ، تلف على الأكتاف والأمتان ، حتى تدمع من حرها العينان ، ويصيح المضروب : الآن حصحص الحق وبان .

السَّوْطُ فِيهِ مَوَاعِظٌ وَنَصَائِحُ

مَا ضَمَّهَا لَوْحٌ وَلَا دِيوَانُ

لُغَةٌ سَيَفْهَمُهَا غَبِيٌّ مَارِدٌ

مَا فِي حَشَايَا قَلْبِهِ إِيمَانُ

فإن لم يردع السوط من سلبْ ، ولم ترد العصا من نهبْ ، فالسيف أصدق أنباءً من الكتب .

* * *

مقامة الهمّة

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾

أَمْطِرِي لُؤْلُواً سَمَاء سَرَنْدِيبَ
وَفِيضِي آبَار تَكْرُور تِبْراً
أَنَا إِنْ عِشْتُ لَسْتُ أُعْدَمُ خُبْزاً
وَإِذَا مِتّ لَسْتُ أُعْدَمُ قَبْراً
هِمَّتِي هِمَّةُ المُلُوكِ وَنَفْسِي
نَفْسُ حُرٍّ تَرَى الْمَذَلَّةَ كُفْراً

السلام على أهل الهمم ، فهم صفوة الأمم ، وأهل المجد والكرم ، طارت بهم أرواحهم إلى مراقي الصعود ، ومطالع السعود ، ومراتب الخلود ، ومن أراد المعالي هان عليه كل همّ ، لأنه لولا المشقة ساد الناس كلهم ، ونصوص الوحي تناديك ، سارع ولا تلبث بناديك ، وسابق ولا تمكث بواديك ، أُمية بن خلف ، لما جلس مع الخلف ، أدركه التلف ، ولما سمع بلال بن رباح ، حي على الفلاح ، أصبح من أهل الصلاح .

اطلب الأعلى دائماً وما عليك ، فإن موسى لما اختصه الله بالكلام، قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ ، المجد ما يأتي هبة ، لكنه يحصل

بالمناهبة ، لـمَّا تعلمت الصيد الكلاب ، أبيح صيدها بنص الكتاب ، ولما حمل الهدهد الرسالة ، ذكر في سورة النمل بالبسالة ، نجحت النملة بالمثابرة ، وطول المصابرة ، تريد المجد ولا تَجِدّ ؟ تخطب المعالي ، وتنام الليالي ، ترجو الجنة ، وتفرّط في السنّة .

قام رسولنا ﷺ حتى تفطّرت قدماه، وربط الحجر على بطنه من الجوع وهو العبد الأوّاه، وأدميت عقباه بالحجارة ، وخاض بنفسه كل غارة .

يُدعى أبو بكر من الأبواب الثمانية ، لأن قلبه معلق بربه كل ثانية ، صرف للدين أقواله ، وأصلح بالهدى أفعاله ، وأقام بالحق أحواله ، وأنفق في سبيل الله أمواله ، وهاجر وترك عياله .

لبس عمر المرقّع ، وتأوّه من ذكر الموت وتوجّع ، وأخذ الحيطة لدينه وتوقّع ، عَدَلَ وصدق وتهجد ، وسأل الله أن يستشهد ، فرزقه الله الشهادة في المسجد .

عَلَيْكَ الجِدَّ إنَّ الأَمْرَ جَدٌّ

وَلَيْسَتْ كَمَا ظَنَنْتَ وَلا وهِمْتَا

وَبَادِرْ فَاللَيَالِي مُسْرِعَاتٌ

وَأَنْتَ بِمُقْلَةِ الحَدَثَانِ نِمْتَا

اخرج من سرداب الأماني ، يا أسير الأغاني ، انفض غبار الكسل ،

واهجر من عـذل ، فكل من سار على الدرب وصل ، نـسيت الآيات ، وأخَّرْت الصلوات ، وأذهبت عمرك السهرات ، وتريد الجنات ؟!

ويلك والله مـا شبع النمل حـتى جدّ في الطـلب ، وما سـاد الأسد حتى افـترس ووثب ، وما أصاب السـهم حتى خرج من القـوس ، وما قطع السيف حتى صار أحدّ من الموس .

الحمـامة تبني عشـها ، والحمّـرة تنقل قشها ، والـعنكبوت يهندس البيوت ، والضب يحفر مغارة، والجرادة تبني عمارة ، وأنت لك مدة ، ورأسك على المخدة ، في الحديث : « **احرصْ علَى ما يَنْفَعُكَ** » ، لأن مـا ينفعك يرفـعك ، «**المـؤْمنُ القَـوِي خَـيـرٌ وَأَحَبُّ إلى الله مِنَ المُـؤْمِنِ الضَّعِيفِ**»، بالقوة يبنى القصر المنيف ، وينادل المجد الشريف .

هِمَّـــةٌ تَـنْطَـحُ الثُّـــرَيَّا وَعَـــزْمٌ
نَبَــــوِي يُزَعْـــزِعُ الأَجْـــبَـــالا

صاحب الهمة ما يهمه الحرّ ، ولا يخيفه القرّ ، ولا يزعجه الضرّ ، ولا يقلقه المرّ ، لأنه تدرع بالصبر .

صاحب الهمة ، يسبق الأمة ، إلى القمة ، ﴿ **وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ** ﴾ ، لأنهم على الصالحات مدربون ، وللبر مجربون .

الثعلب يرضى بالجيفة ، فكتب في آخر الصحيفة ، لو أسرع الحمار مـثل الحصـان ، لكان من الهـوان يُصان ، الشـمس تجـري ، والقمـر

يســري، وأنت نائم لا تدري ، أنت أكــول شــروب ، لعــوب طروب ، صاحب ذنوب .

فَلَنْ يَنْفَعُ الأَسَدَ الحَيَاءُ مِن الطوى
وَلَنْ تَتَّـــقِي حَـــتَّى تَكُونَ ضَـــوَارِيَا

لما تجرع الأحنف غصص الغضب ، صار حليم العرب ، ولما بذل روحه للموت عنتــرة ، شبهوه بقسورة ، ولمّا بذل حــاتم ، طعامه لكل قادم ، وأنفــق أمواله في المــواسم ، صار مضــرب المثل فــي الجود ، وقصة الكرم في السهول والنجود .

لما طار القمــري قعد فوق الأغصان ، ولما مــشى الجعلان بقي مع الديدان ، سافر العود من الهند ، فسُمي بالند ، وأقام بأرضه الخشب ، فسماه الناس الحطب .

إديسون مكتشف الكهــرباء ، قضى عمره في اختــراعه حتى أذهل به الحكماء ، فلا نامت أعين الأغبياء .

مكتشف الذرة ، أجرى عليها التجربة عشرة آلاف مرة .

عمي بعض المــحدِّثين من كثرة الرواية ، فمــا كلَّ ولا ملَّ حتى بلغ النهاية ، مــشى أحمد بن حنبل مــن بغداد إلى صنعاء ، وأنت تفــتر في حفظ دعاء . سافر أحدهم إلى مصر ، غدوّة شهر ، ورواحة شهر ، في طلب حديث واحد ، ليدرك به المجــد الخالد . لولا المحنة ، ما دعي أحمــد إمام السنة ، وصل بالــجَلْد إلى المجــد . ووُضِعِ ابن تيمــية في

الزنزانة ، فبز بالعلم زمانه . واعلم أن الماء الراكد فاسد ، لأنه لم يسافر ويجاهد ، ولما جـرى الماء ، صار مطلب الأحيـاء ، بقيت على سطح البحر الجـيفة ، لأنها خفيـفة ، وسافر الدر إلى قاع البـحر، فوضع من التكريم على النحر .

فَكُنْ رَجُـــلاً رِجْلـهُ فِي الثَّـــرَى
وَهَامَـــة هِـمَّـــتِـــهِ فِي الثُّـــرَيَّا

يا كثيـر الرقاد ، أما لنومك نفاد ، سوف تدفع الـثمن ، يا من غلبه الوسن ، تظن الحياة جلسـة وكبسة ، ولبسةٌ وخلسة ، بل الحـياة شرعة ودمعة ، وركعة ومحاربة بدعة .

الله أمـرنا بالعمل لـينظر عملنا ، وقـال : ﴿ **وَالَّذِينَ جَـاهَـدُوا فِـينَا لَنَهْـدِيَنَّهُـمْ سُبُلَنَا** ﴾، فالحـياة عقيدة وجـهاد ، وصبر وجـلاد ، ونضال وكفاح ، وبر وفـلاح، لا مكان في الحياة للأكول الكسول ، ولا مـقعد في حافلة الدنيا للمخذول .

ابدأ في طلب الأجر من الفجر، قـراءة وذكر، أو دعاء وشكر، لأنها لحظة انـطلاق الطيـر من وكـــورها، ولا تنس: «**بَـارَكَ اللهُ لأُمَـتِي فِي بُكُورِهَا**».

العالم في حركة ، كأنه شركة ، وقلبك خربة ، كأنك خشبة ، الطير يغـرّد ، والقمـري ينشد ، والمـاء يتمـتم ، والهواء يهـمهم ،والأسـود

تصول، والبهائم تجول ، وأنت جثة على الفراش ، لا في أمر عبادة ولا معاش ، نائم هائم ، طروب لعوب ، كسول أكول .

استيقظ على نبرات الخطاب الشرعي ، ودعنا من وساوس الهاجس البدعي ، لأن الشريعة ، تدعو للهمة البديعة ، تقول لأتباعها : ﴿ **فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُم** ﴾ ، لأنهم حملوا كتابهم، وألقوا للعالم خطابهم ، فهداهم ربهم صوابهم .

وأهل السوالف ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، لأن لهم في الضلالة سوابق ، فهم يتصيدون كل مارق ، عن الحق آبق ، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، فهبوا وتركوا مضجعهم ، ولو أراد الله بهم خيراً لأغاثهم ، ولكن كره الله انبعاثهم .

الفرس بهمته يعض لجامه ويلوك ، فركبه الملوك ، والحمار آثر المقام في الرباط ، فضرب بالسياط :

سَوْفَ تَرَى إِذَا انْجَلَى الغُبَارُ

أَفَرَسٌ تَحْتَكَ أَوْ حِمَارُ

يقدم لك ابن جرير ، كتاب التفسير ، محققًا منقحًا ، مدبّجًا مصحّحًا ، ثم لا تصطفيه ، ولا تقرأ فيه . ألّف ابن حجر فتح الباري في ثلاثين سنة ، فلله دره ما أجمل كتابه وأحسنه ، ثم تهمله في الرف، كأنه دُف ، مع الأسف .

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ ﴾ .

وَلَوْ كَانَ فِي قَلْبِ الْمُحِبِّ صَبَابَةٌ
لَسَارَ عَلَى الأَقْدَامِ فِي الشَّوْكِ والحَفَى

هذا الكافر مثابر ، كل يوم مغامر ، سيَّر في الأرض السيارة ، وأطار في السماء الطيارة ، جعل لغذائك ثلاجة ، ولمائك زجاجة ، وما لك عمل إلا أن تأكل وتشرب ، وتلهو وتلعب .

وَلا تَقُلِ الصِّبَا فِيهِ اتِّسَاع وَفكّر
كَمْ صَبِيٍّ قَدْ دفَنْتَا
تَفِرُّ مِنَ الهَجِيرِ وَتَتَّقِيهِ
فَهَلاَّ مِنْ جَهَنَّمَ قَدْ فَرَرْتَا

أنت تفتر والملائكة لا يفترون، وتسأم العمل والمقربون لا يسأمون ، بم تدخل الجنة، هل طعنت في ذات الله بالأسنة ؟ هل أوذيت في نصر السنة ؟ انفض عنك غبار الخمول ، يا كسول ، فبلال العزيمة أذّن في أذنك فهل تسمع ، وداعي الخير دعاك فلماذا لا تسرع . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ .

ولابد للهمم الملتهبة أن تنال مطلوبها ، ولابد للعزائم المتوثبة أن تدرك مرغوبها ، سنة لا تتبدّل ، وقضية لا تتحوّل .

سَـوْفَ تَأْتِيكَ المَـعَـالِي إِنْ أَتَيْـتَـا

لا تَقُلْ سَـوْفَ عَـسَى أَيْنَ وَلَيْـتَـا

واعلم أن الهمة توقد القلب، واستسهال الصعب، وركوب الخطب، فالعـذاب بالهمـة عذب . ومن عنده همـة عارمة ، وعـزيمة صـارمة ، اقتحم بها أسوار المعالي ، وصار تاريخه قصة الليالي .

فقل للمتخلفين اقعـدوا مع الخالفين، لأن المنازل العالية ، والأماني الغالية ، تحتاج إلى همم موَّارة، وفتكات جبارة، لينال المجد بجدارة . وقل للكسـول النائم، والثقـيل الهـائم، امسح النوم من عـينيك، واطرد الكرى من جفنيك، فلن تنال من ماء العزة قطرة، ولن ترى من نور العلا خطرة ، حتى تثب مع من وثب ، وتفعل ما يجب ، وتأتي بالسبب .

أَقْـسَـمْتُ أَنْ أُورِدُهَا حُـرَّةً

أُصَافِحُ الْمَـجْـدَ بِعَـزْمِ الصَّـبَـاحْ

إِمَّـا فَـتى نَالَ المُنَى فَـاشْـتَـفَى

أَوْ فَـارِس زَارَ الرَّدَى فَـاسْـتَـرَاحْ

إِذَا سَـأَلْـتَ اللهَ فِي كُـلِّ مَـا

أَمَّلْتُـهُ نِلْتَ المُنَى وَالنَّجَـاحْ

بِهِـمَّـةٍ تُخْـرِجُ مَـاءَ الصَّـفَـا

وَعَـزْمَـةٍ مَـا شَـابَهَـا قَـوْلَ آحْ

ألا فليهنأ أرباب الهـمم ، بوصول القمم ، وليـخسأ العاكـفون على غفـلاتهم في الحـضيض ، فلن يشـفع لهم عند ملكوت الفضل نـومهم العريض ، وقل لهؤلاء الراقدين ﴿ **إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ** ﴾ فهُبّـوا إلى درجات الكمـال نساءً ورجالاً ، ودربوا على الفضيلة أطفالاً ، وانفروا خفافًا وثقالاً .

طَاوِلْ بِهَا النَّجْمُ مَالَ النَّجْمُ أَوْ جَنَحَا

وَمَـا طَلَّ الجَـفْنُ أَوْ سَـمَـحَـا

فَـإِنْ تَشَكَّتَ فـعللهَـا المَـجَـرّة مِنْ

صفوء الصَّبَاحِ وَعْدَهَا بِالرَّوَاحِ ضُحَى

* * *

■ مقامـــة الـبخـلاء ■

﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾

إِنِّي نَزَلْتُ بِكَذَّابِينَ ضَيـفُهُمْ
عَنِ القِـرَى وَعَنِ التِّـرْحَـالِ مَـرْدُودُ
جُودُ الرِّجَالِ مِنَ الأَيْدِي وَجُودُهُمُو
مِنَ اللِّسَـانِ فَـلا كَـانُوا وَلا الجُـودُ

البـخـيل نذل ، والبخـل خلق رذل ، وحسـبك أن الرسـول ﷺ استعـاذ من البـخل، وليت البـخيل إذا عـلا مـات، لأن له على بخله علامات، فمنها أن يفقد الصواب ، إذا طُرق الباب، ويُكثر السباب، عند رؤية الأجناب، وإذا رأى الضـيف ضاق صـدره ، والتبس عليـه أمره ، فتـعلوه قشعـريرة ، ويقع في حيرة ، ومنهـا أن يكثر الأعذار ، ليـخرج نفسـه من هذه الأخطار ، وإذا قام بضيـافة ، نوّه بها وهوّلهـا كأنه تولى الخلافة . يذم الأجواد ، ويمدح الاقتصاد ، يتفجع إذا رأى طعامه يغرف من القدر ، تفجع الخنساء على أخيها صخر .

أوصى بخيل ولده ، وقـد قطع بالإنفاق كبده ، فقـال يا بني ما هذا الإسراف ، يـا أيها المـتلاف ، أما تخـشى أما تخـاف ، ما تؤثر فـيك النصائح ، ولا تخـاف الفضائح ، أين من كـان يقتصد ، ويحـفظ ماله

ويجتهد ، كان أحدهم رحـمه الله يضع ماله في صُرَّة ، لِئلا يؤخذ على غِرّة ، ثم يُخـرج الصرّة ، في كل سنة مرّة ، فيـقرأُ عليها المـعوذات ، وأعوذ بكلمـات الله التامات ، كان الرغـيف يسد رمقه من الصـباح إلى الليل ، لأنه يعلم أن الدهر أبو الويل ، فخلف من بعدهم خلف ، فيهم كل مسرف جلف ، يأكل في اليوم ثلاث وجبات ، ولا يتفكر في مصارع الأموات ، ليرتدع من هذه الزلات .

أما أخبار البخلاء ، فقد جمعها بعض الأدباء .

فمنهـا أن بخيلاً دخل بيـته ونسي أن يغلق البـاب ، فدخل على إثره فقيـر ممزق الثـياب، فناوله البخيل قطعـة خبزة ، ثم أخذ حـبلاً وربطه وحزّه ، وقال والله لا أتركك تخيف مـسلماً هذه الليلة ، أو تروع مؤمناً بكل حيلة .

وقدّم بخيل الطعام لضـيوفه ، ثم جلس مهمومًا مـحسورًا ، وقال : إنما نطعـمكم لوجه الله لا نريد منكم جـزاءً ولا شكورًا . وطرق فقـير باب بخـيل ، وقـد أظلم الليل ، فـلم يفـتح البـخيـل بابه ، ولم يرفع حجـابه، فصاح الفقـير بصوت كـسير : أين من كانوا يفـرحون إذا رأوا أضيافًا؟ فرد البخيل بقوله : ماتوا مع الذين لا يسألون الناس إلحافًا .

وأعطى أحـد الوزراء بخيـلاً مائة ألف دينار ، حـتى أصبح بهـا من الأغنياء الكبار ، فقال له جيرانه ، هنيئًا لك المبلغ الكبير ، فقال : والله ما هو بكثـير ، وعندي زوجـة وطفل صغيـر ، فإذا أراد أن يخـرج منها

دينارًا ، قبَّله مـرارًا ، وقال : بأبي أنت وأمِّي ، مـا أطيبك حيًّا ، وما أطيبك ميّتا .

لا يَنْزِعُ الْمَوْتُ نَفْسًا مِنْ نُفُوسُهُمُو
إلاَّ وَفِي يَدِهِ مِنْ نَتنِهَا عُودُ

وقال فـقيـر لبخـيل أعطني درهمًا فـقط ، فقال هذا غـلط ، وجور وشطط ، لأن الدرهم مع الدرهم ، مائة درهم ، ثم يزيد إلى ألف ، ثم إلى مائة ألف ، فتريد أن تهدم مالـي ، وتجوع عيالي بسؤالي ، وافرض أنني أعطيت درهمًا ، فلن ألبث حتى أصير مثلك معدمًا ، فأنت تريد أن تغشنا فارحل عنا ، ومن غشّنا فليس منّا .

وَلِلْبَخِيلِ عَلَى أَمْوَالِه عِلَلٌ
زُرْق العُيُونِ عَلَيْهَا أَوْجه سُودُ

ودخل رجل أكول على بخيل فقدم له غداءه ، وجلس حذاءه ، وقال له يوصيه ، اجعل ثلث بطنك للغذاء ، وثلثًا للماء ، وثلثًا للهواء ، قال الأكول : بل كلهـا للطعام ، يا سـيد الكرام ، لأن المـاء سوف ينش ، والهواء سـوف يفش ، فقال البخـيل : أنا منذر محذر ، ومن أنذر فـقد أعذر .

يَا قَائِمًا فِي بَيْتِهِ قَاعِدًا
مِنْ غَيْرِ مَا مَعْنىً وَلا فَائِدَةَ

قَـدْ مَـاتَ أَضْـيَـافُكَ مِنْ جُـوعِـهِم

فَـاقْـرأْ عَلَيْـهِمْ سُـورَةَ المَـائِدَةِ

واعلم أن البخيل كثير الأعذار، دائم الإنذار ، فإن جئته مبكرًا قال : مالك تقـدمت، وإن أبطأت قليلاً قال : هـداك الله تأخرت ، إذا حل به ضيف نسي الترحيب، وقال : هذا يوم عصيب ، وإن طرق بيته طارق ، رآه كأنه سـارق ، وإذا دخل عليه الضيف قلل الكلام ، وأكـثر على أهله السب والخصـام ، ولا يسأل الضيف عن أخبـاره ، بل تراه كثير القـيام والقعود بداره ، وتراه لا يترك في البيت صغـيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فهو يعـرف ما له علاقة بالنفـقة قد ضبطها ووعـاها ، إذا نقص دينه ذكر المعـاذير ، وأن الإنسان لا يسلم من التقصـير ، فإذا أراد أحد التـعرض لشيء من ماله ، أنكر بقلبـه ويده ولسانه ، وأظهر الحميـة والأخذ بالثأر ولو من إخـوانه ، قد هيـأ العذر لكل حـاجة ، وإن لَمْ يَجِـدْ استعـمل الغضب واللجاجـة ، فإن أتاه طالب ، ووفد إليه راغب ، قـال الحقوق كثيرة ، والحاجات كبيـرة ، ويعيد عليك متن «خير الناس من لا يحتاج إلى الناس ، وأفضلهم من كف عنه الباس» .

ومن وصـايا البخيل : عليكم يا إخوان بحفـظ المال ، فإنه لا يعلم أحد بتغير الأحوال، والدنيا من حال إلى حال ، ولن ينفعك إلا مالك ، ولن يقف معك أعـمامك وأخوالك ، واذكروا يا إخـوان تقلب الزمان ، وقلة الأعوان ، فـرحم الله من أمسك ديناره، وأغلق داره، ولم تخـدعه

الدنيا الغــرارة ، فعليكم بالاقتصــاد ، فإنه مذهب الأجواد ، فــقد أدركنا أقوامًــا من الصالحيــن ، كانوا يكيلون الطحيــن ، ويقتصــدون حتى في شرب الماء، لِئلا تذهب أقوالهم هباء ، ومنهم من كان يفترش التراب ، وينام على الأخشاب ، ومنهم من كان يكتفي بوجبة ، في اليوم واحدة ، ليغيظ بجمع المال حاســده ، ثم يقول : وقد أدركت قومًا من الأولياء ، ينامون بلا عشاء ، ويكتفون بالفطور عن الغداء ،وكان أحدهم إذا حَدَّثته نفسُــه الأمارة بالسُّوء بشــراء طعام ، لامهــا أشد الملام ، وخطمــها عن شهــواتها بخطام ، وزمّهــا عن رغباتهــا بزمام ، ولقد أدركت عــبدًا من الأبرار ، ووليًّا من الأخيار ، حدثته نفسه الأمارة ، بشراء خيارة ، فرجع على نفسه بالــتوبيخ ، وأقسم لها لن يعطيهــا هواها ولو أرادت قطعة من البطيخ ، لأن القوم لما صحت منهم العقول ، تركوا الفضول ، وحفظوا أموالهم من كل مسرف جهول .

ولقــد أدركنا مريم العــابدة ، المــقتــصــدة الزاهدة ، وكانت تبـيع الفصــفص ، ولها في ذلــك علم وتخصص ، فــإذا اجتمع لــها ريال ، وضعــتهــا وراء الأقفــال ، وأقسمت بالــله لا يزال حتى تزول الجــبال ، وكانت رحمها الله ، إذا ظمأ الحمار ، أبطأت عليه بالماء ولو كان الماء في الدار ، لتــعوّده الــتحــمل والاصطبــار ، وكانت تأخــذ النخــالة من الشعير، فتجعلها كالخبز الفطير ، وكانت تمشي بين القرى ، تجمع قطع الفرى، وكلما وجدت عودًا أخذته ، وإذا مرت بحب جمعته ، فلا يأتي

المساء، إلا وقد أدركها الإعياء ، لكن يهون التعب ، ويذهب النصب ، إذا تذكرت صروف الأيام ، وطول الأعوام .

قال : وقد أدركت شيخًا كبيرًا ، كان بالأيام بصيرًا ، بقي عليه ثوبه عشرين عـامًا، حتى أصبح الثـوب ألوانًا وأقسامًا، فكلمـا انخرق الثوب خاطه برقعة، حتى صار مائة بقعة، ثم جاء قوم من المبذرين، لا يحبّون المنذرين، يفني أحـدهم ثوبًا كل عام ، ولا يخـاف العذاب والـملام ، قال: ولقـد أدركت حامد المقـتصد ، وكـان في حفظ المال يجتـهد ، بقيت معه حذاؤه عشر سنوات ، وكان يمشي حافيًا في الفلوات ، وربما حمل حذاءه بيده الكريمة، خوفًا من العـواقب الوخيمة ، فإذا نام جعلها تحت رأسه ، حـرصًا عليهـا من غدر السـارق وبأسه ، فانظر حـرصهم رحمـهم الله على حفظ المـال ، وعدم اغـترارهم بلوم الرجـال ، فأين حالنا من حـالهم ؟ ولذلك لا يقارن مالنا بمالهم ، ثم بكـى حتى كادت أضلاعـه تختلف ، وأخذ يقـول ما أحسن أخـبار من سلف، وما أكـثر إسراف هؤلاء الخلف.

يَا مَـوْتُ مَـالَكَ يَا غَـرِيبَ الشَّـانِ
تَلِجُ البُـيُـوتَ بِغَـيْـرِمَـا اسْـتِـئْـذانِ
فَـخُـذِ البَـخِـيلَ جُـزِيتَ خَـيْـراً إِنَّهُ
سَـــــقِمٌ عَـلَـى الأَرْوَاحِ وَالأَبْـدَانِ

مَــزِّقْــهُ تَـمْــزِيقًــا وَقَـطِّعْ رَأْسَــهُ
حَــتَّى يَـذُوقَ مَــرَارَةَ الحِــرْمَــانِ
فَـهُــو الَّذِي مَنَعَ الجَـمِـيلَ حَـيَـاته
وَهُوَ اللَّئِــيم بِحُــفْـرَةِ الضِّــيفَــانِ

يا أيها البخيل يــا قليل الأدب، يا ردئي النسب، يا مفلس الحسب ، يا سريع الغـضب، يا ظاهر العتب ، يا سُبَّة العـرب، أين أنت يا مرائي من حاتم الطائي حيث يقول:

أَمَّــا وَالَّذِي لا يَعْلَـمُ الغَـيْـبَ غَـيْــرُهُ
وَيُحْــيِي العِظَامَ البِــيضَ وَهْيَ رَمِــيمُ
لَقَدْ كُنْتُ أَطْوِي البَطْنَ وَالزَّادَ يُشْتَهَى
مَــخَــافَــةَ يَـوْمًــا أَنْ يُقَــالَ لَـئِــيمُ

* * *

مقامة السَّعَادَة

﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾

دَعِ الأَيَّامَ تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ
وَطِبْ نَفْسًا إِذَا حَكَمَ القَضَاءُ
وَلا تَجْزَعْ لِحَادِثَةِ اللَّيَالِي
فَمَا لِحَوَادِثِ الدُّنْيَا بَقَاءُ

قال الراوي : جاءنا رجل مهموم ، قد أنهكته الغموم ، فهو من الحزن مكظوم ، فقال : أيها الناس ، حل بنا البأس ، وذهب منا السرور والإيناس ، وتفرد بنا الشيطان ، فأسقانا حميم الأحزان ، فهل منكم رجل رشيد ، رأيه سديد ، يصرف عنا هذا العذاب الشديد .

فقام شيخ منا ، ينوب عنا ، وهو أكبرنا سنًّا ، فقال : أيها الرجل الغريب ، شأنك عجيب ، تشكو الهم والوصب ، والغم والنصب ، وأراك لم يبق منك إلا العصب، أما تدعو الرحمن ، أما تقرأ القرآن ، فإنه يُذْهِبُ الأحزان ، ويطرد الوحشة عن الإنسان ، ثم اعلم وافهم ، لتسعد وتسلم ، إن من أعظم الأمور ، في جلب السرور ، الرضا بالمقدور ، واجتناب المحذور ، فلا تأسف على ما فات ، فقد مات ، ولو أنه كنوز من الذهب والجنيهات ، واترك المستقبل حتى يُقْبِل ، ولا

تحمل همه وتنقل ، ولا تهتم بكلام الحساد ، فلا يُحْسَدُ إلا من ساد ، وحظي بالإسعاد ، وعليك بالأذكار ، فيها تحفظ الأعمار ، وتدفع الأشرار ، وهي أُنس الأبرار ، وبهجة الأخيار ، وعليك بالقناعة ، فإنها أربح بضاعة، واملأ قلبك بالصدق ، واشغل نفسك بالحق ، وإلا شغلتك بالباطل ، وأصبحت كالعاطل ، وفكر في نعم الله عليك ، وكيف ساقها إليك ، من صحة في بدن ، وأمن في وطن ، وراحة في سكن ، ومواهب وفطن ، مع ما صرف من المحن ، وسلم من الفتن ، واسأل نفسك في النعم التي بين يديك، هل تريد كنوز الدنيا في عينيك؟ أو أموال قارون في يديك ؟ أو قصور الزهراء في رجليك ؟ أو حدائق دمشق في أذنيك ؟ وهل تشتري ملك كسرى بأنفك ولسانك وفيك ، مع نعمة الإسلام،ومعرفتك للحلال والحرام ، وطاعتك للملك العلام ، ثم أعطاك مالاً ممدوداً ، وبنين شهودًا ، ومهّد لك تمهيدًا ، وقد كنت وحيدًا فريدًا . واذكر نعمة الغذاء والماء والهواء ، والدواء والكساء ، والضياء والهناء مع صرف البلاء ، ودفع الشقاء .

ثم افرح بما جرى عليك من أقدار ، فأنت لا تعرف ما فيها من الأسرار ، فقابل النعمة بالشكر ، وقابل البلية بالصبر ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، واغفر لكل من قصّر في حقك وأساء ، واغسل قلبك سبعاً من الأضغان ، وعفّره الثامنة بالغفران ، وانهمك في العمل ، فإنه يطرد الملل ، واحمد ربك على العافية ، والعيشة الكافية ، والساعة

الصافية ، فكم في الأرض من وحيد وشريد ، وطريد وفقيد ، وكم في الأرض من رجل غلب، ومال سلب، وملكه نهب ، وكم من مسجون ، ومغبون ومديون ، ومفتون ومجنون ، وكم من سقيم ، وعقيم ويتيم ، ومن يلازمه الغريم ، والمرض الأليم .

واعلم أن الحياة غرفة بمفتاح ، تصفقها الرياح ، لا صخب فيها ولا صياح ، وهي كما قال ابن فارس :

مَـــاءٌ وَخُــبْــزٌ وَظِلٌّ
ذَاكَ الـنَّـعِـيـمُ الأجَلُّ
كَـفَـرْتُ نِعْـمَـةَ رَبِّي
إنْ قُـلْـتُ إنِّـي مُـقِـلُّ

واعلم أن لكل باب من الهم مفتاحًا من السرور، للذنب رب غفور ، والفلك يدور ، وأنت لا تدري بعواقب الأمور ، وملك كسرى تُغْنِي عنه كِسْرَة ، ويكفي من البحر قطرة ، فلا تذهب نفسك على الدنيا حسرة ، ولا تتوقع الحوادث ، ولا تنتظر الكوارث ، ولا تحرم نفسك لتجمع للوارث ، ويغنيك عن الدنيا مصحف شريف ، وبيت لطيف ، ومتاع خفيف ، وكوز ماء ورغيف ، وثوب نظيف .

والعزلة مملكة الأفكار ، والدواء كل الدواء في صيدلية الأذكار ، وإذا أصبحت طائعًا لربك ، وغناك في قلبك ، وأنت آمن في سربك ،

راضٍ بكسبك ، فقد حصلت على السعادة ، ونِلْتَ الزيادة ، وبلغت السيادة .

واعلم أن الدنيا خداعة ، لا تساوي همّ ساعة ، فاجعلها طاعة .

فلما انتهى من وعظه ، أعجب بلفظه ، وحسن لحظه ، وقال له : جزاك الله عني أفضل الجزاء ، فقد صار كلامك عندي أشرف العزاء .

* * *

■ مقامة الفرج بعد الشدة ■

﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾

عَسَى فَرَج يَكُونُ عَسَى
نُعَلِّل نَفْسَنَا بِعَسَى
فَلا تجزَعْ إِذَا حُمِّلْتَ هَمًّا يَقْطَعُ النَّفْسَا
فَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ المَرْءُ مِنْ فَرَجٍ إِذَا يَئِسَا

إذا ضاق الأمر اتسع ، وإذا اشتد الحبل انقطع ، وإذا اشتد الظلام بدا الفجر وسطع ، سُنَّة ماضية ، وحكمة قاضية ، فلتكن نفسك راضية ، بعد الظمأ ماء وظل ، وبعد القحط غيث وطل ، يا من بكى من ألمه ، ومرضه وكدّه ،يا من بالغت الشدائد في رده وصده ، عسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده :

دَعِ المَقَادِيرَ تَجْرِي فِي أَعِنَّتِهَا
وَلا تَبِيتَنَّ إِلا خَالِيَ البَالِ
مَا بَيْنَ غَمْضَةِ عَيْنٍ وَانْتِبَاهَتِهَا
يُغَيِّرُ اللهُ مِنْ حَالٍ إِلى حَالِ

ما عرفنا لكثرة حزنك عذرك ، سهِّل أمرك ، وأرح فكرك ، أما

قرأت ألم نشرح لك صدرك؟ ألا تفرح ، وفي عالم الأمل تسرح ، وفي دنيـا اليسـر تمرح ، وأنت تسـمع ألم نشـرح ، يا من شكا الخطوب ، وعاش وهو منكوب ، ودمـعه من الحزن مسكوب ، في قـميص يوسف دواء عيني يعقوب ، وفي المغتسل البارد شفاء لمرض أيوب .

الـغَـــــمَـــــرَاتُ ثُـمَّ يَـنْجَلِـينَـا
ثَـمَّـــــةَ يَذْهَـبْنَا وَلا يَـجِـــــينَـا

للمرض شفاء ، وللعلة دواء ، وللظمـأ ماء ، وللشدة رخاء ، وبعد الضراء سـراء ، وبعد الظلام ضـياء ، نار الخليل تصـبح باليسـر كالظل الظليل ، والبحر أمـام موسى يفتح السبيـل ، ويونس بن مَتَّى يخرج من الظلمات الثلاث بلطف الجليل .

المختار في الغار ، أحاط به الكفـار ، فقال الصِّدِّيق هم على مسافة أشبار ، ونخشى من الدمار ، فـقال الواثق بالقهار ، إنَّ الله معنا ، وهو يسمعنا ، ويحمينا كما جمعنا .

هِـي الأَيَّـامُ والـغِـــــيَـــــرُ
وَأَمْـــــــرُ الـلـهِ يُـنْـتَـظَـرُ
أَتَـيْـــــأَسُ أَنْ تَـرَى فَـــــرَجًـــــا
فَـــــأَيْنَ الـلـهُ والْـقَـــــدَرُ

قل لمن في حضيض اليأس سقطوا ، وعلى الشؤم هبطوا،وفي مسألة القــدر غلطوا ، اعلموا أنه ينــزل الغيث من بعــد ما قنطوا ، كــان بلال يســحب على الرمضــاء ، ثم رفع على الكعبــة لرفع النداء ، وإسمــاع الأرض صوت السماء .كان يوسف مســجوناً في الدهليز، ثم ملك مصر بعد العــزيز ، كان عمــر يرعى الغنم في مكة ، ثم نشر بــالعدل مُلكه ، وطبــعت باسمــه السِّكة ، وهو الذي قطع حــبل الجور وفكَّه ، وســحق صرح الطغيان ودكَّه .

يا من داهمته الأحزان، وبات وهو سهران، وأصبح وهو حيران، ألم تعلم أنه في كل يوم له شأن ، يا مــن هَدَّهُ الهم وأضناه ، وأقلقه الكرب وأشقاه ، وزلزله الخطب وأبكاه ، أنسيت من يجيب المضطر إذا دعاه .

إِذَا اشْــتَـمَلَتْ عَلَى اليَــأْسِ القُلُوبُ

وَضَــاقَ بِمَــا بِهِ الصَّــدْرُ الرَّحِــيبُ

وَأَوْطَـنَـتِ الـمَكَـارِهُ وَاطْـمَــأَنَّـتْ

وَأَرْسَـت فِي أَمَــاكِنِهَــا الخُـطُوبُ

وَلَـمْ تَرَ لانْكِشَــافِ الضُّــرِّ نَفْـعًــا

وَمَــا أَجْــدَى بِحِــيلَتِــهِ الأَرِيـبُ

أَتَـاكَ عَلَـى قُـنُـوطٍ مِنْـكَ غَــــوْثٌ

يَـمُنُّ بِـهِ اللَّطِـيفُ الـمُـسْـتَـجِـيبُ

وَكُلُّ الحَــــادِثَاتِ وَإِنْ تَنَاهَتْ

فَمَوْصُولٌ بِهَا فَرَجٌ قَرِيبُ

سيجعل الله بعد عسر يسرًا ، ولا تدري لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمرًا .

سينكسر قيد المحبوسين ، في زنزانات المتجبرين ، وسيسقط سوط الجلادين ، الذي قطعوا به جلود المعذبين ، وسيمسح دمع اليتامى ، وتهدأ أنَّات الأيامى ، وتسكن صرخات الثكالى . هل رأيت فقيرًا في الفقر أبدًا، هل أبصرت محبوسًا في القيد سرمدًا ، لن يدوم الضر لأن هناك أحدًا فردًا صمدًا .

أيُّهَا اليَائِسُ مُتْ قَبْلَ المَمَاتْ

أَوْ إِذَا شِئْتَ حَيَاةً فَالرَّجَا

لا يَضِقْ ذَرْعُكَ عِنْدَ الأَزَمَاتْ

إِنْ هِيَ اشْتَدَّتْ فَأَمَلٌ فَرَجَا

من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجًا ، ومن كل همٍّ فرجًا، بلا حول ولا قوة إلا بالله تحمل الأثقال ، وتسهل الأهوال ، وتصلح الأحوال ، ويشرح البال ويرضى ذو الجلال . بشر الليل بصبح صادق يطارده على رءوس الجبال ، وبشر القحط بماء زلال ، يلاحقه في أعماق الرمال ، وبشر الفقير بمال ، يزيل عنه الإملاق والإمحال :

لا تَيْـأَسَنَّ عِنْدَ النُّوَبِ
مِنْ فَرْجَةٍ تَجْلُو الكُرَبِ
وَاصْبِرْ إذَا مَا نَابَ خَطْبٌ
فَالزَّمَانُ أَبُو العَجَبِ
وَتَرْجُ مِنْ رُوحِ الإلَهِ
لَطَائِفًا لا تَحْتَسِبِ

واعلم أن لكل شدة مدة ، وإن على قدر المؤونة، تنزّل المعونة، وإن الله يستخرج البلاء، بصادق الدعاء، وخالص الرجاء . واعلم أن في الشدائد إذابة الكِبْر، واستدرار الذكر، وجلب الشكر ، وتنبيه الفكر .

فارحل بقلبك إذا الهم برك ، واشرح صدرك عند ضيق المعترك ، ولا تأسف على ما مضى ومن هلك ، فليس بالهموم عليمًا درك ، واعلم أنه لا يدوم شيء مع دوران الفلك ، وعسى أن تكون الشدة أرفق بك ، والمصيبة خير لك . فإذا ضاقت بك السبل ، وانقطعت بك الحيل ، فالجأ إلى الله عز وجل .

واعلم أن الشدائد ليست مستديمة ، ولا تبقى برحابك مقيمة، ولعل الله ينظر إليك نظرة رحيمة ، والدنيا أحوال ، وألوان وأشكال ، ولن تدوم عليك الأهوال ، فسوف تفتح الأقفال ، وتوضع الأغلال ، واصبر وانتظر من الله الفرج ، فكأنك بليل الشدة قد انبلج :

لا تَعْجَلَنَّ فَربَّمَا
عَجَلَ الفَتى فِيمَا يَضُرُّهُ
فَالعَيْشُ أَحْلاهُ يَعُو
دُ عَلَى حَلاوَتِهِ بِمُرِّه
وَلَرُبَّمَا كَره الفَتَى
أَمْراً عَواقِبُهُ تَسُرُّه

واعلم أن الشدائد تفتح الأسماع والأبصار ، وتشحذ الأفكار ، وتجلب الاعتبار ، وتعلِّم التحمل والاصطبار ، تذيب الخطايا ، وتعظم بها العطايا ، وهي للأجر مطايا . فاطلب من الله الرعاية ، واسأله العناية ، فلكل مصيبة غاية ، ولكل بلية نهاية .كم من مرة خفنا ، فدعونا ربنا وهتفنا ، فأنقذنا وأسعفنا ، كم مرة جُعْنَا ، ثم أطعمنا ربنا وأشبعنا ، كم مرة زارنا الهم ، وبرح بنا الغم ، ثم عاد سرورنا وتم ، كم مرة وقعنا في الشباك ، وأوشكنا على الهلاك ، ثم كان من الله الانطلاق والانفكاك ، أنت تعامل مع لطيف بعباده، معروف بإمداده ، جواد في إسعاده ، غالب على مراده ، فلُذ به وناده ، إذا داهمتك الشدائد السود ، وحلت بك القيود ، وأظلم أمامك الوجود ، فعليك بالسجودِ ، وناد يا معبود ، يا ذا الجود ، أنت الرحيم الودود ، لترى الفرج والنصر والسعود :

لَطَائِفُ اللهِ وَإِنْ طَالَ المَدَى
كَلَمْحَةِ الطَّرْفِ إِذَا الطَّرْفُ سَجَى
كَمْ فَرَجٍ بَعْدَ إِيَاسٍ قَدْ أَتَى
وَكَمْ سُرُورٍ قَدْ أَتَى بَعْدَ الأَسَى

أيها الإنسان في آخر النفق مصباح ، ولِباب الهموم مفتاح ، وبعد الليل صباح ، وكم هبت للقانط من الفرج رياح . أيها الظمآن وراء هذا الجبل ماء ، أيها المريض في هذه القارورة دواء ، أيها المسجون انظر إلى السماء ، أيها المتشائم أمسك حبل الرجاء .

كن كالنملة في صعود وهبوط ، وعلو وسقوط ، ولا تعرف اليأس ولا القنوط ، ولا تعترف بالإحباط في كل شوط . كن كالنحلة في طلب رزقها قائمة ، وفي حسن ظنها دائمة ، وعلى الزهور حائمة ، وفوق الروض عائمة وليست مع اليأس نائمة .كن كالهدهد ، مع كل صباح ينشد ، ومع الربيع يتجدد ، وعلى بلقيس تردد ، وسليمان له تفقد، فأسلم لربه ووحد ، وأنكر على من كفر وألحد ، فنال المجد المخلد ، والذكر المؤبد.

أَيُّهَا المُشْتَكِي وَمَا بِكَ دَاءٌ
كَيْفَ تَغْدُو إِذَا غَدَوْتَ عَلِيلاً

أَتَرَى الشَّــوْكَ فِي الوُرُودِ وَتَعْــمَى
أَنْ تَرَى فَــوْقَــهُ النَّدَى إِكْلِيــلاً
وَالَّذِي نَفْــسُــهُ بِغَــيْــرِ جَــمَــالٍ
لا يَرَى فِي الوُجُودِ شَيْئًا جَمِيلاً

على رءوس الجبال شمس من الفرج شارقة ، وعلى مشارف التلال هالة من النور بارقة ، وعلى كل باب للحزن من السرور طارقة .

افتح عينيك ، ارفع يديك ، لا تساعد الهم عليك ، ولا تدعو اليأس إليك .

السمك والقرش ، والطيور والطرش ، كلها ترجو رب العرش ، فاتجه أنت إليه ، واشك الحال عليه ، فإن فرجه أسرع من البرق الخاطف ، وله في كل لحظة لطائف .

اللهم اصرف عنا المصائب، ورد عنا النوائب، وكُف عنا كَفّ المعائب . اللهم سهّل الحزون، وهوّن المنون، وأشبع البطون، وافتح للمضطهدين أبواب السجون، واجعل الخائفين من أمنك في حصون، اللهم احلل الحبال المعقدة، وسهل الأمور المشددة، واكشف السحب الملبّدة، وأجب سهام الليل المسددة . اللهم اجعل لليل همومنا صباح من الفرج يشرق ، ولظمأ أكبادنا نهر من الأمل يتدفق، ولجراح مآسينا يد بالشفاء ترفق . اللهم أغننا عن الناس، وارزقنا مما في أيديهم اليأس، ورد عنا البأس ، واجعل التقوى لنا أجمل لباس ، وأقوى أساس .

لك الحمـد حتى يملأ طباق الـغبراء ، وأجواء السـماء ، ولك الثناء حـتى تشدو به الأطيـار ، وتميل به الأزهـار ، ويحمله الليل والنهـار . ولك المـجد يا ذا الجـود ، ما قـام الوجود، وسـال الماء في العـود ، ونصب للحياة عمود

هل يرجى سواك ، هل يعـبد إلا إيّاك ، هنيئـاً لمن دعاك ، وطوبى لمن ناجاك . والصلاة والسلام على عبدك ومصطفاك ، وحامل هداك .

* وختامـا :

اشْـتَـدِّي أَزْمَـةً تَـنْـفَـرِجي

قَـدْ آذَنَ لَـيْـلُـكِ بِـالـبَـلَـجِ

* * *

المقامـة الشَّبابيّـة

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾

بَكَيْتُ عَلَى الشَّبَابِ بِدَمْعِ عَينِي
فَمَا نَفَعَ البُكَاءُ وَلا النَّحِيبُ
فَيَا أَسَفًا أَسِفْتُ عَلَى شَبَابٍ
نَعَاهُ الشَّيْبُ وَالرَّأْسُ الخَضِيبُ
عَرِيتُ مِنَ الشَّبَابِ وكَانَ غَضًّا
كَمَا يَعْرَى مِنَ الوَرَقِ القَضِيبُ
ألا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا
فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ المَشِيبُ

قال الراوي : دخلنا على جماعة من الشباب ، قد أسدلوا الشعر وأسبلوا الثياب، ووقعوا في جدال وسباب، فقام خطيبنا فقال وأصاب ، وأقسم بمن أنزل الكتاب، وأجرى السحاب، وهزم الأحزاب ، أن الشباب أمل الأمة المنشود، وعلمها المعقود ، وسِجلها المحمود ، ثم التفت إلى الشباب فقال، وقد فاض دمعه وسال : ما لكم خالفتم السنة، وهجرتم طريق الجنة، تركتم هدي النبي ﷺ ، وتشبهتم بالأجنبي ،

قال أوسطهم طريقة ، وأعرفهم حقيقة : لماذا وجهت الكلام إلينا ، وماذا تنقم علينا ؟

قال الخطيب: سبحان الملك القدوس، ما أغبى هذه النفوس!، أليست أوقاتكم في القيل والقال، وإضاعة المال ، وهدر الساعات الطوال ، قصَّرتم في الطاعة ، وبالغتم في الإضاعة ، وفرطتم في صلاة الجماعة ، هجرتم القرآن ، وأطعتم الشيطان ، وغرّكم الشباب الفتّان ، ألستم أحفاد المهاجرين والأنصار ، وأبناء الأبرار ، وعليكم تعلق الآمال الكبار . فقام أصغرهم، وهو في العين أحقرهم، فقال : أيها الخطيب ، يكفي هذا التأنيب ، فإنهم قالوا : لا ينفع التهذيب في الذيب، واعلم أنا في عصر الصبا، كنبت الربى ، وكم من سيف نبا ، وضوء خبا، وجواد كبا ، فلا تشمت بنا العِدا ، ولا تكثر المرا ، قال الخطيب : عجب ، أيها الخب ابن الخب ، أتيت بعذر أقبح من ذنب ، أتعتذر بالشبيبة ، لعمل كل خيبة ، فهذه مصيبة ، هؤلاء الصحابة ، كلٌّ حفظ شبابه ، وحمل كتابه ، وخاف حسابه ، وهل عندكم عهد وأمان ، من طروق الحدثان ، أم أنكم في لهوكم تلعبون ، ولهواكم تركبون ؟

قال قائل منهم ، وقد ناب عنهم ، يا عم: ما كان الرفق في شيء إلا زانه ، وما نزع الرفق من شيء إلا شانه . ونحن في مقتبل العمر ، وفي غفلة من الدهر ، فدعنا نبهج ابتهاج الزهر ، ونُقْبِل على الدنيا إقبال القطر ، كما قال الشاعر :

أقْــــبِلْ عَلَى اللَّذَّاتِ وَيْحَكَ إِنَّهُ
تُطْوَى بِكَ الأَيَّامُ وَالسَّــــاعَــــاتُ
وَاتْرُكْ مَــوَاعِظَ مَنْ يُخَــوِّفُ بِالرَّدَى
قَــبْلَ الرَّدَى يَا صَــاحِـبي أَوْقَــاتُ

قال الخطيب والذي قرّت بحبه العيون ، وأزال بالعلم الظنون ، إنكم في غيّكم تلعبون ، ومن حتفكم تطربون ، أين العقول هل ذهبت؟ أين البصائر هل سُلبت ؟ أما ترون أنه يُساق بكم إلى القبور ؟ وكل واحد منكم مغرور ، تغترون بالمُهلة ، وتظنون أن الأمور سهلة :

فَــلا تَقُلِ الصِّبَــا فِــيــهِ امْــتِــهَــالٌ
وَفَكِّرْ كَمْ صَــبِيٍّ قَـــدْ دَفَنْتَــــا
تَفِــرُّ مِنَ الهَــجِــيــرِ وَتَتَّــقِــيــهِ
فَــهَــلا مِنْ جَــهَنَّمَ قَــدْ فَــرَرْتَا

يا قوم : الأنفاس تكتب عليكم، والمنايا تزف إليكم، فقال أحدهم: فماذا نفعل أيها الواعظ ؟ فإني أراك تنتقد وتلوم وتلاحظ ، هل ترانا في حياتنا أخطأنا، وعن مناد الصلاح أبطأنا ؟ قال الخطيب: أين نور الهداية، وحسن البداية ، والاستعداد للنهاية ، المساجد منكم مهجورة ، والمقاهي بكم معمورة ،كل منكم ركب لهوه وطيشه،وأقبل على الدخان

والشيشة ، تسبلون الإزار ، وتطيلون الأظفار ، وتقلّدون الكفار ، تضيّعون الصلوات ، وتقعون في الشهوات ، وتسهرون الساعات ، وتزجون الأوقات ، لم تفلحوا في دنيا ولا دين ، وأراكم في غيّكم قاعدين ، لستم في صلاح ولا طاعة ، ولا سنة ولا جماعة ، ولا صناعة ، ولا زراعة ، ولا جلب بضاعة .

شباب الغرب في المصانع عاكفون ، وإلى العمل منصرفون ، وفي التجارة محترفون ، وبالجد والمثابرة متصفون ، المهندس منهم في صناعته ، والفلاح في زراعته ، والتاجر في متابعة بضاعته ، والطبيب في عيادته . وأنتم ماذا فعلتم ، وأروني ماذا عملتم ؟

أحدكم في الليل جيفة ، وفي النهار ريشة خفيفة ، فصلْتم من الجامعة ، وهجرتم القراءة والمطالعة ، وجلستم على القارعة ، كل منكم قد أزعج شارعه، شغلتكم الأغاني والأماني عن المثاني ، للرياضة تشجعون ، وللمنتخب تتابعون ، وللملاعب تسارعون ، وفي اللهو واللغو بارعون ، حياتكم فوضة ، تتابعون آخر موضة ، كأنكم أطفال الروضة.

متى عَهْدِكُمْ بالقرآن ؟ هل حفظتم شيئًا من سنة ولد عدنان ؟ لا تعرفون المؤلفين والمكتشفين ، والمخترعين والبارعين ، ولا تذكرون أحداً من العلماء والحكماء، والأدباء، والأولياء ، حفظتم عن ظهر قلب أسماء المغنيّين، واللاعبين، واللاّهين، والمسرحيّين، والممثلين ،

عققتم الأوطان ، وأطعتم الشيطان . هَمُّ أحدكم حذاء وساعة ، وميدالية لمّاعة، كأنه شمّاعة .

ما لكم أهداف سامية ، ولا همم عالية ، ولا أخلاق غالية ، ما عندكم عزائم ، أصبتم بإحباطاتٍ وهزائم ، مقصد أحدكم الأفراح والولائم .

ألستم أحفاد الراشدين ، وأبناء المجاهدين ، وسلالة العابدين .

صار همّ أحدكم ثياب فاخرة ، وجلسات ساخرة ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة . كأنكم أطفال يفرح أحدكم بركوب السيارة ، ومشاهدة الطيارة ، ومعايشة السيجارة ، تحفظون أسماء اللاعبين ، وتغفلون عن أسماء العلماء العاملين ، اتركوا الشوارع، واخرجوا إلى الجوامع ، اذهبوا إلى المصانع ، هبوا إلى المزارع ، هيّا إلى الحدادة والنجارة ، هيّا إلى الصناعة والعمارة ، هيّا إلى البيع والتجارة ، هيّا إلى الورشة والنشارة .

نريد منكم علماء وحكماء وأطباء وأدباء .

شَبَابَ الحَقِّ للإِسْلامِ عُودُوا
فَأَنْتُمْ مَجْدُهُ وَبِكُمْ يَسُودُ
وَأَنْتُمْ سِرُّ نَهْضَتِهِ قَدِيمًا
وَأَنْتُمْ فَجْرُهُ البَاهِي الجَدِيدُ

فقـام أحدهم وقد تسـربل بالخجل ، وتكنفه الوجـل ، فتكلم على عجل، فقال : لسنا سبب الضياع، وإنما آباؤنا الرعاع ، أهملونا من زمن الرضاع، مـا أعطونا من ماء التربة ولو قطرة ، وفي الحـديث كل مولود يولد على الفطرة .

مـا كانوا يسـألون عنّا ، كـأنا لسنا منهـم وليسـوا منّا ، ربّونا تربيـة الدواب، وعلمونا تعليم الأعراب ، فنفوسنا من الآداب خراب .

أشغلـونا بالتلفزيون، والتلفـون ، وسيّبـونا في السكك مع شـباب يهمزون ويغمزون، ما أخذونا إلى المساجد، ما عرّفونا على عالم واحد، ما حـفّظونا الآيات البـيّنات، ما علّمـونا الأحاديث النبـويّات ، أهملونا للمجـلاّت الخليعـات ، والأفلام المـائعات، والسـهرات الضـائعات . غرسـوا فينا حب الرذيلة ، وكـراهية الفـضيلة ، علّمـونا سوء الأدب ، وكثرة الضحك من غير سبب ، وسرعة الغضب ، وإضاعة الطلب .

فقال الخطيب : قد سمعت ما قلت ، وأنت بالحق نطقت ، وبررت فيما قلت وصدقت ، ولكن ما عذركم الآن ، وقد وضح لكم الربح من الخسران ، والتوفيق من الخذلان ، وقد قال شاعر أصفهان :

هَبِ الشَّـبِيبَـةَ تُبْـدِي عُذْرَ صَاحِبِـهَا

مَـا بَالُ أَشْـيَـبَ يَسْـتَـهْـوِيهِ شَـيْطَانُ

فليس لكم عـذر في الآباء، ولا تزر وازرة وزر أخرى، أيهـا الأبناء، جددوا التوبة، وأصلحوا الأوبة، وارقعـوا بيد الصلاح ما تمزق من ثوب

الأعـمار، واغـسلوا بدمع الندم مـا تركتـه الذنوب من غـبار، واتركـوا مصاحبة الفجّار، ومصادقـة الأشرار، ومرافقة الشطار، والتشبه بالكفار، أقبلوا عـلى الحياة السـعيـدة، واعكفوا على الكتب المـفيدة، وتـخلّقوا بالأخلاق الـحميـدة، واحملوا الآداب الرشـيدة، حـافظوا على تكبـيرة الإحرام، واجـتنبوا الحـرام، وتوبوا من العـشق والغرام، وارتفـعوا إلى منازل الكرام، تذكّـروا الموت وسكـرته، والقبـر وظلمتـه، والحسـاب ودقته، والصراط ومزلته ، تفكروا في البـعث والنشور، يوم يبعثر ما في القبور، ويحـصّل ما في الصدور، وينفخ في الصور، ويـعضُّ على كفه المثبور، وتقصم الظهور .

وَاللهِ لَوْ عَـاشَ الفَـتَى فِي عُـمْـرِهِ
أَلفًـا مِنَ الأَعْـوَامِ مَـالِكُ أَمْـرِهِ
مُـتَنَعِّـمًـا فِـيـهَـا بِكُلِّ لَذِيذَةٍ
مُتَشَرِّفًا فِـيهَا بِسُكْنَى قَصْرِهِ
مَـا كَـان ذَلِكَ كُلُّه فِي أَنْ يَفِي
فِـيـهَـا بِأَوَّلِ لَيْلَةٍ فِي قَـبْـرِهِ

فلما سمعـوا كلامه ، وشاهدوا مقامه ، غلبتـهم الحسرة والندامة ، ووضع كل منهم على وجهـه أكمامـه ، وبكوا بكاء من عاين القيـامة ، وتذكر لياليه وأيامه .

فرفع الخطيب يديه ، واجتمعـوا عليه ، ودنوا إليه ، فقال: اللهم يا قويّ الأسباب ، يا كريم الجناب ، افتح لعبادك الأبواب ، وتب على من تاب ، وارحم هؤلاء الشبـاب ، فإنك تقيل العثـرات ، وتغفر الزلات ، وتعفو عن السـيئات ، وتتجاوز عن الخطيـئات ، اللهم أصلح قلوبهم ، واستر عيوبهم ، واحفظ غيوبهم ، واغفر ذنوبهم .

ثم قال الخطيب : هيّـا بنا إلى المسجد ، لنركع ونسـجد ، ونصلي ونتعبد ، ونعود إلى الله فالعود أحمد ، ونقتدي بالرسول محمّد .

فسمـعوا نداءه ، وأجابوا دعاءه ، وذهبـوا وراءه ، فأصلح الله لهم البال ، ووفقهم لأحسن الأعمال ، وأزكى الأقوال ، وأشرف الأحوال ، فصـاروا كالنجوم الزاهرة ، والبـدور الباهرة ، بقلوب طاهرة ، وأعـمال بالخير ظاهرة .

* * *

المقامة السياسيّة

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا ﴾

(الولاية نعمت المرضعة وبئست الفاطمة)

(كل بطَّاح من الناس له يوم بطوح)

مَنْ مُخْبِر القَوْم شَطت دَارِهم ونَأت
أَنِّي رَجَعْتُ إِلَى كُتُبِي وأَوْرَاقِي

عِفْتُ السِّيَاسَةُ حَتَّى مَا أَلَمَّ بِهَا
وَقَدْ رَددت إِلَيْهَا كُلّ مِيثَاقِ

لأَنَّهَا جَشَمَتْنِي كُلَّ نَائِبَةٍ
وَأَنَّهَا كَلَّفَتْنِي غَيْرَ أَخْلاقِي

ما لك في ديار السياسة تجوس، اهرب من ساس يسوس، أما علمت أن وجهها منحوس، ورأسها منكوس، وهي التي قطعت الرءوس، وأزهقت النفوس ، وضيّعت الفلوس، وحَمَلت الناس على اليمين الغموس ، طريقها معكوس ، وعلى جبينها عبوس ، سودت الطروس ، وكسرت التروس، وخلعت الضروس، كسفت من أجلها شموس ، وفتحت بظلمها حبوس ، وقطعت بجورها غروس ، كانت الدنيا قبلها عروس ، وهي التي عطلت الناموس ، وأباحت المحرمات للمجوس .

إنَّ نِصْفَ النَّاسِ أَعْدَاءٌ لِمَنْ
وَلِيَ الأَحْكَامَ وَهَذَا إنْ عَدَل

عقرت هارون الرشيد في طرطوس، وقتلت محمد بن حميد في طوس، واجتاح بها ديار الإسلام أهل البوق والناقوس، إذا أقبلت تدوس، وإذا أدبرت تحوس، بذريعتها لعب الأمريكان في العالم والرُّوس، تدبّ في القلوب كالسوس، وتختفي في العقول كالجاسوس، عاشقها يتخبطه الشيطان كأنه ممسوس، أشار إليها الحسين فخطفت رأسه، ومازحها الحجاج فخلعت أضراسه، وداعبها أبو مسلم فأحرقت لباسَه، وزارها مصعب بن الزبير فقتلته وحراسه، وأحبها يزيد فقطعت أنفاسه، وصافحها المختار فمزقت أحلاسه، وأحبها المهلب فاقتلعت أساسه، وعشقها المتوكل فسلطت عليه جُلاّسه، وشربها القاهر فكسرت عليه كأسه، وعانقها ابن الزيات فأحرقت قرطاسه، وجالسها ابن المقفع فأبطلت قياسه، كم من ذكي ضيعت مراسه، وكم من غبي أخرجت وسواسه، السياسة بالنفاق نجاسة، وبالغباء تياسة، وبالغدر تعاسة، وبالجور خساسة، وبالظلم شراسة، اجتنبها أهل الكياسة، ومات في حبها أهل الرياسة، بذلوا في حبها الدين والحماسة، وما حصلوا إلا على التعاسة، تقاتلوا عليها حسدًا ونفاسة، قُتل البرامكة لأجلها بحجة عباسة، فأصبحوا بعد الملك خبرًا في كراسة، وبعد الوزارة دفترًا على ماسة، هي الوسواسة الخناسة، تذهب بالنجابة

والكياسة ، وكم من شجاع أذهبت باسه ، وعقرت أفراسه ، أهلها يُسمّون ساسة ، كل منهم قد حمل على أخيه فاسه .

سعيد النورسي ، بالسياسة نسي ، لينين وإستالين ، قتلوا بالسياسة الملايين، فكُتِبُوا في تاريخ الملاعين ، هولاكو الغازي ، وهتلر النازي ، قتلوا باسم السياسة الإنسانية فأصبحوا في الخانة المنسية .

الْكَلْبُ أَكْـرَمُ عِـشْـرَةً

وَهُوَ النِّهَـايَةُ فِي الخَـسَـاسَـة

مِنْ مَـعْـشَـرٍ طَلَبُـوا الرِّئَاسَـةَ

قَـبْـلَ تَحْـقِـيقِ الرِّئَاسَـة

كسر كسرى بالسياسة ظهور أهل فارس ، فقيل له :لم فعلت ذلك ؟ فقال: ساس يسوس فهو سائس ، وقصّر قيصر بالسياسة أعناق الروم ، فقيل له لم هذا الصنيع يا محروم ؟ فقال : أردت إصلاح البلاد ، ورحمة العباد .

كَدَعْوَاكَ كُلٌّ يَدَّعِي صِحَّةَ الْعَقْلِ

وَمَنْ ذَا الَّذِي يَدْرِي بِمَا فِيهِ مِنْ جَهْلِ

بقنابل سياسة العميان ، دمرت اليابان ، وقتل الصرب الألبان ، واحتل الروس الأفغان ، ودمروا الشيشان ، وجلد المستضعفين شاه

إيران، واعتدى الألمان على الجيران . لكن ذكر كل كافر بربه : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾ .

وكل ما سبق حديثٌ عن السياسة الفاجرة الكافرة، الساحرة الساخرة. وهي السياسة البدعيّة ، القائمة على ظلم الرعيّة ، وإهدار الحقوق المرعيّة ، من رأسمالية ، وبعثية، ونازية ، وشيوعية ، وصان الله من ذلك السياسة الشرعية، لأن السياسة الشرعية رحمة بالبشر ، واتباع للأثر، ومحاربة من كفر، وردع من فجر، وهي التي على دستور عمر، إمام السياسة الشرعية الرسول ، أعدل العدول ، وأفقه الناس في المنقول والمعقول ، وصاحبه الصديق ، بالأمة رفيق ، له عهد مع العدل وثيق ، وقلب من التقى رقيق ، وتلميذه عمر الذي كان وهو خليفة يئن من الجوع ، ويلبس المرقوع ، وتغلبه الدموع ، أولئك هم الناس ، وبهم يضرب القياس ، ويحل الأمن ويدفع الباس . وليس لمن خالفهم إلا الإفلاس ، والابتئاس ، والاتعاس ، ليت السيوف الحداد ، لا تعاون أهل الفساد ، في ظلم العباد ، فبسياسة الجور والعناد ، قتل الحسين بسيف ابن زياد . بأيّ سياسة يُكرم جهلة الأنباط ، وتدفع الجوائز لأهل الانحطاط، ويُجلد أحمد بن حنبل بالسياط ، على البلاط :

فَيَا مَوْتُ زُرْ إِنَّ الحَيَاةَ ذَمِيمَةٌ
وَيَا نَفْسُ جِدِّي إِنَّ دَهْرَكَ هَازِلُ

بأيّ سياسة يتولى الوليد بن يزيد ، وهو الرعديد ، البليد ، المريد ، وهو الذي فتح المصحف فوجد فيه : ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ، غنته الجارية وهو في السكر ، والنكر ، شارد الفكر ، ذاهب الذكر ، تارك الشكر ، فقال من الطرب : إلى أين أطير؟ . قال العلماء: طر إلى السعير يا عير . ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ . بأي سياسة يصبح الحجاج الوزير ، صاحب الدف والزير ، ليقتل ابن الزبير ، بلا قصاص ولا تعزير .

بأي سياسة يُذبح سعيد بن جبير ، العالم النحرير ، والمحدث الشهير ، وتعطى الجوائز لزرياب ، وتخلع عليه الثياب ، والعلماء يُدفعون عند الأبواب . لو أن المأمون فقه سنة الرسول الأمين ، ولو أن المعتصم درس سنة المعصوم ، لما عذبوا أحمد بن حنبل ، سمّي أحمد النبي المبجل ، لأن أحمد بن أبي دؤاد ، أشغلهم عن الإسناد ، بأقوال أهل الفساد ، وبنقولات فلاسفة بغداد ، وجهلة السواد .

يا لها من سياسة خربانة ، تكرم الزنديق وأعوانه ، وتضع ابن تيمية في زنزانة ، وتحجب عنه إخوانه ، بالسياسة تغزو العالم المزدكية ، وتحكم بغداد الأسرة البرمكية ، ويقتل ذو النفس الزكيّة ، بأي سياسة خرج التتار ، بكل بتار، فخربوا الديار ، وقتلوا الصالحين الأبرار ، وهدموا كل مسجد ودار، براءة من الله ورسوله إلى سياد بري، لأنه على الدماء جري ، شنق علماء المالكية ، والشنق عند مالك حرام بالكليّة .

دستم من رستم ، مع هليا مريام منجستم ، يا كم تنجستم ، وغرتكم الأماني وتربصتم ، وفي مراتع الذل انتكستم ، وفي أسواق المجد أفلستم . بأي سياسة سمى الشيوعيون أنفسهم بالرفاق ، وهم أهل النفاق ، والشقاق ، وسوء الأخلاق . كنىّ أبو جعفر الخراساني أبا مسلم ، فلما ذبحه قال: مت يا أبا مجرم .

أبو مسلم تبختر ، وتكبر، وتجبر ، فبقر بطنه أبو جعفر ، بالخنجر، فسحب بعد الملك في السلك وجرجر ، ما شاء الله يجلس الخليفة في بغداد ، على الوساد، ويصفق له العباد ، ويحرسه الأجناد ، فتغنيه الجارية بصوت جميل ، وشَعْرها يميل :

قِفَا نَبْكِي مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

فيقع الخليفة في الطرب ، فيصب على الجارية الذهب ، وأحمد بن حنبل مسجون في الحق بلا سبب . يجلس الخليفة العباسي ، على الكرسي ، ويقول : يا ناس قبّلوا رأسي ، وامسحوا مداسي ، وقربوا قرطاسي .

فيقوم شاعر طرطور ، منافق مدحور ، فيقول : ما خلق الله مثلك أيها الخليفة ، فأنت صاحب الأخلاق الشريفة ، والمعاني اللطيفة ، والأمجاد المنيفة، فيقول الخليفة : يا غلام : أعطه ألف دينار ، واكتبوه من خدم الدار، فشِعْره تاج الأشعار ، هذا وسفيان الثوري عالم الديار ، وزاهد الأمصار ، لا يجد كسرة خبز طيلة النهار .

بأي سياسة يشرد الشعب المسلم من فلسطين على الفور ، بوعد بلفور ، وقلوبه على الظلم تفور ، والعالم الإسلامي بارد جامد هامد ، جاحد شارد خامد ، لا يثور كأنه مغمور أو مغرور ، أو مسحور ، ويحتل فلسطين اليهود ، إخوان القرود ، بلا حدود ، ولا قيود ، ولا شهود :

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِبِلِي
بَنُو اللَّقِيطَةِ مِنْ ذُهلِ ابْنِ شَيْبَانا
قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذَيْهِ لَهُمْ
طَارُوا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوِحْدَانَا
لا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ
فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا

* * *

المقامة المكّيّة

﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾

ألا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً
بِوَادٍ وَحَوْلِي إذْخَرٌ وَجَلِيلُ
وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَجِنَّةً
وَهَلْ تَبْدُونَ لِي شَامَةٌ وَطُفَيلُ

قال الراوي: قد أظهرت لنا يقين الحديث وشكّهْ، فحدثنا عن مكّة، قلنا: مكة هي المهبط والمسقط والمربط والأوسط، فهي مهبط القرآن، ومسقط ميلاد سيد ولد عدنان ، ومربط خيول أهل الإيمان، وأوسط البلدان.

مكة قلب المعمورة، على الحسن مقصورة ، وفي حجال المجد مستورة، أذن بها الخليل، وسُحق بها أصحاب الفيل، بالطير الأبابيل، اختارها علام الغيوب، فهي مهوى القلوب، وملتقى الدروب، وقبلة الشعوب، هي أرض ميلاد الرسالة والرسول ، كان لجبريل بها صعود ونزول، منها ارتفع الإعلان والأذان والقرآن والبيان، أذّن منها بلال بن رباح، وسُلت فيها السيوف، وامتشقت الرماح، وأُعلن فيها التوحيد،

وهو حق الله على العبيد، وهي أول أرض استقبلت الإسلام، وحطمت الأصنام .

بها بيت الملك الأجل ، والكعبة التي طاف بها الرسل ، سوادها من سواد المقل ، وهي أرض السلام ، وقبلة الأنام ، يفد إليها المحبون ، على رواحلهم يخبون . ويتجه إليها المصلون ، ويقصدها المُهِلُّون ، فهي قبلة القلوب، وأمنية الشعوب، وراحة الأرواح ومنطلق الإصلاح ، على ثراها نزلت الهداية ، ومن رباها كانت البداية ، على رمالها مزقت الطغاة، وعلى ترابها سحقت البغاة ، ومن جبالها هبت نسائم الحريّة ، ومن وهادها كان فجر الإنسانية .

تَمَنَّيْتُ الحِجَازَ أَعِيشُ فِيهِ
فَأَعْطَى اللهُ قَلْبِي مَا تَمَنَّى

سَقَى اللهُ الحِجَازَ وَسَاكِنِيهِ
وَأَمْطَرَ كُلَّ رَابِيَةٍ وَمَغْنَى

على بساط مكة ولد العرفان ، وأكرم الضيفان ، ومن مغانيها رضع الشجعان ، وفي بطحائها هاشم وابن جدعان .

لا يَنْكُتُونَ الأَرْضَ عِنْدَ سُؤَالِهِمْ
لِتُطْلَبَ الأَعْذَارُ بِالعِيدَانِ

بَلْ يُشْرِقُونَ وَجُوهَهُمْ فَتَرَى لَهَا
عِنْدَ السُّؤالِ كَأَحْسَنِ الأَلْوَانِ
وَإِذَا الغَرِيبُ أَقَامَ وَسْطَ رِحَالِهِمْ
رَدُّوه رَبّ صَوَاهِلٍ وَقِيَانِ
وَإِذَا دَعَا الدَّاعِي لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ
سَدُّوا شُعَاعَ الشَّمْسِ بِالْفِرْسَانِ

في مكة تثور شجون الحب ، وتضج بلابل القلب ، فيها التأريخ يتكلم ، والدهر يتبسم ، والذكريات تتداعى، والأمنيات تقبل تباعًا ، هنا غمغمات السيول، وصهيل الخيول، وتنحنح السادات ، وتزاحم القادات، إقبال وفود، وانطلاق جنود، وتزاحم حشود، وارتفاع بنود ، هدى وضلالة ، علم وجهالة ، وهنا كرم وبسالة ، وحي ورسالة ، عالم يمور بالعبر ، ديوان يزخر بالسير ، دفتر للعظماء ، سجل للشرفاء :

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الحُجُونِ إِلَى الصَّفَا
أَنِيسٌ وَلَمْ يَسْمُر بِمَكَّةَ سَامِرُ
بَلَى نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَبَادَنَا
صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالجُدُودُ العَوَاثِرُ

في مكة رءوس بالأنفة متزاحمة ، وجيوش للثأر متلاطمة ، أفكار وحضارات ، ونواد ومحاضرات ، سير وسمر ، في ضوء القمر ، أنباء وأخبار ، قصص وأشعار، حتى كان النبأ العظيم ، وهو الرسول الكريم، فيصغر بعده كل خبر ، وينسى من جاء ومن غبر ، فهو أعظم أثر ، جاءت به السير .

نُسِخَتْ كُلُّ دَوَاوِينِ المَكَارِمِ مَا
خَطَّ الأَنَامُ بِرَسْمِ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ
فالشَّمْسُ والقَمَرُ المُنْشَقُّ قَدْ خَضَعَتْ
لِنُورِ وَجْهِكَ مِنْ حُسْنٍ وَمِنْ كَرَمِ

يوم بُعِثَ استدار له الزمان ، وأنصَت له الثقلان ، وتشاغلت به الأقلام ، ورحبت به الأيام ، وأنصت له الأنام ، فهو ابن مكة البار ، وبطلها المغوار ، ورسولها المختار .

إذا أقبلت على البلد الحرام ، فتذكر ذاك الإمام ، عليه الصلاة والسلام .

مكة تذكرك البأساء والنعماء، والنور والظلماء ، والسعادة والشقاء .

مكة كتاب مفتوح ، وسِفْر مشروح ، يجمع بين أحاديث النجاة والخسران ، والكفر والإيمان ، والعدل والطغيان ، تذكرك مكة الشرك الكالح ، والجهل الفاضح ، والوهج اللافح ، يوم كانت الأوثان

تُقدَّس، والأصنام تأسس، تسجد لها النفوس الخاوية ، والعقول الجافية، يوم غاب الرشد ، وأفل السعد ، وغرب الميثاق والعهد ، يوم كان الإنسان كالبهيمة ، بلا قيمة ، والقلب في شباك الجريمة ، وفي ظلمات وخيمة :

فَقُلْ للعُيونِ الرُّمْدِ للشَّمْسِ أَعْيُنٌ
تَراهَا بِحَقٍّ في مَغِيبٍ وَمَطْلَعِ
وَسَامَحَ اللهُ عُيُونًا أَطْفَأَ اللهُ نُورَهَا
بِأَهْوَائِهَا لا تَسْتَفِيقُ وَلا تَعِي

وتذكرك مكة يوم انفجر الفجر ، وارتفع الذكر ، ومحق الكفر، يوم أنصتت الدنيا بأُذن سميعة ، وأقبل الدهر بخطاً سريعة ، وانتفض الكون للكلمة الخالدة ، واهتز العالم بالدعوة الراشدة ، لا إله إلا الله ، لا معبود بحق سوى الله ، لا بقاء إلا لله ، وتذكرك مكة بالوحي وهو يتنزّل ، والقرآن وهو يرتّل ، وجبريل الروح ، يغدو ويروح ، وباب الرحمة المفتوح ، والعطاء الرباني الممنوح ، فيا لها من ذكريات يهتز لها الجسم ذرة ذرة ، ويقوم لها الرأس شعرة شعرة ، ويا لها من صيحة دوّت في العالم فاستيقظ بها كل نائم ، واهتدى بها كل هائم ، ويا له من خبر طرق الكون فصحا ، ومحق الشرك ومحا .

توقف الزمان منصتًا ، وسُلَّ سيف الجهاد مصلتًا .

هُنَا الأَمَانِي هُنَا الأَمْجَادُ قَدْ رُفِعَتْ

هُنَا المَعَالِي هُنَا القُرْبَى هُنَا الرَّحِمُ

هُنَا القُلُوبُ اسْتَفَاقَتْ مِنْ مَعَاقِلِهَا

هُنَا النُّفُوسُ أَتَتْ لِلحَقِّ تَزْدَحِمُ

هُنَا رِوَاءٌ هُنَا فَجْرٌ هُنَا أَمَلٌ

هُنَا كِتَابٌ هُنَا لَوْحٌ هُنَا قَلَمُ

التعبير يخون ، والنفس فيها شجون ، والذاكرة بالصور موّارة ، ونور الحديث قد نصب في القلب منارة ، إذا ذكرت مكة ذكر غار حراء، والشريعة الغراء ، والوحي والإسراء ، فكأن التأريخ حضر ، وكأن الزمان اختصر ، وكأن الدنيا كلها في مكة محصورة ، وكأن الأيام في أجفان مكة مقصورة .

مكة ملاعب الصبا والشباب ، لصاحب السنة والكتاب ، فيها مسقط رأسه ، وفضاء أنفاسه ، فيها مراتعه ، ومرابعه ، ومهاجعه .

هَذِي بِلادِي وَهَذِي مُنْتَهَى أَمَلِي

هَذَا التُّرَابُ الَّذِي أَهْدَيْتُهُ زَجَلِي

هَذَا المَكَانُ بِهِ مِيلادُ قُدْوَتِنَا

هَذَا رِيَاضُ الهُدَى وَالسَّادَةِ الأُوَلِ

كيف نعبر عن أشواقنا ، وقد سافر حبه في أعماقنا ، لأنه ﷺ أملنا المنشود ، ومجدنا المحمود :

فِي كَفِّكَ الشَّهْمِ مِنْ حَبْلِ الهُدَى طَرَفٌ
عَلَى الصِّرَاطِ وَفِي أَرْوَاحِنَا طَرَفُ
هَيْهَاتَ رِحْلَةُ مَسْرَانَا جَحَافِلنَا
كَمَا عَهِدت وَعَزَمَاتِ الوَرَى أَنفُ

وعلى رمضاء مكة ثأر وجراح، وعويل وصياح ، حيث عُذِّب بلال ابن رباح ، أما تقرأ على الرمضاء ، ما كتبته الدموع والدماء ، يقرؤها كل عالم وجاهل ، وقل جاء الحق وزهق الباطل . تفجّعٌ صارخ يصعد إلى السماء ، وصيحاتٌ ثائرة تشق الظلماء ، أحدْ أحدْ ، فرد صمدْ ، على رغم من كفر وجحد ، تطلق هذه القذائف حنجرة بلال ، فتهتز بها الجبال ، وتنتفض منها التلال .

أَحَدٌ هَتَفتَ بِهَا لِكُلِّ مُعَطِّلِ
أَنْتَ المُؤَذِّنُ للرَّسُولِ فَرَتِّلِ
وَاهْزِمْ بِصَوْتِكَ كُلَّ طَاغٍ فَاجِرٍ
وَاسْحَقْ بِقَوْلِكَ كُلَّ زَحْفٍ بَاطِلِ

وعلى جبين مكة قبلات المحبين ، وفي جوفها زجل المسبحين ، وفي عينيها آية للسائلين، مكة أم الخلفاء الراشدين ، مكة بلد العابدين ، وميدان المجاهدين ، وعرين الفاتحين ، وجامع الموحدين ، ومدرسة الحكام العادلين .

إذا قربت من مكة فتهيّأ للدخول ، واستعد للنزول ، والبس الإحرام، عند عناق البيت الحرام ، لأنك سوف تلج بيت الديَّان ، ومحط العرفان ، ودار الرضوان ، هنا المسلك الأرشد ، والمحل الأسعد ، والحجر الأسود ، هنا المقام الكريم ، والمطاف العظيم ، وزمزم والحطيم ، هنا العابدون والساجدون ، والعاكفون ، والقائمون ، والمستغفرون . هنا تسكب العبرات ، وتهمل الدمعات ، وتنبعث الآهات، وتصعد الزفرات . هنا تغسل النفس من الأدران ، ويتخلّص القلب من الأحزان ، وتنطلق الروح من العصيان ، هنا ترمى الجمرات، وتحط الغدرات ، وتخلع الفجرات ، وتغسل السيئات ، هنا يتجرد من الثياب ، ويتهيأ للحساب، فحبذا هذه الرحاب ، وطوبى لهذه الشعاب ، هنا تناخ المطايا ، وتحط الخطايا ، وتكثر العطايا ، هنا السرور قد تم ، والشمل قد التم ، وذهب الهم والغم .

وهاك يا مكة نشيداً من الأعماق ، نبعثه إليك مع الأشواق :

مَكَّتِي أَنْتِ ، لا جَلالٌ عَلَى الأَرْضِ، يُدَانِي جَلالَهَا أَوْ يَفُوقُ

مَـا تُبَـالِينَ بِـالرَّشَـاقَـةِ والسِّـحْـرِ .. فَـمَعْنَالك سَـاحِـرٌ وَرَشِـيقُ
سَجَـدَتْ عِنْدَهُ المَعَـانِي .. فَمَـا ثَـمَّ جَلِيلٌ سُـواه .. أَوْ مَـرْمُـوقُ
وَمَشَى الخُلْدُ فِي رِكَـابِـكِ مُخْتَـالاً .. يَـمُـدُّ الجَدِيدَ مِنْهُ العَتِـيقُ
أَنْتِ عِنْدِي مَعْشُوقَةٌ لَيْسَ يَخْزِي العِشْقَ مِنْهَا وَلا يَضِلُّ العَشِيقُ
مَا أُبَاهِي بِالحُسْنِ فِيكِ عَلَى كَثْرَةِ مَـا فِيكِ مِنْ مَغَـانٍ تَشُـوقُ
أَنْتِ قُـدْسٌ فَلَيْسَ لِلهَـيْكَلِ الفَـانِي بَقَـاءٌ - كَـمِثْلِهِ - وَسُـمُـوقُ
كُلُّ حُسْنٍ يَبْلَـى ، وَحُسْنكِ - يَا مَكّةُ - رَغْمَ البِلَى الفَتَى العَرِيقُ
دَرَجَ المُـصْطَفَى عَلَيْكِ فَأَغْـلاكِ .. وَأَغْلاكِ .. بَعْدَه الصِّـدِّيقُ
وَشُكُولٌ مِنَ الـرِّجَالِ، سَبُوقٌ جَـدَّ مَنْ خَلْفَـهُ .. فَـجَلَى سَـبُـوقُ
إِنْ أَرَادوا القِتَالَ أَرْجَفَتِ الأَرْضُ .. وَضَاقَتْ عَلَى العَدوِّ الطَّرِيقُ
أَوْ أَرَادُوا السَّـلامَ رَحَّبَ بِالسِّلْمِ عَـدُوٌّ أَصَـابَهُ التَّـمْـزِيقُ
كَانَ فِي اللهِ حَـرْبُهُـمْ وَالعَدَاوَاتِ .. وَفِي اللهِ سِلْمُـهُـمْ وَالوُثُوقُ
رُبَّ صَـخْـرٍ فِي بَطْنِ وَادِيكِ - يَا مَكّةُ - يَهْـفُـو إِلَيْهِ غُـصْنٌ وَرِيقُ
لَسْتُ وَحْدِي مُتَيَّمًـا فَالمَـلايِينُ فَـرِيقٌ يَمْـضِـي ، فَيَـأْتِي فَـرِيقُ
تَتَـوَالَى عَلَيْكِ مِنْهُمْ صَبَـابَاتٍ فَـيَـصْغَى لَهَـا الفُؤَادُ الرَّقِـيقُ

لَيْسَ فِيكَ الدَّلالُ يُوحِي بِهِ الزَّهْرُ، وَيُغْرِي بِهِ الجَمَالُ الطَّلِيقُ
لَمْ تَزْهِينَ؟ رُبَّ زَهْوٍ مِنَ الحُسْنِ .. تَجَلَّى بِهِ عَلَيْنَا العُقُوقُ
وَعَتِي مِنَ الجَمَالِ، تَجْدَاهُ .. أَسِيرٌ .. بِحُبِّهِ مَوْثُوقُ
إِنَّ حُسْنًا يُكَبِّلُ العَقْلَ والرُّوحَ ، لَحُسْنٌ - وَإِنْ أَنَالَ - حَنِيقُ
قَدْ تَرَكْتِ البَرِيقَ لِلبَلَدِ الخَامِلِ، مَاذَا يُجْدِي عَلَيْكِ البَرِيقُ؟
وَتَمَخَّضَتْ عَنْ فَخَارٍ طَوَى الأَرْضَ، وَمَا أَجْدَبَتْ عَلَيْكِ العُرُوقُ!
أَيْنَ مِنْهُ الكِلْدَانُ - يَا مَكَّةَ الخَيْرِ - وَأَيْنَ الرُّومَانُ والإِغْرِيقُ؟
وَالبِلادُ الَّتِي تَتِيهِ، أَجَاءَتْ بِالَّذِي جِئْتِ؟! أَمْ هُوَ التَّلْفِيقُ
مَا يُقِيمُ الوُلُودُ تُخْصِبُ لِلنَّاسِ .. مَكَانَ العَقِيمِ إِلا الصَّفِيقُ
إِنْ غَمَطْنَا الحُقُوقَ - يَا بَلَدَ الطُّهْرِ - خَسِرْنَا وَأَنْكَرَتْنَا الحُقُوقُ
إِنَّ جُرْحًا يُصِيبُنَا مِنْ تَجَافِيكِ - وَمَا تَفْعَلِينَ - جُرْحٌ عَمِيقُ
قَدْ شَرِبْنَا مِنَ السَّلافَةِ فِتْيَانًا، وَنَحْنُ الكُهُولُ، مَا نَسْتَفِيقُ
ذَاقَهَا قَبْلَنَا الكِرَامُ فَقَالُوا أَيْنَ مِنْهَا وَمِنْ شَذَاهَا الرَّحِيقُ؟
نَجِدُ الأُنْسَ فِي رِحَابِكِ .. والبَسْطَةَ حَتَّى كَأَنَّنَا مَا نَضِيقُ
وَيَشُدُّ القُلُوبَ نَحْوَكِ - يَا مَكَّةُ - حُبٌّ يَطْوِي القُلُوبَ وَثِيقُ

مَا نُطِيقُ الفِرَاقَ عَنْكِ وَهَلْ يُحَمَّلُ قَلْبٌ فِي الحُبِّ مَا لا يَطِيقُ؟

* * *

لَكِ فَضْلٌ عَلَى المَدَائِنِ - يَا مَكَّةُ - مَا يَجْتَوِيهُ إِلا المُرُوقُ

أَيْنَ مِنْهُ فَضْلُ المَدَائِنِ يَخْلبْن؟ وَأَيْنَ الإِغْرَاءُ والتَّشْوِيقُ؟

أَيْنَ مِنْهُ الغَدِيرُ وَالرّوْضُ، وَالعُزُفُ، وأَيْنَ الطِّلاءُ والتَّزْوِيقُ؟

إِنَّمَا الحُسْنُ فِي النُّفُوسِ، فَمَا يَعْشِقُ ثَوْبًا مِنَ الخُيُوطِ المَشُوقُ

أَتَرَانَا مِنَ الثَّرَى فَإِذَا الرُّوحُ غَرِيب، وَالحُسْن جِسْمٌ مَشِيقُ؟

لَصِقَتْ بِالتُّرَابِ أَجْسَامُنَا الغُلْفُ، فَأَهْوَى إِلى اللَّصِيقِ اللَّصِيقُ

يَا نُفُوسًا تَطُولُ بِالبَيْتِ، لَوْلا حُرْمَةُ البَيْتِ مَيَّزَتْهَا الفُرُوقُ

أَنْتِ لَوْلا الإِسْلامُ، كُنَّا نَرَى السَّابِقَ مِنَّا يَفُوقه المَسْبُوقُ

مَا تَأَنَّقتِ فِي المَقَالِ.. فَفِي سِحْرِك مَعْنَى - يَعِي المَقَال- أَنِيقُ

وَاللِّسَانُ الذَّلِيقُ يَعْجَزُ أَحْيَانًا إِذَا أُحْصِرَ اللِّسَانُ الذَّلِيقُ

* * *

المقامة المدنيّة

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾

أَمُرُّ عَلَى الدِّيَارِ دِيَارِ لَيْلَى
أُقَبِّلُ ذَا الجِدَارِ وَذَا الجِدَارا
وَمَا حُبُّ الدِّيَارِ شَغَفْنَ قَلْبِي
وَلَكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيَارا

لما وصلنا المدينة ، والنفس لمن في الروضة مدينة ، قلت : سلام يا طيبة ، لما رأيناك ذهبت الخيبة . لحبك أيتها الدار ، سال الدمع المدرار ، لمن ندخر الشجون ، لمن نخبئ الدمع الهتون ، هذا وقت البكاء يا محب ، هذه لحظة الشوق يا قلب .

المدينة تنفي خبثها ، وينصع طيبها ، ويطمئن ساكنها ، ويرتاح حبيبها .

لَمَّا رَأَيْنَا الرَّبْعَ سَال دُمُوعُنَا
شَوْقًا لِسَاكِنِهِ وَمَنْ يَهْوَاهُ
أَنَا لَسْتُ أَذْكُر رَبْعَ مَنْ قَتَلَ الهَوَى
لَكِنْ أُرَتِّلُ ذِكْرَ مَنْ أَحْيَاهُ

إذا أتيت طيبة ، فأعط قلبك من التذكر نصيبه ، هنا المحراب ، حيث كان يصلي فيه من أُنزل عليه الكتاب ، هنا المنبر ، فتذكّر يوم كان يرقاه صاحب الجبين الأزهر ، هنا المسجد ، فالشوق يتجدد ، إذا علم أنه مصلى محمد ، هنا الروضة الخضراء ، يرقد بها من جاء بالشريعة الغراء ، هنا أُحُد جبل يحبنا ونحبه ، وهنا قباء يؤنسنا قربه ، المدينة هي محط موكب النبوة ، وبها كان للإسلام قوة ، منها سطعت شمس السُّنَّة ، وفيها تمت المنة ، وهي المدينة التي نصرت المختار ، بسيوف الأنصار ، بها حكم الشيخان ، وولد السبطان ، وعاش السعدان، وترعرع الزيدان ، وأنشد الشاعران ، كعب وحسّان .

إذا دخلت المدينة فتذكر صاحب الملّة السمحاء، والطريقة البيضاء، هنا مسكنه ومنامه ، وممشاه وقيامه، ورمحه وحسامه، وشرابه وطعامه .

من المدينة خرج لبدر بجنوده، وزحف إلى أحد في حشوده، ومن المدينة بعث للملوك رسائله، وعلم الناس فضائله . هي بيت ضيافته، ودار خلافته، في كل مكان منها له ذكريات، وفي كل موضع له علامات .

قَبل القَلْب عَلَى سَفْحِ اللِّوَى
وَاقِفَات رَاجِفَات مَائِلاتِ
تُنْشِدُ الرَّبْعَ وَهَلْ يُخْبِرُهَا
دَارِسٌ فِيهِ جَلالُ الذِّكْرَيَاتِ

المدينة تذكرك ببكاء أبي بكر في الصلاة ، وورعه وتقواه ، لو وضع الصخر على بساطه لكاد أن يذوب ، ولو زجر الشيطان بنصحه لأوشك أن يتوب . جمع الفضائل كأنه يسوقها بعصاه ، وحبٌّ له في القلوب فلو أشار للجيش هيا إلى الموت ما عصاه .

والمدينة تذكرك بالدولة العمرية ، وتلك المناقب الأثرية ، عدل صار في العالم قصة ، وتَرَكَ في حلق كل جبار غصة ، وزهد يقول الزهد : لا نستطيع معك صبرًا ، وورع يقول له القلب : لا نعصي لك أمرًا ، عمر بن الخطاب ، سل عنه المحراب ، بكاء فيه وتفجّع ، ونحيب وتوجّع . وإذا بصاحب هذه الدموع الآسرة ، يهز بهيبته القياصرة والأكاسرة ، معه بردة مرقعة ، وحذاء مقطّعة ، ثم تخفق قلوب الملوك على وقع حذائه ، وينام العدل على طرف ردائه .

والمدينة تذكرك بالوقفات الإيمانية، في الحشايا العثمانية ، والمعاهد العفانية، طهر يغتسل في نهره ماء الغمام، وحياء يصيد بوداعته ورق الحمام، وسخاء تضرب به الأمثال ، وتعجز عن مجاراته الرجال .

والمدينة تذكرك بسيف الله المنتضى ، وعبده المرتضي ، علي بن أبي طالب أبي الحسن ، الخطيب اللسن ، ناصر الدين والسنن ، بطل الأبطال حيدرة ، هازم الكفرة ، وصاحب السيرة العطرة .

مَا هَزَّنِي ذِكْرُ أَشْجَانٍ وَأَطْلالِ

أَوْ خَيْمَةٍ عَرَضَت أَوْ مَعْهَدٍ بِالِي

لَكِنْ هُنَا المَجْدُ وَالتَّأْرِيخُ قَدْ جَمَعَا
فَاكْتُبْ بِدَمْعِي آهَاتِي وَتَسْآلِي

إذا قالت روما: عندنا من الملاحم فصول، وقالت باريس: عندنا ديقول، وقالت لندن: عندنا العالم المأهول، فإن المدينة تقول: عندنا الرسول ﷺ .

حي دار الهجرة ، وميدان النصرة ، وأرض الشهداء ، وجامعة العلماء . في ثرى المدينة سيد الشهداء ، حمزة المقدام ، وغسِّيل الملائكة الكرام ، ومن كلَّمه الرحمن ، وحفظة القرآن ، وزيد بن ثابت إمام الفرائض ، وحسّان بن ثابت شاعر الردود والنقائض، وأُبي بن كعب صاحب الذكر الحكيم ، وفيها من اهتز له العرش العظيم .

في المدينة ذكرى أبي ذر ، وهو يقول الحق المُر ، يدفع الباطل بزنده ، ويرد الدنيا بزهده ، وفيها ذكرى بلال وهو يرسل صوته في سماء الوحدانية ، وفضاء العبودية ، ومعناه تعالوا إلى ربكم أيها العباد ، وذروا الجاه والأموال والأولاد .

وذكرى أنس بن مالك خادم رسولنا ، كلما قيل : من لهذا العمل ؟ قال : أنا ، فينال بشرف خدمة المعصوم ، ما لا يناله أشراف أهل الدنيا لجلالة المخدوم ، وذكرى سعيد بن المسيَّب ، الولي المقرَّب ، ينهل الناس من مورد علمه ، ويعب العباد من نهر فهمه . وذكرى مالك بن

أنس ، إذا تربع على كرسي العلم وجلس ، فكأن مجد الدنيا اختصر في تلك الساعة ، يوم تجتمع عظمة العلم وعظمة الطاعة .

وأعظم منقبة للمدينة أن رسول الله ﷺ يسكن في سويداء قلبها ، ويستولي على حبِّها ، وهذا سر مكانتـها وقربها . يكفي المدينة فخرًا ، أن أجلّ البـشر ، وسـيـد البدو والحـضـر ، شرب مـاءها ، واسـتنشق هواءها، وارتدى سماءها ، وصافح ضياءها .

يكفي المدينة جلالة على مدن المـعمورة ، تلك المناقب المأثورة ، وأجلّها مشي الحبيب على ثراها ، وتنقله بين قُرَاها ، كلما طافت عينك على رباعـها، وهام قلـبك في بقاعـها، نـاداك منادي الذكريات، يقـول للأحياء والأموات: هنا محمد سجد، هنا محمد قعد ، هنا محمد رقد، جلس في هذا المكان ، عبر هذه الوديان ، هرول في هذا الميدان ، نظر إلى هذه الجبـال ، رقى هذه التلال ، شـرب من هذا الماء الزلال ، زار هذه الدار ، نام تحت هذه الأشجار ، مضى من فوق هذه الأحجار .

فِي الـدَّارِ أَخْـبَـارٌ يَكَادُ حَـدِيثُـهَـا
يَدَعُ الـفُـؤَادَ وَمَـا لَـهُ سُـلْوَانُ
شَـوْقٌ فَلَوْ أَنَّ الـحِـجَـارَةَ حَـمَلَتْ
مَـا فِي الـحَـشَـا لَـتَـصَـدَّعَ الصُّـوَّانُ

يا أيتـها النخـيل الباسـقات ، ربمـا مر بكن صـاحب المعـجزات،

والصفات الباهرات ، فهل من حديث يستفاد ، وهل من ذكريات تعاد .
إن كنت تمدح المدينة بسمو قصورها، وارتفاع دورها ، وعظمة جبالها، وكثرة تلالها ، فقد غلطت في الثناء ، وقصّرت في واجب الوفاء ، إن للمدينة أسرارًا ، وإن لها أخبارًا . المدينة تخاطب القلوب قبل العيون ، وتستسير الدفين من الشجون ، لأن ترابها يحتفظ في ذاكرته بمشاهد تذوب لها الأرواح ، ولا يمحوها مرور الرياح .

ابْكِ الدِّيَارَ وَإِلا فَانْدُب الدَّارَا
فَإِنَّ فِي القَلْبِ أَخْبَارًا وَأَسْرَارًا
لا تَبْخَلَنَّ بِدَمْعٍ سَوْفَ تُنْفِقُهُ
إنْ شِئْتَ غَصْبًا وَإِلا شِئْتَ مُخْتَارًا

على ترابها آثار أقدام المختار ، وبصمات تنقله في تلك الديار ، وعلى ثراها دموع الأبرار ، ودماء الأخيار ، وفي سمائها تسبيحات المهاجرين والأنصار .

للمدينة صفحتان : صفحة الفرح ، وصفحة الأحزان .

فصفحة الفرح بها معالم النبوة الطاهرة ، وتلك الانتصارات الباهرة ، نفرح إذا ذكرنا بركات الرسالة ، ومواقف التضحيات والبسالة ، ونفرح إذا عشنا المعاني الإيمانية ، والنفحات الروحانية ، والمشاهد القرآنية ، ونفرح إذا تذكرنا كيف انتصر الحق المبين ، وَدُمِغَ الباطل المهين ،

وكيف استقبلت تلك القلوب أنوار الهداية ، وكيف انتهى الكفر إلى غير رجعة هذه النهاية .

ولكننا نحزن يوم فارق الحياة أكرم الأحياء ، ويوم انتقل إلى دار البقاء أجلُّ الأتقياء ، ونحزن لموت الصدّيق ، صاحب العهد الوثيق ، ونحزن إذا ذكرنا عمر الفاروق وهو بالخنجر يمزّق ، ودمه على ثيابه يتدفق ، ونحزن يوم ذُبح عثمان ، بسكين العدوان، نحزن إذا ذكرنا ذهاب ذاك الجيل القرآني الفريد ، وذاك القرن المبارك المجيد ، وتلك الطائفة الزاكية الراشدة ، وتلك الجماعة الخيّرة القائدة .

فصلى الله وسلم على من تشرّفت به تلك الأرض ، صاحب المقام المحمود يوم العرض ، عليه الصلاة والسلام ، ما هب نسيم الأسحار ، وسرى حديث السمار ، عليه الصلاة والسلام ، ما تمتم ماء ، وهبّ هواء ، وشعّ ضياء ، وارتفع سناء ، عليه الصلاة والسلام ، ما حنّ إلف، وأومأ طرف ، وما ذرّ شارق ، وما لمع بارق ، وما دام سعد ، ودوى رعد ، وحل وعد ، وحُفِظَ عهد ، عليه الصلاة والسلام ، ما خط قلم ، وزال ألم، ودامت نعم ، وزالت نقم ، وعلى آله وصحبه الكرام ، ما دام في الأرض إسلام ، والسلام.

* * *

■ المقامَــةُ النَّجْدِيّــةُ ■

﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾

« وَا حَرّ قَلْبَاهُ يَا نَجْدُ »

نَحْنُ أَدْرَى وَقَدْ سَأَلْنَا بِنَجْدٍ
أَطَوِيلٌ طَرِيقُنَا أَمْ يَطُولُ
وَكَثِيرٌ مِنَ السُّؤَالِ اشْتِيَاقٌ
وَكَثِيرٌ مِنْ رَدِّهِ تَعْلِيلُ

إذا ذكرت نجد ، ثار الوجد ، واستجاب المجد ، يا نجد أنتِ مهبط وحي العربيّة ، ومسقط رأس الشاعرية، على رحابكِ سفكت دماء المحبين، وسالت دموع المعجبين، وعلى بساطك وقعت جواهر البيان، وبسقت لآلي العرفان .

يا نجد أنتِ أرض الحب والغرام ، والعشق والهيام ، في رأسكِ ذاكرة الأيام ، وفي صدركِ مفكرة الأحلام ، هنا ملاعب طسم وجديس، ومفاتن امرؤ القيس، ومعاطن العيس، هنا سحر القافية يلعب بالأذهان ، هنا للشعر سوق ومهرجان ، وللحب روض وبستان ، جدد التوحيد في نجد فصار غضًّا طريًّا، وولد الحب نجديًّا ، وعاش الدين بها أبديًّا ،

وصار الوفاء بها سرمديًّا ، لنجد في قلبي منازل وخيام ، وبيوت وأعلام، ولها في ذاكرتي صور وأفلام ، ومشاهد وأحلام .

يقول الشاعر الدكتور العشماوي وقد أشجاني ، وشعره أبكاني .

يَا عَــائِضَ القَــرَنِي مَــا زَالَ الـهَــوَى

نَجْــدًا وَإِنْ زَارَ الحِــجَــازَ وَأَتْهُــمَــا

قَــالُوا قَـدِمْتَ إِلَى الرِّيَاضِ فَـمَـرْحَـبًـا

أَلفًــا وَحَــيَّــا اللهُ ذَاكَ المُــقَــدَّمَــا

يا صاحبي على نجد قفا نبكي ، ومن هواها تعالَ نشتكي ، في نجد أم البنين الأربعة ، وعامر بن صعصعة ، المطعمون الجفنة المدعدعة ، والضاربون الهام يوم المعمعة . من نجد انطلق الموحّدون ، وأنشد منها قيس بن ميمون ، وفيها عشق عروة بن حزام والمجنون

يَا صَــاحِــبَّى قِــفَــا لِي وَاقْــضِــيَــا

وَحَــدِّثَانِّي عَنْ نَجْــدٍ بِأَخْــبَــارِ

هَلْ أَمْطَرَتْ رَوْضَــةُ الوَعْــسَــاءِ أَوْ

حَــمَــامَــةُ البَــيْنِ أَوْ غَنَّت بِأَشْــعَــارِ

في نجد الخزامى والشيح ، والروض الفسيح ، والشعـر الفصيح ، وشذا المسك تذروه الريح ، نجد ثلاثة أحرف نون ، وجيم ، ودال .

فالنون فنون ، وشجون ، وعيون ، وفتون .

والجيم جلال ، وجمال ، وجهاد ، وجلاد .

والدال في نجد سنة وكتاب ، وعلوم وآداب ، وأحساب وأنساب ، ومجدد الدعوة محمد بن عبد الوهاب .

جاءتنا حمامة ، من اليمامة ، فأخبرتنا أن مسيلمة ترك إسلامه ، وعصى إمامه ، فخلع خالد العمامة ، وربط حزامه ، وسل حسامه ، ففصل من مسيلمة الهامة ، وقص عظامه . فأهدت نجد المجدد ، والموحد ، والمسدد.

فالمجدد ابن عبد الوهاب ، جدد للتوحيد الشباب ، وألبسه أحسن الثياب ، فجزاه الله أوفر الثواب ، **والموحد** حصن الهمة الحريز ، وشارح كتاب المجد الوجيز ، الملك عبد العزيز ، **والمسدد** الرجل الممتاز ، الذي حوى كل فضل وحاز ، عبد العزيز بن باز.

من حنجرة نجد انطلقت في الظهيرة ، صرخة ودِّع هريرة ، ومن نجد أقبل الرجل المفضال ، والداعية الرحّال ، ثمامة بن أثال . ونجد لا تقبل الرذيل ، ولا تعشق الدخيل ، ولذلك قتلت العميل ، عامر بن الطفيل، لأنه كذب بالتنزيل .

أَقُولُ لِصَاحِبي وَالخَيْلُ تَجْرِي

بِنَا بَيْنَ المَجَرَّةِ والضِمَارِ

تَزُودُ مِنْ شَـمِـيمِ عِـرَارِ نَجْـدٍ

فَـمَـا بَعْـدَ العَـشِـيَّـةِ مِنْ عِـرَارِ

حيّت دمشقُ نجداً فقال شاعرها ابن الخياط :

خُـذَا مِن صـبَـا نَجْـدٍ أَمَـانًا لِقَلْبِـهِ

فَـقَـدْ كَـادَ رِيَاهَا يَطِيـرُ بِلُبِّـهِ

وَإِيَّـاكُـمَـا ذَاكَ النَّسِـيمُ فَـإِنَّهُ

مَتَى يَسْرِ كَانَ الوُجْدُ أَيْسَرَ خَطْبِـهِ

وحيّت بغدادُ نجدًا فقال شاعرها الشريف الرضي :

يَا صَـاحِبي قِـفَـا لِي وَاقْـضِـيَـا وَطَرًا

وَحَـدِّثَانِي عَنْ نَجْـدٍ بِأَخْـبَـارِ

وحيّت القاهرة نجدًا فقال أمير الشعراء أحمد شوقي :

جَـبَلُ التُّـوبَادِ حَـيَّـاكَ الحَـيَـا

وَسَـقَـى اللهُ زَمَـانًا وَرَعَـى

قَـدْ يَهُـونُ العُـمْـرُ إِلاَّ سَـاعَـةً

وَتَـهُـونُ الأَرْضُ إِلا مَـوْضِـعَـا

وحيّت صنعاء نجدًا فقد قال الأمير الصنعاني ، والعالم الرباني ، يرحب بإمام التجديد ، للتوحيد :

سَلامٌ عَلَى نَجْدٍ وَمَنْ حَلَّ فِي نَجْدِ

وَإِنْ كَانَ تَسْلِيمِي عَلَى البُعْدِ لا يُجْدِي

وحيّت جبال السروات نجداً فقال الشاعر الخثعمي :

ألا يَا صَبَا نَجْدٍ مَتَى هجت مِنْ نَجْدٍ

لَقَدْ زَادَنِي مَسْرَاكَ وَجْدًا عَلَى وُجْدِ

من نجد هب جيش بكر بن وائل الشجعان ، فهزموا صاحب الإيوان، كسرى أنوشروان . وسوف يهب من نجد بنو تميم ، في جيش عظيم ، لحرب الدجال الأثيم ، كما قال الرسول الكريم ﷺ : «**أَشَدُّ أُمَّتِي عَلَى الدَّجَّالِ بَنُو تَمِيم**» .

من نجد هب عمرو بن كلثوم، بسيفه المثلوم، على الملك الغشوم، عمرو بن هند الظلوم ، ثم أرسل إلى الشعوب ، قصيدته التي تعصف بالقلوب :

أَلا هُبِّي بِصَحْنِكَ فَاصْبَحِينَا

وَلا تُبْقِي خُمُورَ الأَنْدَرِينَا

فسارت في الناس مغربة مشرقة ، وجعلتها العرب معلقة .

ومن نجد المحدث الكبير ، والعالم الأثير ، صاحب الدر النثير ، يحيى بن أبي كثير .

نَجِدُ الهَوَى والسِّحْرَ يَا أَرْضَ الحِمَى
المَجْدُ فَوْقَ تُرابِ صَهْوَتِكِ ارْتَمَى
قَيْسٌ وَلَيْلَى وَالكُمَيْتُ وَجَرْوَلَ
وَدُمُوعِ عُشَّاقِ العَقِيدَةِ قَدْ هَمَى

وإليك هذا التفجع والتوجّع، يشيّعه قلب يتقطع، وعين تدمع، وعقل من الحب يُصرع، يقول عروة في عفراء، وهو في نجد ذات مساء :

جَعَلْتُ لِعَرَّافِ اليَمَامَةِ حكْمَه
وَعَرَّافِ نَجْدٍ إِنْ هُمَا شَفَيَانِي
فَوَاللهِ مَا مِنْ رُقْيَةٍ يَعْلَمَانِهَا
وَلَا شَرْبَةٍ إِلا بِهَا سَقَيَانِي
فَقَالا شَفَاكَ اللهُ وَاللهِ مَا لَنَا
بِمَكْنُونِ مَا تَحْوِي الضُّلُوعُ يَدَانِ

كيف تثبت أمام هذا الشعر هذه القلوب المسكينة ، التي كأنها ذبحت من الجوى بسكينة . وضع يدك الآن على قلبك وناد: السكينة السكينة .

من نجد خرج الأعشى يتمشى ، بعد أن تعشى ، فتوجه إلى المدينة ليعلن إسلامه ، فلقيه أبو سفيان فخاف مقامه ، وأعطاه خطامه ، ليعود لليمامة ، فعاد بجمله ، وأرخى زمامه ، وأطلق خطامه ، فأسقطه فكسّر عظامه ، فباء بالخسران والندامة ، وله قصيدة فريدة ، يصف ويبعث فيها همومه المريدة ، مطلعها :

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ سَرْمَدا
وَعَادَكَ مَا عَادَ السَّلِيمُ المُسَهَّدا

في نجد شعر عجب ، خذ شعر امرؤ القيس إذا شرب ، والأعشى إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب ، وابن كلثوم إذا غضب. شعر امرؤ القيس كالخمر المعتّق ، تكاد القلوب منه تتشقق ، والعروق تتفتق ، والدموع تتدفق ، فإذا سمعْتَه فترفق .

وشعر الأعشى ، كالحمَّى ، يتركك كالمغْمَى ، أو كأنك أعمى ، وهو من الغيث أهمى ، ومن النجم أسمى . وشعر النابغة سحر حلال ، لكنه يذهب عقول الرجال ، وله روعة وجمال ، وأبهة وكمال . وشعر زهير كالماء الزلال ، فيه صدق واعتدال ، وحق وجلال ، بعيد عن السخف والإملال . وشعر ابن كلثوم يسابق حسامه ، كأنه بروق تهامة ، لأن صاحبه طالب زعامة ، يريد العزة والكرامة .

لما كان الشعر في روابي نجد الخضراء ، وفي فيافيها الفيحاء ، كان

آية في الحسن والنبل والبهاء . فلما دخل الشعر إلى القصور ، وسكن الدور، خرج كأنه جلد ثور، لا يطبخ في القدور ، ولا يهبط من النحور، يحتاج البيان إلى خيمة مضروبة ، ورابية منصوبة وخضرة وخصوبة ، لترى الأمثال المضروبة ، والمعاني المرغوبة ، ولما صار القلم بجانب التلفاز ، والعقل بجوار الجهاز ، ذهب البيان والإعجاز ، وغرُب الإبداع والإنجاز .

والسلام على نجد التوحيد ، ما تردد تغريد ، وعذب نشيد ، وطاب قصيد ، وعاد عيد ، ورحمة الله عليكم أهل نجد إنه حميد مجيد . في الختام أردد مع الشاعر :

يَا سَاكِنِي نَجْدٍ إنَّا بعْد بَيْنَكُمُو

كَأَنَّمَا قَدْ شَوَى الأَضْلاعَ سُفُودُ

فَادْعُوا بِحَقِّ الهَوَى أَنْ نَلْتَقِي بِكُمُو

فَإِنَّ أَيَّامَنَا مِنْ بَعْدِكُمْ سُودُ

يَا لَيْتَكُمْ تُبَصِّرُونَ الصَّبَّ عَنْ كُتُبٍ

حَتَّى تَرَوْا بِالَّذِي يَلْقَاهُ مَعْمُورُ

إِنِّي صَغِيرٌ وَلَكِنْ حَالَتِي عَجَبٌ

كَأَنِّي مِنْ بَنِي السَّبْعِينَ مَوْلُودُ

■ مقامة الجزيرة ■

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾

وَلِي وَطَنٌ آلَيْتُ ألا أَبِيعَهُ
وَألاَّ أَرَى غَيْرِي لَهُ الدَّهْرَ مَالِكا
عَهِدّتُ بِهِ شَرْخَ الشَّبَابِ وَنِعْمَةً
كَنِعْمَةِ قَوْمٍ أَصْبَحُوا فِي ظِلالِكا
فَقَدْ أَلِفَتْهُ النَّفْسُ حَتَّى كَأَنَّهُ
لَهَا جَسَدٌ لَوْلاهُ غُودِرَتَ هَالِكا
وَحُبِّبَ أَوْطَانُ الرِّجَالِ إِلَيْهِمُ
مَآرِبُ قَضَاهَا الشَّبَابُ هُنَالِكا
إذا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَّرَتْهُمُ
عُهُودَ الصِّبَا فِيهَا فَحَنُّوا لِذَالِكا

السعودية أرض التوحيد ، والمجد التليد ، والنهج الرشيد . وهي أرض الإنسان ، والبيان ، والإيمان ، والقرآن . لأنها دار الإنسان السوي، والمؤمن الرضي ، التابع للمنهج المحمدي . ولأنها أرض البيان الخلاب ، والأدب الجذّاب ، واللغة الحية ، والموهبة الأدبية .

ولأنها بلاد الإيمـان فمنها أرسل الإيمـان إلى العالم أنواره ، وبعث إلى الدنيا قصصه وأخباره ،ولأنها مهبط القرآن بها نزل جبريل ، على المعلم الجليل، بآيات التنـزيل .

في هذه البلاد ، أعظم ناد للأجواد ، وأكبر واد للأجواد .

قال المـوفق بن هادي : لا تلمني في حب بلادي ، فإنهـا سر أنسي وإسعادي ، فقـد بعث منها محمد المحمـود ، رسول الجود ، صاحب الحوض المورود ، والمقام المحمـود ، واللواء المعقود . وفيها ولد أبو بكر ، طيب الذكر ، صاحب الشكر ، نير الفكر .

ومنها عـمر ، جمـيل الخبر ، وناشـر العدل في البشـر ، وصاحب أحسن السير . ومنها عثمان ، جامع القرآن ، ومكرم الضيفان ، وله من الرسول نوران . ومنها علي ، البطـل الولي ، والسيف الجلي ، خائض الهول حتى ينجلي .

ومنها الأسياد ، والأجواد ، والآساد .

فلما سمعنا كلام المـوفق ، وإذا هو بالدليل محقق ، قلنا : ونسيت البترول ، فإنه السيف المسلول ، والشافع المقبول .

قال : كلاّ ، لمن أعرض وتولّى ، فخـرنا بالرسول ، لا بالبترول ، وسعادتنـا بالذكـر المنـزل ، لا بالديزل ، وفرحتنا بالإسـراء والمعراج ، لا بالحديد والزجـاج، وبهجتنا بالمقـام والبيت ، لا بالزيت ، وتاريخنا بالإعجاز ، والإنجاز ، والامتياز ، لا بالبنـزين والغاز .

فقلنا له : اترك من هلكوا وبادوا ، وحدثنا عن وصول الرادو ، ودعنا ممن يهمزون ويلمزون ، وكلمنا عن بث التلفزيون ، ومتى وصلكم التليفون ، وما كنتم قبله تعرفون ، بل بالجهل توصفون .

فقال : أخطأتم التقدير ، وخطأ العاقل كبير ، اعلموا أننا قبل الصناعة ، كنا أهل البراعة ، والشجاعة ، والذاكرة اللماعة ، وأهل الأصالة ، والرسالة ، والبسالة .

نَحْنُ الَّذِينَ رَوَى التَّأْرِيخُ قِصَّتَهُمْ
وَنَحْنُ أَعْظَمُ مَنْ فِي أَرْضِنَا ظَهَرا
أَمَا تَرَى الشَّمْسَ غَارت مِنْ مَكَارِمِنَا
وَالبَدْرُ فِي نُورِنَا العُلْوِي قَدْ سَهِرا

كان العالم قبل وصولنا غابة ، كأن عليه جنابة ، وكانت الدنيا قبل ميلادنا في مأتم ، تشكو وتتألم ، فلما بزغ فجر رسولنا من البطحاء ، أشرقت على نوره الأرض والسماء ، خيام العدل في بلادنا وولد الشرف مع ميلادنا ، مضرب المثل في الكرم من أوطاننا ، وأشجع الناس من ودياننا . نحن بعثنا إلى الدنيا النور ، وأزلنا منها الظلم والجور ، أذنّا في أذن الدنيا فآمنت ، ومشينا على جبالها فتطامنت ، كنا في الجاهلية الجهلاء ، أهل العزة الشماء ، فلما جاء الإسلام كنا الأعلام ، والصفوة الكرام ، شجاعة لو قابلتنا الأسود لهابت ، وعزيمة لو طرحت على

الصخور لذابت ، هنا دار الفضائل ، ومنازل القبائل ، عندنا قبلة المصلين ، وكعبة الطائفين ، وملاذ الخائفين ، اختارنا الله لدينه أمناء ، وعلى الأمانة أوصياء ، من دارنا هبّت كتائب الفتوحات ، وسارت قوافل التضحيات ، عندنا محبرة ومقبرة ، محبرة لتقييد العلوم ، وتسجيل نتاج الفهوم ، ومقبرة للغزاة ، والمحاربين الطغاة ، نحن أول من حمل السيف ، وأكرم الضيف ، وأبى الحيف .

أرضنا بدماء الشهداء تفوح ، وقلوبنا بأسرار التوحيد تبوح ، عندنا الذهب الأبيض والأحمر والأسود . فالأبيض عِلْم ينعش الأحياء ، من الشريعة السمحاء ، والأحمر دماء في عروق الأحرار ، وفي شرايين الأبرار ، والأسود بترول مدفون في الثرى ، يدلف بالحضارة للمدن والقرى .

اندهش الدهر يوم طالع صفحة جلالنا ، وهام الزمان يوم أبصر لوحة جمالنا ، وتعجب كل جيل يوم قرأ مكارم أجيالنا ، وتحطمت جماجم الغزاة على جبالنا .

دافع الله عنا يوم قصدنا صاحب الفيل ، فعاد في ثوب ذليل ، ورد الله عنا غارة الفرس الكفار ، ومزّقهم في يوم ذي قار . وأنزل الله نصره علينا في بدر ، يوم صعب الأمر ، وضاق الصدر ، فأيد رسولنا بملائكة مسوِّمين، وكرام معلمين ، نحن خرجنا للعالم وفي قلوبنا قرآن نسكبه في قلب من وَحّد وتشهد ، وفي أيماننا سيوف نقطع بها رأس من تمرد

وألحد ، عندنا قداسة الإنسان ، وقداسة البيان ، وقداسة الزمان ، وقداسة المكان.

فقداسة الإنسان ماثلة في الرسول العظيم والنبي الكريم ، وقداسة البيان قائمة في القرآن، الذي أذهل الإنس والجان، وقداسة الزمان، كامنة في عشر ذي الحجة ورمضان، وقداسة المكان في الحرم الطاهر، والمشعر الزاهر . ليس للزمان بدوننا طعم، وليس للتأريخ سوانا رسم، وليس للناس إذا أُغفلنا اسم، نحن شهداء على الناس ، ونحن مضرب المثل في الجود والبأس . كأن النور ولد معنا ، وكأنّ البشر لفظ ونحن معنى، جماجمنا بالعزة مدججة، وخيولنا بالعزائم مسرجة، نحن الأمة الوسط، لا غلط في منهجنا ولا شطط، وسط في المكان فنحن قلب الكرة الأرضية وزعماء الأخلاق المرضيّة، ووسط في الزمان فلم نأت في طفولة الإنسانية ولم نتأخر إلى شيخوخة البشريّة، ووسط في العقيدة فنحن أهل التوحيد والمذاهب السديدة، فلم نعتنق رهبانية النصارى، ولم ننهج نهج اليهود الحيارى، بل أمتنا معصومة من الضلالة، مصونة من الجهالة .

نَحْنُ الَّذينَ إِذَا دُعُوا لِصَلاتِهِمْ
وَالحَرْبُ تَسْقِي الأَرْضَ جَامًا أَحْمَرا

جَعَلُوا الوُجُوهَ إلى الحِجَازِ وكَبَّرُوا
فِي مَسْمَعِ الْكَوْنِ العَظِيمِ وكَبَّرَا

أليس في بلدنا الركن والمقام ، والبلد الحرام ، وعندنا عرفات ، ومنى حيث الجمرات وزمزم والحطيم ، والمشعر العظيم ، وفي أرضنا غار حراء ، مشرق الشريعة الغراء، ونزل في أرضنا جبريل ، على المعلم الجليل ، وحمى بيتنا من الفيل ، بطير أبابيل .

ومنَّا خالد بن الوليد ، وأسامة بن زيد ، وطلحة بن عبيد .

منا قائد القادسية ، الذي أسقط العجم في الخانة المنسية . ومنا قائد اليرموك ، الذي أذهب من رءوس الروم الشكوك ، وصبغ وجوههم بالدم المسفوك .

ابْدَأْ بِنَا فِي رَأْسِ كُلِّ صَحِيفَةٍ
أَسْمَاؤُنَا فِي أَصْلِهَا عُنُوانُ
وَإِذَا كَتَبْتَ رِوَايَةً شَرْقِيَّةً
فَحَدِيثُنَا مِنْ ضِمْنِهَا تِيجَانُ

نحن أرسلنا بني أمية ، ملوكاً للديار الشامية . وبعثنا لبغداد بني العباس ، أهل الجود والبأس . وجيش العجم ما أسلم ، حتى بعثنا له قتيبة بن مسلم .

ومددنا للهند السيف الحاسم ، محمد بن القاسم .

مَنْ كَتَبَ التأريخ وأَهْمَلَ الجزيرة، فقد ارتكب كبيرة، وأتى بجريرة، كيف يهمل الرسول والأصول ، وأهل المنقول والمعقول . كيف يأخذ

البدن بلا روح ، ويجرد البستان من الدوح . كيف يبني القصر على غير أساس ؟ ويقيم الجسم بلا رأس .

تريد المسجد بلا محراب ، والمدرسة بلا كتاب ، نحن الفصول والأبواب ، ونحن السيف والنصاب ، لسجل المكرمات كُتّاب ، ولأرقام المجد حساب ، وعلى قصر الرسالة حجاب .

نحن قلب المعمورة ، وأصحاب المناقب المأثورة ، العالم يتجه إلى قبلتنا كل يوم خمس مرات ، والدنيا تنصت لندائنا بالصلوات ، والكون يستمع لتلاوتنا بالآيات ، زارنا بلال بن رباح ، فصار مؤذن دولة الفلاح، وجاءنا سلمان من أرض فارس ، فلما أسلم صار كأنه على قرن الشمس جالس ، ووفد إلينا صهيب من أرض الروم ، فأصبح من سادات القوم ، من بلادنا تشرق شمس المعارف ، ويقام للعلم متاحف، وتنشر للهدى مصاحف ، حتى ماؤنا يفوق كل ماء ، فماء زمزم شفاء ، ومن كل داء دواء ، ونحن بيت العرب العرباء ، وعندنا سادات الكرماء، ولدينا أساطين النجباء ، وأساتذة الحكماء ، إن ذكرت الحرب فنحن وقودها ، وإن ذكرت الملة فنحن أسودها ، وإذا سمعت بالرسالة فنحن جنودها .

وَلـلأوْطَانِ فِـي دَمِ كُـلِّ حُـرٍّ

يَدٌ سَلَفت، وَدَين مُسْتَحِقُّ

وَمَنْ يَسْقِي وَيَشْرَبُ بِالمَنَايَا
إِذَا الأَحْرَارُ لَمْ يُقُوا وَيَقُوا
وَلا يَبْنِي المَمَالِكُ كَالضَّحَايَا
وَلا يَدْنِي الحُقُوقَ وَلا يَحِقُّ
فَفِي القَتْلَى لأَجْيَالٍ حَيَاةٌ
وَفِي الأَسْرَى فِدًى لَهُمْ وَعِتْقُ

وفي دارنا عائشة أم المكرُمات ، المبرَّأة من فوق سبع سموات ، وفاطمة البتول ، بنت الرسول ، طيبة الأصول . وفي أرضنا الحرمان ، والبيتان ، والعُمَران ، والهجرتان ، والبيعتان ، والسبطان ، والقرآن ، والإيمان ، والبيان .

نحن أهل عذوبة الألفاظ ، والجهابذة الحفَّاظ ، وفي بلادنا سوق عكاظ .

نَحْنُ الَّذِينَ عَلَى خُطَى أَمْجَادِهِمْ
وَقَفَ الزَّمَانُ مُدلَّهِمًّا مَبْهُورًا
تِيجَانُ عِزَّتِنَا النُّجُومُ فَلا تَرَى
غَيْرَ الوَفَاءِ وَصَارِمًا مَشْهُورًا

في بلادنا البطحاء ، حيث انطلقت الشريعة السمحاء . وعندنا نجد الأبيّة ، مطلع شمس العربية ، ومنبع المواهب الشاعرية ، والخطابية .

ولدينا عسير ، حيث المسك والعبير ، والجمال منقطع النظير ، والذكاء الشهير .

ولدينا حائل ، أهل الفضائل ، أحفاد حاتم الطائي شرف القبائل .

ولدينا الحجاز ، أهل الفضل والامتياز ، والكرم والأعتزاز .

ولدينا الإحساء ، دار الشرفاء ، وبيت الأوفياء .

فَغَربُنَا أرض النبوة المحمديَّة ، والسنة الأحمديّة ، أرض قدمت للعالم أشرف هديّة . وَشَرْقُنَا أرض الخيرات ، وبلد المسرَّات ، ودار الهبات ، والأعطيات . ووسطنا دار الملك والإمارة ، وبيت الجدارة ، ومحل الوزارة ، والسفارة . وَشَمَالُنَا أرض الجود ، والند والعود ، والأسود ، وحفظ العهود ، وإكرام الوفود . وَجَنُوبُنَا أرض الهمم الوثابة، والطبيعة الخلابة ، والأخلاق الجذَّابة ، والفهم والنجابة ، والشعر والخطابة .

نحن كتبنا التأريخ بالدماء، ووصلنا الأرض بالسماء ، أنجبنا العلماء، وأنتجنا الحكماء ، وأرسلنا للعالم الزعماء ، وأهدينا الدنيا الحلماء .

إذا لم يبدأ التأريخ بنا فاعلم أنه منكوس ، وإذا لم يُثْنِ علينا سِفر المكارم فاعلم أنه منحوس . كسرنا سيوفنا في بدر ، على رءوس أهل

الكفـر ، ثم أرسلنا شظاياها لصـلاح الدين ، في حطين ، فـقـهر بهـا الملحدين . رددنا في أُحُد ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد ﴾ فسـحقنا من جـحد ، وقطعنا دابر من فسد .

إذَا بَلَغَ الـرَّضِـيعُ لَنَا فِطَامـا
تَخِـرُّ لَهُ الْجَـبَـابِرُ سَـاجِـدِينا
وَنَشْـرَبُ إنْ وَرَدْنَا المَـاءَ صَـفْـواً
وَيَشْـرَبُ غَـيْـرُنَا كَـدَرًا وَطِينا

* * *

المقامَة الجنوبيَّة

﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾

كُنَّا جِبَالاً فِي الجِبَالِ وَرُبَّمَا
سِرْنَا عَلَى مَوْجِ البِحَارِ بِحَاراً
بِمَعَابِدِ الإِفْرِنْجِ كَانَ أَذانَنَا
قَبْلَ الكَتَائِبِ يَفْتَحُ الأَمْصَاراً

سَلِّمْ على السراة ، وعلى الجنوب مُدُنِه وَقُرَاهُ ، لتكون مع التأريخ صادقًا ، وبالحق ناطقًا . في السراة رجال تكاد الأسود أن تقول من شجاعتهم رفقاً يا ناس ، ويكاد السحاب ينادي جبالها لا مساس .

بها ولد أبو هريرة سيد المُحدِّثين ، وهي ديار الخليل بن أحمد إمام النحويين ، من السراة سارت قوافل الوفود ، إلى رسول الوجود ، تعاهد على نصرة الإسلام ، ومتابعة الإمام . منها وفد جرير سيد بجيلة ، صاحب المواقف الجليلة ، ومنها أطل الطفيل سيد دوس ، موقد الحرب الضروس .

في جبال السروات نظم الشنفرى الأزدي لاميته العصماء . وفي روابيها سجل الخثعمي داليته الغراء . أما علمت أنها أرض القرني أويس، وبلاد أسماء بنت عميس .

في السراة كل خطيب وشاعر ، لأن الشعر من المشاعر .

السراة حيث خصوبة التراب ، ونداوة الضباب ، وهمع السحاب .

كأن الطل بديارهم دموع حبيب ، وكأن الظل بأرضهم برد قشيب .

أَرْضٌ إِذَا طَاوَلَتْ هَامُ جِبَالِهَا
قَالَتْ تَوَاضَعْ أَيُّهَا الإِنْسَانُ

وَإِذَا دَخَلْت غِيَاضَهَا وَرِيَاضَهَا
غَنَّى الحَمَامُ وَصَفَّقَ الرِّيحَانُ

فيها مدرسة الحفظ لأن الحفظ هريري دوسي، وهي إيوان الزهد لأن الزهد أويسي.

هنا الشعر الفصيح، والنسب الصريح، والوجه المليح، خطباء حفَّاظ، يغار منهم سوق عكاظ، لروعة تلك الألفاظ، مع القمم هِمم، ومع الشجاعة كرم، لا تنكر أخلاقهم البديعة ، فكما قال ابن خلدون : الأخلاق تتبع الطبيعة . ذكرهم الهمداني في الإكليل ، فكان قلمه بالثناء يسيل .

بلادهم ديار الجود ، وعرين الأسود ، البخل عندهم ذنب لا يغفر ، وعدوهم بالثرى يُعفَّر ، أريحيّة يهتز منها النسيم ، وحاتمية ينشأ عليها الفطيم ، مشاعر جيَّاشة ، وأرواح هشَّاشة ، ووجوه بشَّاشة ، ماء البِشر

في صفحات الوجوه يترقرق ، ودم البطولات في شرايين الأبوة يتدفق ، إصرار على القيم ، وحفاظ على الشيم .

قلوب حُشيت بالإيمان إلى الأعماق، فليس بها مكان للكفر والنفاق.

ما دخلها فيلسوف ، لأن صوت القرآن بها يطوف ، وما حلها زنديق، لأن أسد الرسالة في الطريق .

إِذَا كَبَّرَ الأَزْدِي فِي حَوْمَةِ الوَغَى
رَأَيْتَ شُجَاعًا سَيِّدًا وَابْنَ سَيِّدِ
وَيَطْرِبُهُمْ وَقْعُ الرِّمَاحِ فَمَا لَهُمْ
سَمَاعٌ لِعُودٍ أَوْ غِنَاء لِمَعْبَدِ
أَوَيْسِيَّةٌ دَوْسِيَّةٌ عَزَمَاتهم
كَتَائِبُهُمْ تَسْعَى لِنُصْرَةِ أَحْمَدِ

عروبة صريحة صراحة اللبن المذاب ، والسنة فصيحة فصاحة الفجر الجذّاب .

هم أعمام حسَّان ، وأخوال سحبان ، وأجداد غسّان .

بديهتهم أسرع من الضوء إذا سرى ، وذاكرتهم أغزر من السيل إذا جرى، ما قطر للإلحاد في ديارهم قطرة ، لأنهم على الفطرة .

لو رأى جمال أرضهم كنفشيوس المسكين ، لما نظم قصيدة مرحباً يا بكِّين ، ولو أبصرها جوته شاعر الألمان ، لما أنشد إلياذة الحرمان :

فَالطَّيْرُ يُرْسِلُ للعُشَّاقِ أُغْنِيةً
وَالغُصْنُ يَعْزِفُ والأَرْوَاحِ فِي طَرَبِ
فِي كُلِّ يَوْمٍ عِيدٍ بِأَرْضِهِمُ
فَالسِّحْرُ والشِّعْرُ بَيْنَ الجِدِّ واللَّعِبِ
أَرْضٌ إِذَا جِئْتَهَا أَهْدَتْكَ زِينَتُهَا
حَمَّالَةُ الوَرْدِ لا حَمَّالَةَ الحَطَبِ

طاب الهوى ورقَّ الهواء ، وزان الظل وعذب الماء ، أرض تصنع بها القوافي ، مع الود الصافي ، والجمال الضافي .كأن وحي البيان ، أرسل لطير البستان ، فالتقى سحر الكلام ، مع نشيد الحمام ، ودمع الغمام :

رِفْقًا بِقَلْبِي يَا جَنُوبُ فَإِنَّنِي
بَشَرٌ وَهَذَا السِّحْرُ يَخْلِبُ عَيْنِي
قَتْلُ المُحِبِّ يَجُوزُ فِي شَرْعِ الهَوَى
لَوْ كَانَ دِينُكَ فِي الصَّبَابَةِ دِينِي

ولو عدل صاحب البوصلة لوجـهها للجنوب النفيس ، وذاك الروض الأنيس ، وترك هضبـة مغناطيـس . ولو رأى نابليون جبـال الجنوب ووديانه ، لأراحنا من هيامه بجزيرة هيليانة .

والجنوب لم تدخله الباطنية ، ولا مذهب الظاهرية ، بل تلك الديار سنيَّة سلفيّة ، وقد رحبوا بدعوة التوحيد ، التي أطلقها المجدد الفريد ، صاحب النهج السديد ، وتقبلوا لهذه الدعوة بقبول حسن ، وصاروا على أحسن سنن .

وقـد ردوا كل نحـلة لا تصح ، لأنه نهي أن يورد المـمـرض على المـصح ، وعاش أجـيالهـا اليـوم على كتب ابن تـيمـية ، وابن القـيم الجوزية، وكتب مجدد الدعوة السلفية .

وقد آتاهم الله أذهاناً بالبديهة سائلة ، وألسنة بالفصحى قائلة ، ينظم أحدهم الأرجوزة ، في جلسة وجيزة ، وينشأ أحدهم القصيدة ، بموهبة فريدة .

شاركوا في القادسية وقادهم جرير ، وأنزلوا رستم من على السرير ، مـا عـرض الإسـلام على أحـدهم إلا أسلم ، ومـا نودي يوم الروع إلا تقـدم، دعا الـرسول ﷺ الأزدي أبا ضـمـاد ، فأجـابه إلى الإسـلام والجهاد . وذكـر ابن القيم وفد الأزد فأطنب في ذكـرهم ، وأحسن في شكرهم . وذكر حديثاً يروى عنه ﷺ أنه قال في وفدهم :

«عُلَمَاءٌ، حُلَمَاءٌ ، كَادُوا مِنْ فِقْهِهِم أَنْ يَكُونُوا أَنبِيَاء» .

ومنهم محمد بن واسع الزاهد العابد ، العالم المجاهد ، صاحب الكلمات الفاصلة ، التي هي إلى القلوب واصلة . ومنهم المناذرة الملوك، ومجدهم بالجود محبوك . وعلى بساطهم وقعت المساجلات، وفي ديوانهم حصلت المناظرات والمحاورات .

ومنهم الغساسنة ملوك الشام ، أهل القلم والحسام ، حتى قال حسان :

إنْ تَسْألِينا فَإنَّا مَعْشَرٌ نُجُبٌ
الأزْدُ نِسْبَتُنَا وَالمَاءُ غَسَّانُ

ومنهم آل المهلب أسرة الشرف والريادة ، والكرم والسيادة .

واعلم أن أصول كثير من العلماء السراة ، من جبال السراة . فعبد الغني الأزدي الحافظ الشهير ، آباؤه من السروات بلا نكير ، والطحاوي صاحب العقيدة ، من تلك البلاد المجيدة ، بل ذَكَرَ الشيخ المنسي في كتابه في تاريخ الرجال ، أن مئات المحدثين من تلك الجبال ، واحتفل النسّابة الجاسر ، بذكر مواطن القوم والمآثر ، وطالع ما كتبه عن رجالهم الذهبي في السير ، وما سطره أهل التاريخ والخبر .

وفيهم ثلاث فضائل ، لم تجتمع في غيرهم من القبائل :

سلامة الصدور ، كماء الطهور ، فليس عندهم ضغائن ، ولا دفائن؛ بل غضب الواحد في لسانه ، ثم يعود إلى إحسانه .

ومنها ذكاء وقَّاد ، وطبع في الفهم منقاد ، مع غزارة في القريحة، وأخلاق مليحة .

ومنها فصاحة وبيان ، كأن على طرف كل لسان سحبان ، وعلى شفتي كل شفة حسان . والحمد لله الذي سلمهم من برص الإسماعيلية، وسرطان النصيرية، وداء البطائحية ، وحمق الصوفية ، وتجهم الجهمية ، فطريقتهم محمديّة أحمديّة .

وليس عندهم صلف الخوارج المارقين ، ولا عتو الروافض المتحرقين ، وليس للزندقة عندهم قرار ، وما للبدعة ببلدهم دار ، بل هم أهل سكينة ووقار ، كما وصفهم بذلك المختار . ولم تدخلهم العجم الجفاة ، ولا طيش الأعراب الحفاة ، فهم أهل جنات وعيون، وأهل أدب وشجون .

وقد مدحهم الداعية الشهير القرعاوي ، وذكرهم بحسن المساعي ، وإجابة الداعي ، وسطر فيهم الشعراء أحسن قصائدهم ، ودبّج فيهم الخطباء أجود قلائدهم .

وسل أهل العلم ممن زارهم ، وحل دارهم ، فإنه ينقلب إلى أهله مسروراً ، بعد أن ملئوه حبوراً . وما دفعني لما قلته عصبية ، أو حمية مذهبية ، بل كلمة حق ، وشهادة صدق ، وقد ذكرت فضائل غيرهم من أهل البلدان ، وما تنقصت بسببهم غيرهم من سكان الأوطان ، وانظر الإنصاف والإتحاف في المقامة المكية ، والمقامة النجدية ، واليمنيّة ، وغيرها من المقامات ، وهذا من الاعتراف بالحسنات .

واعلم أن مئات المؤرِّخين والأدباء ، سبقوني إلى ذكر مناقب جبال السروات الشمَّاء ، وأهلها الكرماء ، وقد نظم لبيد قصيدة في تباله ، وحط ابن بطوطة في السراة رحاله ، ولما زارها تأبط شرًّا ، مدحها وقد تأبط خيرًا ، وقد قال أحد شعرائها ، ينوِّه بمجد فضائلها .

نَحْنُ وَجْهُ الشَّمْسِ إِسْلامٌ وَقُوّةٌ
نَسَبٌ حُرٌّ وَمَجْدٌ وَفُتُوّة
نَحْنُ أُزْدُ اللهِ فِي يَوْمِ الرَّدَى
قَدْ وَضَعْنَا الكُفْرَ فِي سَبْعِينَ هِوّة
وَأُوَيْسٌ جَدُّنَا مِنْ قَرَن
أَوَ مَا تَلْمَحُ مَجْدًا فِي البُنُوَّة
والسُّيُوفُ البِيضُ فِي أَيْمَانِنَا
يَوْمَ ضَرْبُ الهَامِ مِنْ دُونِ النُّبُوَّة

* * *

المقامَـة الخليجيّـة

﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾

إنَّ كَيْد مطرّف الإخَاءِ فَإنَّنَا
نَغْدُو ونَسْرِي فِي إخَاءٍ تَالِدِ

أَوْ يَخْتَلِفُ مَاءُ الغَمَامِ فَمَاؤُنَا
عَذْبٌ تَحَدَّرَ مِنْ غَمَامٍ وَاحِدِ

أَوْ يَفْتَرِقُ نَسَبٌ يُؤَلِّفُ بَيْنَنَا
دِينٌ أَقَمْنَاهُ مَقَامَ الوَالِدِ

كنت في أمر مريج ، حتى دخلت الخليج ، فقلت أين المجالس النديّة ، والأخلاق الودية ، والأماني الوردية ؟ قالوا في السعودية .

بِنَفْسِي تِلْكَ الأَرْضُ مَا أَحْسَنَ الرُّبَا
وَمَا أَحْسَنَ المصْطَافَ وَالمُتَرَبَّعَا

قلت : جاش حبي وفاض ، وليس لي على رسول الحب اعتراض ، فاقضِ ما أنت قاض ، إذا هبطت الرياض .

رِيَاضُ الخُلْدِ فِي جَفْنَيْكَ سِرٌّ
عَلَيْهِ مِنْ جَلالَتِهِ بَهَاءُ

ولا تلم من حن قلبُه إلى قطر ، وصار دمعه مثل المطر ، فكم للمحبين من غدوة وروحة ، إلى روابي الدوحة .

الدَّمْعُ يُهْمِلُ مِنْ جُفُونِي كَالمَطَرِ

مُتَذَكِّراً أَهْلَ المَوَدَّةِ فِي قَطَرِ

وسلم على عمان، أهل الشعر والبيان ، وإكرام الضيفان، وهم يوم الروع شجعان.

وَعُمَانُ دَفْتَرُ حُبِّنَا وَسُطُورُه

تَرْوِي حَدِيثَ الأَهْلِ والْجِيرَانِ

وسبحان من مرج البحرين يلتقيان ، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان . أحرزوا ذروة المجد وسنامه ، ونصبوا خيام الجود في المنامة .

قُلْ للمَنَامَةِ هَلْ أَيَّامُنَا جَمُلَت

أَغْلَى إلى قَلْبِنَا مِنْ يَوْمِ لُقْيَاكِ

ودخلنا أبا ظبي فوجدنا أسودها تحمي ظباءها ، والحسن قد ملأ سماءها . فحمى الله الإمارات ، من الغارات ، فقد حققت في العلياء انتصارات ، وشيدت للعلم منارات .

اطْرَحْ رُومَا وَمنْ فَضْلِهَا

فَأَبُو ظَبْي مُنَانَا وَدُبَيْ

فَـــــهُـنَـا رَوْضٌ وَعَـــــيْشٌ رَائـقٌ

كُلُّ فَـــرْدٍ مِنْهُـــمُـــو حَـــاتِمُ طَيْ

كم من محب يقول من الحب انكويت ، فـاسألوا الكويت ، حماها الله من العدوان ، وصانها من حسد الجيران ، ومن غيرة الإخوان .

حَيِّ الكويتَ فَفِيهَا المُلْتَقَى الرَّحْبُ

وَالرَّأي وَالعَـــزْمُ وَالأبْطَال والنُّجُبُ

وقد جمـعنا حفل بهيج ، بجامعـات الخليج ، في مدينة الكويت ، فسلمت عليهم وحييت ، وقلت من قصيدة لي :

لِي فِي الجَـــزِيرَةِ آمَـــالٌ مُـــجَنَّحَـــةٌ

فِي نَجْدِنَا حَيثُ يَسْمُو الشِّعْرَ والخُطَبُ

حَيِّ الكويـتَ فَلَنْ نَنْسَى مَـــوَدَّتَهَـــا

مَحْفُوظَةَ مَـا دَهَاهَا الهَـوْلُ والْعَطَبُ

وَفِي المنَامَـــةِ سِـــفْـرُ الحُبِّ نَقْـرَؤُه

عَلَى خُـدُودِ الهَوَى مِنْ حُبِّنَا عَـتَبُ

بَلِّغْ عُـــمَّـــانَ تَحِـيَّـــاتٍ مُـــبَـــارَكَـــةٍ

أَزْدِيَّـةٍ وَلَـهَـــــا فِـي أَرْضِـنَـا نَـسَـبُ

وَطُفْ عَلَى دَوْحَةِ الأَحْبَابِ مُسْتَلِمًا
تِلْكَ الرُّبَى إِنَّ قَلْبَ الصَّبِّ مُلْتَهِبُ
أَمَّا الإِمَارَاتُ فَالأَشْوَاقُ تَحْمِلُنَا
لأَرْضِهَا وَعَلَيْهَا تَشْهَدُ الكُتُبُ
خَلِيجٌ مَا عَرِفَ الأَحْبَابَ غُرْبَتِنَا
وَقَدْ أَسَاءَ لَنَا الحُسَّادُ إِذْ كَذَبُوا

في الخليج دمع يترقرق ، وماء يتدفق ، ذكاء وامتياز ، وزيت وغاز، وبنزين وقاز. وفي الخليج ضيافة حاتمية ، ودعوة إسلامية ، وصحوة عالمية ، تغذيها كتب ابن تيمية . في الخليج مكة الرسالة ، ونجد البسالة ، ومنامة الشهامة ، ودوحة الكرامة ، ومسقط الزعامة ، وفي الكويت سَلَّ المجد حسامه ، وبلغ العز في «أبي ظبي» تمامه . الخليج أرض الأنبياء ، ودار الأولياء ، وروضة العلماء ، وسرادق الكرماء ، وديوان الشعراء .

من الخليج محمد الرسول الخاتم ، مصلح العالم ، ومنها حاتم المكارم . وخالد صاحب العزائم ، المُلْحِق بالأعداء الهزائم .

من الخليج شعراء المعلقات ، والملاحم الشرقيات ، وتلك المثل الراقيات . وفيها الرجال ، والجمال ، والمال ، والسحر الحلال .

في الخليج الشدة والرخاء ، والحدائق والصحراء ، والجفاف والماء، والأرض والسماء ، والدهماء والعلماء . هنا طائرة وباخرة ، وحضارة فاخرة ، وصحراء ساخرة ، ودنيا وآخرة . بيع وشراء وقرض ، إيراد وتصدير وعرض ، عمار وبناء فوق الأرض ، وثروات وخيرات تحت الأرض . لحركة التعمير ضجيج ، وللبترول رغاء ونشيج ، وللبساتين عطاء من كل زوج بهيج .

في الخليج يلتقي التاريخ والجغرافيا ، لترى الحب في ماء الخليج صافيا ، وتقرأ الود في عيون الخليجيين وافيًا . لا يكره الخليج إلا حاسدًا ، وجاحدًا ، أو جامدًا .

فالحاسد غلبه هواه ، وحسده أغواه ، وقد خاب مسعاه .

والجاحد أنكر الجميل ، وأكثر من القال والقيل ، والكثير من الإحسان عنده قليل . والجامد ، بارد الإحساس ، واهم القياس ، اختلط عليه أمر الناس .

في الخليج فصاحة وقافية ، وعين صافية ، وقيم وافية ، وصيدلية شافية ، وكنوز كافية . هاجر العالم إلى الخليج بالملايين ، فالمسلم جاء يبحث عن الدين ، والجيولوجي أقبل من أجل التعدين ، والخواجة أتى ينقب عن البنزين . جاء الهندي إلى الخليج بالرز ، وجاء الألماني بالبنز ، وجاء الإيطالي بالبز . والكل يطلب العز والكنز .

في الخليج بئر وبعير ، وأعاصير ومواصير . وشبكات ، وشيكات ، وشركات . وريال ، ورجال ، ودينار ، ودولار .

أيها الخليجيّون : ليس فخركم أنكم بلد البترول ، إنما الفخر أنكم بلد الرسول ، فلا تفرحوا لأن الزيت في أرضكم سقط ، لكن افرحوا لأن الوحي في أرضكم هبط .

أيها الخليجيّون : ليس شرفكم زيت دفق ، لكن الفخر أن في دياركم رسول صدق ، وبالحق نطق .

العالم يتجه إليكم خمس مرات ، ليصلي إلى كعبة المسرات ، لقد صرتم بهذا الحرم سادة العالمين ، وفي دنيا الأمجاد مبدعين ، ولأجل عين تكرم ألف عين ، فكونوا إخوة أجمعين ، ولا تطيعوا الشيطان اللعين .

* * *

المقامة اليمانية

« الإيمانُ يَمانٍ وَالْحِكْمَةُ يمانِيَّةُ »

« قُبلاتٌ عَلَى جَبِينِ صَنْعَاء »

دخلنا صنعاء ، بعد ما قرأنا الدعاء ، فوجدنا صالح بن مقبول ، ينشد ويقول :

نَزَلْنَا عَلَى قَيْسِيَّةٍ يَمَنِيَّةٍ
لَهَا نَسَبٌ فِي الصَّالِحِينَ هِجَانِ

فَقَالَتْ وَأَرْخَتْ جَانِبَ السِّتْرِ بَيْنَنَا
لأَيَّةِ أَرْضٍ أَمْ مَنِ الرَّجُلانِ

فَقُلْتُ لَهَا : أَمَّا رَفِيقِي فَقَوْمُهُ
تَمِيمٌ وَأَمَّا أُسْرَتِي فَيَمَانِي

رَفِيقَانِ شَتَّى أَلَّفَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا
وَقَدْ يَلْتَقِي الشَّتَى فَيَأْتَلِفَانِ

فقال أهل اليمن : أنت من ؟ قلت النسبة أزدية ، والملّة محمّدية ، قالوا : انزل غير بئيس ، ولا تعيس ، فإن منكم القرني أويس ، قلنا

كفاكم قول من جاء بالشرائع الإيمانية، حيث يقول : الإيمان يمان ، والحكمة يمانية ، قالوا : صلى الله عليه وسلم كلما فاح ورد ، وثار وجد ، وتلي حمد ، وحلّ سعد ، قلنا كيف الحال ؟ يا معاشر الأقيال[1]، يا أهل الخطب الطوال ، ويا أصحاب البديهة والارتجال ، ويا رواد الأشعار والأزجال .

ألا أَيُّهَا الرَّكْبُ اليَمَانُونَ عَرِّجُوا
عَلَيْنَا فَقَدْ أَضْحَى هَوَانَا يَمَانِيّا
نُسَائِلُكُمْ هَلْ سَالَ نُعْمَانُ بَعْدَنَا
وَحَبّ إِلينَا بَطْنُ نُعْمَان وَادِيَا

وقد قيلت فيكم المدائح ، التي سالت بها القرائح ، وحفظها عنكم التأريخ ، فوصل بها مجدكم المريخ ، أنسيتم ما ذكره في مدحكم الهمداني ، وما سجله في مجدكم صاحب الديباج الخسرواني ، أليس ينسب إليكم السيف الهندواني ، وسمي باسمكم ركن البيت اليماني ، وسهيل أحد النجوم الدواني ، ومنكم محدث العصر الأمير الصنعاني ، والعلامة الرباني الإمام الشوكاني ، وتاج العلماء الكوكباني ، وسيد الأولياء أبو إدريس الخولاني ، ومفتي الديار العلامة العمراني ، وابن الديبع الشيباني ، وشيخ الشيوخ الأرياني ، والقاضي أحمد الحضراني ،

---

(١) الأقيال : : اسم لملوك اليمن .

وخطيب الخطباء البيحاني ، وأستاذ الإعجاز الزنداني ، وقد أثنى عليكم شيخ الإسلام ابن تيمية الحرَّاني ، لما شرح حديث الإيمان يماني ، ومجّدكم ابن رجب بالفقه في المعاني ، وحسبكم مدح الرسول العدناني، فإنه خصّكم بعلم الحكمة في المثاني ، ومنكم شاعر الرسول ﷺ حسّان ، وملك العرب النعمان ، وخطيب الدنيا سحبان ، ومنكم سيف بن ذي يزن في غمدان ، أما سمعت الشاعر حيث يقول :

ألا لا أُحِبُّ السَّيْرَ إلا مُصَاعِداً

وَلا الْبَرقَ إلا أَنْ يَكُونَ يَمَانِيا

فميّز برقكم عن كل برق لأنه صدق ، يأتي بالغيث والودق ، وذكر امرؤ القيس التاجر اليمني في لاميته فقال :

فَأَلْقَي بِصَحْرَاءِ العَبِيطِ بِعَاعَهُ

كَفِعْلِ اليَمَانِي ذِي العِيَابِ المُحَمَّلِ

منكم الأوس والخزرج ، والملكان الحارث والأعرج ، وعمر بن معد يكرب المقدام المدجج ، ومنكم الملكة بلقيس ، وأسماء بنت عميس ، وأبو موسى عبد الله بن قيس ، وعلى ألسنتكم تسيل القوافي، وفي ضيافتكم تشبع العوافي ، بديهتكم سريعة ، وذاكرتكم بديعة ، وفيكم الفصاحة والصباحة ، والسماحة والملاحة ، ودعا لكم المعصوم فقال : اللهم بارك لنا في يمننا ، وأقول : ووفق أهل صنعانا وعدننا .

قال الزبيري في قصيدة الوطن ، يخاطب اليمن :

مَــــزِّقِـــيـني يا رِيحُ ثُمَّ انْثُـــري
أشْلاءَ جِسْمِي فِي جَوِّ تِلْكَ المَعَانِي

وَزِعِـيـنِي عَلَى الجِبَـالِ وَالغُـدْرَانِ
بَيْنَ الحُـــقُـــولِ والأَغْــــصَــــانِ

وَصِلِي جِـيـرتِي وأَحْـبَــاب قَلْبِي
وَقُــصِّي عَلَيْــهِـمُــو مَـــا دَهَانِي

هَــلْ بَـكَـانِـي هِزارهَـا هَـلْ رَثَـانِـي
طَيْـرُهَا هَلْ شَـجَـاهُ مَـا قَـدْ شَـجَـانِي

لَـيْـتَ لـلرَّوْضِ مُــــقْلَةً فَلَعَلَ الدَّهرَ
يَـبْـكِيـــه مِـــثْـلَـمَـــا أَبْكَـانِـي

وقد ذكر الذهبي في النبلاء ، في سيـرة همام بن منبه أحد العلماء ، أن رجلاً من قريش ، صاحب سفـاهة وطيش ، قال لأحد أهل اليمن ، وكان اليـمني ثقة مؤتمن : مـا فعلت عجـوزكم قال : عجـوزنا بلقيس أسلمت مع سليـمان لله رب العـالمين ، وعـجوزكم يا قـرشي حمَّـالة الحطب دخلت النار مع الداخلين ، فـغلب القرشي وأفحـمه ، وفي كل

كرب أقحمه . والمتنبي شاعر المعاني ، أثنى على السيف اليماني ، فقال في نونية رائعة ، وفي قصيدة ذائعة :

بِرَغْمِ شَبِيبٍ فَارَقَ السَّيْفَ كَفّهُ
وَكَانَا عَلَى العِلاتِ يَصْطَحِبَانِ
كَأَنَّ رِقَابَ النَّاسِ قَالتْ لِكَفِّهِ
رَفِيقكَ قَيْسِيٌّ وَأَنْتَ يَمَانِي

وذكروني بشاعر معاصر وإليه ردوني ، أعني به شاعركم عبد الله البردوني ، حيث يقول مخاطبًا الرسول ﷺ :

نَحْنُ اليَمَانِينَ يَا طَهَ تَطِيرُ بِنَا
إِلَى رَوَابِي العُلا أَرْوَاحُ أنْصَارِ
إِذَا تَذَكَّرْتُ عَمَّارًا وَسِيرَتَه
فَافْخَرْ بِنَا إِنَّنَا أحْفَادُ عَمَّارِ

وقد رفعتم رءوس العرب ، لما انتصر سيف بن ذي يزن وغلب ، على أبرهة حامل الكذب ، فزارتكم الوفود بما فيهم عبد المطلب ، فأشاد بكم أمية بن أبي الصلت في لامية عصماء ، أبهى من نجوم السماء يقول :

اجْلِسْ بِرِفْقٍ عَلَيْكَ التَّاجُ مُرْتَفِعًا
بِقَصْرِ غِمْدَانَ دَارٍ مِنْكَ مُحَلالا
تِلْكَ المَكَارِمُ لا قُبْعَانِ مِنْ لَبَنٍ
شَيبًا بِمَاءٍ فَعَادا بَعْدُ أَبْوَالا

وأطعتم معاذ بن جبل ، ورفعتموه في المحل الأجل ، ونصرتم علي ابن أبي طالب ، صاحب المناقب والمواهب ، فقال :

وَلَوْ كُنْتُ بَوَّابًا عَلَى بَابِ جَنَّةٍ
لَقُلْتُ لِهَمْدان ادْخُلُوا بِسَلامٍ

وقتلتم الكذاب الأسود العنسي ، فصار في التأريخ المنسي ، ومنكم المقدام يوم القادسية، الذي سحق الجموع الفارسية ، ومنكم الشاعر وضّاح، الذي هزّ بشعره الأرواح، وأنتم أرق الأمة قلوبًا ، وأقلها عيوبًا، وأطهرها جنوباً، وفيكم سكينة ووقار ، وفقه واعتبار ، ومنكم أولياء وأبرار ، وكفاكم أن منكم الأنصار، مع تواضع فيكم وانكسار ، ومنكم مؤلف الأزهار ، وصاحب السيل الجرَّار، ومدبج الغطمطم التيّار، ومنكم المحقق الشهير ، والمجتهد الكبير، أعني ابن الوزير ، صاحب العواصم والقواصم والروض الباسم ، خطيبكم إذا تكلم بز الخطباء ، وأسرها وسحرها فإما مناً بعد وإما فداء ، وشاعركم إذا حضر غلب الشعراء ، وصارت أفئدتهم من الذهول هواء ، الضاد بأرضكم ميلادها ،

والعروبة عندكم أولادها ، والحميريّة أنتم أحفادها ، أما قال الشاعر :

يَمَنِيُّــــونَ غَــيْــــرَ أَنَّا حُــفَــــاة

قَـدْ وَطِئنَا تِيـجَان كِسْرَى وَقَـيْـصَـرْ

قَـدْ رَوَيْنَا الأَمْـجَـادَ جِيـلاً فَـجِيـلا

جـدّنَا صَاحِبُ الحَـضَـارَاتِ حِـمْـيَـرْ

عندكم الجبال ، والجمال ، والسحر الحلال ، والبلاغة في الأقوال، مع سلامة صدور، وبعد عن الكبر والغرور، وخفة أرواح ، ودعابة ومزاح ، وقدرة على الحفظ ، وسبك اللفظ ، وجودة خاطر ، بكل لذيذ عاطر ، مع بسمة وبشاشة ، ونفوس بالحب جيّاشة ، عانقت جبالكم السحاب ، واحتضن شجركم الضباب ، وقبل ريحانكم التراب ونادت غدرانكم : اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، كأن بُنّكم إذا مزج بالهيل ، وخلط بالزنجبيل ، فيض من السلسبيل ، كأنه يقول للشاربين ، جئتكم من سبإٍ بنبإٍ يقين ، وبأرضكم الأقحوان ، يضاحك الريحان ، وبلبل البستان ، كأنه يتكلم بلسان ، في كل صباح يصيح ، كأنه خطيب فصيح ، من دخل روضكم ظن أنه في إيوان كسرى، يسري به النسيم فسبحان من أسرى :

أَرْضٌ ثَـرَاهَـا لُـؤْلُـؤ وَتُـرَابُـهَــــــــا

مِـــسْكٌ وَطِـينَـةُ أَرْضِــهَــا مِنْ عَـنْـبَــرِ

يَتْلُو بِهَا القَمَرِيُّ آيَاتِ الهَوَى

والطَّيْرُ بَيْنَ مُسَبِّحٍ وَمُكَبِّرِ

طَلْع الزهر بها كأنه جُمان ، ولو سار بأرضها سليمان ، لسار بترجمان ، تباكرها الصبا الشمالية ، لا شرقية ولا غربية ، فيا أنصار الرسالة في قديم الزمان ، أنتم أنصارها الآن ، فعضوا على التوحيد بالنواجذ ، فأنتم الأبطال الجهابذ ، وانصروا سنة المختار ، في تلك الديار، وانهجوا نهج السلف ، فإنكم نعم الخلف ، وارفعوا للملة العلم، فمن يشابه أَبَهُ فما ظلم ، ففيكم علماء وعباد ، ولكم نوافل وأوراد ، وتديُّنكُم سريع ، وفهمكم بديع ، وقد قلتُ في صنعاء ، من قصيدة لي تحمل الحب والوفاء .

صَنْعَاءَ صُغْنَا لَكِ الأَشْعَارَ وَالكُتُبَا

لكِ الوَفَاءُ فَلا تُبْدِي لَنَا العَتَبَا

عَلَى جُفُونِكِ قَتْلَى الحُبِّ قَدْ صُرِعُوا

حَتَّى الَّذِينَ بَقَوْا قَتْلَى وَمَنْ ذَهَبَا

رِوَايَةُ السِّحْرِ فِي عَيْنَيْكِ أُغْنِيَةٌ

وَالحُسْنُ فِي وَجْهِكِ الوَضَّاحِ قَدْ سُكِبَا

لَيْتَ الهَوَى تَرَكَ الأَرْوَاحَ سَالِمَةً
فَهُوَ الَّذِي رَدَّ بِالأَلْحَاظِ مَا وَهَبَا
إِنْ كُنْتِ تَبْكِينَ يَا صَنْعَاءُ مِنْ وَلَهٍ
فَقَدْ سَكَبْنَا عَلَيْكِ الغَيْثَ والسُّحُبَا
اسْتَغْفِرِي أَنْتِ مِمَّا تَفْعَلِينَ بِنَا
هَذَا الجَمَالُ اليَمَانِي يَقْتُلُ العُرُبَا

ولما تقدم الجيش البريطاني ، يريد احتلال أوطاني ، في بلد جيراني وإخواني ، صاح الشاعر الأرياني ، في الشعب اليماني ، مخاطباً جيش الغزاة الذي خدعته الأماني :

يَا بِرِيطَانْيَا رُوَيْداً
إِنَّ بَطْشَ الإِلَهِ كَانَ شَدِيدا
إِنَّ بَطْشَ الإِلَهِ أَهْلَكَ فِرْعَوْ
نَ وَعَاداً مِنْ قَبْلِكُمْ وَثَمُودا
لا تَظُنُّوا هَدْمَ المَدَائِنِ يُودِي
عَزْمَنَا أَوْ يَلِينُ بَأْساً صَلِيدا

إنْ تَبِيدُوا مِنَ البُيُوتِ بِطَيَّارًا
تِكُمْ مَا غَدَا لِدُنْيَا مَشِيدا
فَلَنَا فِي الجِبَالِ تِلْكَ بُيُوتٌ
نَحَتَتْهَا أَجْدَادُنَا لَنْ تَبِيدا
فَالنِّزَالُ النِّزَالُ إنْ كُنْتُمُو مِمَّنْ
لَدَى الحَرْبِ لا يَخَافُ البُنُودا
لِتَرَوْا مَنْ يَبِيتُ مِنَّا وَمِنْكُمْ
مُوثَقًا عِنْدَ خَصْمِهِ مَصْفُودا
أفَتَرْجُو إنْكِلْتِرَا فِي بِلادِ اللهِ
أَرْضًا وَمَوْطِنًا وَخُلُودا
كَذَبَتْ وَالإِلَهُ مَا كَانَ حَتَّى
نَمْلأ الأَرْضَ والسَّمَاءَ جُنُودا
بَعْدَ أَنْ تُسْفَكَ الدِّمَاءُ عَلَى الأَرْضِ
وَتُرَوَّى سُهُولُهَا والنُّجُودا

مَـا خَـضَـعْنَا للتُّـرْكِ مَعَ قُـرْبِهـم فِي
الدِّيـنِ مِنَّـا فَكَيْـفَ نَرْضَـى البَـعِـيـدا
وَهُـم فِـي الأَنَـامِ أشْـــجَـعُ جَـــيْشٍ
فَـاسْـألُوهُمْ قَـدْ صَـادَفُـونَا أُسُـودا
يَا بَنِـي قَـوْمنا سِـرَاعًـا إلى المَـوْتِ
فَـقَـدْ فَـازَ مَن يَـمُـوتُ شَـهِـيـدا
والبِـســوا حُلَّةً مِنَ الكَفَنِ الغَـالِي
وَبِيـعُـوا الحَـيَـاةَ بَيْـعًـا مَـجِـيـدا
سَـارِعُـوا سَـارِعُـوا إِلى جَنَّةٍ قَـدْ
فَـازَ مَنْ جَـاءَهَا سَعِـيـداً حَـمِـيـدا

سلام على شوكان ، ورحمة الله على إريان ، وبركاته على كوكبان، ومغفرته على عمران وتحياته على خولان وفضله على همدان . لأن التفسير الصحيح شوكاني ، والشعر المليح إرياني ، والخطاب الفصيح كوكباني . والعقل الرجيح عمراني ، والوجه الصبيح خولاني ، والكف السميح همداني .

وصرف الله النقم ، عن جبل نُقم ، لأنه أنتج لنا ابن الوزير ، صاحب التحبير والتحرير .

شُكْراً لِتِلْكَ الأَرْضِ لَوْ أَنَّ الدِّمَـــا

تُسْــقَى بِهَــا الأَوْطَانُ أسْــقَــيْنَاهَا

اليمن مشتق من الإيمان لأنهم صدّقوا بالرسالة ، وأظهروا البسالة ، وأكرموا رسول الرسول ، وقابلوه بالقبول ، وجمعوا بين المعقول والمنقول .

واليمن مشتق من اليُمْن؛ لأنه كان ميموناً بجنوده ، معيناً بحشوده .

واليمن مشتق من الأمانة لأن أهلها رجاله فدوا الملة بالنفوس ، وقدموا للشريعة الرءوس :

أَمَّــةٌ أَمْــهَــرتِ المَــجْــدَ النُّفُــوسَــا

بَذَلَتْ لِلدَّعْــوَةِ الكُبْــرَى الرُّءوسَــا

واليمن مشتق من اليمين ، فهم ميمنة كتائب الجهاد ، ساعة الجلاد، بالسيوف الحداد :

عَلَى المَيَــامِنِ تَلْقَــانَا جَحَــاجِحَــةً

بِعْنَـا مِنَ اللهِ أَرْوَاحًــــا وَأَبْدَانَـا

إذا رأيت من ينتقص اليمن فاعلم أنه يستحق التوبيخ ، لأنه يجهل أبجديّات التأريخ .

روى الطبراني، عن الرسول العدناني، في مدح المدد اليماني : «إنَّ

نَفَسَ[1] رَبِّكُم من اليمنِ ، **لأنهم أهل نجدة وفطن**» . اليمن بلد **الأقيال** ، **والجبال** ، **والجمال** ، **والجلال** .

فالأقيال : طردوا الأحابيش ، وهزموا كل جيش . **والجبال** : صدّت الغزاة المحاربين ، ودمّرت الإنجليز الكاذبين . **والجمال** : رسائل سحر من الطبيعة ، في حجاب الشريعة . **والجلال** : إيمان في قوة ، وعلم مع فتوّة . تعانَق في اليمن التأريخ والجغرافيا ، عناقاً كافياً شافيًا ، وتصافح بها الفقه والحديث ، والقديم والحديث .

إذا سال على حدائق الأزهار ، السيل الجرار ، ظهر لك أهل التقليد وحملة الآثار ، وإذا أردت الدليل ، على فضل هذا البلد الجليل ، فعليك بالإكليل .

واعلم أنني ما أسرفت في المديح بل قصرت ، وما طولت في الثناء بل اختصرت ، وكفى لأهل اليمن مدح المصطفى ، وإنما أردنا أن نكتب في ديوان الوفاء ، وفي سجل الصفاء .

يا صنعاء نريد منك جيلاً ربانيًا ، وشباباً محمديًا ، وعزمًا يمانيًا ، وشكرًا يا عدن ، على ترحابك بأتباع النبي الأمين ، وطردك لعبيد لينين، وأذناب إستالين ، لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

سَلِّمْ عَلَى الدَّارِ من شَجْوٍ وَمِنْ شَجَنٍ

وَانْظُرْ إِلَى الرَّوْضِ مِنْ سِحْرٍ وَمِنْ حَسَنِ

---

(١) معناه الفرج من الله بعد الشدة .

يَا لَوْحَةً نُسِجَتْ فِيهَا مَدَامِعُنَا
قَلْبِي بِرَوْعَةِ هَذَا الوُجْدِ فِي اليَمَنِ

وما كتبت هذه المقامة ، حتى طالعت كتب القوم في الجبال وتهامة، فقرأت كتب ابن الوزير ، وكتاب رياح التغيير ، وسامرت كل مرجع ، وراجعت تأريخ الأكوع ، ورافقت كتاب البدر الطالع ، فإذا هو جامع مانع ، وألّف أحد المستشرقين كتاب اليمن من الباب الخلفي، وفيه ما يكفي ويشفي، وقد نظم الشعراء في اليمن إلياذات ، وكتبت على القلوب من حبها أبيات ، ولهم في هذا القطر مؤلفات ومصنفات ، ومن لطف أهل اليمن تسميتهم لشجرة البن لأن فيها بناء مودات . وتسميتهم القات ، لأنها تذهب الأوقات ، وتأكل الأقوات .

واليمن مورد عذب ، وميدان رحب ، فالقومي باليمن يفخر ، لأنها بلد الجد حمير ، والمؤرخ يتشجع ، لأنه عثر على موطن تبع ، وصاحب الآثار له من اليمن أمداد ، لأن فيها إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وحملة القرآن ، لهم ميل إلى تلك الأوطان ، لأن الإيمان يمانٍ ، فاحفظ أخبارهم ، وردد أشعارهم ، واكتب إنشاءهم، ولا تبخس الناس أشياءهم .

واعلم أن اليمن أهدت لسليمان بلقيس بالكرسي، وقتلت الأسود العنسي، وألبست العروبة المنن، بسيف ذي يزن، حتى زاره عبد المطلب، نيابة عن العرب، فبشره بالنبي المرتقب، وأعلى منزله كما يجب .

وألفت اليمن في الأصـول ، إرشاد الفحـول ، وفي التفسيـر ، فتح القدير ، وفي سنة أبي القاسم ، الروض الباسم ، وفي فن الطلب ، نيل الأرب ، وفي الأحكام ، سبل السلام، وفي فقه الآثار ، نيل الأوطار ، وتاج العروس أصله من زبيد ، وعندهم كل عالم مفيد ، وشاعر مجيد. وقد أغناهم الله بالحديث عن فلسفة اليونان ، وبالفـقه عن كلام مبتدعة خراسان ، وبالتفسير عن خيالات فارس وملكهم ساسان ، وهم من أكثر العباد خشوعاً ، ومن أغزرهم دمـوعًا ، وليسوا بعباد درهم ، وليس من أرضهم الجـعد بن درهم ، ولـم يدخل ديارهم الجهم بن صـفوان ، بل أهدوا للسنة طاوس بن كيسـان ، وكان العلم يطلب من أوطانهم سنينًا ، وقد سلموا من غلطات الفارابي وابن سينا .

ولله تاريخـهم ما أحـسنه ، لأن هناك لين القلوب وصـدق الألسنة، وشجرة مـجدهم لا تنبت إلا على الأنهار الشـرعية، ولذلك اجتـثوا من بلادهم جرثومة الشيوعيـة، لأنهم موحدون لا ملحدون، فهم بلد الوفاق والإنفاق، لا بلد الرفاق والنفـاق والشقاق، فيا حمـام بلغهم منا السلام، وقل إلى الأمـام، والصـلاة والسلام على صـفوة الأنام، وآله وصـحبـه الكرام .

وقبل الوداع ، أطرق الأسماع بمقطوعة فاتنة وأبيات ساخنة لشاعركم محمد محمود الزبيري يخاطب فيها اليمن يقول :

الشَّاعِرِيَّةُ فِي رَوَائِعِ سِحْرِهَا
أَنْتِ الَّذِي سَوَّيْتِهَا وَصَنَعْتِهَا
مَا لِي بِهَا جُهْدٌ فَأَنْتِ نَسَجْتِهَا
وَنَشَرْتِهَا بيْنَ الوَرَى وَأَذَعْتِهَا
أَنْتِ الَّذِي بِسَنَاكِ قَدْ عَطَّرْتِهَا
وَكَتَبْتِهَا فِي مُهْجَتِي وَأَشَعْتِهَا
أَبْعَدْتِنِي عَنْ أُمَّةٍ أَنَا صَوْتُهَا
العَالِي فَلَوْ ضَيَّعْتِنِي ضَيَّعْتُهَا
مَا قَالَ قَوْمِي آهٍ إِلا جِئْتَنِي
وَصَهَرْتُ أَحْشَائِي بِهَا وَلَسَعْتَهَا
عَذَّبْتِنِي وَصَهَّرْتِنِي لِيَقُولَ عَنْكِ
النَّاسُ هَذِي آيَة أَبْدَعْتِهَا

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتُه

* * *

■ المقامَـة المصريّـة ■

﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾

يَا مِـصْـرُ كُل حَديثٍ كُنْتُ أَحْـفَـظُهُ

نَـسِـيـتَـهُ عِنْد أَهْلِ التَّلِّ والدَّارِ

جَـرَتْ دُمُوعِي عَلَى أَعْتَابِ دَارِكُمُو

يَا مِـصْـرُ كُلُّ الهَـوَى فِي نِيلِكِ الجَارِ

يا مصر ، أنتِ كوكبة العصر ، وكتيبة النصر ، وإيوان القصر ، أنتِ أم الحضارة ، ورائدة المهارة ، ومنطلق الجدارة ، وبيت الإمارة ، ومقر السفارة ، ومهبط الوزارة .

من أين نبدأ يا مصر الكلام ، وكيف نلقي عليكِ السلام ، قبل وقفة الاحترام ، لأن في عينيكِ الأيام ، والأعلام ، والأقلام ، والأعوام .

يا مصـر أنتِ صاحبـة القبول والجـاه ، كم من قلب فيكِ شجـاه ما شجاه ، ونحن جئنا ببضاعة مزجاة .

سَـارَتْ إِلى مِـصْـرَ أَحْـلامِي وَأَشْـوَاقِي

وَهَلَّ دَمْعِي فَـصِرْتُ الشَّارِبُ السَّاقِي

وَفِي ضُلُوعِي أَحَادِيثُ مُرَتَّلَةٌ

وَمِصْرُ غَايَةُ آمَالِي وَتِرْيَاقِي

يا ركب المحبين أينما حللتم وارتحلتم ، وذهبتم وأقبلتم ، اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم . يا أرض العز ، يا قاهرة المعز ، يا بلاد العِلم والقطن والبز .

سلام عليكِ يا أرض النيل ، ويا أم الجيل ، الحب لكِ أرض والجمال سقف ، والمجد لكِ وقف ، ويا داخل مصر منك ألف ، ما أحسن الجفن والجيد والكف ، التقى الطيب والكافور في مصر ، لما التقى أبو الطيب وكافور في القصر ، قبل أن يدخل جوهر الصقلي مصر كان عبدًا مملوكًا ، فلما دخلها صار يحكم ملوكًا .

أَرْضٌ إِذَا مَا جِئْتَهَا مُتَقَلِّبًا

فِي مِحْنَةٍ رَدَّتْكَ شَهْمًا سَيِّدًا

وَإِذَا دَهَاكَ الهَمُّ قَبْلَ دُخُولِهَا

فَدَخَلْتَهَا صَافَحْتَ سَعْدًا سَرْمَدًا

قل للأخيار المكرمين ، الوافدين إليها مغرمين ، والقادمين عليها مسلمين ، ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين .

في مصر تعانقت القلوب ، وتصافح المحب والمحبوب ، والتقى

يوسف بيعقوب ، فصفق الدهر ليوسف منشداً ، وغنى الزمان له مغرّداً، وخروا له سجداً .

في مصر ترعرع الشعر ، وسال القلم البليغ بالسحر ، فكأن الفضاء لكتاب مصر صفحة بيضاء ، ويكتب فيه كل ما يشاء ، صارت العقول في ذهول ، من روعة المنقول والمعقول ، وأذعنت القلوب في قبول ، ترحب بالشاعر المصقع ، والقلم المبدع ، والرأي المقنع .

دَخَلْنَا مِصْرَ وَالأَشْوَاقُ تُتْلَى
وَكُلُّ الأَرْضِ أَنْسَامٌ وَطَلُّ
جَمَالٌ يَسْلُبُ الأَلْبَابَ حَتَّى
كَأَنَّ القَتْلَ فِيهَا يُسْتَحَلُّ

في مصر القافية السائرة ، والجملة الساحرة ، والمقالة الآسرة ، والفكرة العاطرة ، عالم من الجنود ، والبنود ، والوفود .

دنيا للقادة ، والسادة أهل الإفادة ، والإجادة ، والرفادة ، ديوان للكتاب ، والحساب ، والأصحاب ، والأحباب .

محراب للعباد ، والزهاد ، والأمجاد ، والرواد ، علماء ،وحكماء، وكرماء ، وحلماء وشعراء ، وأدباء ، وأطباء ، وخطباء ، ونجباء ، وأذكياء ، وأولياء ، وأصفياء ، وأوفياء .

هنا الدهر يكتب من ذكرياته فنونًا، هنا التأريخ يبث من صدره شجونًا، هنا الجمال يسكب من إنائه فُتُونًا ، هنا خُطا الزمان تتسارع ، والحضارات تتصارع ، والأهرام تقص علينا خبر الأيام ، وأحاديث الأقوام ، وما فعلته الأعوام :

أَيْنَ الَّذِي الهَرَمَانِ مِنْ بُنْيَانِه

مَا يَوْمُه مَا ذِكْره مَا المَصْرَعُ

تَتَخَلَّفُ الآثَارُ عَنْ أَصْحَابِهَا

يَوْمًا وَيُدْرِكُهَا الفَنَاءُ فَتُتْبَعُ

هنا سحق الطغيان ، ومزق جنود الشيطان ، ودمر فرعون وهامان ، وأحرقت وثيقة الزور والبهتان ، وارتفعت ملة الرحمن .

هنا عمرو بن العاص ، رحب به العوام والخواص ، وفر الظلم في قدومه وغاص ، هنا تكتب الدموع على الخدود رسائل الأموات إلى الأحياء ، وخطاب الأرض المفتوح إلى السماء ، وهنا تلتقي الظلماء والضياء ، والظمأ والماء ، والصفاء والوفاء ، ويتعانق الضحك والبكاء، والفراق واللقاء ، لتصبح الحياة في مصر مهرجانًا لآلاف الصور والمشاهد ، والذكريات مساجد ، ومعابد ، ومعاهد ، وجامعات ، وكليات ، وشركات ، وأمسيات ، ومحاضرات ، وندوات ، ولقاءات ، ومحاورات ، ومعاهدات .

(((دَارٌ هِـي الأَرْضُ إلا أَنَّـهَـــــا بَـلَـدٌ
فِـيهَا الزَّمَانُ وَفِـيهَا الشَّـمْسُ والقَمَـرُ
تَجَـمَّعَ الدَّهْرُ فِي أَرْجَـائِهَـا جَـذْلاً
والغَـيْثُ دَاعَـبَـهَـا والنَّهْـرُ والشَّـجَـرُ

صباح الخير يا أرض الكنانة ، وناصرة الديانة ، وحاملة التأريخ بأمانة ، وحافظة عهد الإسلام في صيانة ، وراعية الجمال في رزانة . أدب خلاّب، وجمال سلاّب ، وسحر جذّاب ، وذكاء وثّاب ، وظل مستطاب، وأمان عذَّاب ، نهر يتدفّق ، وحسن يترفّق ، ودموع تترقرق، وزهور تتفتق، وأكمام تتشقق ، ومقاصد تتحقق، وجد الإسلام فيكم يا أهل مصر أعيادَه ، كنتم يوم الفتوح أجناده ، وكنتم مدده عام الرمادة ، وأحرقتم العدوان الثلاثي وأسياده ، وحطمتم خط بارليف وعتاده ، وكنتم يوم العبور آساده وقواده . فتفضلوا الشكر والإشادة ، وخذوا من القلب حبه ووداده :

ثَـمَنُ الْـمَـجْـدِ دَمٌ جُـدْنَا بِـهِ
فَـاسْـأَلُوا كَـيْفَ دَفَـعْنَا الثَّـمَنَا

منكم أمير الشعراء، وكبير البلغاء، وشيخ الفصحاء، وسيد الخطباء، وأستاذ النجباء، وأكبر الأطباء . يسلك العقل في مصر سبيله، ويحفظ الفؤاد من مصر نيله ، وتعيد الذاكرة في مصر قصة ألف ليلة وليلة .

في مصر لطف الهواء، وطيب الغذاء، ونفع الدواء ، وصفاء الماء .

النِّيلُ مائِي وَفِي أَرْضِ الكِنَانَةِ مَا
يُشْجِي مِنَ الحُبِّ والأَشْوَاقِ تَزْدَانُ
فِيهَا الحَضَارَةُ والأَمْجَادُ مَاثِلَةً
عِلْمٌ وَفَهْمٌ وَإِسْلامٌ وَإِيمَانُ

سلام على مصر في الآخرين، لأنها كانت خزانة المسلمين، ومدد المجاهدين، وسلة الخبز للجائعين، ومقبرة المستعمرين، أهلك الله أعداءها ثم قال : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ .

بوركتِ يا أرض السنابل ، ويا روض الجداول ، ويا بلاد الخمائل ، لكِ في قلوبنا من الحب رسائل ، ومن الود مسائل :

مَنْ لِقَلْبٍ حَلَّ جَرْعَاءَ الحِمَى
ضَاعَ مِنّي هَلْ لَهُ رَدٌّ عَلَيَّ؟
فَاسْأَلُوا سُكَّانَ مِصْرَ إِنَّهُ
حَلَّ فِيهِمْ فَلْيَعُدْ طَوْعًا إِليَّ

لله أنت يا مصر ، بَنُوك أهل سعة في الحفظ ، وفصاحة في اللفظ، منهم سادات القرّاء ، وأئمة الفقهاء .

إذا قرأ منهم القارئ كلام الباري ، تكاد تميد السواري ، وينسكب مع ندى صوته الدمع الجاري .

وإذا خطب فيهم الخطيب ، بذاك الكلام العجيب ، سمعت البكاء والنحيب .

مصر بلد الحديث المحبّر ، والحرف المسطر ، والروض المعطر .

سقاها الله الغيث المدرار ، وحماها من الأخطار ، وصانها من لوثة الأشرار .

يحق لشوقي أن يقول فيك يا مصر ، ذاك الدر :

وَطَنِي لَوْ شُغِلْتُ بِالخُلْدِ عَنْهُ
نَازَعَتْنِي إِلَيْهِ فِي الخُلْدِ نَفْسِي

أَحَرَامٌ عَلَى بَلابِلِهِ الدَّوْحُ
حَلالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسِ

ولو أن شوقي بالغ وهذا غير سائغ؛ ولكن تبقى مصر عروس المعمورة ، وبستان البسيطة ، وحديقة الحب ، وروضة الأحلام ، ومهرجان النبلاء ، ودار العباقرة ، ومحط الرواد .

* * *

المقامَــة الـدمشـقيــة

« رفقاً بقلبي يا دمشق »

سَـــلامٌ مِنْ صِـــبَـــا بَـرْدِي أَرْق
وَدَمْعٌ لا يُكَـفْكِـف يَا دِمِــشْقُ
وَمَـعْـذِرَة اليَـرَاعَـةِ والقَـوافِي
جَـــلال الـرزء عَـنْ وَصْـفٍ يَـدقُ
دَخَلْتُكِ وَالأَصِـيلُ لَهُ ائتِـلاق
وَمَــــلأ رُبَـاكِ أَوْرَاقٌ وَوَرَقُ

السلامُ عليك يا أرض شيخ الإسلام ، ورحمة الملك العلاَّم ، أيها الحضور الكرام ، في دمشق الشام .

يا دمشق ماذا تكتب الأقلام ، وكيف يرتب الكلام ، وماذا نقول في البداية والختام.

في دمشق الذكريات العلمية، والوقفات الإسلامية، والمآثر الأمويّة . وفيها يرقد ابن تيمية ، وابن قيم الجوزية . وفي دمشق حلقات الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية . يحق لحسان أن ينوح على تلك الأوطان، ويسكب عليها الأشجان .

لله دَرُّ عِصَابَةٍ نَادَمْتُهُمْ
يَوْمًا يُحَلِّقُ في الزَّمَانِ الأَولِ
أبناءُ جَفْنَةٍ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمْ
قَبْرُ ابنِ مَارِية الكَرِيمِ المُفَضَّلِ

تذكرك دمشق بمعاوية بن أبي سفيان ، وعبد الملك بن مروان ، وبني غسان، والشعر والبيان ، والمجالس الحسان . دمشق سماء زرقاء، وروضة خضراء ، وقصيدة عصماء ، وظل وماء ، وعلو وسناء ، وهمة شماء . ما أبقى لنا الشوق بقية ، لما سمعنا تلك القصيدة الشوقية ، في الروابي الدمشقية .

قَمَرٌ دِمِشْقِيٌّ يُسَافِرُ في دَمِي
وَسَنَابِلٌ وَخَمَائِلٌ وقِبَابُ
الحُبُّ يَبْدَأُ مِنْ دِمِشْقَ فَأَهْلُهُ
عَشَقُوا الجَمَالَ وَذَوَّبُوه وَذَابُوا
والمَاءُ يَبْدَأُ مِنْ دِمِشْقَ فَأَيْنَمَا
أَسْنَدتَ رَأْسَك جَدْول يَنْسَابُ
وَدِمِشْقُ تُهْدِي لِلعُرُوبَةِ لَوْنَهَا
وَبَبَابِهَا تَتَشَكَّلُ الأَحْزَابُ

في دمــشق أكبــاد تخــفق ، وأوراق تصفق ، ونــهر يتــدفق ، ودمع يترقرق ، وزهر يتشقق

دخلنا دمــشق فاتحــين ، وصــعدنا رباها مــسبحــين . فدمــشق في ضمــائرنا كل حين . وهي غنية عن مــدح المادحين . ولا يضــرها قدح القادحين .

آه يا دمــشق كم في ثراك من عابد ، كم في جــوفك من زاهد ، كم في بطنك من مجاهــد ، كم في حشاك من ساجد . أنت يا دمــشق سِفْر خلود، وبيت جــود، منك تهب الجنــود، وتحمل البــنود . يصنع على ثراك الأحــرار، ويســحق على ترابك الاســتــعمــار، ويحــبك يا دمــشق الأخيــار. فأنت نعم الدار . تقطع إليك من القلوب التــذاكر ، من زارك عاد وهو شــاكر ، ولأيامك ذاكر ، يكفــيك تاريخ ابن عساكــر ، صانك الله من كل كافر.

أَلْقَــيْتُ فَــوْقَ ثَرَاكِ الطَّاهِرِ الهُــدُبَا

فَــيَا دِمِــشْقُ لِمَــاذَا نُكْثِــرُ العَــتَبَــا ؟

دِمِــشْقُ يَا كَنْز أحْــلامي وَمَــرْوَحَــتِي

أَشْكُــو العُــرُوبَةَ أَمْ أَشْكُــو لَــكِ العَــرَبَا

أَدْمَتْ سِــيَــاط حُــزَيْرَان ظُهُــورَهُــمُــو

فَــأَدْمَنُوهَــا وَبَاسُــوا كَفَّ مَنْ ضَــرَبَا

وَطَالِعُوا كُتُبَ التَّأرِيخِ وَاقْتَنِعُوا

مَتَّى البَنَادِقُ كَانَتْ تَسْكُنُ الكُتُبَا ؟

في دمشق روضة العلماء ، وزهد الأولياء ، وسحر الشعراء ، وحكمة أبي الدرداء ، وجفان الكرماء .

في دمشق عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد ، والملك الزاهد ، والولي العابد ، يطارد الظلم والظالمين ، ويحارب الإثم والآثمين ، فيذكر الناس بالخلفاء الراشدين ، ويعيد للإسلام جماله في عيون الناظرين . في دمشق براعة ابن كثير ، وعبقرية ابن الأثير ، وتحقيق النووي ، وفطنة ابن عبد القوي .

لَوْلا دِمِشْقُ لَمَا كَانَتْ بِلَنْسِيَّة

وَلا زَهَتْ بِبَنِي العَبَّاسِ بَغْدَانُ

أَتَى يُصَفِّقُ يَلْقَانَا بِهَا بردى

كَمَا تَلْقَاكَ دُونَ الخُلْدِ رَضْوَانُ

يكفيك أيها الشام السعيد ، أن فيك القائد الفريد ، والبطل السديد ، خالد بن الوليد . سيف الله الهمام ، كاسر كل حسام ، أغمد في الشام، السلام عليك يا أبا سليمان ، يا قائد كتيبة الإيمان ، ويا رمز كتيبة الرحمن .

يَا ابْنَ الوَلِيدِ أَلا سَيْفٌ تُنَاوِلُنَا
فَإِنَّ أَسْيَافَنَا قَدْ أَصْبَحَتْ خَشَبَا
لا تُخْبِرُوهُ رَجَاءً عَنْ هَزَائِمِنَا
فَيَمْتَلِئَ قَبْرُهُ مِنْ قَوْمِهِ غَضَبَا

صحح الألباني، المحدث الرباني، أحاديث في فضل تلك المغاني.

وأول أبيات في الأغاني ، لأبي الفرج الأصبهاني . في وصف دمشق وتلك المباني . حيث يقول الشاعر :

القَصْرُ وَالبِئْرُ والجَمَاءُ بَيْنَهُمَا
أَشْهَى إِلى النَّفْسِ مِنْ أَبْوَابِ جِيرون

وقد نسى ابن كثير نفسه ، وملأ بالمدح طرسه ، لما تحدث عن دمشق ، فقلمه بالثناء سبق ، وبالإطراء دفق ، وحار الحكماء في وصف دمشق وطيب هوائها ، وعذوبة مائها ، واعتدال أجوائها ، وذكاء علمائها، وبلاغة خطبائها ، وتقدم شعرائها ، وعدل أمرائها ، وجمال نسائها ، حتى أن بعض العلماء ذكر أن دمشق أم البلدان ، وأنها في الدنيا جنة الجنان .

دِمِشْقُ الشَّام كُلُّ حَدِيثٍ رَكب
يَقْصِرُ عَنْك يَا نُون العُيُونِ

كَـــأَنَّك جَنَّةٌ عَــــرَضَت بِدُنْيَــــا
أَثَّرَت عَلَى هَوَى قَلْبِي شُـــجُــونِي

دخل دمشق الصحابة ، كأنهم وبل سحـابة ، أو أسد غابة ، فلقيتهم بالأحضان ، وفرشت لهم الأجفان ، فعاشوا على روابيها كالتيجان . في دمـشق فنون وشـجون ، وعـيـون ومتـون ، وسـهول وحـزون ، وتين وزيتـون. دمشق جـديدة كل يوم ، وهي حسناء في أعـين القـوم ، وقد بكى من فراقها ملك الروم . إذا دخلت دمـشق تتمايل أمامك السنابل ، وتتراقص في ناظريك الخـمائل . وتصفق لقـدومك الجداول ، وترحب بطلعتك القـبائل . دمشق أعيـادها يوميّه ، وأعلامـها أمويّة ، وأطيـافها سماوية ، وبسيوف أهلها محميّة .

دمشق في الحسن مفرطة ، وبجـواهر الجمال مقرّطة ، وفي الطقس متوسطة .

فَـارَقْـتُـهَـا وَطُيُـور القَـاعِ تَتْبَـعُنِي
بِكُلِّ لَحْنٍ مِنَ الفُـصْـحَى تُغَنِّينِي
كَـأَنَّمَـا الطَّيْـرُ يَهْوَى حُسْنَ طَلْعَتِـه
بَـانَت دِمِـشْقُ فَـيَـا أَيَّامَنَا بِينِي

الجمال دمـشقي : لأنه لا بد له من روضة فيحـاء ، وخميلة غناء ،

وحبة خضراء ، وظل وماء . والحب دمشقي : لأنه لا بد له من أشواق مسعفة ، وأحاسيس مرهفة ، وألمعية ومعرفة .

كتب ابن عساكر في دمشق تاريخ الرجال ، وسطر المزي في دمشق تهذيب الكمال، وألف الذهبي في دمشق ميزان الاعتدال ، واحتسب ابن تيمية في دمشق الرد على أهل الضلال ، وأرسل لنا المتنبئ من الشام تلك القصائد الطوال ، وذاك السحر الحلال .

قَالُوا تُرِيدُ الشَّامَ قُلْتُ الشَّامُ فِي
قَلْبِي بِنْتٌ فِي دَاخِلِي أَعْلامَا
هِي جَنَّةُ الدُّنْيَا فَإِن أَحْبَبْتَهَا
فَالحُسْنُ مَحْبُوبٌ وَقَلْبِي هَامَا

في دمشق رسائل الياسمين ، ودفاتر اليقطين ، ومؤلفات النسرين ، للحمام بها رنين ، وللعندليب بها حنين ، كأنها تقول : ادخلوها بسلام آمنين .

ليس لدمشق الشام ، دين غير الإسلام . فطرت دمشق على الإيمان، ولذلك طردت الرومان ، ورحبت بحملة القرآن . ليس بقيصر الروم في دمشق قرار ، ولذلك ولى الأدبار، ولاذ بالفرار ، لأن الدار دار المختار ، والمهاجرين والأنصار .

في الشام يرقد سيف الدولة الملك الهمام ، وابن نباتة خطيب

الأنام، وابن قدامة تاج الأعلام ، وأبو فراس الحمداني الشاعر المقدام .
وفي دمشق سكن الزهري المحدث الشهير ، والأوزاعي العالم النحرير ،
والبرزاني المؤرخ الكبير ، والسبكي القاضي الخطير .

أتانا من دمشق كتاب رياض الصالحين ، وكتاب روضة المحبين ،
ونزهة المشتاقين ، وكتاب عمدة الطالبين ، وكتاب مدارج السالكين ،
وكتاب أعلام الموقعين .

فسلام على دمشق في الآخرين .

* * *

▪ المقامَــة البغداديَّــة ▪

« من لم يدخل بغـداد لم يدخل الدنيـا »

لِبَــغْــدَاد العِــرَاق دُمُــوعُ صَبٍّ
عَلَى عَـرَصَـاتِهَـا دُنْيَـا غَـرَامـا
تُذَكِّــرُك الرُّبُوعُ حَــيَــاةَ قَــوْمٍ
هُـمُــو كَــانُوا لِدُنْيَـانَا قُــوامـا

اجتمع أربعة أدباء، نجباء خطباء، فتعاهدوا، وتعاقدوا ، وتواعدوا ، على أن يصفوا بغداد ، دار الأمجاد ، وبيت الأجواد ، وكوكبة البلاد .

فالأول : عليه وصف علمائها ، وفقهائها .

والثاني : يصف خلفاءها وأمراءها .

والثالث : يصف شعراءها وأدباءها .

والرابع : يصف أرضها، وسماءها، وماءها، وهواءها ، وبهاءها .

فـبدأ الأول ويُدعى أبا قـتادة ، وهو صـاحب ذكاء وإجـادة ، وعلم وإفادة .

فقال : والله لو كـتبت بدمع العيون ، على صفحـات الجفون ، ما أنصفت بغداد على مداد القرون ، لكن سوف أصف ما كان فيها من علم وعلماء ،بلغ مجدهم الجوزاء :

مَـــا الدَّارُ بَعْــدَكَ يَا بَغْــدَادُ بِالدَّارِ
تَفْنَى عَلَيْكَ صَبَـابَاتي وَأَشْعَـارِي
أَنْتِ المُنَى وَحَدِيثُ الشَّوْقِ يَقْتُلُنِي
مِنْ أَيْنَ ابْدَأُ يَا بَغْــدَادُ أَخْبَــارِي

ولكن أقول، بعد الصلاة والسلام على الرسول : اعلم أن من بغداد أشرقت شمس الرواية ، وبزغ فجر الدراية ، كانت في العلوم آية ، وفي الفنون غاية . فكان بها أهل الحديث ، ولم يكن بها بعثيّ خبيث .

ولك أن تتخيل مجلس أحمد بن حنبل، عمائم بيضاء، وهمة قعساء، وسكينة وحياء . إذا قال أحمد: حدثنا أو أخبرنا، أطرقت الرءوس، وخشعت النفوس ، وتفتحت أبواب السموات، وتنزلت الرحمات :

سَـقَـونِي وَقَـالُوا لا تُغَنِّ وَلَوْ سَـقَـوْا
جِبَـالَ سُلَيْـمَى مَـا سُـقِـيتُ لَغَنَّتِ

ثم تذهب إلى مجلس فيه طائفة من الخاشعين ، فتجد وسطهم يحيى بن معين ، يحدث عن رسول رب العالمين ، يجرّح ويُعدّل ، ويُجْمِل ويُفصِّل ، كأنه ميزان منزل .

لَوْ حَلَّ خَاطِرُهُ فِي مُـقْـعَـدٍ لَمَـشَى
أَوْ مَـيِّتٍ لَصَـحَـا أَوْ أَخْـرَسٍ خَطَبَـا

ولله كم من ذكريات تشجيني ، إذا ذكرت علي بن المديني ، ذاك البطل ، إمام العلل ، السليم من الزلل ، فتراه يفتش الأسانيد ، وينخل المسانيد ، بفهم دقيق ، وعلم وتحقيق ، يعرف العلة في المسند المستقيم ، كما يعرف الطبيبُ السقيم .

بِرأْيٍ مِثْلَ ضَوْءِ الفَجْرِ ضَافٍ
كَأَنَّ بَرِيقَهُ حَدُّ الحُسَامِ

ولا تنس البخاري ، الضياء الساري ، والنهر الجاري ، قيد الألفاظ، وأفحم الحفاظ إن شك في حديث علقه ، وإن طال متنه فَرّقه ، وإن لقي كاذبًا مزّقه ، هو السيف الحاسم لسنة أبي القاسم ، اقرأ تبويبه ، افهم ترتيبه ، لترى كل عجيبة .

مَنْ كَالبُخَارِي إِذَا مَا قَالَ حَدَّثَنَا
أَوْ بَوَّبَ البَابَ أَوْ شَدَّ الأَسَانِيدا
كَأَنَّمَا هُو إِلهَامٌ يُعَلِّمُهُ
أَوْ أَنَّهُ قَبَسٌ يَعْطَاهُ تَأْيِيدا

بغداد تشرفت بالسفيانين الثوري وابن عيينة، وأصبحت بالعلماء أجمل مدينة، وهي مدينة الكرخي معروف، والإمام الشافعي المعروف .

من بغداد أصحاب الصحاح والسنن ، وأهل الذكاء والفطن . وهي

للحديث دار الضرب والصلب بها تضرب الموضوعات للوضاعين ، ولكن تصلب الكذّابين على خشب السلطان المتين . قال بعضهم : من لم يدخل بغداد لم يدخل الحياة الدنيا، ومن لم يشاهد حسنها ما شاهد النجوم العليا .

فقام الثاني يصف الخلفاء والأمراء ، الذين ملئوا الدنيا بالعطاء والسخاء .

فقال: هذه مدينة السفاح ، الذي خضب السيوف والرماح ، وكان لكل مجرم بطاح ، ولكل عدو نطاح .

هذه مدينة المنصور ، صاحب الدور والقصور ، الداهية الجسور ، والأسد الهصور .

هذه مدينة الرشيد ، صاحب القصر المشيد ، والمجد الفريد ، والصيت البعيد .

هذه مدينة المأمون ، صاحب الفنون ، وجامع المتون ، ولكنه بالفلسفة مفتون .

هذه مدينة المعتصم المغوار ، الذي أوطأ الخيل الكفار ، وأورد نحورهم كل بتار .

بَغْدَادُ أَنْتِ حَدِيثُ الدَّهْرِ وَالأُمَمِ

إِذَا مَدَحْتُكِ سَالَ السِّحْرُ مِنْ قَلَمِي

أَنْتِ المُنَى أَنْتِ للتَّارِيخِ مَلْحَمَةٌ

كَمْ مِنْ رَشِيدٍ ومَأْمُونٍ ومُعْتَصِمِ

ثم قام الثالث يصف الأدباء ، ويثني على الخطباء .

فقال : في بغداد أكبر ناد ، للشعراء الأجواد ، إذا شرب الشاعر من ماء الفرات ، أتى بالمعجزات ، وخلب الألباب بالأبيات ، سَمِّ لي شاعرًا ما دخل بغداد، اذكر لي أديباً ما تشرف بتلك البلاد :

بَغْدَادُ يا فِتْنَةَ الشَّرْقِ الّتي خَلَبَتْ

بِسِحْرِهَا العَقْلَ والأقْلامَ والأَدَبَا

مَاذَا أُرَدِّدُ يا بَغْدَادُ مِنْ حُزْنِي

إذَا ذَكَرْتُكِ بِعْتُ الهَمَّ والنَّصَبَا

من بغداد أبو تمام، والبحتري الهمام، وترنح بها المتنبئ بعض عام.

سجل بها ابن الرومي رواياته ، وأبدع إلياذاته ، وأروع أبياته .

وفي بغداد أبو العتاهية ، الشاعر الداهية ، منذر القلوب اللاهية، وصاحب الرسائل الباهية ، الآمرة الناهية . وهي أرض بشار ، ناسج أجمل الأشعار .

من بغداد انطلقت في البحار والبراري ، رائعة ابن الأنباري : علو

في الحياة وفي الممات . من بغـداد استمع الدهر في عجب ، لدويّ : السيف أصدق أنباء من الكتب .

بغداد مهـرجان أدبي كبير ، لكل أديـب نحرير ، فيها شـعر ونثر ، وحصـباء ودر ، وصـديق وزنديق ، وحر ورقـيق ، وموحد ومـلحد ، وحانوت ومسجد ، وبارة ومعبد ، ومقبرة ومشهد ، جد وهزل ، وحب وغزل ، كأن التاريخ كله في بغداد اجتمع، وكأن الدهر لصوتها يستمع . وكأن ضوء الشمس من بغداد يرتفع .

مصـيبة بغـداد الحكام الأقزام ، وأصحـاب الظلم والإجرام ، أبطال الشنق والإعدام .

فقام الرابع فقال : كأن الأرض أخذت من بغداد جـمالها ، أفدي بنفسي سهلها وجبالها ، دجلة له خرير ، والفرات له هدير ، والنسيم به له زئير ، كـأن الهواء سـرق من المسك أريجـه ، وكأن المـاء أخذ من العاشق نشيجه . تغار من زهر بغـداد الزهراء ، وتحمر خجلاً من حسن بغداد وجنتي الحمراء .

كأن السحاب في سماء بغداد مع الـشفق خضاب ، وكأن بريق الفجر في مشارف بغـداد ذهب مذاب . كأن وجه بغـداد مشرق ، قبل مـيشيل عفلق . فلما دخلهـا الرفاق ، وحزب النفاق ، كتب على بغـداد الشقاء والإخفاق .

لله يَا بَغْـــدَادُ أَنْت نَشِـــيـــدَةَ

غَنَّت بِكِ الأَعْـصَـارُ وَالأَمْـصَـارُ

مَنْ لَمْ يَرَ ذَاكَ الجَـمَـال فَـإِنَّهُ

ضَـاعَتْ عَلَيْه مَعَ المَدَى الأَشْعَارُ

أظن بغداد أصابها عين ، أو دخلها لعين ، ما لها قتلت المبدعين ، وطردت اللامعين.

مَنْ ذَا أَصَـابَكِ يَا بَغْـدَادُ بِالعَـيْنِ

أَلَيْس كُنْتِ يَقِـينًا قُـرَّةَ العَـيْنِ؟

وأنا عاتب على بغداد، والعتاب لا يغير الوداد، لأنه جُلد بها أحمد، وقُتل بها أحمـد، وأُكرم بها أحمد . فجُلد بهـا أحمد بن حنبل ، الإمام المبجل، وقُتل بها أحـمد بن نصر الخزاعي ، الإمام الواعي ، وهو إلى الحق داعٍ، وإلى البر ساعٍ، وأُكرم بها أحـمد بن أبي دؤاد ، داعية البدعة والعناد ، والفتنة والفساد .

لكن بغداد لها حسنات يذهبن السيئات . ونهر الفرات ودجلة يطهران من الحدث ، وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث .

* * *

المقامَــة الفلسطينيّــة

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً
مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى ﴾

أَطْفَــالُ يَافَــا يَصْــرُخُــونَ وَمَــا لَهُمْ
عَــمْــرو وَلا سَــعْــد وَلا خَطَّابُ
يَا رَبُّ يَا رَحْــمَنُ فَــانْصُــرْ أُمَّــةً
قَــدْ أُغْلِقَتْ مِنْ دُونِهَــا أَبْوَابُ

زارنا رجل من فلسطين ، فجلس على الطين ، قلنا اجلس على السرير .

قال : كيف أجلس على السرير ، والقدس أسير ، بأيدي إخوان القردة والخنازير ؟

قلنا : فهل عندك من القدس خطاب ؟

قال : معي من القدس سؤال يريد الجواب .

قلنا : ما هو السؤال ؟

قال : ينادي أين الرجال ، أين أحفاد خالد وسعد وبلال ؟ يا حفاظ سورة الأنفال، أين أبطال القتال ؟ أين أسود النزال ؟

قلنا : هؤلاء ماتوا من زمان ، وَخَلَت منهم الأوطان ، وَخَلَف من بعدهم خلف لهم همم ضعيفة ، واهتمامات سخيفة ، وأحلام خفيفة .

ثم سألنا حامل الرسالة ، أين أهل البسالة ؟ أين الإباء ؟ لماذا تغير الأبناء عن الآباء ؟

قلنا : الآباء كانت بيوتهم المساجد ، ما بين راكع وساجد ، وخاشع وعابد ، وصائم ومجاهد .

والأبناء بيوتهم المقاهي ، ما بين مغن ولاهٍ ، ومن بماله يباهي ، ومن وقع في الدواهي ، إلا من رحمه إلهي .

كُنَّا أُسُوداً مُلُوكُ الأَرْضِ تَرْهَبُنَا

وَالآنَ أَصْبَحَ فَأْرُ الدَّارِ نَخْشَاهُ

ثم قلنا للرجل في عجل : سلم على القدس ، وقل : نفديك بالنفس ، متى العودة إلينا ؟ والسلام علينا .

قال : إذا عدتم إلى الله عدنا ، وإن بعدتم عنه بعدنا .

نِسَاءُ فِلِسْطِينَ تَكَحَّلْنَ بِالأَسَى

وَفِي بَيْتِ لَحْمٍ قَاصِرَاتٌ وَقُصَّرُ

وَلَيْمُونُ يَافَا يَابِسٌ فِي حُقُولِه

وَهَلْ شَجَرٌ فِي قَبْضَةِ الظُّلْمِ يُثْمِرُ

قلنا : لماذا عدت لعمر ؟ قال : لأنه صاحب أثر ، صادق في الخبر ،عادل في السير.

قلنا : ولماذا جئت مع صلاح الدين ؟ قال : لأنه بطل حطين ، وولي لرب العالمين، وأحد العابدين المجاهدين .

قلنا : يا قدس هل من لقاء ؟ قال : إذا أطعتم رب الأرض والسماء، وأخلصتم في الدعاء ، وتدربتم على الجهاد صباح مساء ، وتبتم من كل معصية وفحشاء .

قلنا : كيف حالك الآن ؟ قال : في هموم وأحزان ، وغموم وأشجان ، سجين في زنزانة الطغيان ، بعد ما فَارَقْتُ أهل الإيمان ، وحملة القرآن .

مَنْ حَالُهُ وَهَىَ فِي حَبْسٍ تُزَلْزِلُهُ
مَصَائِبُ البِينِ لا يُرْثَى لَهُ أَحَدُ

ثم قال : أما ترون خدي شُوّه بالنجمة السداسيّة ، وداست على جبيني الدولة الإبليسية ، أين أحفاد مصعب بن عمير ، ينقذونا من أبناء جولدا مائير؟ أين أمثال عمر بن عبد العزيز ، يطلقونا من قبضة بيريز ؟ أين عُبّاد الديّان ، يمسحون عن جبيني وشم ديّان ؟ أين طلاب عبد الله بن مسعود ، يطردون إخوان القرود ، ويفكون عن قدمي القيود؟ .

أيَا فِلِسْطِينُ قَـدْ أَهْدَيْتِنَا عَـتَـبَـا
مَـتَى اللِّقَـاءُ عَسَى مِـيعَـادُنَا اقْـتَـرَبَا
نَـعَمْ أَتَـيْنَـا وَفِي إِيـمَـانِنَا قُـضُـبٌ
مَـسْلُولة تُـمْطِرُ الأَهْـوَال والغَـضَـبَـا

ثم قالت : أنا القدس السليبة ، كنت إلى الرسول حبيبة ، ومن قلب كل مؤمن قريبة ، وأنا الآن في بلاء ومصيبة ، وأحوال عجيبة .

مَـرَرْتُ بِـالمَـسْـجِدِ المَـحْزُونِ أَسْـأَلُهُ
هَلْ فِي الـمُصَلَّى أَوِ الـمِحْرَابِ مَـرَوَانُ
تَغَـيَّرَ الـمَـسْـجِدُ المَحْزُونُ وَاخْـتَلَفَتْ
عَلَى المَـنَـابِـرِ أَحْـرَار وَعَـبْـدَانُ
فَـلا الأَذَانُ أَذَانٌ فِـى مَـنَـائِـرِه
مِنْ حَـيْـثُ يُـتْـلَى وَلَا الآذَانُ آذان

فلسطين في قلوب المسلمين ، تـناديهم من سنين ، وليس فيهم من قال : لبـيك جئنا فاتحين ، لكنا تعـبنا من محبة أهل الإرجـاء ، تمدح وادعاء ، وفلسطين تصرخ صباح مساء.

إذا لم تكن هنا حمية إسلاميّة ، فأين النخوة العربية؟ .

أُمَّــــــتي هَـلْ لَـكِ بَـيْنَ الأُمَـمِ
مِنْبَـــــرٌ للسَّــــيْفِ أَو لـلقَـلَمِ
أَتَـلْقَــــــــاكِ وَطَـرْفِـي مُـطْـرَقٌ
خَـــجَــلاً مِن أَمْـــسِكِ الـمُنْصَــرِمِ
وَيَكَادُ الدَّمْعُ يَهْـــمِي عَـــابِثًــا
بِبَـــقَــايَا كِــــبْــرِيَاءِ الأَلَمِ
أُمَّـــتِي كَـمْ غُـــصَّـــةٍ دَامِــيَـــةٍ
خَنَقَت نَجْــوَى عُــلاكِ فِي فَــمِي
أيُّ جُــــــــرْحٍ فِي إِبَـائِي رَاعِـفٍ
فَــــاتَـهُ الأَسَى فَلَمْ يَلْتَــــئِمِ
أَلإِسْـــــــــــرَائِـيـل تَـعْـلُـو رَايَـةً
فِي حِـمَى الـمَـهْـدِ وَظِلِّ الحَــرَمِ؟
كَـــيْفَ أَغْــضَـت عَلَى الذُّلِّ وَلَـمْ
تَـنْفُــضِي عَنْكِ غُـبَــارَ التُّــهَمِ؟

أَومَــا كُنْتِ إِذَا البَــغِيّ اعْــتَــدَى
مُــــوَجــــة مِنْ لَهَب أَوْ مِنْ دَمِ؟
فِــيمَ أَقْــدَمْتِ وأَحْــجَــمْتِ ولَمْ
يَشْــتَفِ الثَّــأْر ولَم تَنْتَــقِــمِي؟
اسْــمَــعِي نُوح الحَــزَانَى واطْرَبِى
وَانْظُرِي دَمْعَ اليَــتَــامَى وَابْسُــمِي
وَدَعِي القَــــادَة فِي أَهْوَائِهَــــا
تَتَــفَــانَى فِي خَــسِــيسِ المَــغْنَمِ
رُبَّ (وَامُــعْــتَــصِــمَــاهُ) انْطَلَقَتْ
مِلْءِ أَفْــوَاه الصَّــبَــايَا اليُــتَمِ
لامَــسَت أَسْــمَــاعَــهُمْ لَكِنَّهَــا
لَمْ تُلامِسْ نَخْــوَةَ المُــعْــتَــصِمِ
أمَّــتِي كَمْ صَنَمٍ مَــجّــدَتْهُ
لَمْ يَكُنْ يَحْــمِل طُهْــرَ الصَّنَمِ

لا يُلامُ الذِّئْبُ فِي عُدْوَانِهِ
إنْ يَكُ الرَّاعِي عَدُوَّ الغَنَمِ
فَاحْبِسِي الشَّكْوَى فَلَوْلاكِ لَمَا
كَانَ فِي الحُكْمِ عَبِيدُ الدِّرْهَمِ

لو سمع عمر صرخة طفل مجهود ، أبوه مفقود ، وأخوه في القيود، لجنَّد الجنود ، ولداس اليهود . لو طرقت سمع المعتصم وا أماه ، لضاقت أرضه وسماه ، ولقاد الكماة ، ولأخرج فلسطين من زنزانة الطغاة البغاة .

فلسطين تنادي حطين : هل عندك من صلاح الدين ؟ فإنا يا أختاه في الحبس مرتهنين ، ولنا أنين .

نِسَاءُ فِلِسْطِينَ تَكَحَّلْنَ بِالأَسَى
وَفِي بَيْتِ لَحْمٍ قَاصِرَاتٌ وَقُصَّرُ
وَلَيْمُونُ يَافَا يَابِسٌ فِي حُقُولِهِ
وَهَلْ شَجَرٌ فِي قَبْضَةِ الظُّلْمِ يُثْمِرُ
رَفِيقُ صَلاحِ الدِّينِ هَلْ لَكَ عَوْدَةٌ
فَإِنَّ جُيُوشَ البَغْي تَنْهَى وَتَأْمُرُ

رِفَـاقُكَ فِي الأَغْـوَارِ شَـدُّوا سُـرُوجَـهُـمْ
وَجَـيْـشُكَ فِي حِطِّين صَلُّوا وَكَـبَّـرُوا

خمسون عامًا ، ونحن نرى أيتـامًا ، ونشاهد أيامى ، ونبصر آلامًا ، ثم نتعامى ، ولا يحرك فينا هذا كله إبهامًا .

من أراد أن يطلق القدس من الأسـر وأن يفكّه ، فليأخذ دسـتوره من مكّة ، القـدس إسـلاميـة مـا ترطن ، ولا تنتظر النصـر من واشنطن ، القدس تقلق ، إذا جـئـنـا بجيش فـيه ميـشيل عـفلق . يحرر الأرض ، ويحمي العِرْضَ ، من أدى الفرض ، وخاف يوم العَرْض .

دونك مليار مسلم آيسـين بائسين ، أمام من قيل فيـهم : كونوا قردة خاسئين .

مَـهْـلاً فَـدِيتَ أَبَا تَمَّـامِ تَسْـأَلُنِي
كَيْفَ احْتَفَت بِالعِدَا حِيفَا أَو النَقَبُ
اليَـومَ تِـسْـعُـونَ مليـونًا وَمَـا بَـلَغُـوا
نُضْجًـا وَقَـدْ عُـصِـرَ الزَّيْتُـونُ والعِنَبُ
وَأَطْفَـأتْ شُـهُبُ المِـيـرَاجِ أَنْجُـمَـنَا
وَشَـمْـسَنَا وَتَحَـدّت نَـارَهَا الخَـطَبُ

تَنْسَى الرُّؤُوسِ العَوَالِي نَارَ نَخْوَتِهَا
إِذَا امْتَطَاهَا إِلى أَسْيَادِهِ الذَّنبُ

ما يحرر فلسطين إلا طلاب العز بن عبد السلام ، وتلاميذ عز الدين القسام .

افهمها بالمكشوف ، ما يحرر فلسطين طلاب سخاروف ، ولا يردها لأهلها أهل الدفوف، إنما تعود على أيدي من يصلي ويطوف ، ويجاهد في الصفوف .

يا شجر الغرقد ، جاء الموعد ، ليعود المسجد ، تحمي القرود ، وتخبِّئ اليهود من الأسود ، كل الشجر بِوَادينا ، ينادينا ، إلا أنت تعادينا .

خمسون عامًا مؤتمرات أو مؤامرات، ومشاورات أو مشاجرات ، ومناورات أو مهاترات .

شَجْبًا وَنُكْرًا وَتَنْدِيدًا بِغَارَتِهَا
لله كَمْ نَدَّدُوا يومًا وَكَمْ شَجَبُوا ؟!
مَاذَا فَعَلْنَا ؟ غَضِبْنَا كَالرِّجَالِ وَلَمْ
تَصْدُقْ وَقَدْ صَدَقَ التَّنْجِيمُ والخُطَبُ

الكل يطوف ، بمجلس الخوف ، ونحن وقوف في صفوف ، ننتظر ماذا يقول بوش وغورباتشوف .

خمسون عامًا ما أخبرتنا هيئة الأمم ، بمن ظلم ، وهدم الحرم ، وخان في القسم .

يا معشر العرب : من أصابته مصيبة ، فلم يأخذ الحل من طيبة ، عاد بالخيبة ، وكان الفشل نصيبه . فلسطين لا تعود بالكلام ، ولا بحفلات السلام ، ولكنها تعود بالحسام ، وبضرب الهام ، وتمريغ الباطل بالرغام .

سَيَصْغَي لَهَا مِنْ عَالَمِ الغَيْبِ نَاصِرٌ
ولله أَوْسٌ آخَرُونَ وَخَزْرَجُ

فلسطين إسلامية النسب ، وليست عربيَّة فحسب ، ولذلك كان صلاح الدين فاتح القدس من الأكراد ، والسلطان عبد الحميد ناصر فلسطين من الأتراك الأجواد ، وبعض العرب أيام الصليبيين باعوها في سوق المزاد :

بِعْهَا فَأَنْتَ لِمَا سِوَاهَا أَبْيَعُ
لَكَ إِثْمُهَا وَلَهَا المَكَانُ الأَرْفَعُ

لا تعود فلسطين عن طريق الملحدين ، ولا عن طريق الوحدويين ، وإنما تعود تحت رايات الموحدين .

هل تظن أن اليهودي العنيد ، والإسرائيلي المريد ، سوف يطرد بمؤتمر مدريد، كلا وعزةِ الحميد المجيد، لا يزول إلا بكتائب التوحيد، وأحفاد خالد بن الوليد .

يا فلسطين انتظري كتائبنا مع الصباح ، تنادي حي على الفلاح ، ليعود الحق إلى أصحابه ، والسيف إلى نصابه ، ولتعود الوديعة إلى واليها ، والطفلة إلى أبيها ، والدار إلى راعيها ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله القريب ، إنه سميع مجيب .

فلسطين غاب سلاطينها ، فأفلس طينها ، لا يطرد الغزاة من غزة إلا أهل العزة ، أطفال حيفا حفاة ، واليهود جفاة ، فهل من يلبي النداء ، ويقدم روحه فداء، يا من أراد الجنة ، لا تتبع ما أنفقت بالأذى والمنّة ، وماذا عليك لو قتلتك اليهود فأنت شهيد ، البيع قد جرى ، والله اشترى، ما هبط سوق القتال، وقل هيا إلى النزال ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ .

لا تُهَيِّئ كَفَنِي مَا مِتُّ بَعْدُ
لَمْ يزَلْ فِي أَضْلاعِي بَرْقٌ ورَعْدُ
أَنَا تَارِيخِي ألا تَعْرِفُهُ
خَالِدٌ يَنْبِضُ فِي قَلْبِي وَسَعْدُ

* * *

▪ المقامَــة الأَنْـدلُـسـيّــة ▪

« جمال يسلب الأذهان ، وسرور يذهب الأحزان ، ومشاهد تثير الأشجان ، طيور وأغصان ، وحمام وأفنان ، زهر وريحان ، وفاكهة ورمان ، وشيح وأقحوان ، وياقوت ومرجان ، وملاعب صبيان ، ومعاهد فتيان »

جَـادَكَ الغَـيْثُ إِذَا الغَـيْثُ هَمَّي
يَا زَمَـانُ الوَصْلِ بِالأَنْدَلُسِ
لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلاّ حُلْمًـا
في الكَرَى أَوْ خِلْسَةَ المُخْتَلِسِ

حدثنا محمود بن أنس ، قال : لما دخلنا الأندلس ، وهي في ثياب الجمال تتبهرج ، ولسانها من الخجل يتلجلج ، قلنا : كيف الحال ، يا موطن الرجال ، أنتِ بلسم الفؤاد ، وأرض الآباء والأجداد ، ومهبَط جيش طارق بن زياد ، فقالت : أهلاً بالأخوة من النسب ، أهل الكرم والحسب ، وبيننا سبب الإسلام أعظم سبب ، ثم التفتنا إلى ثلاثة شباب، وقد ارتدوا أجمل الثياب ، فقام أحدنا معرفًا بأسمائهم ، ونسبهم إلى آبائهم ، فقال : أما الأول : فاسمه عبد الرحمن بن طارق بن زياد .

والثاني : عبد الله بن موسى بن نصير .

والثالث : عبد السلام بن عبد الرحمن الداخل .

فقلنا يا أبناء الأجواد ، وأحفاد الأسياد، حدثونا عن هذه البلاد .

فقال عبد الرحمن : أما قـرأتم التأريخ ، وما فيه من مدح وتوبيخ ، أما علـمتم أن أجدادنا دخـلوا الأندلس فاتحـين ، مكبرين مـسبـحين ، عظمـوا الله في القلوب ، فملّكهم الـشعوب ، نـشروا رضاه بالـدماء ، فرفع رايتهم في السماء ، صدقـوا في الديانة ، فشرفهم بحمل الأمانة ، نشروا العدل، وطردوا الجهل ، فهم كالغيث على المحل ، فلما تخلف بعدهم جيل، وضلوا السبيل ، أصبحوا في الذيل ، ثم بكى وأنشد :

هَلْ سَـــأَلْتَ الدَّهْرَ عَنَّا يَوْمَ كُنَّا

كَنُجُــومِ اللَّيْلِ للجَــوْزَا وَصَلْنَا

وَنَـشَـــــرْنَا فِي بِلادِ اللهِ نُوراً

نَقَلَتْ أَخْـبَـارُ أَهْلِ الفَـضْلِ عَنَّا

فقام عبد الله ، فقال : يا الله ، كيف كنا ، وكيف أصبحنا ، بعدما قصـرنا في ديننا ما أفلحنا، كانت المنائر تؤذن بـدعوتنا ، والمنابر تضج بخطبتنا ، كنا بالإيمـان سادة ، وللشعوب قـادة ، لأننا أطعنا الرحمن ، وحكّمنا القرآن ، وحاربنا الشيطان ، فلما قعدنا عن الجهـاد ، وعصينا رب العبـاد ، ووقعنا في الفـساد ، صرنا مـا بين طريد وشريد، وقـتيل وفقيد ، ثم بكى وأنشد :

هَذَا جَـزَاءُ أُنَاسٍ بِالهَـوَى غَلَبُـوا

وَقَـصَّرُوا فِي أُمُورِ الدِّينِ فَاسْتُلِبُوا

كَانُوا شُمُوسًا عُيونُ النَّاسِ تَرمُقُهُمْ

لَكِنَّهُمُ بَعْدَ طُولِ الدَّهْرِ قَدْ غَرَبُوا

ثم قام عبد السلام، فاندفع في الكلام، وقال: لما اتبعنا الأثر، حكمنا البشر، وبلغ مجدنا القمر، وفرح بنا البدو والحضر، فلما وقعنا في الترف، وأدمنا السرف، ودعنا الشرف، وصرنا كالصّدف، ثم أنشد:

يَا رَبِّ هَلْ مِنْ عَوْدَةٍ للدِّينِ فِي

أَرْضٍ فَتَحْنَاهَا بِرَسْمِ الدِّينِ

شِدْنَا بِهَا صَرْحَ العُلُومِ فَأَصْبَحَت

تَاجًا لِكُلِّ مُوَحِّدٍ مَأْمُونِ

قال الراوي محمود : ثم دخلنا غرناطة ، والقلب قد هد نياطه ، فوجدناها قد كتب على بابها : السلام على من اتبع الهدى ، وأجاب الندا ، أنا غرناطة فاعرفوني ، سُلِبْتُ من أيدي أهلي فارحموني ، كنت مدينة العُبَّاد والزهاد والأجواد، فأصبحت ملعب الأشرار ، ومرتع الكفار، ومسرح الفجار ، فرحم الله عبدًا ترحم عليَّ ، وأهدى ثواب حجه إليَّ ، فبكينا مما رأينا ، وكأنها تشكو إلينا .

ثم أتينا قرطبة ، وهي معبسة مقطبة ، فوجدنا على بابها كتابة ، كأنها كتبت بالسبّابة ، فقرأنا فإذا هي تقول ، يا أهل العقول ، أنا قرطبة

دار العلوم ، سلبني الظلوم ، ونهبني الغشوم ، كنت دارًا للعلماء ، وكعبة للحكماء ، ومزارًا للكرماء ، ومنزلاً للعلماء ، واليوم أصبحت بارة للخَمَّار ، وحانوتًا للشُّطار ، بعد أن كنت بيت الأبرار ، وكهف الأخيار ، فوقفنا نبكي ، وإلى الله نشكي .

ونادى منادينا، وصاح حادينا، فقال أين القوم الفاتحون ؟ أين الملأ الناصحون ؟ أين صقر قريش؟ أين قادة الجيش؟ أين الناصر والزهراء؟ أين الحاكم والحمراء؟ أين المنذر بن سعيد ، صاحب الرأي السديد ، والنهج الرشيد؟ .

أين ابن عبد البر الذي نشر العلم في البحر والبر ، ونثر الجوهر والدر ؟ أين الاستذكار ، من أنفع الكتب في الآثار ؟ أين التمهيد الذي ما حمل مثله البريد؟ .

أين ابن حزم، صاحب العزم ، إمام الظاهر ، صاحب العلم الباهر ، والقلب الطاهر، صاحب القدح المعلّى، ومؤلف المجلّى ، والمحلّى ، الذي بلغ الإمامة ، وألف طوق الحمامة؟ .

أين القرطبي صاحب التفسير ؟ أين الشاطبي الإمام الشهير ، حامل الفكر المستنير ؟ أين ابن زيدون ، وابن خلدون ، وابن عيذون ، وأهل الفنون ؟ ما لهم لا ينطقون؟ .

أين رائعة :

أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيلاً مِنْ تَدَانِينَا
وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا

أين السحر الحلال ؟ والروعة والجمال في :

جَادَكَ الغَيْثُ إِذَا الغَيْثُ هَمى
يَا زَمَانُ الوَصْلِ فِي الأَنْدَلُسِ

أين العويل والبكاء في أم الرثاء والقصيدة الغراء ؟

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ
فَلا يُغَرُّ بِطِيبِ العَيْشِ إِنْسَانُ

أين لسان الدين الخطيب ، ومؤلف نفح الطيب ؟ وابن رشد الحفيد، الذكي الفريد ، صاحب بداية المجتهد ، ونهاية المقتصد؟ أين المنصور بن أبي عامر ، البطل المغامر ، صاحب العزم القاهر ؟ لله كم من علم جليل ، ورأي أصيل ، ونسب نبيل ، ووجه جميل ، دفناه في هذا الثرى ، وتركناه آية للورى .

هنا تركنا أكبادنا ، هنا دفنا أولادنا ، هنا قبرنا أجدادنا ، هنا دموعنا سفحت، هنا دماؤنا سفكت ، هنا مرابع سمرنا ، وهنا ديار شمسنا وقمرنا . هنا طرحنا نفوس الأبطال الأشداء ، في بلاط الشهداء ، هنا أرواحنا خفاقة ، على قتلى معركة الزلاّقة .

ما كنا نظن أنَّا إلى هذا الحال نصير ، بعـد أمجاد موسى بن نصير . اسـألوا الجـبال والوهاد ، اسـألوا كل ناد ، واسـتنطقـوا كل واد ، عن كتائب طارق بن زياد .

أَعِنْدَكُمْ خَـبَـرٌ عَنْ أَهْلِ أَنْدُلُسٍ
فَقَدْ سَرَى بِحَدِيثِ القَوْمِ رُكْبَانُ
تِلْكَ الفَجِيعَةُ أَنْسَتَ مَا تَقَدَّمَهَا
وَمَا لَهَا فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ صِنْوَانُ
لِمِثْلِ هَذَا يَذُوبُ القَلْبُ مِنْ كَمَدٍ
إِنْ كَانَ فِي القَلْبِ إِسْلامٌ وَإِيمَانُ

السـلام علـى كل الأندلس في الآخـرين، وجـمـعنا بأهلـهـا من المسلمين، في جوار رب العالمين .

كُنَّا قِلادَةَ جِيدِ الدَّهْرِ وَانْفَرَطَتْ
وَفِي يَمِينِ العُلا كُنَّا رَيَاحِينَا
كَانَتْ مَنَازِلُنَا فِي العِزِّ شَامِخَةً
لا تُشْرِقُ الشَّمْسُ إلا فِي مَغَانِينَا

فَلَمْ نَزَلْ وَصُـــرُوف الدَّهْرِ تَـرْمُــقُنَا
شَـزَرًا، وَتَخْـدَعُنَا الدَّنْيَـا وَتُلْهِـينَا
حَــتَّى غَــدَوْنَـا وَلا جَـاهَ وَلا نَشَب
وَلا صَــــدِيق وَلا خِلٌّ يُوَاسِـــينَا

* * *

المقامة الأفغانيّة

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾

بِهَا لَيْلٌ فِي الإِسْلامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ
لأَوَّلِهِم فِي الجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمُو يَمْنَعُونَ الجَارَ حَتَّى كَأَنَّهُ
لِجَارِهِمُو بَيْنَ السِمَاكِينَ مَنْزِلُ

لما دخلنا أفغانستان ، سألنا عن حدودها ، فقيل يحدها باكستان ، وطاجكستان ، وحولها بلوشستان ، وهي قريبة من كردستان ، وأسفل منها عربستان ، ووراءها تركمانستان ، ووجدنا شباباً من قحطانستان ، وزهرانستان ، وشهرانستان ، وشمرانستان ، ولما وصلتها وجدت جند الرحمن ، وكتيبة الإيمان .

ووجدنا الموت يصنع هنا الحتوف ، تعلنه كل وقت الكلاشنكوف ، من شركة إسلام أوف ، ليقتل بها كل ملحد أوف ، وملعون أوف ، من قائمة غرباتشوف .

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شَعَاعًا
مِنَ الأَبْطَالِ : وَيْحَكَ لَنْ تُرَاعِي

فَـــإِنَّكَ لَوْ سَــأَلْتِ بَقَـــاءَ يَوْمٍ
عَلَى الأَجَلِ الَّذِي لَكَ لَنْ تُطَاعِي
فَصَبْرًا فِي مَجَالِ المَوْتِ صَبْرًا
فَمَـــا نَيْلُ الخُلُودِ بِمُسْــتَطَاعِ
سَــبِيلُ المَــوْتِ غَــايَةُ كُلِّ حَيٍّ
فَــداعِيــه لأَهْلِ الأرضِ دَاعِي
وَمَــا لِلْمَــرِءِ خَــيْــرٌ فِي حَــيَــاةٍ
إِذَا مَــا عُــدَّ مِنْ سَــقْطِ المَــتَــاعِ

ويل لمن قاتل الأفغان ، أين عقله كيف يمازح الأسد وهو غضبان ؟ الأفغاني يأتي المعركة كـأنه يأتي العرس ، ويصب دمه كأنه يسكب حبراً على طرس ، عنق الباكستاني أربع أصابع ، لأن آخر من قتل من أجداده الجد السابع . وعنق الأفغاني سبع أصابع ، لأنه لا يموت إلا في المعركة بسيف قاطع . الأفغاني في الغالب لا يسمع الأغاني ، ولا تلهه الغواني ، لأنه مشغول بالمثاني ، واستنباط المعاني .

وجدنا في أفغانستان رجالاً كالأسود ، وكتائب كالسدود ، أرضهم للملاحدة لحود ، ورصاصهم لبلادهم حدود . الأفغاني قليل الدعابة ، ظاهر المهابة ، غزير النجابة ، كأنه ليث غابة .

الأفغـاني إذا غضب أحرق مـزاجه ، ورمى علاجـه ، وذبح الرجال كذبح الدجاجة .

أخرجت لنا شوارع سميرامـيس ، فاتنات في الحرير تميس ، وشبابًا من أتبـاع أنطون وجـرجـيس، وأخـرجت لنا جـبـال الكندوش ، تلك الجيـوش ، فهذا الأصلي وذاك المغـشوش .كبّلت كـابل أعداء الدين ، وقهـرت قندهار الملحدين ، وأخـرجت جلال أباد المـجاهدين . دخل شعب الأفـغان الدين وأسلم ، على يد قتيـبة بن مسلم ، وصـاح شاعر الأفغان ، مُحْتَجًّا على الطغيان ، إذ يقول وهو يقاتل في الميدان :

نَـامنـي نَـزام شَــــرْقِــــيًّـــــا

نَـامـنـي نَـزام غَـــــــرْبِـيًّـــــــا

مُــــصْطَفَى مُــــجْــتَـــبَى

حَــبِـيــيًّـــا مُــحَــمّــدًا

ومعنى أبياته أي أرفض النظام الشرقي ، والنظام الغربي ، وأريد نظام حبيبي محمد ﷺ المصطفى المجتبى .

العجم أهل مـبالغة في الأحكام ، إذا قالوا لك عن أحـد هذا مولانا شيخ الإسلام ، وعالم الأنام ، فـاعلم أنه يحفظ ثلاثة أحاديث من بلوغ المرام ، وإذا قـالوا عن عابد: هذا بركة الزمـان ، ونور الأكوان ، وولي الرحمن ، فاعلم أنه لا يزيد على صيام رمضان .

أبو إسماعيل الهروى الأنصـاري أفغاني ، وهو العالم الرباني ، وقد أحيا الشاعر محمد إقبال الأفـغان، في ديوانه المثاني . الأفغان شجعان، في الليل رهبـان، وفي النهـار فرسـان ، لو أن في أفغـانستـان ، طالب واحد لسلم من الخلاف الإخوان ، ولكن في أفغانستان ، طالبان اثنان .

تَأبَى الرِّمَاحُ إِذَا اجْـتَـمَـعْنَ تَكَسـرًا

فَـإِذَا افْـتَـرَقْنَ تَكَسَّـرَتْ آحَـادا

قبل القتال كان في أفغانستان ، عابدان ، أي عابدون ، وفي الحرب جاء مجـاهدان ، أي مجاهدون ، وبعد الحرب ظهـر طالبان ، أي طلبة متعلمون ، فهم في السلم عبـاد أولياء، وفي الحرب مجاهدون أشداء ، وبعد النصر علماء حكماء .

المثنى عند الأفـغان ، جمع مـذكر سالم عند العـرب أهل اللسان ، لأن واحـدهم بعـشرة في المـيـزان ، تسـتورد الـهند وباكسـتـان ، من أفغانستان، القادة والزعماء ، وتصدران لها الرسّامين والشعراء ، الأفغاني يفهم إشارة العينين ، وبعض الناس لا بد في إفهـامه من حركة اليدين ، والبعض لا يفهم إلا باليدين والرجلين .

احتل أفغانستان الروس ، فرجعوا جثثًا بلا رءوس ، لأن عند الأفغان مثل : « اقطع من الوردة رأسها ، واترك أساسها » .

لَمَّا حَضَـرْنَا كَشَفْنَا عَنْ جَمَاجِمِنَا

لِيَـعْلَمُـوا أَنَّنَا بَكْرًا فَـيَنْصَـرِفُـوا

قَالُوا البَقِيَّةُ والهِنْدِي يَحْصُدُهُم

ولا بَقِيَّةَ إلاَّ السَّيْف مَا انْكَشَفُوا

الأفغاني تريد الإتمام به وهو يريد القصر ، قل له أجمل الدنيا الشام، يقول لك أجمل منها مصر ، إذا وقفت جلس، وإذا قمت نعس، وإذا تثاءبت عطس ، وافق الأفغاني إلا في الحرام ، وأظهر له الحب والاحترام ، يكن في يدك كالحسام ، وفي نصرتك كالغلام .

غضبُ بعضهم في بطنه ، إذا غضب أكل أكْل الدواب ، وغَضبُ البعض الآخر في لسانه إذا غضب ملأ الدنيا بالسباب، وغضب الأفغاني في يده إذا غضب حوّل كل شيء إلى خراب ، لا تكلم الأفغاني وهو غضبان ، ولا تمازحه وهو تعبان ، ولا تصافحه وهو جوعان .

إذَا غَضِبَ الأَفْغَانُ فِي حَوْمَةِ الوَغَى

أَدَارُوا كُئُوس المَوْتِ فَوْقَ الجَمَاجِمِ

وَيَطْرَبُهُمْ وَقْعُ القَنَابِلَ مِثْلَمَا

يَهِيجُ أَهْلَ الوُجْدِ سَجْعُ الحَمَائِمِ

يا أيها الأفغان ، أطيعوا الرحمن ، سوّوا صفوفكم ، واغمدوا فيما بينكم سيوفكم ، وسدّوا الفُرَجْ ، وانتظروا من الله الفَرَج ، ولكم منا تحية إجلال ، على حسن الفِعَال ، ولن ننسى لكم تلك البطولات ، وهذه التضحيات ، والحسنات يذهبن السيئات .

واعلموا أنَّ الوفاق والاتفاق ، هو الطريق لحمل الميثاق .

وأن الافتراق ، هو باب الإخفاق .

أَنْتُم (الـمُــخْلِصــون) لِلوَطَنِيَّــةِ

أَنْتُم الحَـامِلُونَ عِبْءَ القَـضِــيّــة

أَنْتُمُ العَــامِلونَ مِنْ غَـيْـرِ قَــوْلٍ

بَـارَكَ اللـهُ فِي الزُّنُـودِ القَــــوِيَّة

و (بَيَـانٌ) مِنْكُم يُعَـادِلُ جَـيْـشًـا

بِمُـعِـدَّات زَحْـفِـهِ الحَـرْبِيَّــة

وَ (اجْـتِـمَـاعٌ) مِنْكُم يَرُدّ عَلَيْنَا

غَـابِرَ المَـجْـدِ مِنْ فُـتُـوحِ أُمَـيَّـة

وَخَـلاصُ البِـلادِ صَـارَ عَلَى البَـا

بِ وَجَـاءَتْ أَعْـيَـادُهُ الوَرْدِيّة

مَـا جَـحَـدْنَا (أَفْـضَـالَكُمْ) غَـيْـرَ أَنَّا

لَمْ تَـزَلْ فِي نُفُـوسِنَـا أُمْنِيَّـة

فِـي يَـدَيْـنَا بَـقِـيّـة مِنْ بِـلادٍ

فَـاسْتَـرِيحُـوا كَـيْلا تَـطِيرَ البَـقِيّـة

■ المقامة الأمريكيّة ■

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾

مَا جِئْتُ أَمْرِيكَا فَلَيْسَت فِي الوَرَى أَهْلَ المَزَارِ

بَلْ جِئْتُ أَنْظُرُ كَيفَ نَدْخُلُ بِالكَتَائبِ والشِّعَارِ

لِنُحَرِّرَ الإِنْسَانَ مِنْ رِقِّ المَذَلَّة وَالصَّغَارِ

وَنُعِيدُ للأَرْضِ البَرِيئَةِ طُهْرَهَا بَيْنَ الدِّيَارِ

قال الراوي : يا عائض ، دعنا من الردود والنقائض ، فإنا نرى الفجر وشيكا، فحدثنا عن أمريكا قلت: الله المستعان ، وهو عظيم الإحسان ، ممدوح بكل لسان .

لقد سافرنا قبل مدّة ، من أبها إلى جدة ، في صحبةٍ بالصدق معروفون ، وبالخير موصوفون ، فكنا قرابة العشرة ، قاصدين بلاد الكفرة ، فلما ودّعنا البلاد ، وحملنا الزاد والمزاد ، أنشد شاعرنا بصوت جميل ، ودموعه تسيل :

سَقَى اللهُ أَرْضًا لامَسَ الوَحيِ أَرْضَهَا

وَجَمَّلَهَا بِالشِّيحِ والنَّفَلانِ

فَأَنْتِ الَّتِي أَسْكَنْتُ حُبَّكِ مُهْجَتِي
وَسِحْرُكِ فِي عَيْنِي وَمِلْءُ جَنَانِي

ثم مشينا مع الجموع السائرة ، حتى ركبنا الطائرة ، فرأينا الكبتن، كأن خده لبتن، أحمر الوجنتين، أزرق العينين ، فلما طرنا مقلعين ، وسافرنا مسرعين ، قاربنا السحاب ، وللطائرة أزيز وانتحاب ، فنظرنا إلى القمر المضاء ، وطالعنا كتاب الفضاء ، فبهرنا ذاك الصنيع ، والخلق البديع، من شمس تسطع ، وقمر يلمع ، ونجوم زواهر ، وبحار زواخر ، الأرض مكوّرة ، والسماء مدوّرة ، والكون ليس عاطلاً، فسبحانك ما خلقت هذا باطلاً، وسمعت للركاب تصدية ومكاء ، قلت أين أنت يا بكاء؟! :

اقْرَأ القُدْرَةَ فِي الكَوْنِ البَهِيجِ
لا تَكُنْ يَا صَاحِ فِي أَمْرٍ مَرِيجِ
قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ
قَدّسِ البَارِي وَرَتِّل فِي نَشِيجِ

فلما اقتربنا من تلك الولايات ، قرأنا بعض الآيات ، وأنشدنا شيئاً من الأبيات ، وهبطنا في مطار جون كندي ، ودثّرت من شدة البرد جسدي ، وأصبحنا من البرد في ثلاجة ، حين وصلنا ديار الخواجة ، وانتظرنا في صف عريض ، بين سود وبيض ، والجوّ من أفعال أولئك

مريض ، ثم سمعنا أمريكيًّا يرطن ، يقول هيّا إلى واشنطن ، فغادرنا المحل والسكن، وركبنا مع شركة بان أمركن ، فحززنا أجسامنا بالرباط حَزًّا، وهزتنا الطائرة هَزًّا ، لأن قائدها أهوج ، قلبه مثلّج ، فكل راكب بالخوف مدجّج ، فكأنها من الركاب فاضية ، ونادى بعضنا يا ليتها كانت القاضية ، أما الأمريكان ، فما كأنّ شيئًا كان ، فهم في لهوهم يضحكون ، وإذا مروا بنا يتغامزون ، فما أدري ، والطائرة تجري، هل تعجبوا من جزعنا ، وسخروا من فزعنا ، وأنكروا هلعنا ، فليتهم يعلمون ، وعن غيّهم يرجعون ، أن أجدادنا نحن أهل الوجوه الصفراء ، والغتر الحمراء، كانوا بالتوحيد فاتحين ، وعلى أمواج البحار سابحين ، قلوبهم مصاحف ، وبيوتهم للفضائل متاحف ، يحملون الأرواح على السراح ، إذا نادى المنادي : السلاح السلاح ، أما علمتم أنا أتباع محمد، خير من تعبّد ، وصام وتهجّد ، ومنّا الخلفاء الأصفياء ، الأوفياء الشرفاء ، ومنّا العلماء الكرماء الحلماء ، والسادة أهل الإفادة ، والرفادة والوفادة .

نحن حملة المحابر ، وأصحاب الدفاتر ، وروّاد المنابر ، فضحكوا ساخرين ، والتفتوا لقوم آخرين ، وقالوا قطعتكم الأماني ، وأشغلتكم الأغاني ، يا ضرّابة العود ، ويا رعاة القعود ، ليلكم طرب ، ونهاركم لعب ، يا بلاد الفنانين والفنانات ، والمغنين والمغنيات ، الأحياء منهم والأموات، . . قلنا كذبتم ورب المشارق والمغارب ، ولا يكتم الحق إلا

كاذب ، أين أنتم يوم فتحت لنا السماء؟، وكتب تاريخَنا الحكماء، يوم عشنا في العالم رحماء، وحكمنا الدنيا حلماء، وملأنا المعمورة علماء .

هَلْ أَشْرَقَ الفَجْرُ إلا من مَآذِننا
وَهَلْ هَمَى الغَيْثُ إلا مِنْ مَآقِينا
حَتَّى النُّجُومِ عَلَى هَامَاتِنَا سَجَدَت
والشَّمْسُ فِي حُسْنِهَا قَامَتْ تُحَيِّينا

فقالوا تلك أمة قد خلت، وحقبة سلفت ، وقد نامت النعجة في مربض الأسد ، لما نسيتم قل هو الله أحد ، أخذتم من الغرب قشوره ، وما صنعتم للعالم طبشورة، وأخبار لعبكم ولهوكم منشورة، . . قلنا فاتكم الصواب، وأخطأتم في الجواب، فأنتم الذين تركوا العالم هشيمًا، أما دمرتم نجزاكي وهيروشيما، أهلكتم النسل والذرية ، بالقنابل الذرية، حكمتم بلا شريعة ، وأحللتم المخالفات الفظيعة ، ونشرتم كل عادة خليعة ، هجرتم الذكر ، ونسيتم الشكر ، وأبحتم السُّكر ، . . فقال قائل منهم ، وتحدث كاتب عنهم ، فذكر لنا صناعتهم ، وشرح لنا بضاعتهم، وقال : أما ملأنا البر حتى ضاق عنّا ، وحكمنا البحر بقوة منّا، أما صنعنا الطيارة ، أما هندسنا السيارة ، أما سهلنا التليفون ، ويسرنا التلفزيون ، واستفدنا من ذبذبات الأمزون ، أما صنعنا للعين زجاجة ، وللطعام ثلاجة ، وللطفل درّاجة ، ضخّمنا بالميكروسكوب

الهباء ، وأضأنا الليل بالكهرباء، أجـدنا الدفاع والهجوم وبلغنا بالاختراع النجوم ، هبطنا على القمر، واكتشفنا الماس من الحجر .

قلنا رفضتـم الإيمان، وهجرتم القرآن ، وأطعتم الشـيطان ، هدمتم المساجد ، وشيدتم للفجـور المعابد ، أنفقتم المليارات على البارات ، وعرضتم للناس الغـانيات، وملأتم المراقص بالمغنيات ، الـمخمور في شوارعكم يخور ، والكأس على رءوسكم تدور ، الأبيض عندكم مقدس والأسود مقـهور ، البنوك لديكم مرابية ، والأسـواق في بلدكم لاهية ، ومجالسكم لاغية ، ملحدون لا موحدون ، متفرقون لا متحدون ، ليس لديكم إسلام ولا صـلاة ولا صيـام ، ولا حلال ولا حرام ، شـهواتكم وثّابة ، وألسنتكم كـذابة ، كأنكم في غـابة ، قتلت عندكم المـبادئ في النوادي ، في كـل يوم وللرذيلة لديـكم ألف منادي ، أين الاعـــتـراف بالاقتراف ؟، أين الكفـاف والعفاف؟ ، غارقون في المـادة ومن الفضيلة أجلاف ، لا وضوء ولا طهارة ، ولا مسجد ولا منارة، بل أنتم أصحاب حانوت وخمّارة . للدماء سفكتم ، وللأعراض هتكتم .

تَكَادُ تَسْقُطُ مِنْ أَفْعَالِكُمْ غَضَبًا
هَذِي السَّمَاءَ وَتَخْبُو مِنْكُم الشُّهُبُ
وَالجَوُّ يُظْلِمُ مِمَّا تَصْنَعُونَ فَيَا
وَيْحَ الحَضَارَةِ إِذْ مَا صَانَهَا الأَدَبُ

فقال دعنا من الأشعار ، ولا تلصق بنا العار ، فما يرتفع الدخان إلا من النار ، أما تشاهدون تقدمنا أما ترون ، ما لكم لا تنظرون ، غزونا المريخ ، وأنتم تعيدوننا إلى التأريخ ، فماذا فعلتم في قديم الزمان ، تكلموا ولكم الأمان .

فقلنا : سبحان الملك القدوس ، ما أظلم هذه النفوس . أليس على أرضنا الوحي هبط ، وفي ديارنا غيث الرسالة سقط ، ومنا عرفت الهداية فقط .

أليس منّا الصدّيق وعثمان ، وعمر وثوبان ، وعليّ وسلمان، وبلال وحسّان ، منّا خالد المقدام ، والقعقاع الصمصام ، ومنّا همّام ، وأبو تمام ، ومنّا أويس ، والأحنف بن قيس ، وأسماء بنت عميس .

أما صفق لقدومنا الفرات والنيل ، وهلل لطلعتنا مضيق الدردنيل ، نحن أساتذة الأكراد والتركمان ، ومعلمو الإنجليز والألمان ، أما اندهش من عبقريتنا شارلمان، وبسماحة الصّدّيق فتحنا الطريق، بدرة الفاروق ، أدبنا أهل العقوق ، بصدق أبي ذر، قلنا الحق وهو مرّ ، منّا الرشيد الذي تحدّى السحاب ، وملك من طنجة إلى البنجاب ، ومنّا المعتصم الذي فتح عمورية ، ونسخ الدولة الآشورية ، منّا السعدان والسعيدان ، والسفيانان ، والحمادان ، ومنّا البخاري ، وصاحب فتح الباري ، ومؤلف لامع الدراري، وشارح هدي الساري ، بعثنا للعالم مبشرين ، وخرجنا للناس ميسرين ، أذقنا العباد طعم الحرية ، وأعتقنا العالم من

المنظمات السرية ، أذنّا في الحمراء ، وصلينا في الزهراء ، ربطنا خيولنا على ضفاف اللوار [1] ، وسجدنا على صحراء سنجار، وتلونا القرآن على جبال قندهار، رفعنا الإيمان في الهند ، ونشرنا المعرفة في السند ، أسرنا الجبابرة ثم أعتقناهم ، وملكنا الأكاسرة ثم أطلقناهم ، نكبّر فتسقط القلاع ، نؤذّن فتهتز التلاع ، نقرأ فتطرق الأسماع . لبسنا الثياب المرقعة ، والأحذية المقطعة ، ففتحت لنا البلاد، ورحب بنا العباد ليلنا قيام، ونهارنا صيام ، في الدجى رهبان، وفي الميدان فرسان، على المنابر سادة، وفي المعارك قادة، ساوينا بين الأمراء والفقراء ، والحقراء والكبراء ، أنصفنا الشاة من الذئب ، وعلّمنا الوحوش التهذيب .

نحن شموس العلوم ، ونجوم الفهوم ، ربطنا على بطوننا الحجارة من الجوع، وبللنا مواطن السجود بالدموع ، وكنّا في صلاتنا كالسواري من الخشوع .

نتوضأ فتتناثر منّا الخطايا، نغنم فتسيل من أيادينا العطايا، نرتل القرآن فتقف على أصواتنا المطايا . نادى منادينا، على سنة هادينا ، يا أيتها النفوس من الموت اشربي، ويا خيل الله اركبي، فجمّد الله لنا الماء، وظلّل علينا الغمام في السماء .

منّا من اهتز لموته عرش الرحمن، ومنّا من كلّمه الله بلا ترجمان ، ومنّا من غسّلته الملائكة يوم التقى الجمعان، لا نكذب ولو أنّ السيوف

---

(١) نهر في جنوب فرنسا .

على الرءوس، ولا نسرق ولو أنّ الجوع يمزق النفوس، اسمعوا ماذا قال كاتبكم وله منكم معجبون ، أعني جوستاف لوبون ما عرف العالم فاتحًا أعدل من العرب، فهم أهل الرحمة والحلم والأدب، واستشهدوا الكتب:

نَحْنُ هَلْ تَدْرِي بِنَا لِلنَّاسِ فَجْرُ
قَصَدْنَا جَنَّةَ مَوْلانَا وَأَجْر
قَدْ مَلأنَا الأَرْضَ عَدْلاً وَارِفًا
وَسِوَانَا فِي الوَرَى عُجَرٌ وَبُجَرُ

أمَّا ما ذكرت من تَخَلُّفِنَا هذه الأيام ، فهو لضعف تمسكنا بالإسلام، ملأنا الكروش وشاهدنا الدشوش، وزينا الرموش، وجمعنا القروش، اشتغلنا بالمراسلات، وسهرنا مع المسلسلات، فأصبحنا في السلاّت المهملات، والخانات الفارغات، أحببنا الكرسي، وعشقنا التبسي، وأدمنا الببسي، وتعلقنا بالتكسي، نحن في الأسواق أمواج ، وفي الشوارع أفواج ، أموالنا في شراء الدجاج ، وأوقاتنا ذهبت في الحراج ، لما اتخمنا بالعصيدة ما أصبحنا ننظم القصيدة ، أصبح طالبنا أبله ، لأنه عاش مع طه والطبلة، حفظنا متن التيس والتميس ، والكيس والكبيس ، أصبح نشاطنا بزفير وشهيق ، وتشجيع للفريق ، وللبواري هدير ونهيق . لا يصلي الفجر منّا إلا قلة ، ولا يحفظ القرآن إلا ثلة ، ونقول نحن أنصار الملة . مع العلم أن الاهتمامات دلّة ، وفلّة ، وسلّة ، وشلّة .

كبـارنا منهمكون في القيل والقـال ، وحب المال ، إلا من رحم ذو الجلال ، وشبابنا كالأطفال في الروضة ، مشغولون بآخر موضة ، ولهم في الملعب ضـجـيج وفـوضة ، عـقل أحـدهم كـأنه ريشـة ، وسلوته السيجارة والشيشة :

رُحْمَاكَ هَلْ نَحْنُ أَحْفَادُ الأُلَى رَكِبُوا

مَوْجَ البِحَارِ بِدِينِ الوَاحِدِ الصَّمَدِ

فَمَا دَهَانَا رَجَعْنَا القَهْقَرِىّ كَسَلاً

أَشُكُّ يَا دَهْرُ فِي قَوْمِي وَفِي بَلَدِي

فوالذي زين الشـمس في ضحاها، وجمّل القمـر إذا تلاها ، وحسن النهار إذا جلاّها، ما أصابنا التـخلف، وما دهانا التوقف، إلا يوم عصينا رب العباد، وتركنا الجهاد، وكثر فينا الفساد، كان مؤذننا بلال ، وملعبنا ميدان القـتال، وقصدنا ذو الجلال، فمـا أصبح لنا طول ولاحول ، لأن همنا كمْ سجلنا من قول، فيا للهـول، بالأمس كان شبابنا بالقرآن يفرح، وللسنة يحـفظ ويشرح، واليـوم أصبح يسـرح ويمرح ، مع نجـوم الفن والمسـرح، أما تنظر إلى شـعره إذا رصّه، وجـعل له قُصَّـة ، ثم مسح شفتيه بالمكياج، ومـشى وله ارتجاج، فكيف لو رآه الحجّاج ، وما ترى لو دُبِغ بكرباج .

لَوْ أَنَّ لِلدَّهْرِ عَيْنًا مِنْهُمُو دَمَعَت
أَوْ أَنَّ للصَّخْرِ قَلْبًا نَابِضًا لَبَكَى
أَزرُوا بِأُمَّتِهِمْ مِنْ سُوءِ سِيرَتِهِمْ
لأَجْلِهِم كَمْ سَأَلْنَا المَوْتَ لَوْ فَتَكَا

فقالوا لنا : الآن حصحص الحق ، وبان الفرق ، وظهر الصدق . فودّعناهم وكل واحد منهم كأنه فارة ، وذهبنا للسفارة ، ثم زرنا مكتبة الكونجرس، وطرقنا الجرس، فما هو إلاّ وقت يسير، حتى خرج لنا خواجةٌ يسير، قلنا له: جدمورنج سير، فدخلنا مكتبةً هائلة، أدراجها مائلة، فيها كل الفنون، وملايين المتون، مما تبصرون وما لا تبصرون، فناولونا هديةً في وعاء ، وقالوا : لا تنسونا من الدعاء .

قلنا : اللهم أحصهم عددًا ، واقتلهم بددًا ، ولا تغادر منهم أحدًا ، لأنك لو علمت ما صنع الأمريكان ، لاهتزت منك الأركان ، فهي أم إسرائيل ، وبيت كل داء وبيل ، يستعيذ منها أبرهة صاحب الفيل ، ناصرت اليهود ، ولم تعترف بالحدود ، وما ردعتها القيود ، أمريكا أفتك من هتلر وتيتو ، خدعت العالم بالفيتو ، من أطاعها فهو خادم مهين ومن عصاها فهو شيطان لعين ، تنظر إلى الأيتام وهم يُنقلون ، وتشاهد اللاجئين وهم يُقتلون ، ولا تُسأل عما تفعل وهم يسألون ، غيرها من خيرها محروم ، وهي ظالم في ثوب مظلوم ، تريد أن تكون المنتصرة والعالم مهزوم ، ولكن لها يوم .

لَيْتَ البَرَاكِينَ فِي أَرْجَائِهَا رَقَصَت

وَالرَّعْدُ يَا لَيْتَهُ فِي أَرْضِهَا خَطَبَا

وَلَيْتَ أنَّ صَدَى الزِّلزَالَ زَعْزَعَهَا

حَتَّى تَصِيرَ عَلَى أَطْلالِهَا لَهَبَا

الله يمزق سداها ، وينصر عليها عداها ، ويقصر مداها ، ويظهر رداها ، الله يُخليها من سكانها ، ويقتلعها من مكانها ، ويزلزلها من أركانها ، فهي أم الكبائر ، وجالبة الخسائر ادعوا عليها في السجود ، عسى الله أن يلحقها بعادٍ وثمود .

ثم قلنا من بحر الرجز ، بعد أن كَلّ الفؤاد وعجز :

يَقُولُ عَائِضٌ هُوَ القَرَنِي

أَحْمَدُ رَبِّي وَهُوَ لِي وَلِي

مُصَلِّيًا عَلَى رَسُولِ اللهِ

مُذَكِّرًا بِاللهِ كُلَّ لاهِي

قَدْ جِئتُ مِنْ أَبْهَا صَبَاحًا بَاكِرًا

مُشَارِكًا لِحَفْلِكُمْ وَشَاكِرًا

وَحَمَلَتْنَا فِي السَّمَاء طَيَّارَة
تَطْفَحُ تَارَةً وَتَهْوِي تَارَة
قَائِدُهَا أظُنُّه أمْرِيكِي
تَراهُ فِي هَيْئَتِهِ كَالدِّيكِ
يَا سَائِلَ الأَخْبَارِ عَنْ أَمْرِيكَا
اسْمعْ رَعَاكَ اللهُ مَنْ يفْتِيكَا
وَهَذِهِ أَخْبَارُ هَذي النّشْرَة
مَسَافَة السَّيْرِ ثَلاثَ عَشْرَة
مِنَ الرِّيَاضِ عَفَشْنَا رَبَطْنَا
وَفِي نِيُويُورك ضُحىً هَبَطْنَا
أُنْزِلْنَا فِي سُرْعَةٍ وَحَطَّنَا
ثُمَّ قَصَدْنَا بَعْدَهَا وَاشِنْطُنَا
ثُمَّ رَكِبْنَا بَعْدَهَا سَيَّارة
مُسْتَقْبِلينَ جِهَةَ السِّفَارة
مَنْزِلُنَا فِي القَصْرِ أَعْنِي رَدَسْنَ
يَا كَمْ لَقِينَا مِنْ قَبِيحٍ وَحَسَن

فِي بَلَدٍ أَفْكَارُهُ مَنْكُوسَة
تُثْقِلُهُ بَصَائِرُ مَطْمُوسَة
يُقَدِّسُونَ الكَلْبَ والخِنْزِيرا
وَيُبْصِرونَ غَيْرَهُمْ حَقِيرا
مَا عَرِفُوا اللهَ بِطَرْفِ سَاعَةٍ
وَمَا أَعَدُّوا لِقِيَام السَّاعة
فَهُمْ قَطِيع كَشُوَيْهَاتِ الغَنَمِ
جَد وهَزَل وَضَيَاع وَنَغَمِ
مِنْهُم أَخَذْنَا العُودَ والسِّيجَارَةَ
وَمَا عَرِفْنَا نَصْنَعُ السَّيَّارَة
اسْتَيْقَظُوا بِالجَدِّ يَوْمَ نِمْنَا
وَبَلَغُوا الفَضَاءَ يَوْمَ قُمْنَا
وَبَعْدُ ذَا زُرْنَا مَبَانِي الكُونجرس
فَلَمْ نَجد مُسْتَقْبِلاً إلا الحَرَس
فِيهَا مَلايين حَوَتْ مِنْ الكُتُبِ
فِي كُلِّ فَنٍّ إِنَّهُ مِنَ العَجَبِ

وَمَعَنَا فِي صَحْبِنَا العَجْلان
أَكْرِمْ بِهِ مَعَ العُلا جَذْلانِ
وَقَدْ صَحِبْتُ شَيْخَنَا السَّدْحَانَا
قَدْ صِرْتُ فِي صُحْبَتِهِ فَرْحَانا
وَصَالِح المَنْصُورِ مِنْ بُرَيْدَةَ
يُشْبِهُ سَعْدًا وَأَبَا عُبَيْدة
وَافَقْتُ فِيهِم فَالِح الصَّغِيرا
آنَسْنَا جِدًّا وَكَان خَيرا
وَمَعَنَا عَبْدُ العَزِيزِ الغَامِدي
ابنُ عَزِيزٍ صَاحِب المَحَامِدِ
والشَّهْم عَبْدُ القَادِرِ بْنِ طَاش
ذُو القَلَمِ السَّيَّالِ فِي انْتِعَاش
فَهُوَ أَبُونَا فِي مَقَامِ التَّرْجَمَة
لأننا صِرْنَا صُخُورًا مُعْجَمَة
ثُمَّ هَبَطْنَا فِي مَطَارِ دِنْفِرا
اكواتَنَا فِي البَرْدِ صَارَت فِرا

أيْضًا وَزُرْنَا أَهْلَ تِكْسِسْ فِي دَلَس
عِنْدَ شَبَابٍ كالنُّجُومِ فِي الغَلَس

بالمنقتن أخت ثَراهوت الَّتِي
كَأَنَّهَا باقَةُ زَهْرٍ جَنَّة

«وِلْ كَمْ» حَفِظْنَاها بِمَعْنَى وَيْلَكُمْ
«بليز» أي إبْلِيس قَدْ جَاءَ لَكُمْ

وَالحَمْدُ للهِ عَلَى السَّلامَة
حَمْدًا يُوَافِي دَائِمًا إنْعَامَه

ثُمَّ صَلاةُ اللهِ مَا هَبَّ الصِّبَا
عَلَى الرَّسُولِ الهَاشِمِي المُجْتَبَى

وَبَيْتُهُ وَالآلِ والصَّحَابَة
والعُذْرِ إنْ لَمْ أُحْسِنِ الإصَابَة

* * *

▪ مقامـة المـرأة ▪

﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾

« النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ »

لا أَسْأَلُ اللهَ تَغْيِيراً لِمَا فَعَلْت
نَامَتْ وَقَدْ أَسْهَرت عَيْني عَيْنَاهَا
فَاللَّيْلُ أَطْوَلُ شَيْءٍ حِينَ أَفْقِدُهَا
وَاللَّيْلُ أَقْصَرُ شَيْءٍ حِينَ أَلْقَاهَا

رفقًا بالقوارير ، فإنهن مثل العصافير ، لكل روض ريحان ، وريحان روض الدنيا النسوان ، هن شقائق الرجال ، وأمهات الأجيال ، هن الجنس اللطيف، والنوع الظريف، يلدن العظماء، وينجبن العلماء، ويربين الحلماء، وينتجن الحكماء، المرأة عطف ، ولطف وظرف ، سبابها سراب، وغضبها عتاب ، من خطه المشيب، فليس له من ودهنّ نصيب، لو جعلت لها الكنوز مهرًا، وقمت على رأسها بالخدمة شهرًا ، ثم رأت منك ذنبًا قليلاً، قالت ما رأيت منك جميلاً ، القنطار من غيرها دينار ، والدينار منها قنطار ، هي في الدنيا المتاع ، والحسن والإبداع ، وهي للرجل لباس ، وفي الحياة إيناس .

بِنْتُمْ وَبِنَّا فَمـا ابْتَلت جَوانِجُنَا

شَوْقًا إِلَيْكُم ولا جَفَّت مَآقِينا

تَكَادُ حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا

يَقْضِي عَلَينَا الأَسَى لَوْلا تَأَسِّينَا

وهي الأم الحنون ، صاحبة الشجون ، خير من رثى وبكى ، وأفجع من تألم وشكى، لبنها أصدق طعام ، وحصنها أكرم مقام ، ثديها مورد الحنان ، وحشاها مهبط الإنسان، في عينها أسرار ، وفي جفنها أخبار ، في رضاعها معاني الجود ، وفي ضمها الود المحمود ، قُبلاتها لطفلها صلوات القلب ، وبرّ طفلها لها مرضاة الرب ، شبعها أن لا يجوع وليدها ، وجوعها أن لا يشبع وحيدها ، غياب المرأة من الحياة وأْد للسرور، واختفاؤها في مهرجان الدنيا قتل للحبور.

وَإِنِّي لأَسْتَغْشِي وَمَا بِي عِشْوَة

لَعَلَّ خَيَال مِنْكَ يَلْقَى خَيَالِيَا

وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ البُيُوتِ لَعَلَّنِي

أُحَدث عَنِ النَّفْسِ بِالسِّرِّ خَالِيَا

هي بيت الحسب والنسب، وجامعة الْمُثُل والأدب، ذهبٌ بلا امرأة لهب، وجوهر بلا امرأة خشب، تقرأ في نظراتها لغة القلوب، وتعلم

الحب من هجرها المحبوب، وبالمرأة عرف الهجر والوصال ، والاتصال والانفصال، والغرام والهيام ، والبراءة والاتهام، تقتل بالنظرات ، وتخطب بالعبرات، كلامها السحر الحلال، ولفظها العسل السيَّال، بسمتها ألذ من العنب والتوت، وهي أسحر من هاروت وماروت ، وقال نسوة في المدينة ، كل مهجة فهي لنا مَدينة ، وأفضل النسوان ، الحصان الرزان ، ألفاظها أوزان ، وعقلها ميزان ، إذا تحجّبت فشمس في غمام ، وظبي في خزام، هي رواية تترجمها الأرواح ، وهي مسْك تذروه الرياح، في شفتيها ألف قِصَّة ، وفي أعماقها سبعون غصَّة ، ليلى جعلت نهار المجنون ليلاً ، وصيرت عَزَّةُ دموع كُثَيِّرٍ سيلاً .

لَيْلِي وَلَيْلَى نَفَى نَوْمِي اخْتِلافُهُمَا
فِي الطُّولِ وَالطَّولُ طُوبَي لِي لَوْ اعْتَدَلا
يَجُودُ بِالطُّولِ لَيْلِي كُلَّمَا بَخِلَتْ
بِالطُّولِ لَيْلَى وَإِنْ جَادَتْ بِهِ بَخِلا

على شفتيها المطبقات سؤال ، وفي جفنيها مقال ، أحرف الحب صامتة على محيّاها، وقصائد الغرام حائرة على ريّاها ، حسن الشمس من حسنها ينهار ، والليل من شعرها يغار . من النساء خديجة رمز الأدب ، لها قصر في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب ، ومن النساء عائشة بنت الصديق ، صاحبة العلم والإتقان والتحقيق ،

المطهرة الطاهرة ، صاحبة السجايا الباهرة ، والمحامد الظاهرة ، ومن النساء فاطمة البتول ، بنت الرسول ، أم السبْطين ، الحسن والحسين ، سيدة نساء العالمين ، المقبولة عند رب العالمين .

وَلَوْ أَنَّ النِّسَاءَ كَمَنْ عَرِفْنَا
لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ
فَمَا التَّأنِيثُ لاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ
وَلا التَّذْكِيرُ فَخْرٌ للهِلالِ

المرأة صحيفة بيضاء، يكتب فيها الرجل ما يشاء ، من حب وعتاب، وغضب وسباب، وهي روضة خضراء، وحديقة فيحاء، فيها من كل زوج بهيج، ومن كل شكل فريج، أمضى سيوفهن الحب، يصرعن به ذا اللُّب ، الحازم معهن ضعيف ، والعاقل عندهن سخيف، ترى الرجل يصارع الأسود، ويقارع الجنود، ثم تغلبه امرأة. . !

وترى الرجل يزهد في الحطام ، ويصوم عن الشراب والطعام ، ثم تصرعه امرأة، وترى الشجاع يطرح الكماة ، ويهزم الرماة ، وإذا قَصْدُه امرأة .

عنترة فُتِن بعبلة ، فرأى بريق السيوف كثغرها فقاتَل ، ورأى سواد الهول كشعرها فنازَل ، حضر جيش فشم طيب العطارة منشم، فيا خسارة من شم ، فصار الجيش بطيبها في هزيمة ، ولأعدائه غنيمة .

يَا ظِبْيَةَ البَانِ تَرْعَى فِي خَمَائِلِه
لِيَهْنَك اليَوْمَ أَنَّ القَلْبَ مَرْعَاكِ
المَاءُ عِنْدَكِ مَبْذُولٌ لِشَارِبِه
ولَيْسَ بِرَوْيِك إلا مَدْمَعِي البَاكِي

المرأة ولو أنها في الخصام غير مبين ، فدمعها أفصح شيء عند المحبين، سِرّ قوّتها أنها ضعيفة ، ولغز بأسها أنها لطيفة .

يريد الغرب من المرأة أن تتبرج ، وبالفتنة تتبهرج ، وعلى الثلج تتزلج ، ويريد الإسلام منها العفاف والستر ، والتقوى والطهر، لتكون آية في الحسن والقبول والأسر ، يريد أهل الكفر منها أن تكون عالمة فيزياء ، وعارضة أزياء ، ولو فتنت رجالها ، وعقّت أطفالها ، وضيّعت أجيالها ، ويريد الإسلام أن تكون أمينة حصينة ثمينة ، الأمل من عينيها يشرق ، والظمأ في دمعها يغرق ، والسِّحر من بهائها يُسرق ، بكاؤها صرخة احتجاج ، وصمتها علامة الرضا بالزواج ، كان آدم في الجنة بلا أنيس ولا جليس ، فطالت وحشته، وصعبت عليه غربته ، فخلق الله له حواء ، فتم بينهما الصفاء والوفاء، وحسن اللقاء ، وجميل العِشْرة والاحتفاء ، فرجل بلا امرأة كتاب بلا عنوان ، ومُلْك بلا سلطان ، وامرأة بلا رجل صحراء لا نبت فيها ولا شجر ، وروضة لا طلع بها ولا ثمر .

شكرًا يا آمنة بنت وهب لقد أهديت للإنسانية ، وقدمت للبشرية ، ابنًا تضاءلت في عظمته الشمس في ضحاها، والقمر إذا تلاها ، ابنًا قال للوثنية وهي تعرض تلك العروض، وتفرض تلك الفروض ، والذي نفسي بيده لو وضعتم الشمس في يميني، والقمر في يساري لن أترك ديني، حتى يعم القرى والبراري ، ويكفي النساء ، ما أطل صباح وكرّ مساء ، أن محمدًا ﷺ من امرأة وُلِد ، ومن أنثى وُجِد :

بُشْرَى مِنَ الغَيْبِ أَلْقَت فِي فَمِ الغَارِ

وَحْيًا وَأَفْضَت إِلى الدُّنْيَا بِأسْرَارِ

بُشْرَى النُّبُوَّةِ طَافَتْ كَالشَّذَى سِحْرًا

وَأَعْلَنَتْ فِي الدُّنَا مِيلادَ أَنْوَارِ

وَشَقَّت الصَّمْتَ وَالأَنْسَامَ تَحْمِلُهَا

تَحْتَ السَّكِينَةِ مِنْ دَارٍ إِلى دَارِ

قدَّمت المرأة للعالم الخلفاء الراشدين ، والأبطال المجاهدين، وعباقرة الدنيا والدين، المرأة إذا حسّنت آدابها، وطهّرت جلبابها، ملأت القلب حنانًا، والبيت رضوانًا ، والدنيا سكنًا وعرفانًا .

والبيت بلا امرأة محراب بلا إمام، وطريق بلا أعلام، إذا اختفت المرأة من الحياة، اختفت منها القبلات والبسمات، والنظرات والعبرات.

وإذا غابت المرأة من الوجود غاب منه الإخصاب والإنجاب ، والكلمات العذاب ، والعيش المستطاب .

في الحديث: «**تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلُودَ**» ، والسر في ذلك لتكثر الحشود، وتزداد الجنود ، وليكاثِر بنا رسولنا ﷺ يوم الوفود .

يوم تخلع المرأة الحجاب ، وتضع الجلباب ، فقد عصت حكم الإسلام ، وخرجت على الاحتشام ، وقُل على العفاف السلام .

كيف يُسكن بيت بلا أبواب ، ويُحل قصر بلا حجاب ، ويُشرب ماء ولغت فيه الكلاب، من حق الدرة أن تصان ، ومن واجب الثمرة أن تحفظ في الأكنان ، وكذلك المرأة بيتها أحسن مكان ، ولكن المرأة إذا قلبت ظهر المجن، وعرّضت نفسها للفتن ، فهي ظالمة في ثوب مظلوم، عندهن من أصناف المكر علوم .

كيد الشيطان ضعيف وكيدهن عظيم ، وقوتهن واهية لكن خطرهن جسيم، هن صويحبات يوسف ذوات السكاكين ، وقاهرات الرجال المساكين ، حتى قال الرشيد في بعض النشيد :

مَالِي تُطَاوِعُنِي البَرِيَّةُ كُلُّهَا

وَأُطِيعُهُنَّ وَهُنَّ فِي عِصْيَانِي

فاجعل بينهن وبين الشر لهبًا ، واملأ عليهن منافذ الفتنة حرسًا شديدًا وشهبًا ، فلا تَعرِض اللحم على الباز ، ولا تنشر القماش على البزّاز ، فأنعم بحرز الستر والصيانة ، وأكرم بحجاب العفاف والحصانة .

وإذا رزقت بنات ، فإن هن من أعظم الحسنات ، حجاب من النار ، وحرز من غضب الجبار ، فاحتسب النفقة ، فإنها صدقة ، ولو أنه غرفة من مرقـة ، وتعاهدهن بالبـر والصلة ، فإن رحـمتهن للجـنة موصلة ، وكفاك أن الرسول المشرِّع ، رزق ببنات أربع .

والمرأة هي بطـلة الأمومة ، ومنجـبة الأمـة المرحومـة ، فضـائلها معلومة، وهي معدن الحسب والكرم والأرومة.

وتعليمهـا الدين من أشرف خصال الموحدين ، لأنهـا تصبح لكتاب الله تالية، ذات أخلاق عـالية ، تتفقه في الكتاب والسنة ، لأنـهما أقرب طريق للجنة .

وأما عـلاَّم الكفر ، الذي أعـان المرأة على الـمكر ، وصرفـها عن الذكر والشكر ، فـهو المـسئول عن عـقوقهـا وتضييـعهـا لحقوقـها ، وإصرارها على معصيتها وفسوقها .

جعـلوا المرأة سلعـة للدعاية والإعـلان ، وخطيبـة في البرلـمان ، تشارك في التـجارة ، وتقاتل الجنود الجرارة ، جـعلوها جندي شرطة ، فوقـعت من الإحراج في ورطـة ، تمتطي الدبابة ، وتطارد الكتـائب في الغـابة ، يُستـدَر بهنّ عطف الجبـابرة ، وتبـرم بهنّ الخطط الماكـرة ، ويكفيك في ضلالهم ، وسوء أعمالهم ، أن الهدهد وهو طائر ممتهن ، أنكر على بلقيس حكم اليمن ، وامرأة خلقها الله لمهمة ، كيف يزج بها في أمور مدلهمّة .

ونحن الرجال أسندت إدارة الحياة إلينا ، وكتب القتل والقتال علينا ، وأما النساء في الإسلام فمقصـورات في الخيام ، محفوظات من اللئام ، مصونات عن الآثام .

تَضُوعُ مِسْكًا بَطْنُ نُعْمَانٍ أنْ مَشَتَ
بِهِ زَيْنَب فِي نِسْوَةٍ عَطِرَاتِ
تَهَادِينَ مَا بَيْنَ المُحصب مِنْ منى
وَأَقْبَلْنَ لا شُعْثًا وَلا غَبَرَاتِ
يُخَبِّئنَ أَطْرَافَ البَنَانِ مِنَ التُّقَى
وَيَقْتُلْنَ بِالأحاظِ مُقْتَدِرَاتِ

ومـاذا فـعل بالمـرأة سـقـراط وبقـراط وديمـقـراط ، أهل الأوهام والأغـلاط، جعلوها شـيطانة، وسمـوها الفـتانة، وإنمـا هي في بعض الأوقات قهرمانة ، وريحانة .

أما الفُرْس ، البكـم الخُرْس ، فجعلوها خادمـة للمال والنفس ، بل قال بزرجمهـور: المرأة ليست بإنسانة فلا تمول ولا تـمهر ، وهذا غاية التهور .

أما أهل الوثنيـة ، ودعاة الجاهلية ، فـحرموها من الميـراث، حتى جعلوها أرخص من الأثاث ، ووأدوا البنات ، وقتلـوا الأخوات ، وعقّوا

الأمهات ، وليس لها عندهم قيمة ، فهي في منزلة البهيمة ، فهي عندهم حق مشاع ، للخدمة والمتاع .

أما الغرب فهي عندهم للمغريات ورقة رابحة ، أبرزوها في صور فاضحة ، أخرجوها بلا أدب ولا دين ، وعرضوا صورتها في الميادين ، باعوها في سوق النخاسة ، ووظفوها للرجس والخساسة ، وأقحموها مغارات السياسة .

وما كَرَّم النساء ، مثل صاحب الشريعة السمحاء ، والملة الغراء ، فقد بيّن بقوله ﷺ ، «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأهْله**» ، ويا معاشر الأمم هل عندكم ، حديث «**اللهَ اللهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّهُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُم**» .

وكان في بيته ﷺ أفضل الأزواج ، دائم السرور والابتهاج ، يملأ البيت أنسًا ومزاحًا ، وبِشْرًا وأفْرَاحًا، طيّب الشَّذى، عديم الأذى، لطيف المحشر، جميل المظهر، طيب المخبر، لا يعاتب ولا يغاضب، ولا يطالب ولا يضارب ، يُؤْثِر الصفح على العتاب ، والحلم على السباب .

ومن حبه للبنات، وعطْفه على الضعيفات، يحمل أُمامة، وهو في الإمامة ، فإذا سجد وضعها ، وإذا قام رفعها ، وكانْ يقوم لفاطمة الزهراء ، والدرة الغراء ، ويجلسها مكانه ، ويطأ لها أركانه ، فكأن سرور الحياة صب عليها ، وكأن الدنيا وضعت بين يديها .

هِيَ بِنْتُ مَنْ، هِيَ أُمُّ مَنْ

مَنْ ذَا يُسَاوِي فِي الأَنَامِ عُلاهَا

أَمَّـا أَبُوهَا فَـهُـوَ أَشْـرَفُ مُـرْسَلٍ
جِـبْـرِيلُ بِـالتَّـوْحِـيـدِ قَـدْ رَبَّـاهَا
وَعَلِـيٌّ زَوْجٌ لا تَـسَلْ عَـنْـهُ سِـــوَى
سَـيْـفٌ غَـدَا بِيَـمِـيـنِـهِ تَيَّـاهَا

وكـان يجلس ﷺ للنسـاء من أيامـه ، فيـفـيض عليـهن من بره وإكرامـه، وجوده وإنعامه ، فكأنه الـغيث أصاب أرضًا قـاحلة ، والماء غمـر تربة ماحلة، فإذا هـو يملأ القلوب حبًّا ، والنفوس أنسًـا وقُربًا ، يبشر من مات لهـا ولد بالنعيم المقيم ، فتتـمنى كل امرأة أنها ذهب لها فطيم ، لِما سمعت من الأجر العظيم .

ويُخـبر مـن تطيع بعلهـا ، وتُحسِن فِـعْلهـا ، بأن الجنة مـأواها ، والفردوس مثواها ، يقـف مع المرأة الشاكية ، ويتفجع لـلأنثى الباكية ، فلو كانت الرحمة في هيكل لكانت في مثاله ، ولو الرفق في صورة لكان في سرباله ، تأتيه المرأة المصابة في خوف وهول ، وفي دهش وذهول، فما هو إلا أن ترى إشراق جبينه ، ويُسْر دينه ، ولطفه المتناهي ، وخلقه الباهي، حتى تعود عامرة الفؤاد ، حسنة الفأل والاعتقاد .

* * *

مقامة الحيل

﴿ ولتعرفنهم في لحن القول ﴾

دَهَاءٌ يُرِيكَ الغَيْبَ فِي ثَوْبِ حَاضِرٍ
وَفَهْمٌ كَحَدِّ السَّيْفِ أَمْضَى وَأَصْوَبَا
إِذَا ظَنَّ ظَنًّا صَارَ فِينَا حَقِيقَةً
وَإِنْ قَالَ قَوْلاً صَارَ لِلنَّاسِ مَذْهَبَا

إذا رأيت الرجل يعتاد المقاهي ، لشرب الشيشة والشاهي ، ومجالسة كل لاهٍ ، فاعلم أن الرجل فاسد الإرادة ، ظاهر البلادة ، لا يساوي جرادة ، ولن ينفع بلاده .

وإذا رأيت الرجل ليلة الزواج، وهو فاسد المزاج ، يبحث عن علاج، ويقول فاظفر بذات الدين، فاعلم أنه ظفر بعابسة الوجنتين، خشنة اليدين، كل ما فيها شين، وإذا رأيت الرجل خرج من عند القاضي وهو يتلو: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ ، فاعلم أن القاضي ردّ شهادته ، وهو له من الغائظين ، وإذا رأيت الرجل يجلس في الملهى يقرأ جريدة، أو ينظم قصيدة ، فاعلم أن حياته غير سعيدة ، أو أنه يبحث عن وظيفة ، ولو سخيفة ، وقد تقطعت به الحبال ، وخابت منه الآمال .

وإذا سمعت الرجل ينشد كثيرًا قول الشاعر :

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ

يُهْدَمْ وَمَنْ لا يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ

فاعلم أنه جحد لأخيه فلوسًا ، وحلف عليها يمينًا غموسًا ، وإذا سمعت الرجل يردد كثيرًا قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ فاعلم أنه خطب عند بعض الوجهاء ، فردّ عليه بجفاء .

وإذا رأيت الرجل خرج من بيته غاضبًا وهو ينشد :

أَنَا ابنُ جَلا وَطَلاَّعِ الثَّنَايَا

مَتَى أَضَعُ العَمَامَةَ تَعْرِفُونِي

فاعلم أنه زوجته ضربته ضربًا مبرحًا ، وهو يُعرِّض لئلا يكون مُصَرِّحًا .

وإذا سمعت الرجل يقول كثيرًا الدنيا ملعونة ، فاعلم أنه ذكر ديونه ، وما وجد من أحد معونة، وإذا سمعت الرجل يكرر الآية ﴿ **وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ ، فاعلم أنه طلب قرضاً من رجل فاعتذر منه فأخذ يعرّض بالمذكور، وإذا سمعت الرجل يردد الدنيا لا تساوي جناح بعوضة، فاعلم أنه طلب من التجار قرضاً فرفضوا إلا بِرِهانٍ مقبوضة ، وإذا سمعت المحاضر يردد في محاضرته: الحديث شيِّق ، ولكن الوقت ضيق، فاعلم أنه ما حضَّر للمحاضرة ، وقد كَدَّ ذهنه وخاطره .

وإذا سمعت المفتي يكرر كثيراً : لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم . فاعلم أنه قد احتار في الجواب ، وخفي عليه الصواب .

وإذا سمعت الموظف يستشهد بقول الشاعر : لكل شيء إذا ما تم نقصان ، فاعلم أنه قد فصل من عمله وهو حاقد غضبان .

وإذا رأيت الرجل يكثر من قول فسد الشباب، وأصبحت أخلاقهم كأخلاق الكلاب، فاعلم أنه ما عنده إلا بنات، وهو يتمنى الأولاد من سنوات .

وإذا رأيت رجلاً وقد ذكر عنده أحد الدعاة ، الذي نجح في دعوته ومسعاه، فقال هذا الرجل : أهم شيء الإخلاص لله في القول والعمل، ومراقبة الله عز وجل، فاعلم أن الحسد قد أكل قلبه ، وضيّع لبّه .

وإذا سمعت الرجل يحمد الله على أنه لا يشعر بجوع ولا بظمأ ولا تعب ، وأن الصائم لا يشعر بنصب ، فاعلم أنه صائم، فهو يُلمِّح لك لتكون بصيامه عالِم، وإذا سمعته يخبرك بأن الليل طويل أو قصير ، ويخبرك أن الناس وقعوا في التقصير ، وتركوا القيام وهو سنة البشير النذير ، فاعلم أن الرجل في الليلة الماضية قام يصلّي ، ولكنه يريد أن يوضّح لك الأمر ويجلّي . وإذا رأيت الشاعر كل سنة له ديوان ، ويهدي شعره على الإخوان ، ويلقي قصائده على الجيران ، فاعلم أن شعره لا يَهزُّ شَعْرَة، ولا يساوي بَعْرة ، وإذا سمعت المتحدث يقول ما كنت أرغب الحديث إليكم ، ولا أريد أن أطيل عليكم ، فاعلم أنه ما عنده كلام، ويريد أن يتخلص من المقام .

وإذا رأيت الرجل يكثر من قوله : نحن في نعم وخيرات ، وفي رغد ومسرات ، فاعلم أنه قريب عهد بمال ، أتاه هديةً أو بسؤال ، أو مُنِح أرضًا في الشمال .

ومن يكثر كل يوم من العناق ، وذكر الاشتياق ، والسؤال عن الأهل والرفاق، فاعلم أنه ثقيل ، وعذاب وبيل، فما لك إلا البعد عنه والرحيل، وإذا سلّمت على رجل فقال: من أنتم، وأين كنتم ، فاعلم أن الرجل فيه إعجاب، وكبر على الأصحاب ، وإذا رأيت الرجل يكثر على طعامه من الترحيب والتبجيل ، ويعتذر بأنه قليل ، فاعلم أنه بخيل .

وإذا سمعت المتكلم يتفصح ، ويتبجّح ، ويقول : إن الحقيقة تنطلق من أطر، وتنبثق من بوتقة ، وتنصهر في قوالب ، وتلعب دورًا ، فاعلم أنه قليل بضاعة ، ما مَدَّ إلى العلم باعه ، وإذا سمعت الرجل يكثر من قوله : الناس معادن وأصول ، وفي الأنساب فاضل ومفضول ، فاعلم أن الرجل أباه شيخ قبيلة ، وهو لا يساوي فتيلة ، وإذا سمعت من يُسأل مسائل في الشريعة ، فيجعل الاحتياط له ذريعة ، فاعلم أنه قل علمه ، وبرد فهمه .

* من جاور المسجد فهجره ، واستفاد من العالم وما شكره ، وأخذ المعروف وكفره فهذا رجل مخذول ، عقله مدخول ، وقلبه مخبول .

* إذا رأيت الرجل يكثر من تاء المتكلم فيقول : دخلت، وخرجت، وقرأت، وكتبت، ولقيت، وقابلت، ودعيت، وزرت، وقلت، وألفت فاعلم أنه أحمق ، وكلامه غير محقق ، لكنه متفيهق ، متشدّق ، متمنطق .

* إذا رأيت الطالب يقول : ليس العلم بحفظ المتون ، ولا بجمع الفنون ، فاعلم أن ذاكرته في الحفظ تخون .

* * *

■ مقامَـة الحَيـوَان ■

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾

قال الراوي : فحدثنا عن عالم الحيوان ، فلعلك قرأت للجاحظ صاحب البيان ، قلت : سمعًا وطاعة ، والجاحظ صاحب فصاحة وبراعة ، فاسمعوا وعوا ، وفي رياض الذكر فارتعوا . اجتمعت الحيوانات ، في بعض الأوقات ، فقالوا للحمار ، يا أبا المغوار ، أنت بطل الدار ، وحمّال الأثقال الكبار ، فحدثنا عن الدنيا الدنيّة ، قبل حلول المنيّة ، فانتحب الحمار وبكى ، وإلى إخوانه شكى ، وقال : من عنده ستون صاعًا من شعير ، وتبن كثير ، فلا يأسف من الدنيا على صغير ولا كبير ، فأطرقوا خاشعين ، وأنصتوا سامعين ، وشكروه أجمعَين ، ثم قالوا : مَنْ علمك الحكمة يا أبا المغوار .

قال : أنتم لا تعرفون السبب ولذلك طال منكم العجب ، أنا سافرت في طلب الحكمة إلى الهند ، فأخطأت الطريق إلى السند، فلما قصدت السند مع أصدق رفيق، ضللت الطريق، فوقعنا في غابة، فأكلت نبات الروض وأعشابه، فلما شبعت رجعت، ونسيت لماذا سافرت، ولأي سبب غادرت، فلهذا صرت من الحكماء، لكثرة من لاقيت من العلماء، فقيل له يا أبا المغوار ، ومن لاقيت من العلماء الكبار .

قال لقيت عالمًا نسيت اسمه ، وضيّعت رسمه ، هذا العالِم يسكن

في صنعاء عاصمة باكستان ، وله ابن في الخرطوم إحدى مدن أفغانستان، وهذا العالم تزوج من عمان، وهي قرية من قرى إيران .
فقالوا له : يا أبا المغوار عافاك الله من العين، وسلّمك من الدَّين ، ما ندري هل نعجب من حسن نطقك ، أو من سعة حفظك .

فقال : من سهر الليالي ، نال المعالي ، قالوا : زادك الله علماً ، ورزقك فهمًا ، فما هي أمنيّتك في هذه الدنيا القصيرة ، فإنك صاحب بصيرة .

فقال: يا ليت لي حقل من برسيم، فأقع فيه وقعة والي مال اليتيم، فأجعله كالرميم، ثم بكى حتى دمعت عيناه، وقال : يا سعادة من نال مُنَاهُ .

ثم أنشد :

مَنْ يَذُمُّ الشَّعِيرَ عِنْدِي حَقِيرٌ
فَهُوَ بِالذَّمِّ وَالمَلامِ جَدِيرُ
هُوَ عِنْدِي أَلَذُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
لَيْتَ أَنَّ الجِبَالَ تِلْكَ شَعِيرُ

فبكى الجماعة، وراموا وداعه، فانصرف الجمع، وبُل الخد بالدمع.

ثم قال الراوي : حدثونا يا أهل التهذيب، عن التيس والذيب ، لنأخذ من الحكمة بنصيب ، فقلنا : مر الذئب والتيس على منزل،

فقال: يا جبان انزل ، فقال التيس: قاتلك الله يا إبليس، يا ابن الذيبة ، وسلالة الخيبة، يا قليل الهيبة، فقال الذيب: عجيب، متى جاءتك الشجاعة، يا رمز اللؤم واللكاعة ، أنسيت يوم أكلت عمك قبل عامين ، وقتلت لك ولدين ، ما غرك إلا محلك ، وإلا فإنه معروف ذلك .

فإن كنت صادقًا ، وبالحق ناطقًا ، فاهبط إلى الميدان، لأجعلك طعامًا للديدان ، فردّ عليه وهو يقول ، ويصول ، وفوق السقف يجول : اخرس يا خسيس ، فأنا التيس ابن التيس ، فلو قاتلت بالقرون ، لطرحتك والناس ينظرون ، ثم أنشد :

قُرُونِي كَالرِّمَاحِ إِذِ انْتِضَاهَا
كَمَاةٍ فِي الحُرُوبِ مُدَرِّبُونَا
أَنَا ابنُ الأَكْرَمِينَ أبًا وَجَدًا
فَقُلْ لِلْقَومِ هَيَّا جَرِّبُونَا

فقال الذئب: خبرك لديّ ، ولكن منصبك شجعك عليّ، فليت الأيام تدور، فإن الدهر غَرور، والزمان عَثور، لترى يا جبان، قيمة الشجعان .

ثم أنشد الذيب ، وفي صدره لهيب:

يَا تَيْسُ لَيْتَ لَنَا مَكَانًا نَلْتَقِي
فِيهِ لِيَعْرِفَ هَزْلَنَا مِنْ جَدِّنَا

فَـــإِذًا لَعَـــرَفْنَاكَ أَنَا سَـــادَةٌ

نِلْنَا المَكَارِمَ كَـــابِرًا مِنْ جَـــدِّنَا

فقالوا: حدثنا عن الصيّاد والحمامة، يا أبا أمامة، فأنت في أخبار الحيوان علاّمة، قال: خرج الصيّاد ، وقد وضع يده على الزِّناد ، يريد أن يصطاد، ففارق أصحابه، ودخل الغابة ، وخلع جلبابه ، ومدّ النظر ، بين الشجر، وقال اللهم أتحفنا بصيد ، إنك تعلم ما نريد ، فكان كلّما مرّ به سرب من الطيور ، يأبى أن يقع لأنه يرى الرجل يدور ، والطير صاحب حذر ، ودقة نظر ، لا يغتر بكلام ، ولا يخدعه سلام ، ولا يركن إلى عهد، ولا يثق بوعد، وهذه صفة الذكي الأريب، والداهية الأديب، أما الأحمق ، فإنه على كل صخر يسحق ، وبالأسرار يتدفق ، وفي مذهبه لا يترفق.

فلما أيس الصياد ، صاح : يا حسرة على العباد ، حتى الطير ؛ أصبح يشك في الغير ويظن ظن السوء في أهل الخير ، ثم أنشد :

وَهَلْ مِـــثْلِي يَخُـــونُ بِعَـــهْـــدِ خِلٍّ

إِذَا أَعْطَى وَيَحْنَثُ فِي اليَـــمِـــينِ

فَلَوْ أَنَّ الحَـــمَـــامَـــةَ صَـــدَّقَـــتْنِي

وَفِـــيتُ وَلَوْ أَقَـــامَتْ فِي يَمِـــينِي

ثم نـادى الصياد: يا أيتهـا الطير ، أنا رجل من أهل الخير، اهبطي يا جند سليمان، ولك الأمان ، فأنا مشتاق لكِ من زمان ، فردّت عليه، ونظرت إليـه ، متى كـان لك عهـد وميـثاق ، يا كـثيـر النفاق، كـيف نصدقك، وقد قـتلت أمهاتنا بالرصاص ، بلا قَوَدٍ ولا قـصاص ، ومتى تركت العادة ، يا من أمسك زناده؟! .

فقال الصياد : تُبْنَا إلى رب العباد ، وتركنا عادة أهل الفساد ، وندمنا على ما سلف، وسـوف نغرم ما تلف ، فانزلن مـأجورات مشكورات ، وبالخير مذكورات .

فقـالت الطير : كـلا يا عنيد ، يا ذا البـأس الشديد ، فـأنت عندي كذّاب مـريد ، ثم ذهب الطير ولم يهـبط ، وأسرع ولم يسـقط ، فأيس الصيّاد وملَّ ، وهمّ أن يرتحـل ، وأن يترك المحل ، فصاحت الحـمامة الحمقـاء ، تردد قاء قاء ، وتقول: يا صياد لـست أنا هنا ، فلا تشغلك المنى ، ولا تكثر من العنا ، وأنشدت تقول :

يَا أَيُّهَــا الصَّــيَّــادُ لَسْتُ هُنَا أَنَا

فَـارْحَلْ وَدَعْ عَنْكَ المَـشَـقَّـةَ والعَنَا

لَوْ كُنْـتُ عِـنْدَكَ يَا أَخِي أَبْصَــرْتَنِي

وَكَــذَاكَ أَنْتَ فَلَسْتَ أَيْضًــا عِنْدَنَا

فالتفت فرآها ، فسدد رميته ورماها ، فأدماها وأرداها ، وهذا جزاء من نشر الأسرار وأفشاها ، ولم يجعل صدره منتهاها .

قالوا: فحدثنا عن الدجاج والثعلبين، فقد صرنا بحديثك معجبين.

فقال : قصص النبلاء ، تخفف كل بلاء، وسير الصالحين، سلوة في كل حين ، وقد مرّ ثعلبان ، وهما يلعبان ، بجماعة من الدجاج، داخل شبك من ساج، قال أحدهما لصاحبه، وهو يحاوره، والتفت إليه وهو يسايره ، ما رأيك في حيلة ، تكون لأكل هذا الدجاج وسيلة، فإن الخديعة، لأجدادنا شريعة، وهذا زمان الماكرين، وقلة الشاكرين، وكما هو مكتوب في لوحة من إبريز، لشكسبير شاعر الإنجليز، حيث يقول :

احْتَلْ لِنَفْسِكَ فِي زَمَانِ الحِيلَةِ
أظْهِرْ لِمَنْ تَنْوِي الرَّدَى تَهْلِيلَة
واخْدَعْ فَأَنْتَ بِأمَّةٍ مَخْدُوعَةٍ
فَنُفُوسُهُمْ عِنْدَ العَطَاءَ بَخِيلَة
فَالمَكْرُ فِيهِمْ سُنَّةٌ مَعْرُوفَةٌ
يَسْعَوْنَ للدُّنْيَا بِكُلِّ وَسِيلَة

فقال الثعلب الصغير للكبير : يا أبا منير ، يا مرشدنا في كل أمر خطير ، تقدم وتكلم فمنكم نتعلم ، فأنت في الخير إمام ملهم ، فتقدم

الكبير وقال : السلام عليكم أيتها الدجاج، أنا أبو منير وهذا أبو الحجاج، وكل منا للآخر محتاج .

فقالت الدجاج : لا سلمك الله يا محتال ، يا كاذب في الأقوال ، يا سيئاً في الأعمال ، فرد عليها وقال : أستغفر الله لي ولكم من الذنوب، وأعوذ بالله من العيوب ، فإنه مقلب القلوب ، ماذا سمعتم عني ، وماذا دهاكم مني؟ .

قالوا : أليس أبوك قتل أبانا ، وأخوك قبل عامٍ سبانا؟! .

فقال : وما شأني بأبي إذا ضل ، وبأخي إذا زل ، فالولد لا يحمل وزر الوالد ، واللئيم لا يعدي الماجد .

فقالوا : الغدر فيكم طبيعة ، والمكر لكم شريعة ، وتاريخكم مليء بالأخبار الفظيعة، فقال : لست براض عما صار ، وأعوذ بالله من عمل أهل البوار ، جعلهم الله وقود النار.

ثم أنشد :

لَزِمْتُ المُصَلَّى وَانْقَطَعْتُ إلى الذِّكْرِ
وَتُبْتُ إلى الرَّحْمَنِ مِنْ عَادَهِ المَكْرِ
وَأَلْزَمْتُ نَفْسِي الصِّدْقَ فِي كُلِّ حَالَةٍ
وَأَشْغَلْتُ بِالإِخْلاصِ يَا صَاحِبِي فِكْرِي

فلمـا سمـعت الدجاج قـول الثعلب ، قلنا : أظنه جـاد لا يلعب ، صادق لا يكذب ، فاسألوه ماذا يريد ، بهذا النشيد والقصيد ؟ .

قال أريد أيهـا الدجاج ، أن تفـتحوا لي وأخي باب السـاج ، لنطيل معكم السمر ، في ضوء القمر .

فقالوا أعطنا اليمين ، أن لا تروغ علينا ضرباً باليمين .

فقال : والذي نصرنا عليكم بالحـيلة ، وفتح علينا بكل وسيلة ، لا نترك عادتنا ولو حال بيننا وبيـنكم قبيلة ، فما فهموا يمـينه ، وما عرفوا دينه ، ففتحوا الباب ، وقالوا : مرحـبًا بالأحباب ، وخيرة الأصحاب ، فلما دخل هو وأخوه، ردّوا الباب وأغلقوه، فلما سكنا ، جلسنا وتمكنا، فلما أظلم الليل ، وحضرت ساعة الويل ، وبان الفجر وحان ، وقعا في الدجاج يذبحان ، فصاح الدجاج : قـيط قيط ، ما هذا يا عبيط ، الله من ورائكم محيط ، فقال الثعلب: لو ملأتم الدنيا قرقرة ، حتى سمعكم أهل أنقرة ، ما كففنا عنكم حتى نرى مهـجكم معقّرة ، فأنشدت دجاجة تقطر دمًا ، إذ أصبح جسمها مهدمًا .

وَاحْـسَـرَتَـاهُ كَـيْفَ صَـدَّقْنَا الأَشِـر
وَمَـكْـرُهُ بَـيْنَ الـبَـرَايَا مُنْـتَـشِـر
هَـذَا جَـزَا مَنْ صَـدَّقَ الـكَذَّابَا
وَأَمِنَ الـرُّفْـقَـةَ والأَصْـحَـابَا

وَصَاحِب العَقْلِ يَخَافُ العَاقِبَة

مُهَيِّئًا لِخَصْمِهِ مَخَالِبَه

فضحك الثعلب وقال :

مُوتي بِغَيظِكِ يَا دَجَاجَة إِنَّنِي

كَيْدُ الحَسُودِ وَنَاصِرُ الإِخْوَانِ

رَأيي تَقَدَّم فِي الحَيَاةِ شَجَاعَتِي

وَالرَّأْي قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ

فلما شبع الثعلبان ، وقاما يذهبان ، فإذا الباب مغلق ، والشبك مطبق ، فإذا كل منهما مطرق ، فقال كبيرهما : وقعنا في بليّة ، وأظنها دنت منا المنيّة ، فكيف لو أن صاحب الدجاج أبصرنا ، لقصدنا بالرصاص وأمطرنا ، فقال الأصغر للأكبر ، أنت أبو الدواهي ، مرتكب المناهي ، طويل الباع ، في الحيل والخداع ، فأخرجنا منها سالمين ، فإن عدنا فإنا ظالمين . فصمت الأكبر ، وتأمل وتفكر ، ثم هلّل وكبر ، وقال لصاحبه: علينا أن نغمض العيون ، وننفخ البطون ، وننام فمن رآنا قال ميّتون ، فإن الناس أكثرهم لا يعقلون، ولا تغرك الصور ، فإن أكثر من ترى بقر ، فقال الأصغر: لا فض فوك ، وفداك شانئوك . ثم ناما كأنهم أموات ، وهجعا في سبات ، فجاء صاحب الدجاج فما وجد من دجاجة إلا الريش فصاح : إيش هذا إيش، والله لا طاب بعدها

العيش، ثم نظر إلى الثعلبين ، وقال : شاهت الوجوه الكاذبة ، العاملة الناصبة ، الناهبة السالبة ، فلو كنتما أحياء ، لأسلت منكما الدماء ، جزاءً على فِعْلَتِكُم النكراء ، لكن سبقني الموت عليكم ، وأسرع الفناء إليكم ، فسبحان الله الموت أعجل ، ثم سحبهما بالأرجل ، فلما رآهما في الوادي ، واستشهد على موتهما أهل النادي ، قاما مُسرعَين ، وهربا ضاحكَين ، والتفتا منشدَين . فقال الأكبر :

أَغْبَى مِنَ النَّاسِ عَيْنِي لَمْ تَرَ أَحَداً
إلا القَلِيل فَلا تَحْفِلْ بِهِمْ أَبَداً
هُمْ كَذَّبُوا رُسَلَ اللهِ الكِرَامَ فَهَلْ
تُرِيدُ مِنْهُم عَلَى طُولِ المَدَى سَنَداً
أَمَا تَرَاهُمْ وَهَذَا المَوْتُ يَطْلُبُهُم
لاهينَ فِي الأَرْضِ لا تَأْنس لَهُمْ رُشْداً

وأنشد الأصغر فقال :

لا تَثِقْ يَا صَاحِ فِي هَذَا البَشَرْ
فَالغَبَا وَالجَهْلُ فِيهِمْ مُنْتَشِرْ
هُمْ عَصُوا خَالِقَهُمْ سُبْحَانَهُ
وَهُوَ المُنْعِمُ وَالكَافِي الضَّرَرْ

فقال صاحب الدجاج: أظن أنّا تورطنا ، فيا حسرتنا على ما فرطنا .

قالوا : فخبرنا عن قصة الثيران والأسد ، فما سمعناها من أحد .

فقال حُبًّا وكرامة ، وحق الصاحب كالغـرامة ، ونعود للحديث عن الحيـوان والعَوْدُ أحمـد ، وما يطلب العلم إلا كل أمـجد ، فكان هناك ثلاثة ثيران أبيض وأحـمر وأسود ، يرعون بجانب الـغدير ، وكل واحد منهم كـأنه وزير ، في منصب خطيـر ، فمـر بهم الأسـد أبو أسامـة ، فعرفهم بالعلامة ، ودعا لهم بالسلامة ، وقال كيف الحال يا إخوان ؟

قـالوا : بخيـر يا خوَّان ، فـقال : عـلام هذا السب علامـا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، فقالوا يا أبا حيْدرة : كل يعرف بيدره ، أنسيت كم أكلت منا من ثور ، يوم ساعدك الحظ العثور ، ثم أنشد الثور الأبيض فقال :

لا تَأْمـنِ اللَّـيْثَ أَبَـا أُسَـــامَــــة
فَـــإِنَّه سَـلَّ لَنَـا حُـــسَــــامَـــهُ
وَفِـــرَّ مِنْهُ فَـــهُـــوَ لا يُحَـــابِي
وَذِكْـــرُهُ قَـــدْ جَـــاء فِي الكِتَـــابِ

ثم ارتجل الثور الأحمر منشدًا فقال :

أشْـــجَعُ كُلُّ الكَائِـنَاتِ حَـــيْـــدَرَة
سَـمَّـــاهُ رَبِّي فِي الكِتَـــابِ قَـــسْـوَرَة

فَقَلْبُه فِي الرَّوْعِ أَقْسَى مِنْ حَجَرٍ
لَطَالَمَا أَقْسَم عَمْداً وفَجَر

فقام الثور الأسود وأنشد :

هَذَا الهِزبْرُ مَلِكٌ فِي الغَابَةِ
كَشَّرَ للمَوْتِ مُصِرّاً نابَهُ
تَبَّتْ يَدا مَنْ أَمَّهُ ونَازَلَهُ
وَيْلٌ لِمَنْ عَانَدَهُ وَقَاتَلَهُ

وكلما أقبل عليهم الأسد ، ولِقتْلهم رصد ، أقبلوا كلهم إليه ، وتجمعوا عليه ، والوِحْدَةُ قوة ، وهو رمز الأخوة ، والكثرة تغلب الشجاعة ، والاتحاد دليل البراعة، فلما أيس من الثيران ، لجأ لبعض الغيران ، ووضع رأسه على عود ، وزئيره كالرعود .

وأنشد يقول :

أَنَا الَّذِي أَرْهَبَ الدُّنْيَا بِصَولَتِهِ
وَلَمْ أَخَفْ عِنْدَمَا آتى الرَّدَى بَشَرا
وَاليَوْمُ تَغْلِبُنِي الثِّيرَانُ عَنْ سَفَهٍ
يَا جَاهِلاً عَنْ ثَبَاتِ اللَّيْثِ سَوْفَ تَرَى

فليس لي حيلة في هذه الطائفة، التي صارت بالألفة غير خائفة، إلا أن أشتت قلوبهم، وأظهر لبعضهم عيوبهم، وآخذ كل واحد على حِدَة، وأعده عدة، لأترب يده، فجاء إلى الثور الأسود والأحمر، في ليل مقمر، وقال يا قوم ، رأيتكم اليوم، وأنتم في الروض ترعون ، وإلى الغدير تسعون ، فرأيت الثور الأبيض يسبقكم، وبعين الحسد يرمقكم ، يستأثر عليكم بنبت السماء، ويزاحمكم على الماء، فماذا ترون ؟ أفلا تبصرون، قالوا : جزاك الله خيراً على النصيحة ، يا صاحب اللغة الفصيحة ، والكلمات المليحة، فأمُرنا بما ترى ، وقد خاب من افترى ، فقال في نفسه: وقع القوم في بليّة، وحانت منهم المنيّة ، ثم طلب منهم الوثوب إلى الثور الأبيض جميعًا ، حتى يرى صريعًا ، فقاموا على حرْدٍ قادرين ، وللموت مبادرين ، فناطحوا الأبيض وحاصروه، وصارعوه وحاجروه، وبالعداوة كاشروه، ثم طرحوه أرضًا ، ورضّوه رضًّا.

فلما أحسّ بالموت ، وأيقن بالفوت ، وفاته القوت ، قال :

هَذِهِ الحِيلَةُ مِنْ نَسْجِ الأَسَدِ
يَوْمَ يَلْقَانَا بِبَغْيٍ وَحَسَدِ
مَصْرَعِي مَصْرَعُكُمْ لَوْ تَعْلَمُون
غَيْرَ أَنَّ الرَأْيَ مِنْكُم قَدْ فَسَدْ

فلما مات الأبيض سُرَّ الأسد وفرح ، وسعد وانشرح ، ثم تركهم

لزمن يسير، وهو يقودهم لسوء المصير، ثم أتى إلى الثور الأسود، وقال يا أبا أسعد: هذا الثور الأحمر، أظنه مغتر، يخفي لك الشر، أراه بقرونه يناطحك، وبالعداوة يصارحك، فماذا ترى لو عاونّاك ، ومن ظهره مكنّاك ، لنشق نحره، ونفري ظهره ، فَسَحَبَاه إلى الغدير، وليس له من وليٍّ ولا نصير، فلما أصبح في آخر رمق ، وفؤاده يحترق ، أنشد :

يَا عَثْرَةَ الرَّأيِ هَذِي عَثْرَةُ القَدَم
وَيَا حَيَاتِي هَذِي سَاعَةُ النَّدَمِ
يَا فُرْقَةً مَزَّقَتْنَا حَاكَهَا لَبِقٌ
صِرْنَا بِهَا ضِحْكَةً للعَرَبِ والعَجَمِ

فبقي الأسود والأسد ، فقام الأسد وقعد ، وقال : كيف حالكم ، يا رفيق السعد ، ويا زينة البلد ، فقال بخير يا أبا أسامة ، أدركنا من السرور تمامه .

فقال الأسد : يا غاية المنى ، بقي أنت وأنا ، ونريد اليوم غدًا هنا ، قال الرأي لك يا ملك الحيوان ، ويا ثابت الجنان.

فقال له الأسد: اقترب مني لأناجيك، وادن مني لأشاجيك، فأدنى من الأسد الرأس، وكتم على الأنفاس، فأنشب الأسد فيه أنيابه، ومزق جلبابه، وخلع ثيابه، وقال: ذق يا ابن البقرة، يا سلالة الفجرة، عليك غبرة، وانفرد الأسد ، في البلد، وعلى كرسي الملك قعد . وأنشد:

وَحَـارِبْ إِذَا حَـارَبْتَ بِالـرَّأْيِ وَالقَنَا
وَكُنْ وَاحِـدَ الـدُّنْيَـا وَعَـبْـدًا لِوَاحِـدِ
وَلا تَخْشَ مَـخْلُوقًـا فَـرَبُّكَ حَـافِظٌ
فَـمَـا انْقَـادَت الأَمْـجَـادُ إِلا لِمَـاجِـدِ

وإن شئت الزيادة ، وكثرة الإفادة ، فعليك بالجاحظ ، فإنه لأخبار الحيوان حافظ ، أو اسأل غيره وغيري ، كالحيوان للدّميري . وصل وسلم على المعصوم ، الذي علمنا كيف نصلي ونصوم ، ما مال الشيح والقيصوم ، واختلف الخصوم .

* * *

مقامة العولمة

[Globalization]

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾

نَحْنُ الَّذِينَ اسْتَيْقَظَتْ بِآذَانِهِمْ
دُنْيَا الخَلِيقَةِ مِنْ تَهَاوِيلِ الكَرَى
حَتَّى هَوَتْ صُوَرُ المَعَابِدِ سُجَّداً
لِجَلالِ مَنْ خَلَقَ الوجُودَ وَصَوَّرَا

أنا أحب العولمة لأبلغ رسالتي للعالمين، وأبعث دعوتي للخافقين، وأنشر ديني للناس أجمعين، وأقدم بطاقة لا إله إلا الله في مهرجان الحياة، وأعرض ميراثي في سوق البشريّة ، وأخبرهم بقصة الغار والكعبة وزمزم . وأنا لا أريد العولمة هيمنة للكافرين، وسوطًا في يد الظالمين، ونافذة للملحدين، وقتلاً للأبرياء، ونكرانًا للحقيقة ، وجحودًا للميثاق .

وأنا أحب العولمة نتاج حضارات ، وثمار اختراعات ، وخلاصة اكتشافات ، وجهود دراسات ، أرحب بها جامعة ومستشفى وصيدلية وشركة وعقاقير وغذاء وكساء ودواء . لا أريد العولمة دعاية للفاتنات ، وشاشة للساقطات ، ومسرح للمنكرات ، وخشبة للرقصات ، وإعلان للمخالفات والكفريات والمغريات .

أريد العولمة ليسمعوا كلامنا ، ويعرفوا إسلامنا ، ويتّبعوا إمامنا . لا نريد العولمة عصا في يد الجبروت، ليعبد الطاغوت، وتهدم البيوت، ويخطف بها الأغنياء من الفقراء القوت.

نريد العولمة فرصة للحوار، لِنُسْمِعَهم كلام الغفار، وحديث المختار، ورسائل العلماء الأبرار . وهم يريدون العولمة بلا حدود ولا قيود ولا بنود ولا عهود ولا شهود . يريدون عولمة بلا ديانة ولا أمانة ولا صيانة ولا رزانة . عولمتهم شاشة لاقطة ، وكلمة هابطة ، وأغنية ساقطة .

نحن نريد العولمة لتحدثنا عن السموات والمجرات والمحيطات والآيات البينات والحكم والعظات لتدلنا على الواحد الأحد منزل البراهين الباهرات .

حرام أن يقتل الكبار الصغار ، برصاص اليورو والدولار .

لا نريد عولمة العميان التي ترسل كالبركان وكأن شيئًا ما كان ، وكأن الأرض ليس بها سكان غير الأميركان .

عندهم العولمة أن يشبع اليونان واليابان والطليان ولو مات من الجوع أطفال الصومال وعجائز السنغال وتوسد البسطاء من الرمال .

يريدون إدخال الفقراء منظمة القات ، ليأكلوا هم القوت ولغيرهم الفتات ، فهم أحياء وسواهم أموات .

لا نريد عولمة الرفق بالكلاب، والرحمة بالقطط والذئاب وصرخات

اليتامى في الأكوان تسد الآذان . وآهات الأطفال في العالم تملأ الأكوان. عولمة ترفع قضية ، على رجل دعس كلبًا بغير قصد ولا نية ، وتبيد البشرية بالقنابل الذريّة .

لا نريد عولمة عندها الجهاد إرهاب، وعلماء المسلمين أحلاف أعراب، وعندها احتلال إسرائيل شرعي ، ودفاع المسلمين بدعي .

عولمة حملت الأقوياء على الضعفاء والأغنياء على الفقراء . فالقائم سدحوه ، والقاعد بطحوه ، والكادح كدحوه ، والحي ذبحوه ، والدم سفحوه ، والفقير رمحوه ، والمسكين مسحوه .

نريد عولمة بالإيمان والقرآن وطاعة الرحمن ومحاربة الطغيان . نريد عولمة ترفع الحيف، وتكرم الضيف ، وتغمد السيف ، وتعطي الرغيف الضعيف ، وتحافظ على الخلق الشريف، والأدب اللطيف، والسلوك العفيف . نريد عولمة تحترم المساجد، وتحافظ على كل عابد زاهد، وتعلن الله واحد .

نحن لا نحارب العولمة إلا إذا حاربت رب العالمين ، وأقصت الدين، وأهملت المرسلين ، وأهانت المؤمنين ، وشطبت من قاموسها إياك نعبد وإياك نستعين .

لا بأس أن نسكن القصر ومعنا سورة العصر ، وأن نركب الطائرة ووجوهنا بالإيمان ناضرة .

أَيُّهَا العَالَم الَّذي حَارَب اللهَ

بِعُودٍ وَشَاشَةٍ وَرَبَابَةٍ

أَنْتَ يَا كَوْنُ فِي مَوَازِينِ رَبِّي

لا تُسَاوِي وَلَوْ عَظُمَت ذُبَابَة

آمنت بالعولمة دعوة ربانية ، ورسالة سماوية ، وآداباً نبوية ، وأخلاقاً مرضيّة ، وصفات علية . وكفرت بالعولمة يوم تدعو للإلحاد ، وتنشر الفساد ، وتظلم العباد ، وتخرب البلاد، وترفع شعار الهيمنة والعناد . وكفرت بها إذا دعت إلى الرذيلة ، وأهملت الفضيلة ، وكانت للاستعمار وسيلة ، وللقهر حيلة .

الياباني يئن ، وعلى التليفون يرن ، ليرفع سعر الين . الأمريكي له خوار ، ينقب في الآثار ، ليسيطر على الأقطار ، ويستعمر الديار ، ويهيمن الدولار .

وقد عرَّفوا العولمة بتعريفات ، أنقل بعضها عن الخواجات .

فقال بيتر ويلتسون: العولمة هي أن تصبح الدنيا الكبيرة قرية صغيرة.

وقال جوزيف آدمز: هي أن نجلس كلنا في غرفة واحدة - يقصد العالم كله .

وقال جورج ويليم : العولمة هي أن لا تعيش وحدك؛ بل يعيش العالم معك .

وقال محرر صحيفة الواشنطن بوست : العولمة هي احتلال لأكبر بقعة في العالم لكن بدون سلاح .

وقال هنري كيسنجر : العولمة لعبة لا يجيدها إلا الكبار ، أما الصغار فسوف يجرون للميدان بقوة .

نكفر بالعولمة إذا حولت المساجد إلى بارات ، والجوامع إلى حانات ، والمجالس إلى مراقص ، والمصحف إلى مجلة ، والحشمة إلى عهر ، والدين إلى رجعيّة .

نعم نريد صعود القمر لنتلو عليه اقتربت الساعة وانشق القمر ، ونريد اختراق الآفاق لنقرأ : سنريهم آياتنا في الآفاق .

نقبل العولمة إذا رفعت لا إله إلا الله وقدست الوحي ووقرت الرسالة، وعظمت الملة، واحترمت المسجد، ودعت إلى الطهر . ونرفض العولمة إذا كفرت بالله وهدمت المنارة ، وألغت الصلاة ، وذمت القيم ، وتمردت على الدين ، وداست الأخلاق .

أنا مع الأبيض والأحمر والأسود والأشقر إذا رفعوا لافتة لا حول ولا قوة إلا بالله. وأنا عدوهم إذا نادوا لا رسالة ولا رسول ولا كعبة ولا مصحف ولا محمد ولا جبريل . أنا عالمي والدليل ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ** ﴾ وإخواني بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي لأنني وإياهم شربنا من معين الوحي واستقبلنا القبلة وحفظنا الفاتحة . وأنا أبغض أبا لهب الهاشمي ، وأبا جهل المخزومي ، وأمية

ابن خلف القرشي، لأنهم حاربوا الله، وأطاعوا الشيطان، وسجدوا للوثن ، ودخلوا حظيرة الكفر .

إن عولمة الأغبياء مرفوضة وهي التي تمنح الامتياز للأبيض ، وتدعو لحفظ كرامة الكلب ، وتنادي بالرفق بالقطط ، وتتبرأ من الأسْود ، وتطرد الفقراء ، وتدوس على المستضعفين .

نريد عولمة مفتاحها من الكعبة ، ووسامها من غار حراء ، ونشيدها من بدر ، وتعاليمها من السماء ، تُبْنَى على العدل وتؤسس على الحق وتنادي بالفضيلة ، وتحبذ الطهر ، وتنهى عن الظلم ، وتأبى الجور .

إن الأرض لله وليست لماركس ولا لينين ولا إستالين ولا ماوسي تنق ولا جورج واشنطن ولا ديقول . إن العالم في قبضة الله وليس ملكًا لحلف الناتو ولا قاعدة للبنْتَاجُون ولا مكتبًا للكرملن . إن القرارات المصيرية تصدر من قاعدة ﴿ **كُن فَيَكُونُ** ﴾ وليس من مجلس الكنجرس ولا من مجلس العموم واللوردات ، ولا من مجلس الأمن ﴿ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ .

إن الكون مذعن لخالقه وليس لطغاة البشر وسفاكي العالم وجلادي الناس ﴿ **لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ .

إن مصانع العولمة لن تنتج ذبابًا واحدًا ، وإن خبراء الدنيا لا يخلقون بعوضة ، وإن عباقرة الاختراع لن يصدّروا نملة ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ** ﴾ .

نريد عولمة تصنع سيارة لا دبابة وقاطرة لا قنبلة وثلاجة لا صاروخًا وتقدم وسائل الحياة لا أدوات الموت . لقد امتلأ العالم موتًا ودمارًا وجورًا وبشاعة نريد عَالمًا يملؤه الإيمان والعدل والسلام والإحسان .

نريد عالمًا ينتج قلمًا ودفترًا وماسة وطبشورة ولا نريد عالمًا يزرع لغمًا وبارودًا وقاذفة ومجنزرة. إن العالم بحاجة إلى لقمة الخبز وجرعة الماء وقطرة الدواء وليس بحاجة إلى مادة «تي إن تي» وإلى غاز الأعصاب والخردل. لا نريد عالم هتلر وموسولين ونبقورين وسلوبودان ملوسفتش وبرحنيف ويلتسن . بل نريد عالم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ** ﴾ .

لا نريد عالمًا من أيامه دير ياسين وصبرا وشاتيلا وقانا والبوسنة والهرسك وقروزني وحلبجة .

نريد عالمية مكة حيث الوحي ، والمدينة حيث الرسالة ، والقدس حيث الإسراء والمعراج وطور سيناء ديار الكليم . ولا نريد عالمية هوروشيما حيث الدمار، ولا نجزاكي حيث الفناء، ولا فيتنام حيث الموت .

لماذا تُقَدِّم العولمة دفاتر ديكارت وبيكن وسارتر وإنشتاين ونيوتن؟ ولماذا ترفض قائمة صلاح الدين ومحمد الفاتح وابن تيمية ومحمد بن عبدالوهاب؟ . ﴿ **أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ** ﴾

رسالتنا عالمية للجن والإنس . ورسولنا عالمي للأبيض والأسود . وقرآننا عالمي للثقلين . وإسلامنا للناس كافة . وقبلتنا للدنيا جميعًا .

فنحن الناس ولنا الزمان والمكان وعندنا القرآن وإلهنا الرحمن . ونحن بعثنا للإنس والجان ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . ﴿ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ ، يريدون عولمة تفصل الأرض عن السماء ، والدنيا عن الآخرة، والدين عن الحياة، والمسجد عن المصنع، والروح عن الجسد وهذه جناية كبرى وخطيئة عظمى .

يا من صعد إلى الكواكب أما سألت نفسك من الذي كوكبها ، يا من وصل النجوم أما ناداك قلبك من الذي ركبها ، ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ .

أيها الغرب نحن الشرق حيث صلى الأنبياء ، وتهجد المرسلون ، وسبح الخليل ، وأخرج موسى يده بيضاء وتكلم عيسى في المهد ، ووصل محمد سدرة المنتهى ، وبكى عمر ، وأعتق سلمان ، وأذن بلال، وغرق فرعون ، وخسف بقارون ، وسحق النمرود .

هل عرفتمونا الآن ؟ .

* * *

■ مقامـــة الفــراق ■

﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾

لَقَـدْ لامَنِي عِنْدَ القُبُـورِ عَلَى البُكَا
رَفِيـقِي لِتِـذْرَافِ الدُّمُـوعِ السَّـوَافِكِ
أَمِنْ أَجْلِ قَـبْـرٍ بِالـمـلا أَنْتَ نَائِحٌ
عَلَى كُلِّ قَـبْـرٍ أَوْ عَلَى كُلِّ هَالِكِ
فَـقَـالَ: أَتَبْكِي كُلَّ قَـبْـرٍ رَأَيْتَـهُ
لِقَـبْـرٍ ثُوى بَيْنَ اللِّوى فَـا لدكـاكِ
فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ الشَّجَا يَبْعَثُ الشَّجَا
دَعُـونِي، فَـهـذَا كُلُّهُ قَـبْـرُ مَـالِكِ

الموت هادم اللذات، ومفرق الجماعات، ميتم البنين والبنات، مخرب الديار العامرات، أسقى النفوس، مرارة الكئوس، وأنزل التيجان من على الرءوس، نقل أهل القصور إلى القبور، وسلّ على الأحياء سيفه المنشور، ألصق الخدود باللحود، وساوى بين السيد والمسود، زار الرسل والأنبياء، وأخذ الأذكياء والأغبياء، فاجأ أهل

الأفـراح بالأتراح ، ونادى فـيـهم الرواح الرواح ، كم من وجـه بكفـه لطمه، وكم من رأس بفـأسه حطّمه ، يأخذ الطفل وفـمه في ثدي أمِّه، ويخنق النائم ورأسـه على كمِّه، يـنـزل الفارس من على ظهـر الفرس ، ويقتلع الغارس وما غـرس، يخلع الوزير من الوزارة ، ويحطّ الأمير من الإمارة ، إذا اكتـمل الشاب، وماس في الثيـاب ، وصار قوي الجناب ، يُرجى ويهاب، عـفّر أنفه في التراب، يدوس ذا البـأس الشديد ، والرأي السديد ، ويبطح كل بطل صنديد ، ولو كان خالد بن الوليد ، أو هارون الرشيد، يسحب الملوك من العروش ، ويركب الجيوش على النعوش ، أسكت خطباء المنابر ، وأذهل حـملة المحابر ، وشـتت أهل الدفاتر ، وطرح الأحياء في المقابر ، كسر ظهور الأكاسرة ، قصّر آمال القياصرة، زلزل أسـاس ساسـان ، وما سلـم منه سليمـان، ومـا نجا منه قـحطان وعدنان، صبّح ثمود وعاد ، وخرّب دار شداد وما شاد ، وهدم إرم ذات العـماد ، التي لم يخلق مـثلهـا في البلاد، لا يتـرك السلاطين ، حـتى يوسدهم الطين ، لا تظن أنك منه ناج، ولو سكنت الأبراج .

وَهَذهِ الدَّارُ لا تُبْـقِي عَلَى أحَـدٍ
وَلا يَدُومُ عَلَى حَـالٍ لَهَـا شَـان

أَيْنَ الـمُلُوكُ ذَوُو التِّيـجَانِ مِنْ يَمَنٍ
وَأَيْن مِنْهُم أَكَـالِيلٌ وَتِيـجَـان

وَأَيْنَ مَـا شَـادَهُ شَـدَّاد فِي إِرَمٍ
وَأَيْنَ مَا سَاسَهُ فِي الفُرْسِ سَاسَانِ
وَأَيْنَ مَـا حَـازَهُ قَـارُون مِنْ ذَهَبٍ
وَأَيْنَ عَـاد وشَـدَّاد وقَـحْطَان
أَتَى عَلَى الكُلِّ أَمْـرٌ لا مَـرَدّ لَهُ
حَتَّى قَضَوْا فَكَأَنَّ القَوْمَ مَا كَانُوا
وَصَـارَ مَا كَـانَ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ مَلِكٍ
كَمَا حَكَى عَن خَيَالِ الطَّيْفِ وَسنان

الموت ينادي كل صباح: الرواح الرواح، ويصيح كل مساء: يا حسرة على الأحياء، ويقول للناس: لِدوا للموت وابنوا للخراب، فكلكم يصير إلى ذهاب، يا من أعجبه شبابه ، وألهته ثيابه ، وأحاط به حرسُهُ وحجابُه، أنسيت الموت وقد وصلك ركابُه، يا من أشغله السكن، وحب الوطن، وأمن المحن، كأنك بالموت زارك، وهدم دارك .

سَـتَنْقُلُكَ المَنَايَا عَنْ دِيَارِكَ
وَيُبْـدِلُكَ البِـلا دَاراً بِدَارِكَ
فَـدُودُ القَبْـرِ فِي عَـيْنَيْكَ يَرْعَى
وَتَرْعَى عَـينُ غَـيْرِكَ فِي دِيَارِكَ

الموت كأس يدور على الأحياء ، لا بد أن يشربه أبناء حواء ، الموت ليس له موعد مناسب ، فهو يأتي القاعد والماشي والراكب ، في ليلة الزفاف ، إذا اجتمع الأضياف ، يقدم الموت بحشوده ، ويهجم بجنوده ، يأخذ العريس أو العروس ، لأن مهمته قطف النفوس ، يهنأ الإنسان بالإمارة ، ويبارك له بالوزارة ، ثم يشنّ عليه الموت الغارة .

يولد المولود ، ويعود المفقود ، ثم يفجؤ الموت الجميع بروعته، فتمتزج بسمة المحب بدمعته . يكتمل الاجتماع ، ويلتقي الأحباب من كل البقاع ، فإذا تمت السعاده، وكل قلب بلغ ما أراده ، وصل الموت ففرق الجمع ، وأسبل الدمع .

هُوَ المَوْتُ مَا مِنْهُ مَلاذٌ وَمَهْرَبُ
مَتَى حَطَّ ذَا عَنْ نَعْشِهِ ذَاكَ يَرْكَبُ
نُؤَمِّلُ آمَالاً وَنَرْجُو نَتَاجِهَا
وَعَلَّ الرَّدَى مِمَّا نُرَجِيهِ أَقْرَبُ

وقف أحد الصالحين على المقابر ، ودمعه يتناثر ، فقال : يا موت ماذا فعلت بالأحباب ؟ وماذا صنعت بالأصحاب ؟ ثم أجاب نفسه بنفسه، فقال: يقول الموت : أكلت الحدقتين ، وأفنيت العينين ، ونهشت الشفتين، وقطعت الأذنين، وفصلت الكَفَّيْنِ من الرسغين ، والرسغين من الساعدين ، والساعدين من العضدين ، والعضدين من

الكتفين ، وفصلت القدمين من الكعبين ، والكعبين من الساقين ، والساقين من الفخذين ، والفخذين من الوركين .

أَتَيْتُ القُبُورَ فَنَادَيْتُهَا
أَيْنَ المُعَظَّمُ وَالمُحْتَقَر
تَفَانَوْا جَمِيعًا فَمَا مُخْبِر
وَمَاتُوا جَمِيعًا وَمَاتَ الخَبَر
فَيَا سَائِلي عَنْ أُنَاسٍ مَضَوْا
أَمَا لَكَ فِيمَا مَضَى مُعْتَبَر
تَرُوحُ وَتَغْدُو بَنَات الثَّرَى
فَتَمْحُو مَحَاسِنَ تِلْكَ الصُّور

إذا رأيت قصرًا مشيدًا ، وملكًا عتيدًا ، وبأسًا شديدًا ، فتذكر الموت فإذا القصر تراب، والملك خراب، والبأس سراب .

إذا رأيت امرأة حسناء، أو حديقة غنّاء، أو روضة فيحاء ، فتذكر الموت فإذا الحسن مسلوب ، والجمال منهوب .

فضح الموت الدنيا ، فلم يدع لذي لب فرحًا ، ولكن أين من صحا، وأصلح فصار مُفْلِحًا .

بَيْنَا تَرى الإِنْسَانَ فِيهَا مُخْبِراً
أَلْفَيْتَهُ خَبَراً مِنَ الأَخْبَارِ
طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا
صَفْواً مِنَ الأَقْذَارِ والأَكْدَارِ

ويل لمن أشغله ماله، وألهاه جماله ، وصده عياله . متى الإفاقة يا من بحب الدنيا مخمور ، وببهرجها مغرور ، أما تذكر إذا بعثر ما في القبور وحُصِّل ما في الصدور؟ .

أين من رفرفت عليهم الرايات ، ورفعت لهم العلامات ، وأقيمت لهم الحفلات ، وانعقدت لهم المهرجانات؟ .

صَاحِ ! هَذِي قُبُورُنَا تَمْلأُ الرَّحْـ
ـبَ فَأَيْنَ القُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ ؟
خَفِّفِ الوَطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الأ
رْضِ إِلا مِنْ هَذِهِ الأَجْسَادِ
سِرْ إِنِ اسْتَطَعْتَ فِي الهَوَاءِ رُوَيْداً
لا اخْتِيالاً عَلَى رُفَاتِ العِبَادِ
رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْداً مِرَاراً
ضَاحِكٍ مَن تَزَاحُمِ الأَضْدَادِ

وَدَفِينٍ عَلَى بَقَايَا دَفِينٍ
فِي طَوِيلِ الأَزْمَانِ وَالآبَادِ
تَعَبٌ كُلُّهَا الحَيَاةُ فَمَا أَعْـ
ـجَبُ إلا مِنْ رَاغِبٍ فِي ازدِيَادِ
إِنَّ حُزْنًا فِي سَاعَةِ المَوْتِ أَضْعَا
فُ سُرُورٍ فِي سَاعَةِ المِيلادِ

أين من وَلِي وعزل ؟ وأين من ظلم وأين من عدل ؟ وأين من سجن وجلد وقتل ؟ أين من حفت به الجنود ، واجتمعت عليه الحشود ، وخفقت على رأسه البنود؟ أين من دارت عليه الكئوس ، وانخلعت من هيبته النفوس، وطارت بأوامره الرءوس؟ أين من جمع ومنع ، ووصل وقطع، واغتنى وافتقر ، وهزم وانتصر ؟ .

بَاتُوا عَلَى قُلَلِ الأَجْبَالِ تَحْرُسُهُمْ
غُلْبُ الرجالِ فَمَا أَغْنَتْهُمْ القُلَلُ
وَاسْتَنْزَلُوا بَعْدَ عِزٍّ مِنْ مَعَاقِلِهِمْ
إِلَى مَقَابِرِهِمْ يَا بِئْسَ مَا نَزَلُوا
تِلْكَ الوُجُوه الَّتِي كَانَتْ مُحَجَّبَةً
مِنْ دُونِهَا تُضْرَبُ الأَسْتَارُ وَالحُلَلُ

لَطَالَمَا أَكَلُوا يَوْمًا وَكَمْ شَرِبُوا
فَأَصْبَحُوا فِي لُحُودِ الأَرْضِ قَدْ أُكِلُوا

بعض السلف ذكر الموت فخارت قواه ، وصاح أوّاه، وبعضهم كاد أن يطير لبه ، وأن يتفطر قلبه .

إذا رأيت الإخوان والجيران والخلان ، **فتذكر كل من عليها فان .**

إذا أبصرت البستان والأفنان والأغصان ، **فتذكر كل من عليها فان .**

إذا شاهدت القصور والدور والحبور والسرور فتذكر: يوم يبعثر ما في القبور ، ويحصل ما في الصدور .

الله سمّى الموت مصيبة، وأنت عنه في غيبة، أخذ القوي والضعيف، والوضيع والشريف، والغالب والمغلوب، والسالب والمسلوب، قبر الغني جوار قبر الفقير، وقبر المأمور بجانب قبر الأمير.

الموت مباغت لا يستأذن ، ومهاجم لا يُؤمَن ، لا يترك شابًّا ليكتمل شبابه ، ولا صاحبًا ليتمتع به أصحابه، ولا حبيبًا يستأنس به أحبابه، يفصّل الثوب فيأخذ صاحبه قبل أن يلبس ، ويبنى المجلس فيخترم الموت الباني قبل أن يجلس ، تزف المرأة لزوجها فيهاجمه الموت ليلة الزواج، يزرع الزارع فيختلسه الموت قبل النتاج، الموت له صور وأشكال ، ومشاهد وأحوال، مرة يقتل بسيف أو برمح، أو داء أو جرح، أو بعرق ينبض ، أو بعضو يمرض ، أو بحرب هائلة ، أو مجاعة قاتلة،

المهم أنه لا بد منه ، ولا محيص عنه ﴿ **قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ** ﴾ يصبّحكم أو يـمسّيكم ،﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ** ﴾ ، أو دونكم جنود مؤيّدة ، كل شيء هالك إلا وجهه الكريم ، وكل حي فانٍ إلا الحي القيوم .

الموت يسقط الطيور ، ويخطف الصقور ، ويلتهم النسور ، يصيد الموت كل عائمة ، ويدرك كل هائمة، ويجتاح كل سائمة ، يزحف على الحيوانات ، والعجماوات ، والحشرات ، يدخل القصور والأكواخ، ويصرع الأطفال والأشياخ ، فسبحان من خلق الموت آية، وجعله نهاية، وصيره لكل حي غاية . ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ** ﴾

زار الرسل والأنبياء ، ووفد على الأصفياء والأولياء ، وطاف على الحكماء والعلماء والأدباء والشعراء ، فسقى الجميع بكأسه، وهشم الكل بفأسه، فلا صاحب القصر نجا، ولا محب الدنيا عمّر ولو رجا ، ولا الكاره له سلم منه ولو ذمّه وهجا ، ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ** ﴾ .

نُعِدُّ المَشْرَفِيَّةَ وَالعَوَالِي
وَتَقْتُلُنَا المَنُونُ بِلا قِتَالِ
وَنَرْتَبِطُ السَّوَابِقَ مُقَرَّبَاتٍ
فَمَا يُنْجِينَ مِن خَبَبِ اللَّيَالِي

أخرج المـوت وساوس ساسان، ومـا سلم منه سليمان، وخـرّب ما شيده وشاده شداد، وعاد بالكسر على عود ثمود وعاد ، وحط قحطان ، وأعدم عدنان .

المَـوْتُ يفْـجُـؤ بَعْـدَ العَيْـنِ بـالأَثَرِ
فَـمَـا البُكَاءُ عَلَى الأَشْبَـاحِ والـصّـورِ
أَنْهَـاكَ أَنْهَـاكَ لا آلُوكَ مَـوْعِظَةً
عَنْ نَـوْمَـةٍ بَين اللَّيْثِ والظَّفَـرِ
هِيَ المَنَايَا وَقَـاكَ اللهُ سَطْوَتَهَـا
دَكَّتْ عُـرُوشَ ذُو التِّيجَـانِ والـخَطَرِ
وَمَـرَّغَت قَـيْصَـر الـرُّومِي وَدَوْلَتَـهُ
وَأَلْصَقَت خَد كِسْرَى أَضْيقَ الحُفَر
لَيْتَ المَنَايَا رَعَت مَنْ كَانَ ذَا هِمَمٍ
وَزَلْزَلَـت أَشْبَـه الأَحْيَـاءِ بِالبَقَـرِ
وَلَيْتَـهَـا إِذْ فَـدَت عُـمَـرًا بِـخَارِجَـة
فَـدَتْ عَلِيًّـا بِمَنْ شَـاءَتْ مِنَ البَشَرِ

وَابْنُ الزُّبَيْرِ أَتَى بِالبَيْتِ مُحْتَمِيًا

فَمَزَّقَتْهُ بِقُرْبِ الرُّكْنِ والحِجْرِ

قَدْ ذَاقَهَا أَنْبِيَاءُ اللهِ مَا سَلِمُوا

مِنْ فَتْلِهَا فَاعْتَبِر مَا جَاءَ فِي السِّيَرِ

دَعِ اللَّيَالِي مَعَ الأَيَّامِ تَصْحَبُنَا

فَالبِيض والسُّمر مِثْلَ البِيضِ والسَّمرِ

وهذه قصة إعدام لأحد الأعلام نسوقها لذوي الأفهام ، وهي قصيدة من أجمل المراثي إن لم تكن أجملها قالها الأديب العالم الشاعر أبو الحسن الأنباري في الوزير العباسي ابن بقية الذي قتله السلطان عضد الدولة وصلبه ببغداد ظلمًا وعدوانًا وبغيًا وحسدًا فارتجت بغداد بكاءً وعويلاً على وزيرها المنفق الكريم المتصدق صاحب الأيادي البيضاء . وقام أبو الحسن الأنباري أصالة عن نفسه ونيابة عن الرجال والنساء والأطفال والأرامل من أهل بغداد وقدم هذه التعزية للوزير المقتول المصلوب المُفْتَرَى عليه الذي سلبت منه حياته واغتصبت منه روحه وسرقت منه أيامه الخالدة ، يخاطبه وجهًا لوجه وهو على خشبة الموت مقطع الأوصال ممزق الثياب معفّر الوجه قاتم المحيا ثائر الرأس تتقاطر دماؤه على الأرض ، وقد قابل الجمهور بقامته المهيبة ومدّ يديه المسمرتين على الخشبة كأنه يحيي ويشكر ويحضن محبيه . والقصيدة لا

تحتاج إلى شرح ولا إلى تعليق؛ لكن تحتاج إلى تأمل وتوقف وإنصات، وهي فائقة إلى درجة أن القاتل وهو عضد الدولة سمعها فبكى وأرسل دموعه وقال : وددت لو أنني قُتِلتُ وصُلِبْتُ وقِيلَت فيَّ هذه القصيدة .

والآن إليكم هذه القصيدة الماتعة الرائعة :

عُلُوٌّ فِي الحَيَاةِ وَفِي المَمَاتِ
لَحَقٌّ أَنْتَ إِحْدَى المُعْجِزَاتِ

كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَكَ حِينَ قَامُوا
وُفُودٌ ندلك أَيَّام الصِّلات

مَدَدْتَ يَدَيْكَ نَحْوَهُمُ احْتِفَاءً
كَمَدِّهِمَا إِلَيْهِم بِالهِبَاتِ

وَلَمَّا ضَاقَ بَطْنُ الأَرْضِ عَنْ أَنْ
يَضُمَّ عُلاكَ مِنْ بَعْدِ الوَفَاةِ

أَصَارُوا الجَوَّ قَبْرَكَ وَاسْتَعَاضُوا
عَنِ الأَكْفَانِ ثَوْبَ السَّافِيَاتِ

لعظمك فِي النُّفُوسِ تَبِيتُ تَرْعَى
بِحُرّاسٍ وَحُفَّاظٍ ثِقَاتِ

وَتُوقَد حَولَكَ النَّيِّراتِ لَيْلاً
كَذلِكَ كُنْتَ أَيَّامَ الحَياةِ
رَكَبْتَ مَعَسَةِ منْ قَبْلِ زَيْدٍ
عَلاهَا فِي السِّنينِ المَاضِياتِ
وَتِلْكَ قَضِيَّةٌ فِيهَا تَأَسٍّ
تُبَاعِدُ عَنْكَ تَعْيِيرَ العُدَاةِ
وَلَمْ أَرَ قَبْلَ جِذْعِك قَطُّ جِذْعًا
تَمَكَّنَ مِنْ عِنَاقِ المَكْرُمَاتِ
أَسَأْتَ إلى النَّوَائِبِ فَاسْتَثَارَتْ
فَأَنْتَ قَتِيلُ ثَأْرِ النَّائِبَاتِ
وَصَيَّرَ دَهْرَكَ الإِحْسَانَ فِيهِ
إِلَيْنَا مِنْ عَظِيمِ السَّيِّئَاتِ
وَكُنْتَ لِمَعْشَرِ سَعْدًا فَلَمَّا
مَضَيْتَ تَفَرَّقُوا بِالمُنحِسَاتِ
غَلِيل بَاطِن لَكَ فِي فُؤَادِي
يُخَفِّفُ بِالدُّمُوعِ الجَارِيَاتِ

وَلَوْ أنِّي قَدِرْتُ عَلَى قِيَامٍ
بِفَرْضِكَ والحُقُوق الوَاجِبَاتِ
مَلأتُ الأَرْضَ مِنْ نَظْمِ القَوَافِي
وَبُحْتُ بِهَا خِلافَ النَّائِحَاتِ
وَلَكِنِّي أُصَبِّرُ نَفْسِي
مَخَافَةَ أَنْ أُعَدَّ مِنَ الجُنَاةِ
وَمَالكَ تُربَةٌ فَأَقُولُ تَسْقِي
لأَنَّكَ نَصبُ هَطْلِ الهَاطِلاتِ
عَلَيْكَ تَحِيَّةَ الرَّحْمَنِ تَتْرى
بِرَحَمَاتٍ غَوَادٍ رَائِحَاتِ

* * *

■ الخاتمة ■

﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾

أيها الناس أستودع الله دينكم وأمانتكم وخواتيم أعمالكم ، سبحان ربكَ ربِّ العزة عما يصفون وسلامٌ على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

▪ كتب للمؤلف ▪

١- لا تحزن - باللغة العربية والإنجليزية - .

٢- حدائق ذات بهجة .

٣- العظمة .

٤- ترجمان السنة .

٥- سياط القلوب .

● وقريباً إن شاء الله :

١- بهجة التفاسير .

٢- مفتاح النجاح .

٣- حصاد المطالعة .

٤- هل تقتل ابنك؟ .

٥- خواطر موحد .

ويوجد على شبكة الإنترنت مواقع للكتب التي صدرت والله أعلم.

* * *